



اللواء الطيار
عبد الله السعدون



عشت سعيداً من الدراجة إلى الطائرة

Twitter: @abdullah_1395
14.10.2012



اللواء الطيار
عبد الله بن عبد الكريم السعدون

عشت سعيداً من الدراجة إلى الطائرة

2009

المركز الثقافي العربي



عبد الله بن عبد الكريم السعدون

عشت سعيداً

اسم الكتاب

عشت سعيداً

تأليف

عبدالله بن عبد الكريم السعدون

الطبعة الأولى 2009

عدد الصفحات: 448

الترقيم الدولي

ISBN: 978-9953-68-347-6

جميع الحقوق محفوظة

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 2303339 - 2307651

فاكس: 2305726 - 212 2 +

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت - لبنان

ص.ب: 5158 - 113 الحمراء

شارع جاندارك - بناية المقدسي

هاتف: 01750507 - 01352826

فاكس: 01343701 - 9611 +

www.ccaedition.com

Email: cca@ccaedition.com

cca_casa_bey@yahoo.com

إهداء

أهدي هذا العمل المتواضع إلى من لهما أكبر الأثر في حياتي
نورة والدتي عليها رحمة الله وسلطانة زوجتي سلمها الله .

مقدمة

من حق أجيال الحاضر والمستقبل أن تعرف شيئاً عن الماضي القريب لبلادها بحلاوته ومرارته، بنعيمه وشظف عيشه، بقصص النجاح مهما كانت متواضعة، وبقصص الإخفاق مهما كانت مؤلمة. لهذا الوطن الصغير والكبير علينا حق أن نعلمه وأن نحافظ على منجزاته وأن نسلمها لمن بعدنا أفضل مما كانت. يقول مثل صيني لتعمر الأرض عليك القيام بثلاثة أمور: أن تزرع شجرة، وأن تكون أسرة، وأن تكتب كتاباً. ومن السهولة أن تكون أسرة، وأن تزرع شجرة، ولكن من الصعب أن تكتب كتاباً فيه صدق الواقع وروح التجديد ومقومات البقاء. الكتاب الجيد بحاجة إلى جهد مضاعف وبحث واستقصاء، وقبل هذا كله تحديد ماذا يراد من الكتاب.

ما كتبت ليس سيرة ذاتية تماماً، وإنما هو بعض أصداء الذات الخاصة مع دروس وتجارب وقراءات تتجاوز الذات إلى الإنسانية أينما وجدت. عشت حياة كلّها كفاح وعنت، وزادها تماسكاً شظف العيش والحاجة، فكانت النتيجة لذة السعادة والمحافظة على الصحة والسعي الحثيث للنجاح. وتكلل الجهد بنجاح واضح على جميع المستويات الشخصية والمهنية والاجتماعية. لدي أسرة صغيرة ناجحة، جميعهم متفوقون في الدراسة والعمل، وزوجة حانية أدلّها كثيراً فترد هذا الجميل مضاعفاً.

قاربتُ الستين عاماً ومع هذا أستمتع بحيوية الشباب ونشاطه، لا أشتكي من أمراض العصر وضغوطه. لديّ من كل شيء ما يكفي، وأعيش أسعد الأوقات فأستثمرها حباً ومرحاً. وتمر بي أصعبها فأزداد عزيمة وقوة. لست واحداً من قادة العالم وصناع تاريخه، لكنني أسهمت بما استطعت فصرت من أسعد سكان هذا الكوكب الواسع.

لقد قرّرت أن أكتب قصة هذا الكفاح الناجح، علّها تكون ممتعة أو مفيدة مهما رأيتها متواضعة؟ أليست قابلة للتدبر والتأثير، وعلى الأخص عند من هم على وشك خوض معترك الحياة؟ قد يجد فيها الأب والزوج بعض ما قد يعينهم على مستلزمات التربية وأدواتها ومصاعب الحياة ومنغصاتها.

صفات مكتسبة قبل أن تكون موروثه، وثقافة أمدتني بمفاتيح النجاح وأساراه على أكثر من صعيد، قابلة للتعلم والنفع إذا وجدت البيئة والرغبة والمعرفة والانضباط. وإذا لم أضعها بكلّ أمانة أمام الآخرين فستموت معي كما تموت ملايين الأشجار كلّ عام.

بعد التقاعد أحاطني الزملاء بالمحبة النابعة من القلب والتقدير الذي لا رياء فيه. حتى الهدايا التي ترمز إلى الوفاء والحب ظلت تصلني حتى بعد عام من التقاعد، ألا يستحق كل هذا ولو شيئاً من رد الجميل؟

حبي للناس وتألّمي لما أرى زادني إصراراً على الكتابة عن حياتي وتقليب صفحاتها الخاصة والعامة أمامهم.

سألوني عن أسباب النجاح: هل هو الحظ؟ قلت: لا. هل هو

الاستقامة؟، أجبني: ربما. هل رضا الوالدين ودعاؤهما؟ قلت: ربما. هل هو التخطيط وبذل الجهد والمثابرة؟ أجبني: ربما. هل كثرة القراءة والاطلاع أوجدت قناعات وفلسفة خاصة تجاه الحياة؟ أجبني: ربما لا شيء وحده سبب النجاح.

لأكتب الكتاب، استمعت إلى أصدقاء ذاتي وبيئتي وما مرّ بي من أجواء متباينة واستعنت بعشرات الكتب والمراجع التي تتحدث عن السعادة وفنّ القيادة والنجاح، لعلني أهتدي إلى الأسباب الحقيقية للسعادة والنجاح، وسجلت الكثير في مسودة الكتاب وحذفت بعض الفقرات الخاصة، وقلت: هذه سأشرها في الفضاء الرحب.

أؤمن بأن النجاح مثل قمة الجبل، في أحيان كثيرة يحجبها الضباب، واضحة لمن يثابر ويطلق النظر ويرفع بصره عالياً ويكون الصعود إليها ضمن أهدافه، لكن الطريق إليها ليست يسيرة. أكثر الناس يعيش على سفوح الجبال، وبعضهم يجد المنحدر أسهل فيسلكه بدلاً من الطريق الصاعد، فيقوده المنحدر إلى هاوية يصعب الخروج منها.

الطريق إلى القمة تعترضه الصخور والأشجار الملتفة، وتهبّ العواصف في فصل الصيف وتتساقط الثلوج في مواسم الشتاء، لكن للقمة حلاوتها وهواؤها النقي.

قلّة من الناس جعلوا القمة هدفاً. بعضهم يمشي مكباً على وجهه فيصير كل حجر أمامه عثرة، أما الناجح فيرى الحجر أمامه فيقفز فوقه كدرج يؤدي إلى مزيد من الصعود.

قلّة هم الذين أخذوا بأسباب النجاح ورسموا الأهداف وتحملوا المشاق، لم يابهاوا للتعب بل وجدوا فيه لذة وتحدياً. عرفوا أن

الصبر والأمل سلاح، والوصول للمجد متاح، والعمل الدؤوب هو أقصر الطرق المؤدية إليه.

في قمة الجبل ترى بعيداً، ويطيب الهواء ويرهف الإحساس، وتزورك الطيور ونسائك الجبل. من قمة الجبل تحكم على الأمور بشكل أفضل. لكن لا تنس أن تمد حبال الأمل للآخرين، واصرخ بين وقت وآخر لعل الصخور تنقل صداك للآخرين.

طريق النجاح بحاجة إلى مؤن من الحب والتسامح والمعرفة والانضباط. ومن يريد النجاح عليه أن ينظر أبعد من موطئ قدميه، عليه برسم الأهداف وقوة العزيمة والإصرار وإتقان ما يعمل وعدم اليأس وألا يستمع لكلام المشبطين.

النجاح شيء نسبي، أن تربي طفلاً وتراه ناجحاً، يعد نجاحاً، أن تزرع عادة طيبة في المجتمع نجاح، أن تضيء شمعة في دروب الظلام نجاح، أن تصرخ في وجه الظالم نجاح، أن تقود أمة للنصر والرخاء نجاح.

لم أكتب لشهرة أو مال، لكن لأساهم في بناء جسر يعبر فوقه تائه ينظر إلى الضفة الأخرى ولا يعرف الطريق. ضفة الإيمان والحب والنجاح والصحة والغنى ولذة البذل والكفاح. رحلة النجاح تبدأ من داخل الإنسان أولاً ثم تنطلق مجتازة بيته الصغير. حاولت أن يكون الكتاب نبعاً صافياً من شرب منه نبذ العنف وحارب الفساد، وجعل من قلبه واحة حب، وجعل من يده كنز عطاء.

إنني إذ يهمني أن يرضى الناس عما في الكتاب، فإنني وضعت فوق ذلك رضا الله أولاً، ثم البحث الجاد عن الحقيقة وإيضاحها

أينما وجدت وتوظيفها، للنهوض بالإنسان الذي هو أساس نهضة الأمة.

عندما قال الفيلسوف اليوناني (هراقليطس) «إنك لا تضع قدمك في النهر مرتين» فهو يعني أن الحركة سرّ هذا الوجود. ولن تتاح نفس الفرصة مرّة ثانية.

لم يجاوز الحقيقة رئيس وزراء ألمانيا وموحّدها بسمارك عندما قال: «الأغبياء فقط هم من يتعلمون من تجاربهم، أما أنا فسأحاول جاهداً أن أتعلم من تجارب الآخرين».

في هذه التجربة نجاحات وإخفاقات، لكن النجاحات أكثر، ومعظمها قابل للتطبيق على المستوى الشخصي والأسري والعملي.

مع كل إنسان ناجح نزداد قوة، مهما تواضع هذا النجاح. ألم تسمع المثل الشعبي (العصفور يهزغ الرشا) ومعناه أن هذا الطائر بحجمه الصغير إذا حظّ على ذلك الحبل الغليظ الممتد حناه إلى أسفل. دعوة من التراث أن تعمل ولا تحتقر أي عمل ناجح مهما صغر.

كما نعمل نكون. يقول ﷺ: تعودوا الخير فإن الخير عادة والشرّ لاجابة.

سئل أحدهم: كيف أصبح سعيداً؟ فقال: عوّد نفسك أن تكون سعيداً.

لم يفتك القطار بعد لتركب عربة الناجحين، غير فالتغيير هو سرّ هذا الكون، لكنه بحاجة إلى إقناع وشجاعة وتخطيط ورسم أهداف ومثابرة.

أمّا بعد، وقبل أن أدخل في سفر حياتي، لا بد لي من القول إنه

لم يكن لهذا العمل أن يخرج إلى القارئ بهذا الشكل لولا تضافر جهود كثيرة، أولها توفيق الله وعونه، ثم انتمائي إلى وطن كريم معطاء أغدق عليّ النعم منذ عرفت الحياة. وحسن الصدف التي أتاحت لي فرصة العيش بين جيلين وزمنين. وأم جمعت بين العطف والقوة، فعوضتني عن غياب الأب المبكر، عليها رحمة الله وجزاها الله عني كلّ خير. ولا أنسى زوجتي سلطانة التي رافقتني في محطات كثيرة وكانت لي خير معين على إنجاز هذا العمل ومراجعته. والشكر لأبنائي نايف وثامر وفيصل الذين شجعوني وأسعدوني بتفوقهم. وإلى بناتي دانة ونورة ومشاعل والجوهرة اللاتي أسعدنني في مسيرتهن الناجحة.

والشكر لكل من تفضل بمراجعة مسودة الكتاب وتصحيح أخطائه النحوية ومنهم الدكتور عبد الله بن سليم الرشيد وأخوه عبد السلام والأستاذ إبراهيم البليهي والدكتور خالص جلبي والدكتور إبراهيم التركي والدكتور أنور القضيّب والصحافي الناجح بدر الخريف والدكتور الصادق قسومة من تونس الذي أعجبه العمل فشرع في ترجمته إلى اللغة الفرنسية.

والشكر الجزيل لكثير من الزملاء الذين داوموا على قراءة ما أكتب في مطبوعات القوات الجوية وما بعدها فكانوا مصدر تشجيع وإلهام.

للجميع كلّ شكر وتقدير.

في 3 / 8 / 1429

الموافق 4 / 8 / 2008

مدينة الرياض

صراع من أجل البقاء

من بين مجموعة من الأطفال يسبحون في بئر، أقبلت أمي وانتزعتني من يدي، قالت لي: لا أريدك أن تسبح في هذه البئر، أتریده أن يكون سبباً في موتك كما كان سبباً في موت أبيك؟ كانت هذه أول معرفتي باليتيم، عشت يتيماً والولد الوحيد لوالدتي. لي أخت تكبرني بأربع سنوات. رزقت أمي بولد مات قبل إكمال عامه الأول بسبب مرض الحصبة التي لم يكن لها علاج كبقية الأمراض في ذلك الوقت.

يقول أحد كبار السن: كانت الحياة قاسية، الجوع مقيم في كل بيت، والمرض يمهل الأطفال حتى يزداد عددهم ليزورهم دفعة واحدة. يتركهم سنين حتى إذا رأهم يلعبون في أزقة القرية وبساتينها ورأى بعضهم على أكتاف أمهاتهم، مرّ عليهم وهو في طريقه للقرى المجاورة. يزورهم الوباء كما تزورهم الرياح والأمطار، يبدأ من أحد أطراف القرية ثم ينتشر كالنار في حقل ينتظر الحصاد، وبعد كل جولة من أحد الزائرين غير المرحّب بهم، تكون الحصييلة موت ثلاثة أطفال أو أربعة من خمسة ومن بقي منهم على قيد الحياة فلا بد أن يترك فيهم أثراً يدل عليه، فهذا فقد عينه إن كان الزائر هو الجدري، وذاك أحاله مرض الكوليرا إلى خيال أصفر، وآخر

نفخت بطنه الملاريا، وبعضهم تستمر الحمى بزيارته في أوقات محددة قد تنتهي بالوفاة.

يقول أحد أبناء البادية الذين يسكنون على أطراف البلدة ويشغلون برعي الغنم وبيع إنتاجها في سوق البلدة يوم الجمعة: ترك والدي عواض القرية بحثاً عن الرزق وترك زوجته ومعها ستة أطفال، وحلّ المرض ضيفاً ثقيلاً في غيابه ليلتهم الأم والأطفال الستة جملة واحدة، وبعد أن حضر والدي وأناخ مطيته، اشم رائحة الموت وغباره، عرف أن عاصفة الموت مرّت من هنا، فعاد أدراجه من حيث أتى ليس معه من متاع سوى الناقة والبندقية، ليتزوج بأخرى صغيرة هي أمي، يضمها إلى الناقة والبندقية، ويبدأ رحلة الأمل والحياة من جديد. منحته الصدمة مناعة ضد ما يأخذ منه الزمان، صار يرى الحياة صفحات تقلّبها أصابع الزمن، وكلما أخفى الزمان صفحة فتح المستقبل صفحات. كان شاعراً وصار يكثر من أشعار الرثاء والغزل.

يقول أحد معمرى القرية: كان عمري حوالى ثماني سنوات عندما داهم الزائر القرية: كنت أعيش مع والدتي وزوجها المسن الذي يستعين بعصاه الغليظة على المشي وصعود الدرج. في تلك الليلة المشؤومة نادتنى أمي وطلبت مني أن أنادي عمي، أي زوجها. سعدت الدرج وأخبرته أن والدتي تريده بالمشب، وهو مكان إعداد القهوة، تلقّظ بكلمات سمعت منها «لا حول ولا قوة إلا بالله»، استعان بعصاه ونزل الدرج بكل صعوبة، رثيت لحاله فقد كانت حالته صعبة كحالتها. ظل بجانبها يقرأ القرآن، طلب مني أن أحضر لها ماء ليطفى لهيب حرارتها، وقبل الفجر ماتت ثم مات

بجانبتها بعد قليل، كان الموت في تلك الليلة صاحب البيت لا ضيفه، بل كان صاحب القرية بكاملها، لم ينقذني من الألم والخوف سوى الطّرق على الباب: إن كان لديكم جنازة فأخرجوها، فتحت لهم الباب وهربت من الباب الخلفي متخفياً بظلام الليل وغبار الموت إلى أقارب لي لهم مزرعة في أعلى الوادي، في تلك الليلة سمعت الموت يهمس في أذني وكأنه يعرفني منذ زمن.

في ذلك العام الذي سُمّي (عام الرحمة) ولم يكن له من اسمه نصيب، ولعله يكون رحمة لمن ماتوا. كانت الجنازات بالعشرات، ومن لديه جنازة فعليه أن يخرجها بعد أذان الفجر مباشرة حتى يُصَلّى على الجناز مرة واحدة، وتدفن بسرعة من قبل أهل المعروف والباحثين عن الأجر والثواب.

يقول هذا الشيخ المعتمّر: كان الموت في تلك الأيام حاضراً في كل بيت مجاوراً كل إنسان، لم يترك شجرة إلا هزها، ولا ورقة إلا أسقطها، أطفأ المصابيح ونشر الظلام في كل مكان.

أخذتني أمي وأنا أحاول الإفلات منها لألحق برفاقي، لكنني أعلم أن لوالدتي قبضة قوية لن أفلت منها ولن تتركني، خاصة أمام فوهة هذه البئر التي سقط فيها والدي وغير مجرى حياتنا إلى الأبد.

لم أعرف الكثير عن موت والدي، فالأم بخيلة بالمعلومات التي تتعلق بالماضي، فهي لا تريد أن تنكأ الجراح. علمت من أعز أصدقاء والدي (أبو إبراهيم) أن خلف موت والدي مشروعاً زراعياً لم يكتب له النجاح، كان الاتفاق مع صاحب الأرض أن يحيي

والدي وأخوه الأرض بحفر البئر أولاً، ثم غرس النخيل مقابل استثمارها، بنسبة معلومة، عشرات السنين.

تبخر المشروع مع سقوط والدي بالبئر، ورحيل أخيه الأصغر إلى الكويت بحثاً عن الرزق. ظل والدي على قيد الحياة أربع سنوات بعد سقوطه في البئر كانت حصيلتها ميلاد طفل هو أنا، وأطلق عليّ اسم عبد الله، وهو الاسم الذي كان لأخي الذي مات من مرض الحصبة.

يقول أبو إبراهيم أعز أصدقاء والدي: يوم سقوط والدك في البئر، كان أسوأ أيام حياتي، علمت بالخبر بعد صلاة الظهر مباشرة، طلبت من أكبر أبنائي أن يأخذني إليه. ولأنني أعمى فقد كان الابن يشير إلى بقع الدم التي كانت ترسم الطريق الذي مر منه محمولاً من البئر إلى بيته، كنت أجهش بالبكاء والطفل يشير إلى بقع الدم الأخرى الكثيرة على الأرض وكأنه يمعن في زيادة ألمي، وكلما زاد بكائي اجتهد الطفل أكثر في البحث عن قطرات دم أخرى، حتى نهفته وطلبت منه التوقف عن الكلام. ما جمع بيننا كان أكبر من فضاء تلك القرية وأرسى من جبالها وأعذب من طلع نخيلها، محبة صافية كمياه غدرانها، كان رحمه الله أطيب إنسان عرفته ينصت لما أقوله بشكل غريب، لم أغضب منه ولم يغضب مني يوماً، كان يظنني ألطف وأسعد إنسان وكنت أعتبره أظهر وأرحم إنسان.

كان والدك كريماً رغم فقره فلا يحضر إلى بيتي إلا ومعه ما يفرحنا به، يحرص كثيراً على رسم البسمة على وجوه البنات والأولاد، إذا لم يجد شيئاً مسح على رؤوسهم ودعا لهم.

من عاداته أن يمرّ على مزرعته قبل أن يأتي لزيارتي، ويبحث عن شيء يفرحنا به وخاصّة في مواسم الرطب، كان يساعدي كثيراً عندما كان في كامل قوته قبل الحادث المشؤوم.

بعد سقوطه صرت أنا الذي أساعده، أرسل ولدي إبراهيم الذي لم يتجاوز العاشرة من عمره ليساعده في المزرعة، أحياناً يرفض ابني الذهاب فأحتال عليه. أطلب منه أن يكتب رسالة إلى صديق عمري، ثم أبعثها معه، كان حديث عهد بالكتابة لذا يفرح عندما أطلب منه ذلك، كنت أقول لصديقي الغازأ لا يفهمها الصغير، لكنها تدخل السعادة إلى قلب صديقي. كقولني له: (قبّل الحمامة قبل إطعامها). عند وصول إبراهيم إلى صديقي يشكره كثيراً، ويثني على حسن خطه، ثم يطلب منه المساعدة ريثما يقبّل الحمامة. وأحياناً أكتب له، أستحّثه على المجيء ليلاً لأنني أفتقده إذا تأخّر فأكتب له: (لا تتركني وحيداً مع القمر). وأحياناً أكتب له (أنا والنجوم بانتظارك) لأخبره بمقدار شوقي لحضوره. أنتظر حضوره بشوق وكأنه شمس الشتاء.

ويواصل أبو إبراهيم: الحياة قاسية، كان الجوع يرافقنا في كل وقت ومكان. رغم العمى إلا أنني كنت أذهب مع صديق عمري وأخيه إلى البرّ لجلب العشب في مواسم، والحطب في مواسم أخرى. تصور كيف يقدر أعمى على هذا العمل الشاق، كنت أصطحب كبرى بناتي لتدلني على أماكن العشب والحطب وتحذرنني من الحفر. بمساعدة والدك وأخيه أعود وحماري محمّلٌ بمثل حمولة حميرهم، كانت الحمير هي الوسيلة المتاحة لنا، أما الأغنياء فلديهم الجمال التي تحمل أضعاف ما تحمله الحمير. رغم

العمى كانت الصحراء رثتي التي تمنحني الهواء النقي وكتابي المفضل الذي من صفحاته أتعلّم الصبر والتفكر في خلق الله . كنت أعرف أشجار أوديتها شجرة شجرة، وأعرف أصحابي من خطواتهم فوق الأحجار الصامته . للأسف تغير كل شيء بعد سقوط صاحبي .

حاول بعضهم ثني عن العمل بدعوى العمى، لكنني لم ألتفت لهم، أجد لذة لا تعادلها لذة عندما ألقى بتلك الحمولة من العشب أو الحطب داخل البيت وتستقبلني زوجتي وبناتي الصغار ومعهن الماء البارد وفيض من الحُب والثناء، تحرص زوجتي على تفقد جروحي القديمة والجديدة وتغسلها بالماء البارد، تسألني عن سبب بعض الجروح التي ليست من الشوك أو الحصى، فأمازحها بمثل قولتي: تعاركت مع بدوية فغلبتني . لو استسلمت للإعاقة لمت وأطفالي جوعاً، لقد كنت أنتظر تلك المهمات بكل لهفة وشوق، العمل متعة ويهب الصحة والسعادة .

يحرص والدك وأخوه على أخذني معهم دائماً، ويداعبني عمك أحياناً فيدلني على الشوك بدل العشب، فأركض خلفه مطلقاً عبارات التهديد والمنجل في يدي محاولاً إمساكه، نضحك بعدها جميعاً كأسعد الناس . كان أكثر ما يضايقني الحجارة الناتئة التي أصطدم بها أثناء المشي، كانت النعال في ذلك الوقت نادرة الوجود ونحافظ عليها كما نحافظ على أقدامنا، تنتشر الحجارة المسننة في كل مكان، ونادراً ما أعود إلى البيت من غير إصابة، وفي طريق العودة تكون البنت قد تعبت فأحملها على الحمار فوق حمولة العشب، وأتفادى السقوط في الحفر والمنحدرات بالسير خلف الحمار الذي يعرف الطريق جيداً، ويسير خلف حميرهم، أمسك

الحمل جيداً خشية سقوطه، أما الأحجار فأحاول تفاديها برفع قدمي عن الأرض وإنزالها بشكل رأسي.

لا تسئ فهمي ولا يلفك التشاؤم فقد كانت تردد صدى ضحكاتنا شعاب (مرخ) وهضابه خاصة عندما أركض خلف أخ والدك الصغير بعد أن يفاجئني بواحد من مقالبه الكثيرة التي تضي على المهمة روحاً من الدعابة المطلوبة. كنت أنا وهذا الأخ نتحدث كثيراً عن النساء وجمالهن، ونتمنى فلانة بنت فلان أو تلك العازبة التي عافت الرجال، لأنها لم تجد حصانها بعد. لولا روح الدعابة التي كنت أتقنها، ويضحكون منها لصار الوقت والعمل الشاق كابوساً يهدد حياتنا.

أعرف الكثير ممن لا يفتحون أفواههم إلا عند الأكل. ويطلبون من الآخرين السكوت. كنا نحتال على الفقر والألم ونحيلهما إلى حبّ وأمل. كان الحب أقوى سلاح نستخدمه ضد العوز والحاجة، ما فائدة القلب بلا دموع وفرح؟ نقتلع جذور البغضاء من داخلنا بنسائم الحب الباردة. ندعها تهب على كل جوانب حياتنا. كان العمى نعمة لا تقدر بثمن، فقد أعطاني مزيداً من الوقت للتأمل والتفكير والتحدي.

أضاف أبو إبراهيم: كان والدك متديناً باعتدال، نعرف ذلك مما يحمله من حب وتسامح، لا تفارق الابتسامة محياه، لا يخوض معنا في أحاديث الغزل، بل يكتفي بالابتسامة والضحك أحياناً ما دمنا لا نتعرض للآخرين بسوء. أسوأ ما يضايقه ذكر غائب بسوء.

كنا نرفع أصواتنا بالدعاء والحداء، كان الغناء يضبط إيقاعنا، كانت الألحان التي رافقت الإنسان منذ آلاف السنين ورددتها الآباء

والأجداد قبلنا، تنساب عذبة تتمايل معها شجيرات العرفج والشيخ
وظلح أودية مرخ وسدرها .

حتى الطيور كان لها حضورها، نأنس بها وتأنس بنا، يتكاثر
الحجل في الجبال وعند منابع المياه ويطنرنا بصوته الشجي، نظرب
لسماع ألحان (أم سالم) ولست أدري لماذا؟ ولا من أطلق عليها
هذا الاسم؟ وهي طائر بريّ جميل الشكل والصوت يطلق عليها
(ملهية الرعاة) لأنها تسحرهم بغنائها فيلهون عن مراقبة القطيع،
ليتهم سموها ملهمة الرعاة بدلاً من ملهية الرعاة .

تقول حكاية شعبية: إنه في فصل الصيف ومع شح الموارد، أتت
(أم سالم) إلى النملة المعروفة بجدها وحرصها على خزن المؤونة
للأيام الصعبة، وطلبت منها قليلاً من الأكل، فردت النملة: (لا،
دعيها تنفعلك القصائد أيام الحصاد) والمعنى أنه في الوقت الذي
كانت فيه الحبوب وافرة، أي وقت حصاد الحبوب كنت تغنين
وتطربين، بينما كنا معشر النمل نجد في العمل والادخار .

كان الغناء يصاحب وقع المساحي تحرث الأرض، والسواني
تخرج الماء من الآبار، والحادي تسير خلفه الإبل في نسق،
كطابور عسكري جيّد التدريب. تسير ورقابها تشير نحو الأفق البعيد
بكبريات وأنفة .

هناك من يتخرج من الغناء ويشترط على من يعمل عنده ألا يرفع
صوته بالغناء، ولكن حالما لا يكون عندهم، يشرعون بالغناء فهو
الذي يبعث فيهم الحماسة ويوحد الحركة. ولكل نشاط أو عمل
كلماته وألحانه التي تتماشى مع الإيقاع، ألحان وكلمات تترجم
مشاعر الإنسان إلى أمانٍ وآهات .

سارة

مصدر آخر من مصادر الحماسة وإلهاب المشاعر كانت المرأة. تقول العمّة سارة وهي امرأة معروفة بقوتها وشجاعتها وجمالها: كنا نعمل مع الرجال، نهئى لهم البذور ونحضّر لهم الطعام ونساعدهم في الحصاد والرعي والاحتطاب وغير ذلك من الأعمال التي تناسبنا، كنا نرى الحماسة في عيونهم عندما نشاركهم ونرى الفرح في نبرات أصواتهم، نباريهم أحياناً من ينتهي أولاً؟ فنقسم الزرع إلى قسمين، قسم لنا وقسم للرجال، نتبارى أينما ينتهي أولاً.

تقول سارة: استأجر والذي أجيراً معروفاً بقوته البدنية ووسامته، يهتم بشعره الطويل ويمشّطه ويستعرض كثيراً أمام النساء ولا يحب العمل، فكنت أطلق عبارات التشجيع والثناء بين الحين والآخر، وللزيادة في تحفيزه وضعت خيالاً أسود على خشبة أحركه بين حين وآخر وكلما التفت رأى الخيال وظنه أنا، زاد في بذل الجهد، فصار الخيال مبعثاً للطاقة وتجديد النشاط: (من وجدّ حيلة فليحتل).

كانت سارة ملهمة لبنات جنسها وحكيمة، لم أعرفها إلا عجزاً رسم الزمان لوحاته وخربشاته على وجهها الجميل، ولكن الجميل يظل جميلاً رغم السنين. كان لها عينان جميلتان صافيتان وأهداب طويلة وأنف أشمّ فيه الكثير من الاعتزاز بالنفس، ولون أبيض

تخالطه بعض البقع السود، لديها الكثير من القصص والحكايات الخيالية، تعيش معظم أيام السنة وحدها في منزل تركه لها والدها وجعله وقفاً لا يمكن التصرف به. لها صداقات كثيرة، خاصة مع جيرانها الذين تقضي أول الليل عندهم، وتعتبر أولادهم أولاداً لها. أما الصباح فتقضيه مع جارها الذي تزوجته وطلقها ثلاث مرات. وقد كان في سنها، إلا أنه فقد بصره بسبب مرض مخادع أطلقوا عليه اسم (السويرق) لأنه يسرق النظر على مهل ودون علم المريض وهو ما يسمى في الطب الحديث «الماء الأزرق». دأبت وأختي على زيارتها كلما سمح لنا الأهل بذلك، كانت تخاف علينا من العين، خاصة من عين جارها الذي لم يعيش له أطفال، إذا أتينا إليها وهو عندها، يطلب منا أن نسلم عليه فتقدم له الأخت لتسلم عليه مرتين، لأن بنيتها ضعيفة كما تقول بعكس بنيتي القوية، كان من عادة جارها أن يتحسس يد من يسلم عليه.

تدبر العمة سارة حياتها بشكل دقيق، لديها عنزة واحدة تسميها حمريّة لأن لونها يميل إلى الأحمر، تشرب حليبها وتبيع ولدها حال فطامه، تسرحها مع الراعي في الصباح وتنتظرها بفارغ الصبر في المساء، وتدفع للراعي ريالاً واحداً في الشهر، ورغم ذلك تشتكي من الغلاء. تحصل على الماء مرة في الأسبوع، تحضر والدتي التي تسكن في المزرعة مع والدي المقعد نتيجة سقوطه في البئر، حال وصولها تستبدل عباؤها النظيفة بواحدة قديمة تحتفظ بها العمة سارة لمثل هذه المهمات. تبدأ والدتي بجلب ماء الغسيل أولاً من البئر القريبة التي لا يصلح ماؤها للشرب ويستخدم للغسيل فقط، ثم تجلب الماء الصالح للشرب من البئر البعيدة. تحتاج لأن تذهب إلى كل بئر ثلاث مرات، تستغرق العملية حوالى الساعتين بعدها

تكون المكافأة، فنجاناً من القهوة أو الشاي مع حبات من التمر ودعاء من القلب. لا تنتهي المهمة إلا بعد نزولها إلى الجصّة (بناء من الجصّ يحفظ فيه التمر ويكنز حتى يخرج منه الدبس) تنزل بداخلها وتملاً أولاً وإناء عمتها ثم تملاً قدرأ تحمله على رأسها مسافة ثلاثة كيلومترات إلى بيتها في المزرعة، حتى تستطيع إعالة زوجها المقعد وطفليه. ولثقل الحمل تتوقف في الطريق أربع أو خمس مرات، وفي كل مرة تبحث عن جدار تسند إليه حملها الثقيل، فلو أنزلته إلى الأرض لما استطاعت وضعه على رأسها مرة ثانية. كانت تردد دائماً «ما أطول ليالي الجوع وأثقل أيامه!».

تنتقل العمة سارة في فصل الصيف لتعيش مع أخيها في المزرعة، ومعها العنزة والحقيبة الحديد التي تحرص على إبقائها مغلقة في جميع الأوقات، يقضي معها الأطفال أجمل الأوقات وينتظرون المساء بفارغ الصبر لسماع قصصها التي تدور معظمها حول الجن والسحرة وخيانة النساء، خاصة تلك التي اتخذت رجلاً آخر صاحباً لها، وتلك التي سافر زوجها وأوصاها بأخته خيراً، وعندما عاد من السفر لم يجد أخته، وادعت أنها ماتت ليعلم الحقيقة فيما بعد، حين اكتشفت الأخت خيانة زوجة أخيها فتخلصت منها بتسليمها للساحر الذي اتخذها زوجة له، بدلاً من أكلها.

كانت معظم القصص معادة مع بعض التعديلات في كل مرة. والغريب في تلك القصص أن كل الخيانات والأخطاء تأتي من نساء، رغم أن كل خيانة في قصصها بحاجة إلى شخصين رجل وامرأة. وللعجائز ومكرهن ودهائهن من قصصها نصيب. فمن أراد

أن يغوي امرأة أو يوقع برجل فما عليه إلا أن يستعين بعجوز ويزيد في إكرامها، ولا ذكر لمكر كبار السن من الرجال.

تمرّ ليالي الصيف جميلة هائلة، يقدم العشاء بعد صلاة المغرب مباشرة، يبدأ بعدها السمر الذي لا يقطعه سوى توقف العمّة لأداء صلاة العشاء، وقبل بدء سرد القصص يتسابق الأولاد والبنات لتنفيذ الطلبات، وهذا شرطها قبل البدء، فواحد يحضر الماء لها ليبرد وتشربه في ما بعد، وواحد يهيئ لها الفراش، ينام الصغار فوق سطح المنزل مع النساء، ويلفهم ليل القرية بهدوئه وسكينته التي لا يوقظها سوى أصوات الجنادب المتواصلة ونباح الكلاب أول الليل وصياح الديكة في آخره.

ينام الرجال فوق سطح آخر أو على الرمال الدافئة التي كونتها الرياح في مجارى السيول المجاورة للمزرعة. يكتفي الواحد منهم بحفرة صغيرة يصنعها بيديه تحيطها من كل جانب طبقات من الرمال الحانية، ينام هائناً تظلمه النجوم وتسامره، ويستمتع كثيراً بالليالي المقمرة. لا وقت لديهم للأرق أو القلق، فلا صفقات لم يكتمل إبرامها، ولا أرصدة لا يعرف أرقامها، كل ما يأكلونه من عرق جبينهم، ليس للحرام طريق إليه، يشكرون الله كثيراً، فكل شيء نسبي، هم الآن أفضل حالاً من آبائهم. تقول العمّة: نحن الآن مرفهون، أجدادنا كانوا يبحثون في الأماكن المهجورة عن عظم قديم يطبخونه ويشربون ماءه، أو جلد قديم يشوونه على النار ويأكلونه. تقول: كان الناس يغير بعضهم على بعض ليأكلوا ما عندهم. القوي يأكل الضعيف. كانت معركة حياة أو موت. حتى جاء الإمام عبد العزيز ومعه جاء الأمن والخير، أمن الخائف وأكل الجائع.

كنت الأقرب إلى العمة سارة تعطف عليّ بشكل خاص بسبب اليتيم، وتخصني بما يتوقّر لديها من الأكل وخاصة الفواكه التي كانت تحصل عليها من قريب لديه مزرعة كبيرة تكثر بها أشجار النخيل والفاكهة وعلى الأخص التين الذي تحبه كثيراً وتردد دائماً: هذه فاكهة الجنة، وتجود عليّ ببعضه، تخبّئه بين طيات ثيابها، وخاصة بين طيات سراويلها (النظيفة). بعض الفواكه تكون قاسية وعندما لا تستطيع مضغها تبقّيها لي، لكنني امتنعت عن قبول هذه الهدايا عندما اكتشفت المخبأ وآثار العض على قشور الفاكهة.

تعز العمة سارة بنفسها وشجاعتها كثيراً، لكنها لا تتحدث عن هذا الموضوع أبداً وترك الناس يتولون ذلك.

عندما كانت في قمة نشاطها، كانت تعمل مع والدها في مزرعته صباحاً، وفي المساء تعود إلى بيتها في البلدة على بعد ثلاثة كيلومترات تقريباً، تسلك طريقاً متعرجاً وفي منتصفه بيت مهجور يقال إن الجن تسكنه وإن من يمر به يسمع أصواتاً ويخيّل إليه أنه يرى أشباحاً تتحرك، لونها أسود بحجم الغنم، هذا البيت لأسرة انقرضت ولم يبق منهم سوى عجوز لها ولد اسمه فيروز. كان الكثير من سكان القرية يتفادون المرور من هذا المكان ليلاً وخاصة صغار السن، أما العمة فتقول: كل شيء هنا وتشير إلى رأسها.

في إحدى الليالي، وعند عودة العمة متأخرة تلك الليلة وأمام هذا المبنى، رمى عليها شخص حجراً فلم تعره اهتماماً، فرمى حجراً آخر، كانت رسائل حب من متيم، وبكل رباطة جأش وثقة بالنفس التفتت إلى مصدر الحجر وقالت: ما لك لماذا تبقى بعيداً؟ هلم إليّ أنا سارة، عندي لك قبلات من أسناني ومسحة حانية من

منجلي، إن كنت شجاعاً فتقدم، ثم واصلت سيرها كمنتصر في معركة. وفي مناسبة أخرى كانت مع ثلاث من زميلاتها تحتطب من النفود وكل واحدة لا ترى الأخرى بسبب عروق الرمال وكثبانها، وفي هذه الأثناء هجم عليها رجل ممتلئ الجسم أسمر يريد لها دون رغبتها. رفعته فوق رأسها ورمته بعيداً وواصلت عملها وعندما اختفى خافت على إحدى زميلاتها فركضت لتجد أنها تتعارك مع الشخص نفسه. سحبت منجلها وصاحت به وإذا به يفر مؤثراً السلامة على وطرن يناله. وعندما ابتعد عنها دعا عليها ومما قال: «حرمّيني حرمك الله من الجنة». كانت العمّة تردد دائماً: الخوف لا يولد معناً، لكنه نتاج تربيتنا وبيئتنا.

وهناك قصص كثيرة تنسج حولها وقد يكون بعضها غير صحيح لكثرتها، لكن المؤكد هو اعتزازها الكبير بقدرتها وتفوقها على كثير من الرجال، وتحديدهم بالقوة وسرعة إنجاز العمل، وتكره أن تسمع كلاماً يقلل من قيمة النساء.

تقول: تخاصمت مع جاري الجاهل الذي طالما نعت النساء بالخوف ونقص العقل، قال لي مرّة: «للمرأة ربع قلب رجلٍ مخنث». فذهبت أشكوه لذلك الشيخ الوقور الذي استقبلني بحضور زوجته. تحدثت معه وشكوت له كثرة ما يقال عن النساء، من جبن وضعف ونقص العقل. وذكرت له ما قال جاري، فتبسم رحمه الله ومسح بيده اليمنى على شعره الذي رسم هالة وقار حول وجهه المضيء وقال: لا تصدقي كل ما يقال يا سارة، الجهل هو المسؤول عن الكثير مما يمارس ويقال. احتقار الآخر المختلف أسوأ ما في ثقافتنا. هل جرّب من يدعي ضعفهن بعضاً مما تقوم به

النساء؟ النساء والرجال متساوون عند الله، ليتهم رجعوا إلى سيرة الرسول العطرة في تعامله مع النساء. لكل دوره في هذه الحياة. الدين نصير المرأة ومعلي شأنها. جاء الدين ليعلي، لا ليحتقر الإنسان، رجلاً كان أم امرأة. لكن المسؤول هو الجهل وحب التسلط.

لقد أثلج صدري بكلامه وتواضعه وإشراقه وجهه.

لا يأس مع الحياة

المؤكد أن العمة سارة تزوجت سبع مرات وكانت تريد أن تكمل العشر لولا تقدمها في السن، مما اضطرها إلى البقاء مع زوجها الأخير أطول مدة وأن يفترقا ويتزوجا ثلاث مرات. بعد استنفاد رخصة الزواج بقيا صديقين .

سألناها عن سبب كثرة الزواج والطلاق، هل كانت السبب في كل ذلك كما يشاع؟ حيث وصفها أحدهم بأنها كمهرة جموح لا يستقر الفارس على ظهرها. وعلى غير عاداتها فركت عينين غائرتين وأجابت:

تزوجت الأول، ابن عمي وكنت صغيرة لم أتجاوز العشر سنوات. كنت ألعب مع الأطفال ولا أفقه معنى الزواج، أصنع من الملابس البالية دمي، لو طاو عني لأشركته معي في اللعب، أما هو فيكبرني بسبع سنوات. كانت البنات يحسدنني لزواجي قبلهن، وبعضهن أكبر مني. انتقم مني بأخذي صباح ليلة الزواج إلى المكان الذي أعشقه كثيراً، إلى النبع الذي تعانق فيه طيور الحجل أحجاره النظيفة، ويتزوج اليمام في تجاوزيف صخوره الصامته. أمضيت معهم واحداً من أجمل أيام حياتي، ولم يعيدوني إلى البيت إلا بعد غروب الشمس، مما يعني تأجيل الزواج ليلة أخرى لأنه لا وقت للزينة والاستحمام، ومع التأجيل حصلت على سياط من

التأنيب من أمي رحمها الله، وفي اليوم الثاني أغلقت والدتي الباب وتصدت لصديقتي بِعَصاً وسيلٍ من السباب.

في ليلة الزواج عاملني بلطف قَبْلَ جيني وطبع قبلات على خدي وتركني أنام هانئة تلك الليلة، بل وألحفتني ذلك اللحاف الناعم الذي اشتراه والده من الكويت قبل سنوات، واستخدم لأكثر من مناسبة زواج، في الصباح وجدته بانتظاري وقد جهّز القهوة والحليب، ركضت إلى أمي فرحة رافعة صوتي: ما أجمل الزواج! كتمت أمي ضحكاتها وذهبت في خيالها بعيداً، ثم سحبتني من يدي كما تسحب صغار الغنم من أمهاتها. قالت بكل حزم: إياك أن تخبري أحداً عما جرى بينك وبين زوجك. فقلت لها: الزواج هو أحلى شيء في الحياة، نوم على فراش وثير، وحليب في الصباح. ضحكت ثانية وأكدت ما قالته من نصائح سابقة.

لم تستمر الحياة كما هي. طلب مني أشياء لم يكن لي قدرة عليها ويريدها في أوقات هو يختارها، كان كحصان جامح يركض في أرض عذراء لا يريدتها أن تمل من وقع حوافره أبداً. في إحدى الليالي طلب مني ما يطلب الرجل من زوجته، كانت آلام الدورة تعترضني وأكاد أنفجر من الداخل كورم خبيث. طلب مني أن أرافقه إلى الغرفة الداخلية فرفضت، ضربيني وسحبني من أعلى الدرج إلى أسفله وأنا أقاوم وأصرخ من الألم، وفي النهاية تخلصت من قبضته تاركة في يده خصلاً من الشعر، أما هو فقد ترك في قلبي كثيراً من الألم وقليلاً من الأمل. وزادت الأوضاع سوءاً فهو يتمادى في عنفه وأنا أتمادى في الصبر والخنوع، لم أوقفه في المرة الأولى فكانت الغلطة. كنت أستطيع أن أوقفه بكل سهولة،

أصرخ في وجهه، أدافع عن كرامتي كما تدافع القطة عن صغارها والدجاجة عن أفراخها.

كلما ذهبت إلى أمي باكية شاكية أنبتني وأقنعتني أن الرجال هكذا، وستتحسن الأمور بعد إنجاب الأطفال، وفي أحد الأيام رفضت أن أذهب لبيته فغضب أبي كثيراً وأمسكني من يدي وأدخلني عليه ليعود الضرب قبل كل وجبة معاشرة.

في أحد الأيام وكان الجو غائماً، والمطر يداعب الأشجار، وتستحم على وقع خطاه الجبال، والأطيار تغني في حبور، ففكرت لم لا أكون مثل هذه الطيور؟ أو كواحدة من هذه الزهور البرية؟ الحياة قصيرة كنهار الشتاء، فلماذا أصبر على الشتاء؟

خرجت من البيت وصعدت الجبل المقابل للمزرعة. شممت الهواء العليل وأدخلته إلى رثتي بكل قوة، خاطبت السحاب وداعبت المطر، طوقت عنقي بقوس قزح، وعابت الهضاب على نسياني وتركي حبيسة الذل وسوء المعاملة. كنت أغني بصوت عالٍ كلمات صديقتي أم حسين تلك المرأة الشجاعة التي تشبه حياتها حياتي:

يا هضاب لبيتي من حصاكم حصيّه ولا الهوا يا هضاب حيثه يروحي

يا لبت ربي ما خلقني بنيّه إما ولد ولا بقباض روحي

خلت السحابة تنتفض في الجوّ وتعتذر عن مساعدتي، تسير إلى وجهتها غير مبالية، خلتها تقول لي: سأذرف من أجلك الدموع، لكن لن أستطيع مساعدتك، إلا إذا مددت لي يدك لأغسلها، خلت الأحجار تهزأ بي وتقول: ما الفرق بيني وبينك؟

نزلت من الجبل، جلست على جانب الوادي تأملت مياهه المتدفقة الهادرة كجمال هائجة، تملأ الوادي وتزور كل الحقول،

تطوق نخيله، وتداعب أشجاره، وتدفن في الأرض بذور الحياة. حامت الفراشات الملونة حولي وشفقت لي بأجنحتها الصغيرة وخلتها تقول: ما أجمل الحياة!

اتخذت قراراً، أن أطلب الطلاق مهما كلف الأمر، حتى وإن غضب والدي ويكت أُمي كعادتها، هبت رياح الحياة واتقد الجمر من تحت الرماد البارد. وكعاصفة صحراء غاضبة، ذهبت إلى البيت مباشرة ووجدته بانتظاري، ومن عينيه يتطاير شرر نار شبت داخل صدره. سأل عن سبب تأخري الذي لم يعتد عليه. أجبته بكلمة واحدة: (طلقني) صفعني فصرخت في وجهه: لن أعيش معك بعد اليوم. لحق بي وببيده هذه المرة عصا، ركضت باتجاه النخيل وتبعني وهو يصيح: إنها ناشز. سمعه أبي وكان رافعاً رأسه ينظر إلى السحب القادمة من الغرب يسبح الله «سبحان من سبح الرعد بحمده» ثم ركض باتجاهنا. حاولت أن أختفي بين النخيل فلم أستطع، غاصت قدمي في الوحل فجذبتها، سمعت خطاه خلفي، يطالبني بالوقوف، يهددني بالعصا، وبسرعة فكرت في شيء خطير، أن أتخلص من حياتي. انحرفت بسرعة نحو البئر، ركضت أقفز فوق السواقي والأحواض حتى وقفت على حافة البئر، عمت السيول كل مكان والبئر مليئة حتى فوهتها. كان الماء صافياً كعين يمامة، أما أنا فكل قواي مستنفرة، كل ما فيّ يرتجف، من أسناني حتى أصابع قدمي. سمعته ورأيته يقترب مني رافعاً عصاه. ألقيت بنفسي في وسط البئر، أخذت أصارع الموت، أغوص وأطفو، لا أجيد السباحة، تخيلت أُمي وقد أحضروني إليها جسداً يملأه الماء، قفز في البئر فتشبثت به دون أن أعلم وكدت أغرقه معي، قفز بعده أبي، أخرجاني وحملاني إلى أُمي التي صرخت عندما

رأنتني محمولة بين أيديهم، طمأنوها أنني بخير وأنتي سقطت في الوادي.

أقسم زوجي ألا يمد يده علي بالضرب بعد اليوم. بقيت صامته لا أنطق، ومال لون وجهي إلى الأزرق، أقسم والدي ألا أعود إلى زوجي ثانية بعد اليوم، ثم قال له بكل حزم: الثور لا يستحق إلا بقرة، ثم أردف: مضى عليّ مع أمها خمسة وثلاثون عاماً لم أرفع يدي عليها يوماً واحداً رغم ما يحصل بيننا من خلاف. من قال لك إن الرجولة في ضرب النساء؟ كيف تدوس على وردة تشم رائحتها صباح مساء؟ كيف تريدها فواحة وأنت تمنع عنها الشمس والماء والهواء؟

وهكذا طلقني رغم حبه الشديد لي، والذي كنت أقرأه في عينيه في سويعات الصفاء.

مع ذكريات العمة تذكّرت القول المشهور (لمارتن لوثر كنغ Martin Luther King Jr) داعية الحقوق الأسود: «لا يستطيع أحد الركوب على ظهره إلا إذا كنت منحنياً». عاشت معه محنية الظهر، تطالبها والدتها بمزيد من الانحناء، ويطلبها والدها بمزيد من الصبر. التعامل مع الظالم بحاجة إلى المواجهة ورفع الظلم سريعاً، وإلا تمادى في ظلمه. الظالم جبان يستغل ضعف الضحية. لذا من السهولة إيقافه بأكثر من وسيلة. للأسف كثير من المجتمعات تربي أبنائها على الانحناء منذ الصغر وتوهمهم أنه الأسلوب الأنسب للعيش بسعادة وسلام.

لكي يتعوّد الناس على المشي بقامات مستقيمة، هم بحاجة إلى ثقافة مختلفة وإلى أكثر من جيل وأكثر من مصلح وأكثر من مثال يحتذى.

وعلى غير عاداتها تواصل العمّة سارة حديثها عن تجاربها مع الأزواج بكلّ حماسة:

الزوج الثاني كان مختلفاً تماماً. بعد إخفاق زواجي الأول أقسم والدي ألاّ يزوجني من فلاح أو قريب، رغم تردد الكثير من الأقارب والجيران. أحد الجيران أمسك بيد أبي ليخطبني منه وهم عائدون للتو من المقبرة بعد دفن زوجته بدقائق. قال له أبي: تكلم بصوت منخفض فالمرحومة زوجتك تسمع وقع نعالنا.

كان لخالي رحمه الله دكان في وسط البلدة، وكان على صلة بالتجار، ذكرني لأحدهم وتكفل بالخطبة، وافق أبي في الحال أما أنا فلم يخبروني إلاّ في ليلة الزواج. كان هذا الزوج رحمه الله كريماً وشهماً ولديه الكثير من المال، أخذني تلك الليلة إلى بيته الكبير وأقام فرح زواج يليق بنا معاً، رقصت النساء في تلك الليلة، ولأول مرّة أرى والدتي ترقص على إيقاع الدفوف، أحرقوا الكثير من البخور، لم أتصوّر أن في قريتنا أغنياء بهذا القدر، كنت أظن أن جميع الناس فقراء مثلنا.

قدّمني زوجي لأمه التي احتفت بي، قبّلت رأسها، لكنني شممت رائحة الخلاف منذ اليوم الأول، يبدو أنها لم تُستشّر ولم يؤخذ رأيها في الزواج، طلبت مني أن آخذ رأيها في كل شيء له علاقة بالبيت، أفقلت باب مستودع الأرزاق وأخذت المفتاح، أخذت تقتر عليّ وتحاول إذلالني، تسلل الحقد إلى قلبها كألسنة اللهب، أغلقت جميع أبواب الرحمة، لا أستطيع أن أدعو أحداً من أقاربي أو صديقاتي إلى البيت إلاّ بأمرها، تخرج كل شيء بكميات محسوبة، لست أفهم كيف تقسو النساء على النساء، زوجي كان

مسلوب الإرادة أمام قوة شخصية أمه وسيطرتها عليه، ظل ساكناً لا يتدخل في شيء، وعندما يخلو بي يلتهمني كما تلتهم الأرض العطشى الماء. ويرجوني أن أصبر ويقول لي: أنا وحيدها وهي أمي ومن لها غيري؟ صبرت لكنها كانت عازمة على إفساد هذا الزواج الذي لم يكن لها فيه خيار.

صديقتي كنّ يحسدني على الزواج من هذا التاجر، لم أخبرهن بشيء مما فعله أمه. كنت حريصة على إبقاء ما يحصل داخل البيت سراً لا يعرفه أحد، حتى أمي لم أخبرها. الوحيدة التي كنت أخبرها بكل شيء أختي رحمها الله التي كانت متزوجة من رجل متوسط الحال وكريم جداً كجدول ينحدر من جبل، كان يحثها على البذل والعطاء. لم يرزقا بأطفال لكنهما عاشا كأسعد الناس، رزقا متعة البذل للآخرين وتذوقا حلاوته، كان زوجها يردد دائماً: متعة الحياة في البذل، النخلة التي لا تثمر يهجرها الفلاح وتغادرها العصفير وتجتث ليزرع مكانها أخرى، وكانت أختي تردد دائماً: كل أيتام القرية أبنائي. زوجها يذهب إلى الكويت ويعمل في الغوص، يغيب عدة أشهر كل عام.

في كل يوم جمعة، عندما يذهب زوجي للصلاة وتذهب أمه لأقاربها، تأتي أختي كسحابة وتحضر معها مستلزمات القهوة وبعض التمر، تسبقني إلى مكان إعداد القهوة وتجهزها بنفسها، تتفنن في إعدادها، أدعو صديقتي ونشربها معاً، كنت أوههم أن كل هذا من عند زوجي، كيلا يعرفوا شيئاً عن معاناتي، البوح بأسرار بيتي يفرح حسادي ويحزن أحبائي، ويعقد المشاكل حتى تستعصي على الحل.

سمعت من إحدى صديقاتي أن أمه قد خطبت له زوجة صغيرة هي ابنة أخيها. سألته فأنكر أولاً ثم اعترف قائلاً: أنت الأولى وصاحبة البيت وزوجتي، أما هي فقد تزوجتها إرضاء لأمي. ضحكت منه وقلت له: تعبت من العيش مع امرأة واحدة فكيف بامراتين، لن أرضى بزوجة ثانية تقاسمني حبك وأشتم رائحتها كلما عدت إليّ منها. سأرضى لو كنت مقصرة معك أو لا أحبك. سأقبل كل مضايقات أمك لأنها تشاركني حبك الآخر، أما ما يخصني من حبك فلي وحدي. سألني: ماذا أريد؟ فقلت له: حرיתי. فكان الطلاق.

الزواج الثالث لم يستمر طويلاً مع أنه كان بموافقتي وقد خطبني من أخي، كان زوجي الجديد قوي البنية كثيف الشعر بعينين واسعتين جميلتين وأذنين كبيرتين نبت الشعر داخلهما. كان صديقاً لأخي. عملاً معاً بالفلاحة عدة سنوات، وسافرا إلى الكويت معاً. كان بخيلاً وشرساً فتشاجرت معه منذ اليوم الأول وأوضحت له أنني لن أسمح له بالاعتداء عليّ وعلى كرامتي مهما كلف الأمر، وفي ثورة غضب بصق عليّ فهجرته أربعة أيام حتى اعتذر. لم أتحمل بخله وأنا أعرف بوفرة المال لديه، كان بخيلاً بعواطفه أيضاً. أبخل الناس أبخلهم بعواطفه. تقاسمت معه الكثير من فترات صمت حاول من خلالها ترويضني، حاولت إيصال رسالة مفادها: أن الزواج حب وتفاهم قبل أن يكون سيطرة واستعباداً. كان كثير السفر، ولم أذكر أنه قد أفرحني بشيء بعد كل إياب من سفر. وفي إحدى السفرات طلبت منه أن يحضر لي معه ثوباً للعيد، ولما عاد ولم يجلبه معه تركته، وكنت قد عزمت على الطلاق قبل سفره.

أما الزوج الرابع فبودي ألا تذكروني به، مرّ كصباح يوم جميل . كان أجملهم وأحسنهم أخلاقاً . كنت أكبر منه بعشر سنوات وأنا التي خطبته . كنا نعمل معاً في (صرام) النخل وكان يقفز من نخلة لأخرى بسرعة وخفة ورشاقة، كنت أتمناه أن يحتضني كما يحتضن النخلة، وأغار من كل نخلة يعانقها، أعجبت بعفته وفضه بصره رغم صغر سنه . يقال: إن واحدة راودته عن نفسها واستقبلته متجملة ومتعطرة، فصدها بكل أدب وقال: إني أخاف الله . كان يناولني عذوق التمر دون أن يطالعني . بعكس بعض المتزوجين الذين كانوا يتسلقون جسمي بنظراتهم المشبوبة . وبعد انقضاء صرام النخل الذي تمنيت لو يستمر فترة أطول لأكون بجانبه تخلصت النخيل من حملتها، وبين أكوام التمر دفنت العقل والقلب معاً، بحثت عن وسيلة تجمعني به بالحلال .

كان الحج على الأبواب ولم يسبق لي الحج، اعترضت طريقه وكان خارجاً من المسجد، وفي طريقه إلى مزرعة والده، سلّمت عليه وكلي حياء، قلت له مباشرة: أريد أن أحج ولا محرم معي . أريدك محرماً لي، وهي فرصة لك لتؤدي فريضة الحج أيضاً .

ولكن من أين لي تكاليف ذلك؟ ضربت على صدري وأمسكت قلبي مخافة أن يعانق الطيور في السماء، قلت له: عليّ التكاليف، استشر والدك ولا تنس فرصة الحج . وقبل الحج بأسبوع تم الزواج . أعطاني والذي ناقته المفضلة وذهبت أنا وهو مع حملة الحج على ظهور الإبل .

كانت رحلة الحج شهرين انقضت وكأنها يومان . كانت الناقة تغار مني كثيراً، كنا في كل ليلة ننتحي جانباً ويفرش عباءته لي

ونتقي بالناقة التي حفظت سرّنا وسمعت تأوهاتنا، استمتعت بمرأى النجوم من خلال خصلات شعره. لأول مرة أرتوي من الحب وأستمتع بالجمال. كم كان قلبي بحاجة إلى الدفء، وكم كانت أناملني فرحة وهي تداعب كل زوايا جسمه. رغم صغر سنه وقلة خبرته كان يتعلم بسرعة، وكنت أحس وهج قبلاته داخل تجاويف قلبي. كنت أعجب من قوته الخارقة وشدة تحمله. يسير ماشياً وأحياناً مهرولاً طوال النهار، وفي الليل يسعدني أيما إسعاد. إنه الشباب ما أجمله.

كان بعض الرجال والنساء يستقبلوننا كل صباح ببعض التعليقات التي لا نأبه بها، بل ونستلطفها خاصة من ذلك الشيخ الطاعن في السن الذي لم يلبس في حياته سروالاً ولا حذاء. كان كل شيء فيه لطيفاً وكل تعليق منه مقبولاً. كان عفيف اللسان مخلصاً لزوجته التي لا تقل عنه سنّاً، لكنها أضعف منه كثيراً، يساعدها في الركوب على الناقة والنزول عنها، يعلق عليها بنكات تكون عادة هي أول الضاحكين عليها. وفي الطواف والسعي كان هذا الشيخ يستأجر من يحملها، ماتت بعد وصولها من الحج بأسبوع قريبة العين، وقد حقق لها كل ما تتمناه، كان الحج أغلى وآخر أمنياتها. كانت مستعدة لهذا اليوم، جهّزت كفنها وأخذته معها لمكة وغسلته بماء زمزم، ووضعت بداخله الطيب وبقية مستلزمات ذلك اليوم الذي تنتظره منذ زمن.

بعد الحج انتقلت إلى بيت والدي في البلدة لأكون بعيدة عن أهلي وأهله، كبرت وأصبحت أتخذ قراراتي بنفسي وأتحمل نتائجها، صرت أهتم بنفسي وبيتي. أبدأ بتنظيفه منذ الصباح، وفي

المساء أنتظره على أحر من الجمر. كان صياداً ماهراً يصطاد الطيور المهاجرة ويحضر لي بعضاً منها، أما المستوطنة فلا يقربها لأنها كما يقول إلى انقراض. ثم أصبح على اقتناع أنه حتى الطيور المهاجرة أجمل من أن تصطاد، كان يقول: هؤلاء ضيوفنا فكيف نغدر بالضيوف؟

كان والده وإخوته يأتون إلى بيتي في كل يوم جمعة بعد الصلاة، فأحضر لهم القهوة والتمر والشاي والبخور، ويحضرون ما تجود به المزرعة. كان سعيداً وكنت سعيدة، ولكن النساء تغار من النساء. طلبت منه أمه أن آتي لأساعدهم في المزرعة. كما كانت أخته تشير دائماً إلى فارق السن وأن العادة أن يكون الرجل هو الأكبر.

تباعدت زيارته لي، صار يأتي مرتين في الأسبوع ثم صار يأتي مرة واحدة، شمتت من قبلاته رائحة الوداع.

طلب مني الذهاب معه إلى مزرعة أهله والسكن معهم فرفضت، فكان الطلاق الذي أصبحت به خبيرة وليس لدي مانع من تكراره.

أمضيت معه ثلاثة أعوام هي من أجمل محطات حياتي، توسدت بعدها الحزن، ونمت على فراش التعب. أصبح الليل طويلاً ومملاً، بعد أن كان كمقطع من لحن جميل. حتى النجوم التي كنت أراها تتلأأ وتتوشح بالنور حتى الصباح، أصبحت صامته حزينة. أطبقت أجفاني بقوة كيلا أرى تلك الكوايس المزعجة التي صارت تتربص بي، حاولت أن أنتزع حبه من قلبي لكن هيهات وقد تمكن منه كجدول شقّ طريقه بين الصخور.

لكن شجرة الحياة لا بد أن تورق ثانية. لن أقبع في الظلام، ولن تذرف عيني دموع اليأس، سأستقبل النور، وسأحاول أن أسبح

ثانية في تيار السعادة. زادني الطلاق قوة وصار لدي حصانة ضد الشعور بالفشل. قررت ألا أكون حبيسة الماضي بحلوه ومره. عليّ أن أستمتع بالحياة. سأفرد أجنحة الحب لأشعة الشمس ثانية وأطير.

الزوج الخامس لم أندم على زواج مثل ندمي على الزواج منه. ذكروه ولم يكن من أهل القرية. تزوج قبلي بزوجتين لم يستمر زواجه بكل منهما أكثر من شهرين. كان كبير الجسم قوي البنية، لكنه كرهه الرائحة أهديت له سواكاً فكسره ورماه. طلبت منه أن يستحم بعد فراغه من العمل، لكنه رأى ذلك ضرباً من المستحيل. بصر على أن الاستحمام بعد الحبّ لا قبله. يقضي معظم وقته مع الغنم ثم يأتي إلى البيت وقد اختلطت روائح البهائم وروثها مع عرقه. يتصرف معي كما يتصرف الخروف مع النعجة. إذا رفضت له طلباً رفع ثوبه وأغراني، كان يعرف نقطة ضعفي. كان يعتقد بأنه يملك سلاحاً سرّياً يستولي به على قلوب النساء. كم ندمت بعد ذلك. لا فائدة من نصحه، أصبح كالغصن الأعوج لا يمكن تقويمه على كبر. كان يرى المرأة كياناً ناقصاً ومصدراً للمتعة من جانب واحد. لم أجد حلاً إلا طلب الطلاق. وافق بعد تردد وأخذ وعطاء، بشرط أن أرد له كل ما دفع من مهر. تخلّيت عن كل شيء. استمتع بكل تلك الليالي دون مقابل.

أما الزوج السادس فمن أصحاب الدكاكين القريبة من بيتي. مشهور بتدينه. ماتت زوجته وضاع الكثير من ماله ديوناً على أبناء البادية. رثيت لحاله وكنت أظن ورمه شحماً. كان يعاني من مرض الكبد نتيجة لمرض البلهارسيا. لا يرد حصانه إلى الماء إلا بعد

جهد ومحاولات مضنية، وفي أحيان كثيرة يبقى واجماً على حافة الحوض. بقي عندي أقل من عام، وفي آخر أيامه مرض كثيراً وحاول أولاده أن يأخذوه مني فبكى. رجوتهم أن يتركوه فشكروني ولم يمانعوا. نظر إليّ وشكرني بلغة تنفذ من القلب إلى القلب مباشرة. مات على يدي وأغمضت عينيه وشاركت في غسله وتكفينه. هو الوحيد الذي كسبت منه بعض المال الذي أتقوى به الآن على مصاعب الحياة.

أما الزوج السابع فكان من أسرة طيبة لكنها أسرة مشهورة بالغضب. طلقني في الليلة الأولى لأنني رفضت أن أستخّن له الماء ليغتسل، كنت أقول: نحن في بداية فصل الصيف، وهو يقول: لا أطيق الماء البارد. ثم طلب يدي في اليوم الثاني وعدت إليه. طلقني في المرة الثانية بعد شهر من زواجنا، لأنني نسيت أن أضع الملح في الطعام. كان يظنني تعمدت ذلك لأنني لا أحب ضيوفه من أبناء البادية. وعاد إليّ أسرع من المرة الأولى. وفي المرة الثالثة طلب مني أن أتخلص من العنزة لأنها بالت على سرواله المرمي جانباً أثناء خروجها في الصباح، رفضت أن أتخلص منها فطلقني. ذهب إلى القاضي علّه يجد رخصة في الزواج، فنهره القاضي وقال له: «الطلاق سلاح فتاك لا يستخدمه سوى الحمقى والعابثين».

ولأن بيته بجانب بيتي فقد استمرت العلاقة بيننا، يأتي في الصباح فنشرب القهوة معاً، وأزوره بعد العصر فنتعشى معاً، يفتقدني كثيراً في مثل هذه الأيام ويفرح بأيام الشتاء لأكون بجانبه. لم يرشدني أحد لتلك الأخطاء والتجارب. كانت أمي - يرحمها

الله - تتفادى الحديث عن الزواج والرجال. كلما سألتها عن هذه الأمور تتهرب مني وتقول: ستعرفين كل شيء في وقته. عرفت أشياء كثيرة ولكن بعد فوات أوانها. كانت كل كبوة تزيدني قوة. حاولت أن أسبر أغوار الحياة فلم أستطع، لكنني سبحت مع السابحين، صبرت على الجوع والدموع، لكنني لم أصبر على ظلم الآخرين وإهانتهم، كان كلّ طلاق يزيدني قوة.

تذكّرت وأنا أدوّن ذكريات العمّة، ما قاله نلسن مانديلا Nelson Mandela: (إن أعظم ما في الحياة ليس عدم السقوط بتاتاً، بل الوقوف بعد كلّ سقوط).

سألنا العمّة: ألم تثمر جميع تلك الزيجات أطفالاً؟ أجابت:

حملت من زوجي الأول بعد زواجي بثلاث سنوات، ولكن لأن زوجة أخي مضى على زواجها سبع سنين ولم تحمل قررت التخلص من الحمل، كنت أحب زوجة أخي كثيراً، وخشيت أن تغار مني وتترك أخي، أخذت أضرب بطني بيدي وأقفز من جدار لآخر وأتصارع مع البنات. لكن هيهات، كأنني كنت أسمع من في رحمي يقول: أريد الحياة. اركضي كما تشائين واقفزي عالياً بكل ما أوتيت من قوة، وصارعي كما يحلو لك، سأظل في هذا المخبأ إلى أن يشاء الله.

رزقت بطفلة جميلة تشبهني، أحببتها كثيراً، لكنها ماتت بالمرض بعد عام. رزقت بعدها بثلاثة أطفال ماتوا جميعاً في أعمار مختلفة، يبدو أن السؤال ذكرها بأعلى آمانياتها. نزلت دمة عصية وقالت:

- أنا حديقة هجرتها الأطيّار وتبيست فيها الزهور.

- لا بل أنت منجم أعطى ويعطي الكثير.

ضحكت، وقالت: شكراً على الإطراء، كم أنا بحاجة إليه أكثر من أي وقت مضى.

سألنا العمّة عن العيد أجابت: كنا نفرح به كثيراً، رغم إمكاناتنا المتواضعة نستقبله بكل ما لدينا من وسائل الزينة وأطياب الأكل، نستخدم الحناء لتزيين أيدينا وأطراف أرجلنا، ونصبغ رؤوس الغنم والدجاج بقليل من الحناء، في صباح العيد تنزل الملائكة من السماء، وتشاركنا احتفالاتنا بالعيد، وتحثنا على مزيد من الفرح، ترقص النساء وتغني لابسات أجمل ما يملكن من ثياب، أكثر من يفرح في العيد الصغار، حتى الغنم والدجاج تفرح بالعيد.

تقول العمّة: جاء العيد في إحدى السنين وليس لدينا ما نطبخه في صباح العيد، وقبل العيد بيوم سأل أحد الجيران والذي متهكماً: ماذا ستطبخ لعيدك غداً يا أبا سارة؟

تأثر والدي كثيراً وهو يرى من يجعل من فقره وسيلة للتندر، ففكر قليلاً ثم رد عليه بكل حزم: سأطبخ من خيرات الأرض. طلب من والدتي أن تجهز له عدّة القهوة والطحين والماء حتى يجد ما يأكل بعد وصوله إلى النفود، ركب ناقته واتجه بها غرباً، تجاوز الحي واتخذ من الطريق الذي يشق الجبل مسلكاً، الناقة تعرف الطريق فكم مشتة ذاهبة وعائدة.

سار وحيداً لا يلوي على شيء، تلفحه الشمس فلا يابه. حمل فأسه وأخذ يحتطب، جلس في ظل شجرة، شرب قهوته مع بدوي يرعى إبله قريباً منه، تقاسما حبات التمر وقرص البرّ، وحلب له

البدوي الحليب من الناقة، وشربه ساخناً تغطيه الرغبة، مسح ما التصق بشفتيه من بياض وشكر الله على هذه النعمة. عاد إلى القرية يلفه السكون، في ليلة غاب عنها القمر وتزينت بالنجوم. ينصت إلى وقع قوائم ناقته المحملة بالحطب، يأنس بمراى حملتها ورقبتها الطويلة ممتدة أمامه تشير للأفق البعيد، طرق باب أحد الميسورين ووضع الحطب أمام بيته، تدثر بظلام الليل وعاد إلى بيته، فهم الميسور الرسالة وعرف أن المسكين لا يملك طعام العيد، طلب من زوجته أن تجهز له كل المطلوب لوليمة العيد وجاء إلى بيت والدي قبل صلاة الفجر مباشرة، وضع كل هذه المستلزمات أمام البيت ومضى. ركضت والدتي تحمل لوازم العيد وتضعها أمام أبي الذي تهللت أساريره وقال: الخير في العمل، بارك الله بأرضنا الطيبة وأهلها الطيبين.

* * *

يبدو أن تجربة العمّة سارة مع الزوج المريض وعنايتها به أعطتها تجربة ثرية وحبا لم يتح له الخروج إلى الضوء من قبل، راحت تهتم بخالتها الكبيرة التي تسكن وحدها مع ابن أخيها المعتوه الذي ولد مريضاً لا يحسن الكلام ولا المشي بشكل مستقيم، ربه تلك الخالة منذ الصغر وأحبته رغم احراجاته الكثيرة لها مع الجيران وأولادهم وقسوته معها. يهددها بالضرب إذا لم يجد شيئاً يأكله، حتى أطفال القرية يخافونه ولا يقفون في طريقه، ومع ذلك تفتقده كلما تأخر بالمجيء إلى البيت، لأجله ظلّت عزباء طوال حياتها، نذرت نفسها لشيء بسيط لكنه ملاً حياتها حباً وعطاء شمل المعتوه وغيره من المستضعفين. كانت تردد: أحبيت الصحراء وتعلمت من صبرها،

وجاورت الجبال وتعلمت من كبرياتها، وامتعت عيني بنخيل القرية ونجومها. عفت الرجال بعد أول تجربة لم تدم سوى ليلة واحدة، ملكت بعدها أهم شيء حين تخلّيت عن أشياء كثيرة.

أحبت هذا المعتوه بقوة، تدعو الله ألا يميتها قبله كيلا يسيء أحد معاملته، أخذت العمة سارة خالتها ومعها المعتوه إلى بيتها وصارت تقدّم العون لهما، أحياناً يساعدها زوجها السابع إذا احتاجت إلى حمل خالتها العجوز من مكان إلى آخر. وفي أحد الأيام شبت النار في ثياب المعتوه فاحترقت قدماء وظلت تعتنني بالاثنين معاً.

لم تكن العمة سارة صغيرة في سنها، لقد جاوزت الستين، لكنها كانت بصحة شابة في الأربعين، كانوا يعززون قوتها لكثرة أكلها التمر وشرب اللبن، لكنها كانت تقول: آكل كل شيء بمقدار، لكنه النشاط وكثرة الحركة داخل البيت وخارجه، لا حياة مع كثرة الأكل والخمول.

تذهب يومياً إلى السوق وتشتري ما تحتاجه، تناقش الأسعار كثيراً، كانت تحس بالمتعة والنشاط كلما عادت إلى بيتها.

كانت تتمتع مع كبرها بقوام رشيق تحسدها عليه النساء، معظمهن لا يستطعن المشي بعد سن الستين، إلا أن في مشيتها عرجاً بسيطاً لا يلاحظ إلا إذا أسرع.

مع أن مقياس الجمال في ذلك الوقت هو السمنة وخاصة إذا تركز في المؤخرة، إلا أنها كانت تحذر قريباتها منه، كانت تقول لهن: السمنة لا تصلح إلا للإبل، زيادة الشحم ستجعل منكنّ كتلاً من الصعوبة تحريكها.

مع كبرها استطاعت العمّة العناية بخالتها وبالمعتوه، وتستعين بزوجها السابع على حملهما إلى الحمام الذي هو عبارة عن مجرى لتصريف الماء مرصوف بالحجارة. ترتاح لمساعدته إيّاهما لتشرکه في الأجر من الله، كما أن عمّاه يريحها من تأنيب الضمير لو انكشف له شيء مما يجب ألا يراه الغريب، بعد مدة بسيطة مات المعتوه وماتت خالتها بعده بأربعين يوماً.

مجتمع القرية

مع أن العمة سارة صاحبة مزاج متقلب كمناخ الصحراء في آخر فصل الربيع، خاصة بعد تقدمها بالسن، إلا أنها كانت مثلاً يُحْتَدَى في الحزم واتخاذ القرار، أقرب الناس إليها كانت والدتي التي ورثت الكثير من صفاتها، كانت مكافحة وصابرة مثلها، يحاصرها الفقر فتهزأ به وتقول: ليس الفقر سوى عقاب من الله على التواكل والكسل. بعد موت والدي ساءت الأحوال كثيراً وجاء وكيل الورثة ليحصي ما بقي له ويسدد ما عليه من ديون.

لم يجد في البيت سوى الجوع وقليل من التمر وبنديّة فتيل صدئة وحبل طويل لم يعد يصلح لشيء. ثم استدار إلى أواني الطبخ فوجد دلتين وإبريقاً أسود ونجراً وملقطاً ومحماً، جمع هذه كلها مع التمر وحملها فوق رأسه ومشى.

تذكّرت والدتي أن مهرها خمسون ريالاً لا يزال ديناً على المرحوم والدي ولم يسدده. نادى على الوكيل وكان يتوقع منها ذلك. كان يمشي ويلتفت كمن أضاع طريقه. كيف يتركهم في بيت لم يبق به سوى الغبار والدرج والأبواب يعلوها التراب؟ عاد إليها وأنزل الحمولة من فوق رأسه، وبدأت المفاوضات من جديد. قالت:

- لي على المرحوم خمسون ريالاً هي مهري في ذمته، مات ولم يسدها وهذه الورقة شهادة إقرار منه .

- أريني الورقة. وبعد أن قرأها وتأكد من صحتها أجاب:

- أترك لك كل شيء بشرط واحد.

- ما هو؟

- أن يكون مقابل كامل المبلغ ، وأن تعطيني الورقة أمزقها الآن.

ترك كل شيء ومضى .

بقيت والدتي في المزرعة تستعين بطفل جارنا الذي لم يتجاوز عشر سنوات ، من رآه ظنه ابن خمس سنوات فقط بسبب الفقر والمرض، كانت علامات الجدري واضحة على خديه، قدماء كعودين أحرقتهما النار، رأسه مليء بالقروح نتيجة الإهمال، وجد به القمل بغيته، لم يلبث أن ترك العمل بالمزرعة بعد افتتاح أول مدرسة حكومية .

وكان لوالدتي أخ يعمل لدى أحد الفلاحين براتب ثلاثة ريالات شهرياً، ومع ضآلة الأجر لم يكن الفلاح قادراً على دفعه، فخيّرهم بين إمهاله حتى نهاية الشهر الثاني وبين سلة مليئة بالتمر مقابل كل ريال. استشار الأخ أخته التي رحبت بهذا العرض السخي واختارت التمر، بشرط أن يكون الدفع على ثلاثة أقساط، سلة كل عشرة أيام على أن يبدأ الدفع يوم غد. عاد أخوها في اليوم الثاني وعلى رأسه سلة مليئة بالتمر فاستقبلته أخته بابتسامة عريضة طالما افتقدتها، وضعت السلة أمام الأطفال، أقسمت ألا ترفع سلة التمر حتى يشبعوا، ولأول مرة منذ سنوات ينامون وليس لهم في الأكل

رغبة، أخذت ما بقي من التمر ووزعته على وجبات متساوية تغطي مدة الأيام العشرة القادمة.

بحث الأم عن عامل يساعدها على أعباء المزرعة ولم تجد، معظم الأولاد التحقوا بالمدرسة. كان هناك امرأة زوجها غائب منذ سبع سنوات ولم يسمعوا عنه شيئاً منذ مغادرته، حاول خالها الوصي عليها، تطليقها منه، لكنها رفضت بشكل قاطع. «لا بد أن يعود»، هذا ما كانت تردده دائماً. ولدها الذي كانت حاملاً به عند سفر الزوج صار عمره أكثر من ست سنوات ودخل المدرسة، يقال إن زوجها ذهب إلى الكويت وحاول أن يعمل بالتجارة لكنه خسر كل شيء، ويقال إنه يعمل مع شركة أجنبية في شرق المملكة. كانت تسأل كل من يأتي من السفر عن زوجها بصرف النظر عن الوجهة التي أتى منها.

استعانت بها والدتي في المزرعة مقابل أن يتقاسما غلة التمر للعام الحالي. عملت معها أقل من شهر وتوقفت لأن زوجها وصل أخيراً وليس معه سوى عدد من قضبان الحديد، سلمها للصانع في اليوم الثاني، ليصنع منها مناجل وفؤوساً، ومن أهل القرية من قال إنه عاد محملاً بأكياس من الذهب والفضة.

حاولت والدتي أن تستعين بصديقتها حصّة، زوجة قريبها الذي سافر للعراق ومنه إلى (بومباي) بالهند. لكن إخوان حصّة أخذوها عندهم فهم أولى بخدماتها ولا مانع لديهم من تطليقها منه.

لم يكونوا على وفاق مع زوجها على أي حال، لأن هناك شكوكاً كثيرة عن شربه الدخان، كانت حصّة تحبه بشكل جنوني، تحبه لوسامته وكرمه. قبل سفره حاولت أمه من الرضاعة إقناعه بأن

يطلقها لتزوجه قريبتها، لكن جمال حصّة وتفانيها وحبها له فوّت الفرصة. حتى عندما ضربها بالملقط لماً رفضت أن تصنع قهوة لتلك المرأة وبناتها، مما سبب لها ألماً وأسى، ابتلعت كبرياءها وعملت لهم القهوة، ثم ذهبت إلى بيت أمها دون أن تخبرها بما حدث. عادت في المساء إلى بيتها، ومعها وجبة عشاء طبختها أمها التي خيرتها بين العشاء معهم أو العشاء مع زوجها، فأخذت الخيار الثاني دون تردد.

كان إخوان حصّة يبحثون عن أي فرصة للذهاب إلى القاضي لتطبيقها منه حتى من غير رضاها لغيابه كلّ تلك السنوات، خاصة أنه بات من شبه المؤكد أنه يدخن. آخر محاولاتهم لإثبات تدخينه، طلبهم من إحدى جاراتها أن تطلب منها قليلاً من مادة التبغ لتضعها على سنّ ابنتها التي لم تنم منذ أيام بسبب آلام الأسنان، قالت: إن مادة التبغ تخفف الآلام. أقسمت لها ألا تخبر أحداً، ولن تنسى لها هذا الجميل، لكن الحيلة لم تنطلِ وأنكرت حصّة بكل حزم أن زوجها يدخن.

طلب منها إخوانها الذهاب معهم يومياً إلى وادي (مَرخ) لجمع أكبر كمية من العشب. الخير هذا العام كثير، كانت حصّة تحصد النفل والخزامى وتقول: هذه النباتات تذكّرني بأنفاس الحبيب الغائب، لعلّ الريح تحمل إليه أشواقِي. كلّ يوم يتلّ الليل بدموعي ويستنير ضوء النهار بأملِي، أشمُّ رائحة الحبيب، فإن صدّقت قلبي فإنه يقول: هو ليس منا ببعيد. تدمي الأشواك المندسة بين الأعشاب أناملها فتقول: هكذا الحياة. ثم تشخص ببصرها نحو الأفق البعيد لتستقبل نسيمات الربيع الحانية.

عاد زوج حصّة من غربته بعد حديثها مع الزهور بيومين . حاول أن يأخذها إلى بيته، فرفض إخوانها عودتها معه إلاّ بعد أن يدفع كل التكاليف التي صرفوها على زوجته وطفليه خلال الأربع سنوات الماضية، لكنها تصدت لهم بكل حزم وقالت: هو الذي يستحق الأجر مقابل عمل زوجته معكم دون إذنه . سحبته إلى داخل حجرتها وأبقته مستيقظاً حتى الصباح رغم تعب من السفر . تسمرت عيناها العاشقتان في عينيه ، قرأ من خلالهما عواصف من الحب والعتاب، مرّرت أنفاس الحب على كل زوايا جسده، خاطبته بهمس أطفأ لهيب الشوق في قلبها، قالت له: همست لي الأشجار وبشرتني بقدمك، شممت عطرك من بعيد، كنت تسكن معي منذ رحيلك، وكنت أناديك كلما أيقظتني أحلامي في بعض الليالي الموحشة .

عرف إخوانها أن شجيرات الحب إذا نمت داخل أسوار القلب فمن الصعب على عواصف الكره والبغضاء أن تقتلعها . في الصباح جمعت أغراضها البسيطة ووضعتها فوق رأسها، أمسك هو بالطفلين ودلفا جميعاً إلى جنتهم الصغيرة، إلى منزلهم .

تذكّرت وأنا أدوّن هذه القصة عبارة جميلة قيلت: «إذا احتفظت في قلبي دائماً بغصن أخضر، فإن طائراً ما لا بد أن يقف عليه» .

لم يبق لدى حصّة وزوجها سوى مشكلة واحدة وهي اعتراض جاره إمام المسجد على جهاز الراديو الذي أحضره معه من العراق، وصار الجميع يتحلّقون حوله، صار الراديو وسيلتهم لمعرفة ما يدور خارج جبال القرية .

قال له الجار: لديك شيطان في بيتك . فما كان منه إلاّ أن دعاه

بعد صلاة الجمعة، ومع القهوة أخذ يتنقل من محطة إلى أخرى. قال جاره: دعني أقرأ عليه فإن سكت فهو شيطان. أخذ يقرأ عليه من القرآن مدة نصف ساعة، ولما لم يسكت قال: «ويخلق ما لا تعلمون» وتركه وشأنه.

أصبح الراديو وسيلة اتصالهم بالعالم، أيقظ ذلك المارد الصغير كثيراً من الخلايا النائمة في رؤوسهم، وأصبح مالكة مصدراً موثوقاً للأخبار. كان الكثير من سكان القرية، وخاصة النساء والأطفال، يعتقدون بأن العالم هو قريتهم وما يحيط بها من جبال ورمال.

عاد إلى البلدة أحد أبنائها الذين ذهبوا إلى الشام وفلسطين، وزار القدس وأخذوا يتناقلون عنه أخباراً كثيرة قال هو بعضها وزادوا في البعض الآخر. أكثر ما أثارهم خبر الصخرة المعلقة بين السماء والأرض، التي تهبط كل يوم مقداراً معيناً، وعندما تلامس الأرض تقوم القيامة. ذكر بعضهم أنه لم يبق بينها وبين الأرض إلا قليلاً مما يعني قرب قيام الساعة. وبعضهم قال إن فلاناً مرّ من تحت الصخرة وأنه يستطيع لمسها بيده، وبعضهم قال إنه لم يستطع لمسها إلا بالعصا وهو على ناقته. معلومات ناقصة وبعضها ليس له أساس من الصحة، تصبح حقائق لا تقبل التشكيك أو التمحيص والنقاش.

أكثر الأحاديث بين الرجال تدور بعد الصلاة عند باب المسجد، بعضهم يشارك بالحديث وبعضهم يستمع فقط. أحدهم سافر إلى العراق وصار يشكك في كثير مما يقولون، مما جعل بعضهم يشك في صفاء عقيدته وكمال عقله. أما النساء فتدور معظم أحاديثهن داخل البيوت وفي أثناء طحن الحبوب وتجهيزها، أكثر أحاديثهن

عن النساء الأخريات وعلاقتهن بالرجال، وعن الرجال وكيف يعاملون النساء .

كان التدخين من الأمور النادرة، وأكثر المدخنين من الذين سافروا خارج القرية وبخاصة ممن سافروا خارج الجزيرة العربية . أكثر ما يستورد التبغ من العراق، ويقوم المدخن بلفه بورق خاص عندما يرغب في التدخين . يحاول المدخن إخفاء الأمر عن الناس وخاصة عن كبار السن من الأقارب . في هذه القرية يذهب المدخنون خارج حدود القرية ، ويتخلص المدخن من ملابسه ولا يبقى عليه سوى ملابسه الداخلية أثناء التدخين حتى لا تعلق بها رائحة الدخان عند عودته إلى أهله، ومن الأماكن المفضلة للتدخين في القرية غار يسمى غار شعيل، سألتنا العمّة سارة لماذا سمي غار شعيل؟

فأخبرنا أنّ شعيل هذا واحد من أجدادنا لست أعرفه، لكن سمعت قصته من والدي، كانت له ابنة عم أحبها وأحبته قال لها قصائد حب، وناجاها على ضوء القمر، عاشا في مكان واحد، يرعيان الغنم ويعملان في هذه المزرعة . كان العرف يقضي أن بنت العم لابن عمها، لا أحد يستطيع أن يتزوجها إلا إذا كان ابن العم غير راغب في الزواج منها . شعيل يرغب في الزواج من ابنة عمه، لكن زوجة العم رفضت أن يزوجها له، لأنها تريدها لابن أخيها . يبدو أن شخصية العم أضعف من أن يخالف رأيها . تم الزواج كما تريد الأم، وكنتم شعيل غيظه وجلس وحيداً يسامر النجوم في لياليه الحزينة، سكت تقديراً لعمه وحرصاً على عدم إغضابه .

في أحد الأيام زارهم ضيف من وجهاء البلدة، وأثناء تقديم

القهوة تفوه هذا الضيف بكلام لم يزنه ولم يفكر في عواقبه المدمرة، قال: «عَدُّوا شعيل الفنجال كما عدّوه ابنة عمه». يقصد أنه طالما أن عمه لم يزوجه بنته، فإنه لا يستحق أن تقدم له القهوة. كان يريد لها نكتة يضحك منها الآخرون، لم يفكر هذا الضيف في ما يمكن أن تتركه كلماته من أثر، ربما لم يعرها قائلها اهتماماً.

حال خروج الضيف وذهاب العم إلى مزرعته، ذهب شعيل إلى الدار، وأخذ بندقيته، وجهازها بالبارود، ثم اختار لها رصاصة كبيرة لها قدرة على قتل جمل من مسافة بعيدة، اتجه إلى المزرعة حيث يوجد عمه، يدفعه الغضب والجهل بعواقب الأمور. كان حمل النخيل ينوء بها، والماء ينساب صافياً من البئر تخرجه الغروب المربوطة بالجمال ليصل إلى النخيل فيسقيها، سار بين النخيل التي يعرفها جيداً، وعند آخر نخلة رأى عمّه منهمكاً في سقي النخل، وقف شعيل على مقربة منه، أشهر بندقيته وقال: أين تريدها يا عمّي؟ ويعني الطلقة. يضحك العم مستهزئاً، ولم يخطر بباله أن ابن أخيه الحلیم الذي طالما مازحه يعني ما يقول، ثم يجيبه: بالبومة وأنا عمّك، ثم يواصل عمله. تنطلق الرصاصة لتستقر في مؤخرته كما طلب، وتلقيه الطلقة جثة هامدة على بعد أمتار، متوسداً تراب مزرعته، والماء يمرّ من تحت جسده البارد.

يلقي شعيل بالبندقية ويختبئ في هذا الغار الذي سمي باسمه حتى اليوم، يقضي فيه كل نهاره وأول ليله، يتسلل في آخر الليل إلى بيت أخته علّه يجد ما يسد به رمقه، استمر على هذه الحال أكثر من شهر حتى ملّ حياته، صار يعيش كما يعيش الذئب وابن آوى، صار الخوف يلازمه في كل وقت وزمان.

في ليلة سهر فيها مع النجوم، وأحس بالنسمات الباردة المحملة بالرطوبة ورائحة النخيل، اتخذ القرار الصائب. انتظر حتى ينام الجميع، وسار على أطراف قدميه سار بين النخيل التي احتضنته صغيراً وكانت شاهداً على ما اقترفه من ذنب بحق عمه، وصل إلى المكان الذي ينام فيه أبناء عمه، كانوا نائمين في مجرى الوادي المجاور لمزرعتهم، حيث الرمال الحانية والنجوم الساهرة، اتخذ له مكاناً بينهم ونام لأول مرة مرتاح الضمير منذ ارتكب حماقته بحق عمه.

عندما استيقظ أحدهم، ورأى المطلوب الأول نائماً بينهم، أيقظ إخوانه وكانوا ثلاثة. نظروا إليه فإذا هو يغط في نوم عميق كطفل ينام في حضن أمه، تشاوروا ماذا يفعلون ثم اتخذوا قراراً ينم عن الحكمة وبعد النظر، أيقظوه وأخبروه أنهم عفوا عنه ثم قالوا: لست قاتل أبينا، قاتله من أيقظ الجراح. لست سوى أداة عمياء استخدمت لقتل النفس التي حرّم الله. يكفيننا ما نرى بعينيك من حزن وما نحس بقلبك من أسي.

أذن المؤذن وذهبوا جميعاً إلى صلاة الفجر. قرر شعيل أن يغادر القرية وابتعد عدة سنوات لعلها تلتئم الجراح.

أستمع كثيراً بأحاديث قريبتي الكبيرة التي تحدثني دائماً عن والدي، وتشني على صفاته وتكرر دائماً: تشبهه وأذكره كلما رأيتك. تقول تلك المرأة: كان أكثر من عرفت عطفاً ورحمة، يمرّ عليّ دائماً لتفقد أحوالي. جاء ذات مساء فوجدني أتالم من آثار الحمل وبداية الطلق، قرأ علامات الخوف والألم في وجهي، استحال لوني إلى الأصفر من الخوف، كان الوقت ليلاً والبيت

مظلماً وكل شيء ساكناً كميّاه بئر، ذهب والدك إلى المسجد وأحضرت لي زيتاً من سراج المسجد، أشعل السراج، وبقي بجانبني حتى طلبت منه الذهاب لينا، ودعته بيد ترتجف كذبالة السراج، تراءت لي في تلك الليلة صور كثيرة تتماوج على الجدران وتتسلق إلى السقف، خلقتها تهزأ بي. جاء زوجي بعد صلاة العشاء وذهب مباشرة وصعد الدرج إلى منامه في سطح المنزل كالعادة. بقيت وحيدة مع آلام الولادة ليس عندي سوى أربع بنات صغار أكبرهن لم تتجاوز العاشرة، أبقيتهن نائمات حتى لا أخيفهن بما أعانيه من متاعب وآلام.

نزل زوجي لصلاة الفجر ليجدني بانتظاره، ومعني مولود ذكر يشع نوره من خلف القماش الملفوف به كمصباح، بشرته بالولد بعد أربع ولادات كانت حصيلتها أربع بنات. هز رأسه ومسح على لحيته ثم واصل سيره للمسجد دون أن يلتفت إليّ. كنت أعلم أنه فرح كثيراً لكن إظهار الفرح ليس في قاموس حياتنا، ماذا يريد مني أكثر من ذلك ليعلن فرحه؟ تأثرت كثيراً وبكيت لكن فرحي بطفلي أزال خوفاً وغضبياً، أنظر إليه وكأنني للتو عثرت على كنز من الخيرات، توسمت فيه الخير وعلقت عليه الكثير من الآمال.

عاد زوجي من صلاة الفجر وأشعل النار وجّهز قهوته وشربها وحيداً وأنا مضطجعة بقربه، أضاف الماء المغلي إلى ما تبقى من القهوة وأخرج من كيسه ثلاث تمرات ثم نادى على ابنتي الكبرى وطلب منها أن تصب لي فناجين القهوة ثم نهض وغادر لمزرعته.

من قال إن الأولين أفضل منكم؟ كانوا قساة كبيئتهم، يرون خدمة المرأة مذلة، والابتسام في وجه الطفل مضيعة للمهابة،

والمداعبة مذهبة للرجولة، قست عليهم الطبيعة فقسوا على أنفسهم
وقسوا علينا، الحنين إلى الماضي متأصل فينا، نتذكر حسناته،
وننسى مآسيه وشظف عيشه، نظن دائماً أن الماضي أجمل وأنقى،
مع أنه كان يعج بالجهل والمرض والفقر، وقسوة بعض الناس على
بعض، وخاصة على الضعيف والفقير والمرأة والطفل.

الحب والعطف لا يتنزلا ن وحيأ ولا يوجدان مصادفة، لكنهما
كغيرهما من الممارسات، بحاجة إلى بيت يزرع، ومدرسة تسقي
وترعى. الحب ما لم يره الطفل في عيون أمه ونبرات صوت أبيه،
منذ الأشهر الأولى من عمره، وفي طيات الكتب المدرسية وفي
صوت المعلم وحسن تعامله، فسيبقى بعيد المنال، ويحلّ بدلاً منه
الكره وسوء المعاملة. في كلّ نظرة أم وفي كلّ نبرة صوت أب
برمجة لذلك العملاق القابع في رأس الطفل. أهم الأمور بداياتها
وأهم مراحل برمجة عقل الطفل سنواته الأولى. كلام قريبي المسنة
أوحى لي بقصيدة قلت فيها:

صنعت مني الصحاري
جَملاً دون اختياري
أذرع الصحراء حافي
أغرق الجوع ضفافي
في جدار اليأس علّقت الأمانى
بعواء الذئب أبدلت الأغاني
رحم الله أبي
لم يورث للصبي

غير كَرّ وفتيل (*)
 لم يكن قطً بخيلاً
 للضيوف القادمين
 كان بالحب ضنيناً
 من يلومه
 وهو يومه
 جلّه يقضيه لهثاً
 بين كدّ وعناء
 بين جوع وشقاء
 لم يسامر نجمة بعد المغيبا
 لم ير الوردة في الحقل الكئيبا
 تقرأ اليأس جلياً
 في تضاريس الجبين
 في شقوق القدمين
 والليالي مدلجات
 كخيول جامحات
 سيرها ظل دفين
 من ملايين السنين .

(*) الكَرّ أداة تستخدم لتسلق النخل .

الفتيل : اسم لنوع من البنادق القديمة .

خرجت يوماً صبية
 قطفت ورداً هدية
 ركضت نحو أبيها
 طوقته بيديها
 فرح الشيخ كثيراً وأضاف:
 في حياتي لم أجد شيئاً كهذا
 من هداك؟
 كان درساً في القراءة
 كان درساً من منيرة
 من منيرة؟
 هي ضوء وشموع
 وابتسام ودموع
 علمتني كيف أشتاق الحياة
 بعد أن كان شعوري في بيات
 رسمت في اللوح وردة
 وحقولاً وفراشات كثيرة
 هي في الحبّ خبيرة
 يا إلهي كم منيرة؟
 تنشد الحبّ أسيرة
 صوّروا الشوق غراماً
 جعلوا الحبّ حراماً

هل يصير الحب ضوءاً في ليالينا البهيمية؟

هل يكون الحب بعثاً لأمانينا الدفينة؟

ربما صار ولكن

بعد حين

عندما يصبح همس الحبّ أقوى من صراخ النائحين

عندما تغرب شمس أحرقت وجه السنين

عندما نعرف أنا في سراب مبحرين .

أهداف وإنجازات

أمام هذه الضغوط عزمت أُمي على تحقيق ثلاثة أهداف: الأول أن تتزوج، الثاني: أن تعلم ابنها، وتزوج ابنتها، الثالث: أن تبني بيتاً، فهذا البيت الذي هي فيه سوف يؤول لأخيها الأكبر وأبنائه الذين سيتولون العناية بالمزرعة بعد زواجها وترك المزرعة والبيت لهم.

تزوجت الوالدة رغم عدم رضا عمتها سارة، وورزقتُ بأخت. تأقلمت مع بيتي وأهلي الجدد وأنست لجيراني الطيبين وخاصة ابنتهم لطيفة التي تقاربنى في السن، إلّا أنني كنت أسبب لأُمي الكثير من الإزعاج بطلباتي، أبكي لأنفه الأسباب، على الجميع أن يحققوا طلباتي، كنت كثير الشجار مع أختي التي تكبرني بأربع سنوات، اليُثم جعلني محط الأنظار والعطف من الجميع.

كنت أخاف من كل شيء يبرز أمامي، حتى من السحلية المسالمة. ذكروا لأُمي كبد الذئب وأن من يأكلها لا يخاف أبداً. ذهبت إلى زوجة فلاح مشهور بصيد الذئاب، تقع مزرعته داخل شعب يقال له (أم برقاً) المشهورة بكثرة ذئابها، رجتها أن تطعمها من كبد أول ذئب يصطادونه، كان الشرط أن أكلها نيئة، وبعد شهر طلبت زوجة الفلاح من أُمي أن تحضر وأنا معها بسرعة، أكلت الكبد، ولم تكن سوى كبد خروف اشتراه الفلاح من الجزائر،

ليسلم من كثرة الإلحاح، ذلك أن الذئب أصبحت نادرة الوجود.

انطلقت لا أخاف من شيء، أكلت كبد الذئب فلا خوف بعد اليوم. أخبرت جميع أصدقائي، رغم تأكيدات والدتي بإبقاء الأمر سراً، أخذت أطارد الكلاب فتهرب مني لأنها تشتم رائحة الذئب، والجن لن تقربني فهي تخاف الذئب أيضاً، أصبحت مشهوراً بين أقراني بجرأتي وحبتي للمغامرة وعشق القيادة، لقد حررتني كبد الذئب من أوهام كثيرة، وفَسَحَت المجال لطاقت كامنة، كانت ستظل مطمورة إلى الأبد لولا تضحية المسكين بكبده.

تخلصت من خوفي، لكن بقيت شقاوتي التي طالما أخرجت نتائجها أمني، ففي أحد الأيام وبينما كنت ألعب مع صديقتي بنت الجيران في الشارع وجدت جسماً صغيراً على شكل مستطيل، ظننا أنه صابونة. ركضنا فرحين بما وجدناه وحاولنا تجربتها في الماء لكن لم يكن هناك رغوة، بل ازداد نظافة ولمعانياً. لكن ويا لشدة فرحنا عندما اتضح أن صابونتنا ليست سوى حلاوة غطاها التراب. تذوقتها أولاً وقررت أن أمررها لجميع الأسرة كي يتذوقوها، وابتدأت بصديقتي الغالية بينما تنتظر أختي دورها، لكن المفاجأة أن الصديقة ابتلعتها ثم هربت مختبئة عند أمها. ركضت وراءها وأنا أصبح خلفها، أخرجني الحلاوة يا طماعة. ودخلت معها إلى بيتها ودخلت في معركة معها ومع أمها وأختها التي تكبرها لأخرج من المعركة مهزوماً مقهوراً، فما هي الحلاوة التي كان سيتذوقها أكثر من شخص تستقر في بطن واحد، والهزيمة تحل بي جراء قوتهم أمام ضعفي. ملأت شق ثوبي بالحجارة وانتظرت خروج أحدهم لأثار لنفسي، وأسترد حلاوتي وكبريائي المفقودتين.

جاء صاحب البيت ووجد أهله لا يستطيعون الخروج من مخبئهم ووجدني متأبطاً الشر والحجارة، كان حليماً لم يأخذ كلام أهله على علاته دون سماع الجانب الثاني، كان يخاف الله واقتراب مني وسألني عن سبب المعركة التي دارت في بيته وفي غيابه. شرحت له وأنا أجهش بالبكاء وأختي تؤيد كلامي، وعرف الحقيقة من فم الطفل دون زيادة أو نقصان، مسح على رأسي، ورجاني أن ألقى بالحجارة جانباً، ووعدني بكيس من الحلوى عندما يذهب إلى السوق يوم الجمعة.

في المساء كان الجميع يتسامرون على ضوء القمر.

المركة

كان يوماً قائظاً مسربلاً بالكآبة ذلك اليوم الحار من أيام الصيف. كان الضيوف يملأون البيت والأم تركض هنا وهناك محاولة الإشراف على ترتيبات الغداء الذي لأجله ذبحوا خروفي المفضل الذي طالما أكل العشب من يدي، وشرب الماء معي. توقفت الكلمات بفتي وأنا أراهم يذبحونه، لقد أطلقت عليه اسم عيد، ولا أدري لماذا سميته بهذا الاسم؟ هل ولد في يوم عيد أو أن مولده بالنسبة إليّ كان عيداً؟ أكثر ما أصابني بالكآبة مرأى رأس رفيق طفولتي ملقى جانباً، وقد عض على لسانه الحزين، كنت طوال اليوم بمزاج متقلب كنهار ذلك الصيف الكئيب، لاحت غيوم الشرّ في الأفق.

على غير عادتي لم أسلم على الضيوف رغم معرفتي بهم. خاصة ذلك التاجر الحنون الذي طالما أفرحني بالهدايا كلما زارنا طمعاً بالأجر والثواب. انتحيت جانباً وأخذت ألهو بصنع بيوتٍ من الطين، مستخدماً علماً فارغة، لم ألبث أن هدمت بيوتي ودست عليها بقدمي الحافيتين، ودخلت البيت بشيايبي التي لوثها الطين، والعلب الفارغة معي أضرب بعضها ببعض، محدثاً أصواتاً مزعجة.

رأتني أمي على هذه الحالة فطلبت مني السكوت وتغيير

ملابسي، لكن لم أعرها اهتماماً، واصلت بنفس الوتيرة أضرب العلب بعضها ببعض، فما كان من الأم إلا أن أخذت العلب وضربت بها رأسي، وسال الدم غزيراً، فخرجت صائحاً والدماء تنزف رافضاً أي مساعدة، أجمع الحجارة في شق ثوبي وأصيح: دعوني أقتل بنت الحرام، لم أستطع دخول البيت لكثرة الضيوف فانتظرتها خارج البيت متحياً الفرصة المناسبة للانتقام، في هذه الأثناء خرج من أحد ثقوب الجدار ثعبان كبير، واتجه نحوي وقد يكون الدم هو الذي جذبته لهذا المكان. صحت بأعلى صوتي: (ثعبان) ثم استخدمت الحجارة لقتل الثعبان ناسياً السبب الذي من أجله جمعتها، التفّ الجميع حولي وقتلوا الثعبان ومن ضمنهم أمي التي احتضنتني واستسلمت لصدرها الدافئ، وقالت لي: لقد أرسل ربك الثعبان لأنك أغضبت والدتك، وتريد ضربها بالحجارة.

نسيت كل أسباب غضبي، وأخذتني أمي إلى الداخل لآكل حيث إنني لم أذق شيئاً منذ الصباح، كانت علامات الفرح بادية عليها وهي تقول: بارك الله في الثعابين ورحم موتاهم.

دروس

لقد علّمتني أمي درساً في الأمانة عندما ركضت إليها صارخاً: وجدت نقوداً في الشارع، كانت ريالين عربيين من الفضة وجدتهما في كيس مخبأ تحت الحصير داخل البيت، تأكدت أنني غير صادق فاتجهت إلي ممسكة بأذني الصغيرة وسألتنني: من أين أتيت بهذه النقود؟ ليكون درساً عملياً عن الصدق والأمانة، لكنني لم أخيب ظنها وقد استوعبت الدرس جيداً في ما بعد.

بعد أقل من شهر على هذا الحادث دخلت على أمي وفي يدي حزمة من الريالات وجدتها في الشارع، لأركض بها في سباق ماراثوني وكأني حامل الشعلة الأولمبية، لا أتركها إلا في مكانها المناسب، ويفرح كل من في البيت، يعدونها فإذا هي ثلاثون ورقة من فئة العشرة ريالات، ويكون المجموع ثلاثمئة ريال، وهي تعادل في الوقت الراهن ثلاثمئة ألف ريال على الأقل. وينادي المنادي باحثاً عن النقود معلناً جائزة لمن يجدها فيبلغ المنادي أنها موجودة وفي مكان أمين. يجتمع كبار القوم ومن ضمنهم صاحب المال في بيت عمي الذي عاد لتوه من الكويت. وأدخل عليهم بجسمي الصغير، وأسمع عبارات الإطراء والثناء على الحرص والأمانة، ويعطيني صاحب المال خمسة عشر ريالاً وثوباً جديداً تخيطه لي

أخته، وهي واحدة من القلائل اللاتي يملكن ماكينة خياطة في ذلك الوقت.

ذهبت في اليوم التالي للتاجر واخترت لون القماش ونوعه، ثم أخذته إلى تلك المرأة الفاضلة، وهي واحدة من أكابر القوم، سبق لها أن تزوجت بأmir البلد. لأول مرة أدخل مثل هذه البيوت الكبيرة، ولأول مرة يخاط لي ثوب على مقاسي، وتلبي لي جميع مطالب المتعددة، ولم أنس أن أطلب منها أن يكون الكُم (كبك).

* * *

جاء الشتاء حاملاً معه الأمل والنماء، جاء على غير عادته، شديد البرودة كثير الأمطار، لأول مرة أرى الماء متجمداً في الصباح الباكر، والضباب يحجب الأثل والتلال القريبة. لكن كما هو حال الحياة لكل شيء ضربته، استهانته والدتي بالشتاء فعاقبها، مرضت واختفت عن أنظار الصغير ثلاثة أيام حتى سمعت أنها طلبت أن يجهز لها القبر، نادتنني وطلبت مني أن أذهب إلى خالي وأطلب منه الحضور، قال بعضهم: إنها تريد أن تكتب وصيتها قبل الموت. بدأت تتحسن حالتها شيئاً فشيئاً حتى شفيت، ولكن ترك المرض عاهة مستديمة هي فقدان جزء كبير من السمع، إنها الحمى الشوكية لا بد من أن تترك بصماتها. تعددت أسباب تفسيرهم للمرض، وذكروا كل سبب سوى الإهمال والاستهانة بالشتاء، منهم من عزاه إلى عيون تلك السيدة التي يخشاها الجميع، كنت أراهم يتفادون استضافتها خوفاً من العين التي اشتهرت بها، وهي من كل ما يقولون براء. ومنهم من عزاه إلى أسباب أخرى ليس لها أي دليل علمي يؤيد ما ذهبوا إليه.

المرض قرّبي من أمي أكثر، وعلمت مقدار الفراغ الذي تتركه الأم، خاصة أمي أنا، فهي بالنسبة إليّ كل شيء، هي الأب والأخ أيضاً، خلال مرضها أحسست بالوحدة، لا أحد يسأل هل أكلت أم لا؟ ولا أحد يسأل إن جئت وذهبت. عرفت أن هناك شجرة، مورقة يُستظل بها يقال لها الأم. أستغرب كيف لم يراجعوا الطبيب وكان في البلدة مستوصف بإمكانات بسيطة جداً.

لم يدم الأمر كثيراً حتى مرضت، عدت من اللعب أشكو من التعب والإرهاق، لأسقط مريضاً وتلح الأم عليّ: من رآك أثناء اللعب؟ أتذكر ثم أقول: فلان، وكان نفس الاسم الذي كانت تحوم حوله الشكوك. على أي حال هو رجل لم يرزق سوى بنات. ثم كثيرون يتهمونه بقوة عينه وإتقانه للوصف. ذهبت أمي إلى زوجته لتطلب منها العون:

- تعرفين أن العين حق وأنا آتية إليك لتساعديني .

- سأعمل ما أستطيعه فأوضحي يا أم عبد الله .

- عبد الله مريض وهو ولدي وسندي بعد الله، وليس به إلا عين وأخاف أن يصيبه مكروه .

- من تعتقدين أنه صاحب العين .

- لم يره قبل مرضه سوى زوجك .

- لكن زوجي دائماً يذكر الله .

- ربما نسي هذه المرة، أريد المساعدة .

أي شيء لبسه حديثاً. سروالاً أو ثوباً أو غترة، فتشت المسكينة، وكانت امرأة فاضلة محبة للخير، ولم تجد سوى طاقة

تراكمت عليها الأوساخ ونام في طياتها العرق والغبار. أخذتها الأم إلى البيت وهي تكاد تطير من الفرح، شرعت في غسلها حتى استحال صفاء الماء إلى لون داكن يميل إلى السواد، وليكون الطعم مقبولاً أضافت إليه السكر وأحضرتة لأشربه. وكان من عاداتها أن تسقيني ماء أذيب به الأقط مع السكر بعد أن تعطيه للشيوخ الفاضل حتى يقرأ عليه ما تيسر من القرآن الكريم، مقابل ما تيسر من المال. كنت أحب ذلك خاصة طعم السكر، هذه المرة لم أستسغه فلا الطعم طعمه، ولا اللون لونه، ولا الرائحة رائحته. لكنها أصرت وبقيت بجانبني ترجوني أن أشرب، وكلما شربت قليلاً تهللت أساريرها حتى أتيت على كامل ما في الإناء وما بقي من حثالته، دهنت بها رأسي.

شفيت بعدها بيوم، وظلت تذكّرني بالقصة كلما حاولت نسيانها أو التقليل من شأن العين وخطرها. لا أدري هل أعادت الطاقة لصاحبها بعد أن عادت نظيفة، أم أبقته لمناسبات قادمة؟

ما هو إلا أقل من عام وأصاب بالحصبة، وتركض أمي وأختي للبحث عما أنقوى به على المرض، ولم يكن هناك إلا ما تنتجه المزرعة، فهذا خضار مفيد، وتلك فاكهة الأترنج الذي يعصر مع السكر، وهذا بطيخ من عند فلان، وذاك شمام من عند آخر. استمر المرض أسبوعين بدلاً من أسبوع واحد، رفضتُ خلالها الذهاب إلى المستوصف، فقد سمعت أنهم يدخلون الإبرة المؤلمة في المؤخرة. كل شيء يهون إلا الإبرة في المؤخرة.

اشتدّ المرض وخافت أمي، خيرتني بين الطبيب أو الكي، اخترت الكي من غير تردد، فقد أقنعتني خبيرة الكي أنه بسيط جداً

وغير مؤلم، أخذوا يحدثونني، ويصرفون نظري عن النار التي دفن داخلها طرف قضيب حديد بطول القدم وسماكة الإصبع، تناولته تلك المرأة وطلبت منهم أن يمسكونني جيداً، وما هي سوى لحظات وأصرخ من الألم وتنتشر في الجو رائحة الشواء. أخذت أستعيد صحتي يوماً بعد يوم، وبقيت آثار الكي علامة بارزة في مؤخرة الرأس. أيد خفية تمتد وتساند في الوقت والزمان المناسبين. هذا ما كنت أومن به وأردده دائماً.

في ربوع المدرسة

لم أكن قد أكملت السنة الخامسة من عمري عندما طلبت مني أمي أن أذهب إلى المدرسة، ولم يكن ذلك حرصاً على الدراسة في هذه السن المبكرة، لكنها تريد أن ترتاح من شقاوة الصغير وما يسببه من إزعاج وخصام دائم مع أخته ومع الجيران، تعاقبني بإخراجي من البيت وإقفال الباب خلفي، فأعود لسلاحي المفضل، الحجارة أصوبها نحو الباب.

كانت أمي على صلة قرابة بالمدير الذي قبلني مع انتصاف العام الدراسي وصغر سني، أخذتني في اليوم الأول ونادت أحد المراقبين وطلبت منه أن يدخلني إلى المدرسة، أمسكني من يدي الصغيرة وأخذني للفصل وأجلسني في آخره، جلست مع الطلبة على أرض رملية، بعض الطلبة في الأمام يجلسون على كراسٍ يتسع كل منها لأكثر من ثلاثة طلبة وأمامهم المدرس جالساً على كرسي، يطلب من الطلبة أن يكرروا ما يقول.

فرحت أمي بهذه الخطوة، فالولد في المدرسة يطلب العلم والبيت هادئ، لكنني أخبرتها بعد عودتي من المدرسة أنها مملة ولا أحبها ولن أذهب غداً، في اليوم الثاني أخذتني إلى المدرسة أركض فتركض خلفي، أحاول العودة إلى البيت الدافئ فتمنعني،

تساعدها أزقة القرية الضيقة على إحكام السيطرة. ثم تنادي من يأخذني إلى الفصل.

انتهى العام الدراسي كحلم نائم لم يستغرق في نومه، أحضر يوماً وأغيب أياماً، ولا أذكر أنني تعلمت شيئاً، حتى اسمي لم يكن مدرجاً ضمن الطلبة.

بدأ العام الدراسي الجديد وانتظمت منذ اليوم الأول، انتقلت العائلة إلى المزرعة، فصارت المدرسة على بعد ثلاثة كيلومترات تقريباً، المشي هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى المدرسة لمحدودي الإمكانيات مثلي، أما الميسورون فيستخدمون الحمير، كما بدأ ظهور الدراجات الهوائية بشكل محدود خاصة عند الطلبة الأكبر سناً.

كم مرة غبطت زميلي وهو يمر بجانبني راكباً الحمار مع أبيه، وعلى الأخص في ذلك اليوم الذي تلبدت سماؤه بالغيوم، وقد جاوزني مؤشراً بيده الصغيرة وعلامات الفرحة والفخر بادية عليه، وبعد أن هطل المطر بغزارة رأيت والد زميلي يوقف الحمار ويحتمي هو وابنه تحته حتى خفت المطر. حبّ مفرط يسكن قلب ذلك الأب، فإلى أي قلب يلجأ من غاب أبوه؟ ركضت إلى شجرة تعرفني وأعرفها، احتميت بها، أحاطتني بأغصانها، قبلتني على خدي المتيبس بقطرات من دموعها المالحة.

وفي يوم شديد البرودة، أذهب للمدرسة صباحاً حافي القدمين والصقيع يغطي الأرض، والرياح الشمالية تهزني بقوة كبقية الشجيرات المتناثرة على جانبي الوادي، وفي منتصف الطريق توقفت تماماً عن المشي، فقد تيبست قدماي ولم أعد قادراً على الحركة.

جلست على الأرض، أسندت ظهري إلى جدار أحتمي به من ريح الشمال الباردة الجافة، مدت قدمي الصغيرتين وقد تجمدتا ولم أعد قادراً على تحريكهما، يأتي الفرج من السماء، ملاك على هيئة فلاح أو أنه فلاح على هيئة ملاك يمر في الطريق، ويتعرف عليّ، ينحني ثم يحملني على كتفيه المقوّستين إلى الأمام والمتكّتين على ظهر منحني من كثرة العمل، تلتف يداي الصغيرتان حول عنقه، ويفرك بيديه الحائيتين قدمي الباردتين والمتدليتين على صدره، كم رافقتني تلك اللمسات الحانية على قدمي في ذلك الصباح البارد، من رجل يعرفني ولا أعرفه، إلى محطات كثيرة في حياتي. يقترح عليّ أن نتوقف عند أحد الأقارب لأتدفأ وأكل شيئاً، لكن صرامة المعلم وخوف العقاب، جعلاني أرفض العرض، أوصلني حتى باب للمدرسة، في المساء أرسل ذلك الرجل الطيب زوجته لوالدتي لتعاتبها على إهمال ابنها الوحيد وإرساله في هذا البرد الشديد من غير حذاء. أحست الأم بوخز الضمير وتأنيبه، في اليوم الثاني كانت في وداعي، وتأكدت أنني أنتعل الحذاء.

انتهى العام الدراسي، وزففت بشري نجاحي إلى أمي التي فرحت ومسحت على رأسي، متمنية أن أصبح معلماً مثل معلمي المدرسة.

* * *

لم تنسَ الأم هدفها الثالث وهو بناء بيت يكون لها ولأبنائها، تلجأ إليه عند الحاجة كما كان لعمتها سارة، مثلها الأعلى، لكن كيف السبيل إلى بناء البيت؟

كانت أمنيتها أن تبنيه في وسط البلد، لكن لا سبيل إلى ذلك،

لا بأس من بنائه قريباً من المزارع. هناك حظيرة أغنام بالقرب من مزرعة أهلها، آلت إليها عند اقتسام الإرث من والدها تكفي لبناء بيت.

عرضت الفكرة على أخيها الشقيق:

- لن أرتاح إلا بعد بناء بيت قريب منكم نسكنه في الشتاء، ويسكنه الولد والبتان عند الحاجة.

- لكن من أين لك تكاليف البناء؟ تعلمين أن أجور العمّال أصبحت صعبة. كنت أتقاضى ثلاثة ريالات في الشهر، واليوم أكسب ريالاً كاملاً في اليوم. ثم مواد البناء: تحتاجين إلى أخشاب وأبواب وجص وأحجار لأساس البناء، أمنيتي أن أراك تمتلكين منزلاً مثلي يكون الجنة الصغيرة لك ولأبنائك من بعدك، لن أنسى لك ما حييت موافقك النبيلة نحوي.

- ويسترسل قائلاً: كنت لي الأم والأب حيث ماتا دون أن أعرفهما، أتذكر يوم كان عمي يوزع التمر علينا في الصباح، كان نصيب الصغير تمر ونصفاً، كم كنت أفرح عندما أجد نواة التمرة المقسومة من نصيبي، كنت عنيداً جداً وأغضب لأنفه الأسباب، في بعض الأيام أحرم من نصيبي لأنني لم أصح في الوقت المناسب. كنت أكره أسلوب العنف لإيقاظي من النوم، كان بعضهم يتعمد العنف لإيقاظي، حتى يحرمني من نصيبي من التمر وفنجان القهوة، أتذكر جيداً عندما تؤثريني بنصيبك من التمر لما يكون مزاجي غائماً ولا أحضر القسمة، كنت تحرصين على إيقاظي بنفسك حتى أتناول أنا وأنت نصيبنا من قسمة الصباح من غير نقصان. لا أنسى موافقك عندما يعتدي عليّ من هو أكبر مني، كنت تدافعين عني

بكل شجاعة وتدخلين معهم في عراك يدل على الشجاعة والقوة، ثم تمسكين بيدي وتأخذيني إلى البيت .

بودي أن أساعدك وأعمل معك دون مقابل، ولكن تعلمين ما علي من ديون جراء بناء البيت وتكاليف الزواج .

- أنا إن شاء الله عازمة على بناء البيت، حتى لو اضطرت لبنائه بنفسي. أريدك أن تخبرني كم سأحتاج لأحيل هذه الحظيرة إلى منزل يضم ثلاث غرف ومطبخاً وحماماً؟

- كم لديك من المال لتبديني؟

- ليس لدي الكثير، لكن لدي بقية مهري، ولديّ ما هو أهم من المال، العزيمة التي ستدلل كل عقبة. وسأقترض الباقي، المهم أن تخبرني غداً بالتكاليف.

- لا تنسي أن هناك صعوبة في الاقتراض، الناس لم تعد ترد المال في الوقت المناسب.

- ليس مهماً. سأمر عليك غداً لمعرفة التكاليف.

* * *

بدأت دراستي في السنة الثانية، واخترت السكن عند عمي الذي عاد أخيراً من الكويت، وبنى بيتاً جميلاً من الحجر في وسط البلدة، قريباً من المدرسة. أذهب كل صباح إلى المخبز الذي افتتحة أحد أبناء البلدة مؤخراً، وأشتري الخبز، تقوم زوجة عمي بتحضير الحليب الساخن الذي يغمس فيه الخبز.

من بين تلك الشوارع الضيقة وصلت إلى المدرسة ذلك الصباح، أعراض المرض بادية علي، أشعر بالغثيان وآلام الرأس والحاجة إلى النوم. يشرح المدرس الدرس، يلتفت فيراني أعط في نوم

عميق، يناديني فلا أجيب، يتطاير الشرر من عينيه كجمر تولته ريح الشمال، يلكنني زميلي الجالس بجانبني، وعندما رفعت رأسي رأيت المدرس واقفاً وقد نفذ صبره، يطلب مني الوقوف وإعادة ما قاله، لا أجيب، يزداد المدرس غضباً، ويطلب مني الوقوف أمام السبورة. أمشي إلى السبورة بتثاقل وجسمي الصغير ينتفض من شدة الخوف، وينهال علي المدرس ضرباً بالعصا على رأسي وظهري، أحاول أن أركض كما طلب المدرس فلا أستطيع.

أشعر بالرطوبة تنزل إلى الفخذين والساقين. في الطريق إلى السبورة، أسقط على الأرض ولا أصحو إلا في بيت عمي وإلى جانبي عمي وزوجته والممرض الذي يعالج الناس عادة إذا غاب الطبيب، بقيت ثلاثة أيام في الفراش، قبل أن تعلم والدتي بمرضني. تأتي لزيارتي وتأخذني معها مستعينة بجارهم الذي يملك حماراً أبيض كبيراً يشبه الحصان، أتعافى بعد أسبوع، وأرفض العودة إلى المدرسة قائلاً لأمي:

- لا أريد مدرسة يضرب فيها اليتيم مثلي وهو مريض، ولا يضربون الآخرين خوفاً من آبائهم حتى ولو كانوا من المشاغبيين، سوف أرعى الغنم وأعمل في المزرعة، مثل أبناء جارنا ولن أحتاج إلى المدرسة بعد اليوم.

- لكنني أريدك مدرساً ترفع رأسي أمام الناس وتكفيني الحاجة في قادم الأيام.

في صباح اليوم الثاني رفضت الذهاب إلى المدرسة، ذهبت إلى حظيرة الغنم وأخرجتها وسرت بها إلى الجبل، عدت بعد عودة الطلبة من المدرسة، في المساء ذهبت أمي إلى منزل المدير،

وأخبرته بما حصل لابنها ورفضه الذهاب إلى المدرسة، وعدّها بالحديث مع المدرس حتى لا يتكرر الخطأ، ووعد بإرسال مندوب المدرسة أبو سعد ليحضر ابنها غداً إلى المدرسة.

في الصباح اتجهت إلى حظيرة الغنم، لكن أمي أخبرتني أن الغنم ستبقى في الحظيرة، لأن هناك من سيأتي لشراء الغنم لحاجتهم إلى المال.

لكنني عرفت سبب عدم إخراج الغنم من حظائرها. أمي تريدني أن أذهب إلى مدرسة ترى الضرب أفضل وسائل التأديب، لن أذهب لمدرسة صرت أكرهها.

هناك شيء غير عادي، أمي في حركة دائبة، ولأول مرة أرى عمود الدخان يخرج من تلك الفتحة في المطبخ في هذا الوقت من النهار، لا بد أن هناك ضيفاً قادماً، في هذه الأثناء سمعت صوت المنادي يمشي بين النخيل، لقد دخل المزرعة من أسفلها لا بد أنه يأتي لأول مرة. يخفيه النخيل أحياناً ويسير في طريق متعرج متفادياً أشجار الخضروات التي زرعت حديثاً. صوته يقترب من البيت، قالت والدتي: لعله من سيشتري الغنم، فرشت له بساطاً متواضعاً تحت السدرة التي ظل ينظر إليها ويلتقط بعض ما تساقط من حملها، إنه مندوب المدرسة بقامته الطويلة ونظارته السوداء، أرسله المدير وأكد ألا يأتي إلا والطالب معه. كان المندوب رجلاً حليماً ومربياً من الطراز الأول، لديه وسائل إقناع كثيرة، يبدأ بأبسطها.

بادرني بالسؤال:

– لا بد أنك تعتقد بأن اليوم هو الجمعة، ولهذا لم تذهب إلى

المدرسة؟

- أعرف أن اليوم الأحد، ولكنني لا أرغب في هذه المدرسة، ثم إن أهلي بحاجة إلى من يساعدهم في المزرعة ورعي الغنم.

- لا نريد منك أي مساعدة، إن كنت تريد مساعدتي وإسعادي فالبس ثيابك وخذ دروسك واذهب إلى المدرسة. مدت الأم فنجان القهوة للمندوب وشكرته على تكبد مشقة المجيء.

- ستذهب معي ولن يضربك أحد بعد اليوم إلا إذا أخطأت أو أهملت في دروسك.

- لكنني أكره من يضرب، حتى الغنم التي أرهاها لا أضربها. عندما ترى العصا تهرب مني وتكرهني فكيف بنا نحن البشر؟

- أعدك أن ذلك المدرس لن يضربك بعد اليوم، لكن عليك أن تجتهد، هو حريص عليك ويريد مصلحتك. سوف نقابله ونشرح له وجهة نظرك.

سحبتني أُمي إلى داخل البيت، وأخذت عصا وقالت: أنا التي سوف أضربك إذا لم تلبس ثيابك وتذهب معه الآن.

سلمتني لمندوب المدرسة، سرنا معاً والمندوب ممسك بيدي خشية الهَرَب، فمن الاستحالة للحاق بصبي لا يريد المدرسة وفي منطقة مفتوحة.

في الطريق إلى المدرسة ظل المندوب يسدي إليّ النصائح، وكرر مراراً: «إذا أردت الرفعة فعليك بالعلم، إياك أن تتركه، العلم هو أساس كلّ تقدم وما عداه وسائل مساعدة، من تعب في طلب العلم في صغره ارتاح في كبره». ردد الكثير من الحكم والأبيات التي يحفظها ويكررها دائماً.

ذهبنا إلى غرفة المدير مباشرة. سلّمت على المدير لأول مرة،

أشار علي بالجلوس، وطلب من المراقب أن ينادي المدرس بعد انتهاء الحصّة، دخل المدرس مستغرباً، وجلس على الكرسي المقابل للمدير.

بادره المدير قائلاً: هذا هو عبد الله رفض الحضور إلى المدرسة لأنك ضربته وكان مريضاً.

- لا أذكر في أي يوم ضربته ولكن إن ضربته فلمصلحته. ألهذا دعوتموني؟

- هو يريد أن يترك الدراسة لأنك ضربته.

التفت إليّ المدرس وقال: لولا حبي لك وحرصتي على مستقبلك لما ضربتك، ولتركتك ترسب آخر العام.

- لكنك ضربتني وأنا مريض لأنني يتيم.

طلب متي المدير أن أسلم على المعلم، مددت يدي الصغيرة، فمد لي المدرس نفس اليد التي ضربتني قبل أيام، وجرني إليه وقبل جبيني ثم قال لي: لن أضربك بعد اليوم.

انتهى العام الدراسي وأعلنت النتائج، وكنت من الناجحين، أخذت شهادتي لخالي الكبير الذي يعتقد بأن الدراسة مضيعة للوقت، وقد يكون الهدف منها غير معلن، قد يكون الهدف تجنيدهم لخدمة الحكومة بدلاً من العمل في مزارع الآباء والأجداد، ومنهم من قال: إنهم سيرسلون إلى مصر لتعلم أمور الدنيا ونسيان أمور الآخرة. هزّ الخال رأسه، وطلب مني ترك الدراسة عندما أنهى السنة السادسة الابتدائية.

خطوات

بعد عام اشتكت فيه الأرض من الجفاف واستحال لونها إلى الأصفر، وبعد أن عاث الغبار بكلّ مكان، نزل المطر متأخراً وتراكم الفلاحون لبذر القمح وحرث التربة وتجهيزها للسقي.

لم يكن في القرية سوى آلة حرث واحدة أمّنتها وزارة الزراعة وتخدم جميع مزارعي البلدة. هناك طابور من المنتظرين لمدة أسبوع على الأقل، مما يعني جفاف التربة وتأخر موسم الزرع.

الأرض المجاورة لنا لم تزرع منذ سنوات، أرضها خصبة وزادها السيل خصوبة هذا العام. لا يمكن التفريط في هذه الفرصة. عزم زوج والدتي وأخوها أن يزرعا الأرض مشاركة. خاصة أن الأخ على علاقة ممتازة مع سائق الحراثة الذي سبق أن تعرض لموقف صعب قبل أشهر، عندما نشبت معركة بين عدد من الشباب، حاول السائق التدخل لفض النزاع مما تسبب في سقوط أحدهم وإصابته بشج في رأسه، أخذ والد الشاب ابنه على الحمار، وذهب به إلى الأمير الذي أمر بسجن سائق الحراثة. ونظراً إلى مشاهدة خالي لما حدث، فقد ذهب حال علمه بسجن السائق إلى الأمير وشرح له الأمر، وتكفل بإحضاره عند الحاجة وعادا معاً بعد أن وقع على الأوراق المطلوبة.

قال الخال: لا يجوز أن نكتم الشهادة، خاصة أن هذا السائق

غريب عن القرية، كيف أنام هانئاً وهناك مظلوم يقبع في السجن
يمكنني إنقاذه؟

ذهب زوج والدتي وأخوها إلى سائق الحراثة وأخبراه بعزمهما
على زرع الأرض وطلباً موعداً لحرثها.

كان الوقت بعد صلاة المغرب، العمل عادة من طلوع الشمس
حتى الغروب وجميع الساعات محجوزة لمدة أسبوع. نظر إليهما
سائق الحراثة وقال: اذهبا الآن وابدأ البذر وسوف أكون عندكما
بعد ساعة من الآن، ولن يلومني أحد، لأن هذا وقت اقتطعته من
وقتي الخاص، وسوف يسامرنا القمر هذه الليلة وسيشهد أنني وفيت
بالمعروف.

جاء الزرع كأحسن ما يكون، أطول من المعتاد وأكثر خضرة،
ونبت العشب على جوانبه وتجميل بالأزهار بألوانها الزاهية، وفي
كل يوم يزداد الزرع حسناً ونضارة. أخذت الأم تحصد العشب
النابت على أطراف الزرع، ثم تنشره في الشمس ليجف ثم تخزنه
لأيام الحاجة وما أكثرها في تلك الأيام. أذهب معها لأساعدها
وأصر على أن آخذ زنبيلاً صغيراً خاصاً بي، أسأل أمي: من تحبين
أكثر أنا أم خالي؟ فتداعبني وتقول: خالك، لا يعجبني الجواب
وتمنيت لو أنني لم أسأل، كنت أظنني الأعلى، بدأت الغيرة تتسلل
إلى قلبي الصغير فالحب لا يقبل المشاركة، نادتنني أمي وقالت:
أنت تسألني: أي عيني أحب؟ اليمنى أم اليسرى؟ أحب عيني بنفس
المقدار.

* * *

نظرت الأم إلى الزرع، وأخوها منهمك في ريّه ثم قالت: كلّ

حيّ بحاجة إلى الحُبِّ والماء وأشعة الشمس لينمو بشكل سليم، ما أحوجنا لمزيد من الحب والتعاون!

وفي هذه الأثناء، انطلقت البقرة من حظيرتها واتجهت للزرع، ركض خلفها الرجال محاولين الإمساك بها، وهي تزداد نفوراً وركضاً، اتخذت الزرع الطري ميداناً وتراكض أبناء الجار، المعروفون بقوتهم وسرعة عدوهم، فلم يزدها ذلك إلا هيجاناً. فكر الزوج في ما يجري وقال: عضلاتنا لم تنفع فهل نستخدم عقولنا؟ أشار على الجميع أن يتوقفوا، لعل المرأة تمسك بها، تضاحكوا وقالوا: هذه بقرة بها مس من الجن، كيف تمسك امرأة ببقرة عجز الرجال عن الإمساك بها؟ أقبلت صاحبته ونادتها باسمها الذي تنادى بها به دائماً، وإذا بالبقرة تركض نحوها وترسل توسلاتها خواراً وكأنها تقول: أنقذيني من هؤلاء المجانين. تأخذها إلى الحظيرة وسط استغراب الجميع. ضحك الزوج وقال: مصيبتنا أننا نحاول دائماً أن نحلّ كل مشكلة بالقوة، وبنفس الطريقة دائماً.

* * *

لم تنس الأم ما أوصت به أخاها: البيت وتكاليفه.

- سيكون المبلغ في حدود ثمانمئة ريال شاملة كلّ التكاليف.

- ألا تظن أنه مبلغ كبير جداً؟ خاصة أنني سأعمل معكم، سأعمل داخل البيت وسوف أساعد في حمل اللبّن وتقريب الحجارة وحفر البيارة. وجميع مواد بنائه سنأخذها من أرضنا، الطين والتبن والأخشاب. إنه البيت يا أخي، وسوف أعمل أي شيء لبنائه. عندي مبلغ من المال وسوف أدبر الباقي قرضاً من المحسنين، متى سنبداً؟ أريد أن أرى الحلم يتحقق.

- نستطيع أن نبدأ بعد حصاد الزرع ودرسه وذروه.

* * *

بدأ العام الدراسي الثالث هادئاً وقد انتهى مبنى المدرسة الجديد، وجاء مدرسون جدد من بلد يقال له الجمهورية العربية المتحدة. بلد يضم مصر وسوريا.

هناك بلد يناضل لنيل استقلاله يسمى الجزائر، على جميع الطلبة إحضار ريال غداً لدعم الشعب الجزائري. طلبت من أمي ريالاً لأتبرع به، ولن أذهب للمدرسة بدونه.

عند الوصول للمدرسة علمت أن التبرع ليس إجبارياً، فقررت أن أعيد الريال إلى أمي. كل متبرع يعطى طوابع للتشجيع بمنزلة وصل يحتفظ به للذكرى. في نهاية اليوم بحثت عن ريالتي فلم أجده، لقد سرق أو ضاع، إنها الخسارة الكبرى، فلا أنا دعمت الشعب الجزائري وأسهمت في استقلاله وحصلت على طوابع الذكرى، ولا عدت بالريال إلى من هي بأشد الحاجة إليه. ربما أن من وجده أكثر حاجة منا ومن الجزائر.

أقضي بعض الوقت عند جيراني الطيبين، يرحب بي الأب والأم والأولاد والبنات، كيف لا وأنا الصديق المخلص لولدهم الذي هو في مثل سني، يسألونني عن المدرسة فأجيبهم. والدهم لم يرسل أبناءه إلى المدرسة وغير متحمس لها، وهم غير راغبين في الدراسة، يسألونني عن الحساب، فأعدُّ حتى الألف وأحياناً أكثر، أقرأ عليهم من المطالعة، أنشد أمامهم، أطلعهم على العلوم وكتب الدين. الذين يجب أن يذهبوا إلى المدرسة ثلاثة. بدأوا يسألون عن الصعاب التي قد يواجهونها وأنا أجيب عنها وأبسط الأمر لهم.

في بداية العام الجديد كان الثلاثة في فصل واحد رغم أن الفارق في السن بين الأول والثالث في حدود عشر سنوات، مع الرغبة تذلل العقبات.

الدولة لم تكتفِ بتدريس الأولاد، هناك حديث عن عزم الحكومة على فتح مدرسة للبنات. قال خالي الكبير: هذا ما لا يمكن السكوت عنه، قال ذلك مع أنه ليس لديه بنات. لا بد من الكتابة للحكومة وتسجيل أسماء المعارضين لتدريس البنات، ويكتب اسمي من ضمنهم مع أن سني لم يتجاوز العشر سنوات، ولم أُسْتَشَر على أي حال. ومن ضمن المعارضين تسجل أسماء عدد من الصغار وذلك المعتوه والعقيم والشيخ الذي ليس له سوى بنت واحدة تزوجت ابن عم لها في الكويت. سجّل خمسة وثلاثون اسماً كلهم معارضون لتعليم البنات دون علم أكثرهم. لم تلتفت الحكومة للمعارضة قالت: لن نجبر أحداً على تدريس بناته، لكن ليس من حق أحد أن يمنع الآخرين من تدريس بناتهم. هذا هو القرار الحكيم والحازم الذي أسكت المعارضين.

افتتحت المدرسة، وبدأت معركة أخرى مع من يدرّس بناته ومن لا يدرّسهن، ويصر الخال الكبير على عدم تدريس بنات الأسرة لتبقى المسكينات بلا تدريس مع اقتناع الكثير منهم بأهميته، يتخذ أحد الأعمام قراره الحاسم: سوف أدخل ابنتي المدرسة. يغضب الخال ويستعين بوالدة العم لمنع ولدها من تنفيذ قراره وتدريس ابنته. وتحذر الأم ابنتها من مغبة عمله، وتقسم ألا تنام في البيت إن درّس ابنته، وينفذ العم قراره ويدخل ابنته إلى المدرسة في اليوم الثاني، وتنام الأم عند أخيها احتجاجاً على التدريس، ليذهب

العم إلى أمه ويقبل رأسها ويعود بها معه إلى البيت. تبدأ حصون المقاومة تتساقط وتقع أمي أخاها الصغير بتدريس ابنتيه، وتتبرع بملابس المدرسة وخياطتها.

* * *

ينتهي الزرع ويحصد يدوياً بالمناجل، النساء في جهة والرجال في جهة وبينهم منافسة على من ينتهي أولاً، وينقل الزرع إلى البيادر، ويداس بواسطة البقر والحمير، تستعار غالبيتها من الجيران.

يُفصل الحب عن التبن يدوياً بتعريضه للهواء، فيسقط الحب تحت الأقدام والتبن تأخذه الريح جانباً. في مثل تلك الأوقات ينتظر الفلاح الريح بفارغ الصبر، كم مرة رأيت خالي واقفاً هناك كسارية علم، وكم مرة أرسلت له أمي القهوة والتمر، تردد: لا بد أن خالك جائع، روجي فداه.

انتهى الزرع وتفرغ الخال للوفاء بوعده. بدأ البناء، وصارت الأم تقف على العمل كل يوم، تحضر الشاي والقهوة ثم الغداء الذي يؤكل في موقع العمل، وزوجها يبارك ويشجع.

في كل مرة تأتي تحاول أن تساعد، تحضر الماء، وتقرب اللبن الذي ستبنى به الجدران وترفع الروح المعنوية للبنائين وفي نهاية الشهر تدفع لهم الأجر، ستة وعشرون ريالاً في الشهر لكل واحد. توقف الدفع، لم تستطع دفع الشهر الثاني، لكنها تعدهم خيراً، لها ثلاث من الغنم تعرضها للبيع، ولديها صندوق قديم كان ضمن جهاز زواجها الأخير. هذا المبلغ كفيلاً بدفع رواتب الشهر الثاني.

لكن العمل في بدايته ولا بد من الاستدانة. غداً ستذهب إلى

بعض الميسورين لعلها تجد من يقرضها . تذهب للأول ثم الثاني والثالث، لكل منهم عذره في عدم إقراضها . ولدها وابنتها أيتام، ولهما وكيل، لا بد أن أهل الخير قد أعطوه من الصدقات والزكاة . لعلّي أستدينه ثم أسدد الدين قبل أن يحتاجا إليه، تفتح الوكيل وتقول له : أنا بحاجة ماسة إلى المال لبناء بيت يضمني ويضم اليتامى معي . لكنه يعتذر إليها ويقول : لا يمكن أن يتصرف في مال اليتامى إلا بإعطائه لهما عندما يبلغ كل منهما ثمانية عشر عاماً، إلا بشرط واحد أن تكتبي البيت لهما .

لم تقبل الشرط ولم يقرضها . الحياة قاسية، وكادت أن تياس وتعود أدراجها وتوقف البناء، لكنها تخيلت البيت بغرفة الثلاث الجميلة وبابه الكبير الذي في جيبها مفتاحه، تخيلته وقد انتقلوا إليه في رمضان ليكونوا قريبين من المسجد، في رمضان العام الماضي استأجروا بيتاً كلفهم ريالين للعشر الأواخر فقط . بقي شخص واحد تربطها به صلة رحم، وسبق أن أسدت له معروفاً لعله لم ينسه، ذهبت إليه وطلبت منه أن يقرضها ثلاثمئة ريال، وستردها له حالما يتوفر المبلغ لديها، رحّب بها وأجابها :

- هذا المبلغ لا يكفي لبناء البيت، تحتاجين لمبلغ ستمئة ريال على الأقل .

- أعرف ذلك وقد أبلغني أخي وسأبحث لاحقاً عمّن يقرضني الباقي .

- أنا لا أنسى جميلك ووقوفك مع أسرتي، ورداً لجميلك سوف أقرضك كامل المبلغ دفعة واحدة ومن هذا اليوم . وتسدينيه من راتب عبد الله إن شاء الله .

استقبلت القبلة ورفعت يديها وأخذت تدعو له ولأهل بيته، والدموع تتساقط من عينيها: أن يبارك الله له في ماله، ثم التفتت إلى زوجته وقالت: أهنتك على هذا الزوج وأريحته. من قال إن أهل الخير قد انتهوا؟ من غرس بذرة وسقاها فستثمر يوماً ما. قد تضيع في الأرض السبخة لكن الأراضي الخصبة أكثر.

أخذت المبلغ وعادت إلى بيتها، وفي الصباح ذهبت إلى أخيها، ودفعت له المتأخر، وسألته إن كان بحاجة إلى مزيد من المال.

* * *

وصلت الكهرباء إلى البلدة بجهود أهل الخير القادرين الذين يملكون رؤية للمستقبل، ورغم الإمكانيات البسيطة، استطاعوا إيصالها إلى معظم البيوت التي ترغب في الكهرباء. لكن هذا اقتصر على البلدة ولم يشمل الحارات البعيدة والمزارع، وبدأت المساجد والشوارع تضاء، وبدأت الغيرة تدب في قلبي وقلوب زملائي ساكني المزارع المحرومة من الكهرباء. ما ذنب تلك الضاحية الجميلة التي ترافق الشمس منذ الصباح حتى المساء تترك بين يدي الظلام ليلاً يجول في أزقتها؟ قررت مع اثنين من الأصدقاء، أن نذهب في الليل ونصطاد المصايح الخارجية للبيوت والشوارع والمساجد، مستخدمين النبال التي تستخدم لصيد الطيور. وكانت حصيلة الحملة أكثر من عشرين مصباحاً تنير الطرق، بذل أصحابها جهداً في الحصول عليها. كان العبث بالمصايح هو حديث البلدة. والسؤال: من فعل ذلك؟

كانت الخطة محكمة لذا لم يتمكن الأهالي من معرفة الفاعل، خفت من افتضاح أمري فطلبت وقف العملية والاكتفاء بما أتلفنا،

لكن يبدو أن زميليّ قد استمتعا بمغامرة ممتعة ولا بد من تكرارها، أصرا على مواصلة العملية والقضاء على بقية المصابيح التي لم يُرَاعِ العدل في تعميمها، قررت الانسحاب مؤثراً الجبن على الفضيحة، أما الآخران فقد ذهبا وأكملوا مشروع التعيم، لكن عنصر المفاجأة لم يكن موجوداً هذه الليلة.

في المدرسة بدأ الأولاد يتحدثون عن الفاعلين، ولم يكن اسمي من ضمنهم، رجوتهما ألا يذكرنا اسمي أبداً، وإن كنت صاحب الفكرة والمخطط لها من الأساس، بعد الحصة الثانية جاء مندوب الأمير وطلبهما من الإدارة، لأنهما متهمان بتهشيم المصابيح، غابا حوالى ساعتين وعادا قبل نهاية اليوم الدراسي، وكنت أول المستقبلين لأستفسر عما حدث، وأشكرهما على عدم إذاعة الأسرار.

لم يقتصر عبث الصبا وشقاوته على تكسير المصابيح، فقد زين لي زميلي وصديقي الذي يكبرني بثلاث سنوات أن نذهب إلى ذلك الرجل الطيب المسالم، ونسرق بطيخة نُظفئ بها عطشنا بعد جهد يوم صيفي طويل، بحثاً عن الطيور المهاجرة. المزرعة مشهورة بخصبها، وصاحبها مشهور بسعة صدره وتسامحه، قفزنا داخل المزرعة كالأرانب وحمل كل منا بطيخة، ركضنا إلى مكان آمن في تجاويف أحد الأودية، أكلنا واحدة وأبقينا الأخرى ليوم آخر، نعيد الكرة ولا نقنع بعدد قليل، مللنا من البطيخ لا بد من التنويع، لنبحث عن فاكهة أخرى، العنب لم ينضج بعد، لنجرب الرمان. زادت الثقة، وتحت رمانة تنوء بما حملت بدأنا بجمع الرمان، وتحت ظل شجرة خارج البستان جلسنا نتقاسم الغنيمة، هناك تأنيب

ضمير: كيف نأكل ولا نطعم أهلنا؟ وعند سؤالنا عن المصدر سنقول: إنه من زوجة الفلاح، صديقة والدة زميلي.

تركض أختي فرحة بالرمان الذي أحضرته، لكن خالي أفسد الفرحة بفتح محضر تحقيق، يستنتج منه أن الرمان مسروق، فهو لم ينضج بعد، كما أن طريقة قطفه تدل على السرعة وعدم المعرفة. وفي المساء يأتي إلى القرية فلاح طيب، يشتكي عبث بعض الصبية في مزرعته، ويعلن أنه ذاهب إلى أمير البلدة لتقديم شكوى. خفت من افتضاح أمري وأمسكت بيد خالي وقلت له: لم لا ندعوه للعشاء؟ يفهم الخال ما أعني، يسلم على الفلاح ويدعوه إلى بيته، ومعه من بدت عليه علامات الارتباك والشعور بالذنب. بعد العشاء يصارح الخال ضيفه ويشير إليّ قائلاً: هذا هو وزميله من سرقا مزرعتك، وهما يعلنان توبتهما ونحن مستعدون لما يرضيك. شكره الفلاح وتنازل عن كل شيء بشرط ألا يكرراها ثانية، ثم أردف: إذا اشتهيتم شيئاً في المزرعة أعطيه لكم بشرط أن تطرقوا الباب أولاً.

بعد مغادرة الضيف أمسك الخال بأذني الصغيرة، ولم يتركها إلا بعد أن تحوّلت إلى اللون الأحمر، وتوعدني بعقاب أشد إن عدت لمثل هذا العمل ثانية، فأقسمت ألا أكررها ثانية، ورجوته ألا يخبر أمي.

بعض رجال القرية لا يتصفون بالحكمة دائماً، فهم معارضون لكل جديد كما أن فيهم صاحب المزاج المتقلب تجاه الآخرين خاصة الغرباء الذين وفدوا حديثاً، أو الذين يعملون مع الحكومة، وأحياناً يطلقون على بعضهم أوصافاً غريبة تسبب الكثير من النفور

والبغضاء بينهم، وقد تنتقل إلى الأبناء، فهذا يشبه حمار فلان، وذاك رأسه كذا، وذاك بطة عرجاء، وذاك سارق الدجاج، وذاك يعيره بأمه، وآخر جبان يخاف من زوجته. والغريب أنهم يلقنونها للصغار من أمثالي وغيري من صبية الحارة وكأنها أنشودة حب، ويطلب منهم أن ينشروها ويرددوها أمام صاحب اللقب غير المستحب، ويجد بعضهم لذة كبيرة في ذلك، وبعضهم يصوغه شعراً ليسهل حفظه. لكنني وغيري ندفع الثمن، بتسميتنا بأسماء مشابهه من قبل الآخرين، وقد نتعرض للضرب أحياناً من الكبار، الغريب أن منهم من يحفظ القرآن الكريم كاملاً ويقراً ﴿ولا تنابزوا بالألقاب بشئ الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾. لم يسمعوا بقصة رجل شتم آخر بحضور النبي ﷺ إذ قال له: يا ابن السوداء، فزجره النبي وقال له: «إنك امرؤ فيك جاهلية». العبادة عند بعضهم هي الذهاب إلى المسجد فقط، أما التعامل مع الناس بالمحبة واللفظ فشيء آخر لا صلة له بالعبادة، عندما يفقد الاحترام بين الناس، ويختفي بريق الحُب من العيون، يصبح العنف وسيلة التفاهم، موروثات من الجاهلية نحفظ بها منذ قرون عديدة ونورثها لأبنائنا بكلّ أمانة.

وللأسف نفس العقلية باقية في ثقافتنا، وحاجزة مكانها في تلافيف العقول، صورة مصغرة لمجتمع كبير، ميادين صراعه القارات والمحيطات والفضاء على امتداد الكرة الأرضية.

* * *

أوشك البيت على الانتهاء والأم تضع اللمسات الأخيرة، بقيت البيارة لم تحفر، وها هي تستأجر ابن جارهم وتقوم بحفرها معه، هو يحفر ويرفع التراب، وهي تأخذه منه لترميه خارج البيت وتعيد له الزنبيل حتى يعيد ملؤه ثم تأخذ منه الثاني حتى انتهى الحفر

وجّهزت البيارة .

الغرفة الثالثة بحاجة إلى تعديلات حتى تصبح مطبخاً في الوقت نفسه، وترغب في فتح باب آخر جهة الشارع الثاني، لكن جارتها تعترض لأنه سيكشف بيتها، وتوكل كل منهما أحاها، ويتقاضيان عند القاضي الذي يحكم بفتح الباب .

بقي على رمضان أيام والبيت صار جاهزاً للسكن .

ما زال لديها فائض من المال بعد أن سددت كل الالتزامات، بقي خمسون ريالاً، اشترت بعشرة ريالات نعجة بيضاء جميلة، وأوصت قريباً لها سيذهب للرياض بشراء ثوبي صوف لولدها، فالشتاء على الأبواب، وبالعشرين ريالاً الباقية اشترت بضاعة. لقد قررت ممارسة البيع والشراء، في التجارة تسعة أعشار الرزق، أوصته أن يشتري زعفراناً ودهان فكس وعشرة أكياس حلوى وخمسة أكياس حناء، وفوضته أن يتصرف ويشترى ما يراه مناسباً إن بقي شيء من المال بعد شراء ما أوصت به .

لبست ثوبي الجديد الذي كان مثار إعجاب الطلبة، وغيره ابن عمي الذي يدرس في نفس الفصل، ويذهب إلى أمه باكياً، يريد ثوباً جديداً مثل ثوبي . تأتي أمه وتسال :

- من أين أتيت بهذا الثوب؟

- أوصيت عليه من الرياض .

- ولدي يبكي في البيت . يريد ثوباً مثله .

وتناديني أمي لعلّي أسمح بإعطاء ثوبي الثاني لصديق عمري، وافقت، وعادت أم صديقي حاملة الهدية لولدها، ويلبسه في اليوم الثاني فرحا ويكون أول الواصلين إلى الفصل، ولأن الثوبين من

نفس اللون والقماش، فقد ثارت تعليقات زملاء: إنه يلبس ثوب ابن عمه، ولم يتقده سوى دخولي الفصل لابساً ثوب الأمس.

لم أندم في صغري كندمي على معطف أعجبني، طلبت من عمي أن يشتريه لي من صاحب المحل، لبسته فكان مقاسي بالتمام. بطانته الخارجية من الجلد وداخله من الفرو. اختلفا على القيمة، صاحب المحل يقول بستة ريالاً والعم يريد أن يدفع خمسة فقط. ولما لم يتفقا طلب صاحب المحل مني خلع المعطف، ذهبت إلى أمي شاكياً ومصرراً على شراء المعطف، طمأنتني وطلبت مني أن أشتريه غداً وأعطيني كامل المبلغ.

أخبرني صاحب المحل أن المعطف قد بيع، عدت إلى أمي باكياً مصرراً على شراء معطف، ولن أذهب للمدرسة إلا بمعطف جديد. ذهبت الأم تسأل عن معطف ولم تجد، طلبت من الجار أن يبيعه معطفه. لبسته في اليوم الثاني للمدرسة فكنت محل تندر الجميع، لأنه يصل إلى ما تحت الركبة. رميته ولا أزال أتذكر ذلك المعطف الجميل.

أصبح البيت الجديد هو المكان المفضل لي ولأختي، فيه نرتاح ونلتقي بالأصدقاء، وننام فيه أحياناً، وفي أحد الأيام أقامت المدرسة حفلاً، بهر الجميع وأضحكهم، قررت وابن عمي إقامة حفل مشابه في البيت. جمعنا كل أطفال الحارة الذين لم يروا الحفل، كان الموعد بعد صلاة العصر وجميع الفقرات أقوم بها أنا وابن عمي وصديق ثالث. بدأ البرنامج كالعادة بالقرآن الكريم، ثم توالى الفقرات قرابة الساعتين، صار الجمهور في نهايتها مشاركاً، استمتع الأطفال وكانوا أولاداً وبنات، وضحكوا كثيراً. كلما زاد

الضحك زاد الإبداع، وظل الجمهور الصغير يذكرون هذه الحفلة حتى بعد تقاعد عدد منهم.

حضر إلى القرية زميلان عزيزان، انتقلت أسرتهما إلى الرياض، وأردت إكرامهما، دعوتهما للغداء في بيتي فوافقا، وحددت لهما يوم الجمعة، بدأت التحضيرات ومتطلبات الغداء، لكن أُمِّي رفضت الفكرة، وقالت: لا تزال صغيراً على دعوة الآخرين، ثم من قال إنك تجيد الطبخ حتى تطبخ لهما بنفسك؟ عرفت أن لا فائدة من المحاولة معها ثانية.

ذهبت لزوجتي خالي وطلبت منها المواد اللازمة للغداء، لكنها رفضت بأسلوب لبق، ثم اقترحت أن يأتي لتناول الغداء مع خالي، وعندما فاتحت ضيفي بالفكرة رفضا المجيء إذا لم يكن في بيتي، بقيت امرأة واحدة معروفة بطبيعتها، طلبت منها المساعدة فأعطتني الرز، ثم سألت عن بقية المواد الضرورية فأخبرتها أنه ليس لدي سوى الماء.

في اليوم الثاني أبدأ بتجهيز الغداء، وإذا بتلك المرأة تدخل عليّ، وتبدأ معي الطبخ، وكلما نقص شيء ذهبت وأحضرته من بيتها، وكأن الضيوف ضيوفها، حتى الصحن أحضرته من بيتها، وفي النهاية حضر الضيفان وتناولوا الغداء وهما لا يصدقان، ويصفان مضيفهم بالطباخ الماهر، ويزيد الأكل على الحاجة فتتروح هذه المرأة الطيبة أن آخذ الباقي إلى أُمِّي. جاء في الوقت المناسب فقد كانت جائعة، أكلته وقالت: الأكل لذيذ وهذا ليس طبخك فمن طبخه لك؟ لا بد أنها أم فرحان صاحبة القلب الرحيم ومواقف الشهامة، بارك الله فيها. إياك أن تثقل عليها مرة ثانية.

يا ربي أعطني دراجة

الابن منتظم بالدراسة والبيت انتهى وسكنوه، كل عمل ناجح يبدأ صغيراً ثم يكبر وأصعب الأمور بداياتها، مع العزيمة والإصرار يتحول الحلم إلى واقع، رسم الأهداف من أهم المحفزات على الإنجاز. بقي زواج البنات التي تقدم أكثر من واحد لخطبتها، والخال يميل إلى تزويجها للذي يسكن في الرياض، فهو رجل متعلم ومتدين ومن أسرة فاضلة.

تزوجت الأخت وتركت فراغاً كبيراً عند أمها وأشد منه عندي، أتى إلى البيت ولا أجدها فأقفل الباب وأبكي، لكن عزائي أنني ذهبت معها للرياض ومع أمي وعمي الذي تولى تجهيز ما تحتاجه العروس لبيتها الجديد.

انبهرت بالرياض عاصمة المملكة، بهرتني العمارات الكبيرة والشوارع الفسيحة، وظللت أسأل منذ دخولي الرياض: أين قصر الملك؟ وكأنني أسأل عن بيت صديق قديم، ومن أعجب ما رأيت العربات التي تجرها الحمير. تسمع وقع حوافرها من بعيد، كبيرة في حجمها وكأنها بغال، يقودها شباب يحملون بأيديهم العصي، يضربون بها الحمير المسكينة، وأحياناً تكون سلاحهم في مشاجراتهم الكثيرة، أعجبت كثيراً بسوق المقبيرة، وهالني ما فيه من كثرة الفواكه التي أراها لأول مرة، وتمنيت لو أشبع ولو مرة

واحدة من الموز برائحته النفاذة، والذي لم أذقه في حياتي، بل قرأت عنه في مادة القراءة فقط.

وقفت مشدوهاً أمام شرطي المرور الذي يأمر فيطاع، يقف بين طوابير من السيارات، ويجانبه عمود في أعلاه مروحة بأربع ريش، ريشتان باللون الأحمر ومثلهما باللون الأخضر. يحرك الأخضر باتجاه فيتحرك صفان من السيارات، بينما يؤشر بالأحمر للجهة الثانية علامة الوقوف، وهكذا ينظم المرور. تأخرت عن العودة إلى البيت فوجدوني واقفاً أراقب شرطي المرور بكل إعجاب، وأتمنى لو أكون مثله في هيئته وهيبته.

ذهبت مع عمي وأمي إلى السوق، ومعنا العروس نجهز لها البيت من مهرها الذي تأثر بارتفاع الأسعار، وصار أربعة آلاف ريال، بعد أن كان بالمئات، وقفت أمام محل بيع الدراجات، ينادونني فلا أجيب، ويجرونني من يدي فأتمتع ولا أبرح المحل، وكأن رجلي مغروستان في وحل، وأشير إلى دراجة هوائية بدواليب عريضة تصلح لرمال تلك القرية وأحجار ذاك الطريق، ليست جديدة وثمنها سبعون ريالاً، ينظر عمي إلى أمي ويؤشر بحركة من يده وفرك أصابعه ببعض. أي أين الدراهم؟ وتقول أمي: أليس له حق من مهر أخته؟ وتقسم الأخت ألا تعود للبيت إلا وقد حققت أمنية أخيها، أعود متأبطاً دراجتي التي صاحبتني سنين.

عدت وأمي إلى بلدتي الغاط. لقد أصبحت دراجتي شبه الجديدة حديث زملائي الذين ألحوا على أهاليهم لشراء دراجات مماثلة.

كفنتي الدراجة مشقة المشي إلى المدرسة، بل صرت أخذ معي

ابن عمي، أدور على دراجتي مستعرضاً أمام بيت عمي منتظراً ابنه، مستمتعاً بسماع عبارات الشناء من أمه. لم يكن الطريق مهياً للدراجات، فهو طريق للدواب وأصحاب الأقدام التي لم تعرف الحذاء، لذا كانت الدراجة تحملنا حيناً ونساعدها على اجتياز الرمال أحياناً أخرى.

صارت الدراجة تأخذني إلى أماكن أبعد، أسمع بها ولا أستطيع الوصول إليها، هناك منتزه (القَلْتَةُ) الذي زرته مرة واحدة مع أهلي وكم تمنيت الذهاب إليه، إنه ذلك المكان الجميل في أعلى الوادي الذي حباه الله جمال المكان وروعته، الماء ينبع من بين الصخور ليستقر في حوض كبير، هذا النبع يرتاده الحجل في كل يوم، قبل طلوع الشمس تأتي المجموعة يتقدمها ذكر الحجل وقائده، هو الأكبر جسماً، يرسل صوتاً جميلاً تردده الصخور الكبيرة والجبال، يتقدم المجموعة مستكشفاً المكان، مضحياً بحياته في سبيل سلامة المجموعة، وإذا توقف توقفت المجموعة خلفه، وإن طار طارت. يستكشف المكان من أكثر من جهة، وإذا تأكد من سلامة الطريق تقدم للماء، أليست هذه هي القيادة؟ القائد دائماً في المقدمة، تلك الطيور حذرة جداً، لكن الإنسان أشد حيلة وأكثر دهاء.

ذهبت في صباح باكر لذلك النبع، وربما لم أنم تلك الليلة لأنني أريد أن أفاجئ أمي بصيد وفير، أخذت بندقيتي الهوائية وقليلاً من الأكل وعدة الشاي، لم أخبر أمي بوجهتي خشية ألا توافق، وصلت متأخراً وأخفيت جسمي الصغير في الغار القريب من الماء كي لا يراني الحجل، ما باله اليوم لا يريد أن يشرب؟ ها هو اليمام والحمام يقترب ثم يطير بعيداً، لقد خسرت الصيد وكسبت بدلاً منه هدوء الطبيعة وجمالها، أشجار كثيرة ملتفة، فهذا العرفج بأزهاره

الصفراء الزاهية، والشيخ برائحته النفاذة، والحمض يحتضن الصخور، والوادي تكسوه أشجار الطلح والسدر والسلام، تحيط الجبال بالوادي من جانبيه، يتسع حيناً ويضيق أحياناً، فترسم الطبيعة لوحة فنية تمتد لمسافة عشرة كيلومترات، هي المسافة التي تفصل هذه الجنة عن البلدة. يسلب خيالي المنظر بجماله وهدوئه، أبقى أطول فترة ممكنة، تمنيت لو أُعبر عن ذلك شعراً، خاصة عندما سمعت صوت الحجل من بعيد، تمنيت لو كنت شاعراً، أحب الشعر وأحفظه لكن معظم ما أقول سجع ورصف كلمات، يضحك منها الكبار ويظرب لها الصغار.

في طريق العودة رأيت سرباً من الطيور تحط قريباً مني. تراجلت عن دراجتي وتبعها. كلما اقتربت منها طارت وحطت قريباً، وأنا أتبعها وفي إحدى المرات اقتربت منها، صوتت بندقيتي ورميت، ويا لهول المفاجأة طارت كلها إلا واحداً تخلف عن السرب، وظل يقفز على الأرض ويجري مسرعاً على قدميه، لقد أصيب في جناحه إنها ضربة الحظ أثمرت هذه المرة.

ركضت وراءه حتى أمسكت به، طائر كبير الحجم بني اللون طويل الأرجل، عدت به إلى حيث تركت الدراجة، لكن لم أجد لها لقد سرت خلف هذا الطائر بعيداً وضاعت المعالم، ومع الدراجة تركت الماء، ظللت أمشي وأبحث قرابة الساعة دون جدوى، قررت العودة إلى البلدة مشياً وكان العطش قد تمكن مني، لكنه القرار الحكيم لصاحب العشر سنوات، وصلت إلى أول مزرعة، شربت وأكلت، ثم طلبت من أحدهم أن يساعدي في البحث عن دراجتي، وجدناها، وعدت إلى أمي متأخراً بعد العصر.

وجدت أمي بانتظاري، خيم الضجر والخوف عليها وتوقعت أسوأ الاحتمالات، غابت الابتسامة، وبعد التأكد من سلامتي عادت أدراجها إلى البيت دون أن تكلمني، مما يعني عدم الرضا عما فعلته، أركض نحوها وأخرج الصيد من الكيس فلا تنظر إليه، أضعه بجانبها فترميها جانباً وترفض طبخه، أذهب إلى عمي وأريه الطير، فيفرح كثيراً ويقول لي: هذا هو الكروان. إياك أن تخبر أحداً بصيدك، فمثل هذا الصيد لا يقدر عليه سوى المتمرسين بالصيد، طبخناه وأكلناه دون مشاركة أمي الغاضبة.

أخبرت أصدقائي بمغامرتي غير المدروسة وصيدي الثمين، واقترحت عليهم الذهاب معي يوم الجمعة القادم، لكن عليهم أخذ الإذن من أمهاتهم حتى لا ألام، ألححت على أمي ووعدتها ألا أذهب بعيداً فوافقت، أخذت المجموعة وعددهم ستة ومعهم ثلاث دراجات هوائية، وصلوا إلى المكان متأخرين، وقد نشرت الشمس أشعتها فوق رؤوس الجبال، استمتعوا بيوم جميل، طبخوا غداءهم من لحم الطيور الصغيرة المسكينة، وربما كان لبعضها صغار، لكنها شقاوة الصغار والجهل بأهمية الحياة الفطرية. لعبنا كثيراً ولم نخطط للعودة إلا بعد غروب الشمس، تعطلت إحدى الدراجات مما أخر عودتنا لما بعد العشاء، لتستقبلنا نساء الحي وأطفاله خارج مباني القرية، وأسمع التأنيب والبكاء والوعيد لو كرروها. وجدت أمي وأختي الصغيرة تنتظراني خارج المزرعة ومعهم الفانوس الذي يعمل بالكيروسين. كان منظرًا مؤثراً حتى لمن هو في مثل سنّي، كيف أترك أمي وأختي في العراء جالستين قرب شجرة، ينتظراني وقد استحالت دقائق الوقت إلى ساعات ثقيلة ضجيرة. كانت الفكرة جيدة لكن غاب التخطيط الجيد والقيادة المناسبة.

في مدرسة الحياة

أصبحت أجيّد القراءة والكتابة، وبدأت أكسب من كتابة الرسائل، أكسب أحياناً بضعة قروش وأحياناً حلوى وأحياناً أكسب الدعاء، عند عودة أحد رجال القرية من الرياض أحضر معه قصيدة نبطية ضدّ جمال عبد الناصر كلماتها ركيكة ومعانيها تدل على جهل قائلها، نقلها من جريدة محلية، صرت أنسخ القصيدة لمن يطلبها بمبلغ نصف ريال، بصرف النظر عن معانيها، هي المادة تغري وتفسد الأذواق.

بعد صلاة المغرب أذهب عند خالي وأعمامي الذين يجمعهم بيت واحد، أقرأ على الأسرة مجتمعة أشعاراً نبطية، مجموعة في كتاب يحتفظ به الخال، أبدأ بما يطلبه الخال ثم الخالة، بعدها تبدأ المشاورات وعادة لا بد من المرور كل ليلة على شعر حميدان. يضحك الخال كثيراً عندما أقرأ شعره في وصف بعض البلدان، وما قاله في ابنه، لا بد من المرور على توبة العوني المشهورة وهو في سجنه، فترى دموع النساء تبلل الخدود خاصة عندما يصف السجن وأقفاله وكيف أنه مظلم لا يعرف ليله من نهاره، وغالباً يطلبون الألفية الغزليّة وتلك القصيدة التي قالها القاضي في وصف القهوة، وقصيدة الهزاني الغزلية وفيها وصف لمغامراته مع النساء، ومع هذه القصيدة يرسم الخجل وروداً حمراً على حدود البنات، يستمر

المجلس حتى أذان العشاء، وتؤثر هذه الجلسات وهذا التكرار في علاقتي مع الشعر وحيي له.

ويحز في نفسي أن أرى أختي الصغيرة (الوحيدة التي ولدت لأمي من زوجها الثاني) لا تقرأ ولا تكتب، فأقرر تعليمها القراءة والكتابة وأعطيها مناهج السنة الأولى ثم الثانية، ثم تبدأ تقرأ من نفس الدروس التي أدرس فيها، أبدأ بإحضار القصص لها، وتتقن القراءة في وقت قياسي لتنتقل في ما بعد إلى قراءة القرآن الكريم، وتبدأ في القراءة للكتاب المشهورين. قرأت العبقريات للعقاد، والأيام لطفه حسين، والعبرات والنظرات للمنفلوطي إضافة إلى كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة. وربما قرأت هذه الصغيرة التي لم تدخل مدرسة أضعاف ما قرأه الشباب، الذين تخرجوا من الجامعة. أما أختي الكبيرة فلم تتح لها فرصة التعلّم. حتى القرآن الكريم كانت تظنه للرجال فقط، هم الذين يحق لهم قراءته. كانت تسمع خالها يقرأه بصوت عال، لكنها لم تهتمّ بأن تقرأ هي لأنها لم تسمع من يقرأ القرآن الكريم من النساء. حفظت في ما بعد بعض السور القصيرة من عمته، ودرست لاحقاً في مدارس (محو الأمية)، ولكن لم تكن دراستها نقشاً في الحجر، بل أثر أقدام على الرمال، أو رسوماً على الماء.

* * *

حاول بعض الرجال أن يستثمروا علاقتي المتميزة مع النساء، وخاصة الجميلات منهن ومن سافر زوجها أو مات، يوصيني أحدهم بأن أنقل رسالة إلى فلانة التي يحبها كثيراً ويتغزل بها دائماً، وهي لا تلقي له بالاً، فهي واحدة من أشرف النساء، حفظت شرفها وسمعة زوجها حاضراً وغائباً، يحاول معي دون

يأس ثم يغريني بالمال، مفسد الضمائر ومقوّض عروش الأمم. ما عليك إلا أن تقول: فلان يسلم عليك، ثم تخبرني بماذا ترد.

وأرفض العرض، بل وأغير رأبي في الرجل بعد أن كنت أظنه صاحب شهامة وعفة.

لم يكن مجتمعاً مثاليّاً بل كسائر مجتمعات العالم يحمل الكثير من المتناقضات، الطاقة الجنسية ليس من السهولة إهمالها فتأثيرها على المجتمع كبير، كانت هناك حكايات تتداول عن علاقات تربط رجالاً بنساء وهناك الشذوذ حتى أن بعضهم لا يتورع عن استخدام خلوة المسجد لفعلة المشين، وهناك حكايات كثيرة عن علاقة بعض الشباب مع الحيوانات.

هي الطاقة الهائلة للشباب لا بد من تصريفها بالوسائل المباحة، وإلا صرفوها بطرقهم الخاصة، من تجاوز الخمسين عاماً ينسى ماضيه، ويريد من صاحب العشرين عاماً أن يتصرّف مثله، لا يريد أن يتذكّر كيف كان سلوكه في تلك السنّ، هناك علاقة طردية بين الحرمان من الشيء والتعلق به، كلّما زاد الحرمان، زاد التعلق.

* * *

تكبر العمة سارة وترفض أن تترك بيتها وتستمر أمي في العناية بها. أمر عليها كل يوم في الفسحة التي تمنحها المدرسة بعد الحصص الثلاث الأولى، ويسمح فيها للطلبة بالخروج من المدرسة، يتراكضون حال سماع الصافرة، إلى بيوتهم في فسحة مدتها عشرون دقيقة، في السابق كنت أذهب إلى بيت أحد أقاربي مع أبنائه، كان الأكل متوافراً، مكوناً من أرز مطبوخ له رائحة نفاذة أشمها من مسافة مئتي متر قبل الوصول إلى البيت، لكن بعد موت

زوجة هذا المحسن توقفت تلك الوجبة التي كنت أنتظرها يوماً بفارغ الصبر. ماتت تلك الزوجة الطيبة، من تكرار الحمل والولادة، كان موتها بعد الولادة بأسابيع عليها رحمة الله.

لم يعد لي مكان أذهب إليه في الفسحة سوى بيت العمّة سارة، لا تقدم لي سوى التمر والماء، وحتى التمر صنفان، فإن كنت وحدي قدّمت لي من تمرها الخاص، الذي يحرص ابن أختها على تزويدها به وتخبّئهُ لي تحت ركبته. أما إن كان معي ابن عمي فتقدّم لنا التمر العادي من صنف الخضري الذي يعطى لي ولابن عمي وللعمّنة، لذا كنت أفرح عندما ألتفت ولا أرى ابن عمي ورائي.

* * *

مع ذهاب أختي للرياض صارت العطلة الصيفية فرصة للذهاب إلى هناك، لقد بهرتني العاصمة بعماراتها الشاهقة وشوارعها الفسيحة ومحالّها التجارية المليئة بالبضائع، صار سوق المقبيره مكاني المفضل الذي أقضي فيه أوقات فراغي، أسير بين مباسط الفواكه والخضروات واللحوم، وأزاحم الرجال والنساء وأتمنى بعض ما يبيعون.

فكرت في شيء أبيعهُ فلم أجد سوى الماء الذي يشتغل ببيعه الكثير من الأولاد في مثل سني، فهو لا يحتاج إلى رأس مال سوى جردل أضع فيه الماء وكأس واحدة يشرب به الجميع. اشتري كسرة ثلج ثم أمشي بالماء بين المحال أو أفق عند مفترق الطرق، الشربة الواحدة بقرش واحد، بعضهم يكون عطشاناً ويشترط أكثر من كأس بنفس السعر، وبعضهم يبحث عن عذر كي لا يدفع، تكون الحصيلة مع أذان الظهر في حدود ريال واحد.

الجو الثقافي في الرياض أفضل من القرية، فهنا تباع الكتب والمجلات، وفي المجالس حديث عن القراءة ومواصلة الدراسة، وأحاديث أعمق عن السياسة والمجتمع.

عدت إلى بلدي بوعي أكثر، بدأت أستمع للإذاعة وأناقش بعض الأمور التي لم أسمع بها من قبل، سمعني إحدى قريباتي وكانت كبيرة السن أقول:

- ما أجمل الحرية!

التفتت إليّ وقالت:

- أتعرف ما هي الحرية؟ ولم تمهلني كي أجيب بل واصلت:

- الحرية أن تأتي إلى بيتك وترى نعال رجل غريب عند الباب فلا تدخل حتى يخرج من عند أهلك، بس الحرية ومن يدعو لها.

- لكنني قرأت أن الحرية تعني: إطلاق ملكات الإنسان ومواهبه، لا غرائزه وأحقاده. وأنها تعني رفع الناس أصواتهم ضد الظلم والكبت والفساد. وتعني عدم الخوف من العقاب عند المطالبة بالحقوق. من مناخ الحرية تهب رياح التسامح ويصبح الجو أكثر ملاءمة للتقدم والنجاح، ويصبح الناس أكثر غنى وسعادة.

قرأت أنه مع الحرية يسود العدل ويعمّ الرخاء وتتقدم الأمم، وفي غيابها ينتشر الفساد والظلم وتكثر الأخطاء ويزداد عدد الفقراء وتتخلف الأمة.

- دعك مما يقولون فالحرية تعني الفساد.

لم آخذ تعريف تلك المرأة مأخذ الجد، ظللت أتذكره كواحد من تعريفات الحرية المفترى عليها.

دخلت ذات يوم بيت العمّة سارة فوجدتها نائمة في منتصف الدرج، وكأنها ثوب يحتضن الحجر، حاولت النزول من سطح المنزل فتعبت، ركضت إلى أمي وأخبرتها عن حالة العمّة، فجاءت مسرعة ومعها القهوة وإفطار الصباح، لم تأكل المسكينة شيئاً منذ البارحة، لم تخرج أمي إلاّ وقد أقنعتها أن تسكن عندها، في اليوم الثاني أحضروا سيارة استأجروها لهذا الغرض وحملوا العمّة وحقيبتها الحديد يتدلى منها القفل الصغير وعنزتها الوفية إلى بيتها الجديد والأخير.

أخذت أمي تسهر على عمّتها سارة وتعتني بها، تجد لذة في خدمتها وتقديم الأكل لها، وهي تسمع ترديد الدعاء لها ولأبنائها، كانت تسمعه وتراه يصعد مباشرة من فمها للسماء، تردد أمي دائماً: الإحسان إلى الناس دين يسدد في ما بعد، ها نحن نسدد بعض ما لها من ديون. كانت العمّة تتناول فنجان القهوة بكلّ صعوبة، تستعيد أمي شريط الذكريات: أين تلك القوة وذلك القوام؟ استحالت تلك المرأة الواثقة إلى بقايا امرأة لا تستطيع الحراك، هكذا الحياة، كلّ حيّ له زمانه الذي يتقد فيه كسعلة ثم ينتهي إلى رماد، لا يبقى منه سوى أثره الصالح.

لا يوجد في البلدة مدرسة متوسطة. قلّة عدد الطلبة اضطرّ الوزارة إلى إقفالها، تأخر المطر كثيراً فجفت الآبار وماتت النخيل،

وهو ما حدا بالكثير من الأهالي إلى ترك مزارعهم والهجرة إلى عاصمة المملكة.

لا بأس فالعم يسكن في الرياض، وهناك مكافأة مقدارها مئة وخمسون ريالاً شهرياً للقادمين من خارج الرياض ممن لا يتوافر في بلدانهم مدارس متوسطة، لله دَرَك من حكومة، لا بد أنه اقترح صائب من مسؤول مخلص، لم يكن في الرياض سوى ثلاث مدارس متوسطة ومعهد العاصمة، كانت المتوسطة الثانية الواقعة في شارع الوزير (الملك فيصل لاحقاً) هي الأقرب، وفيها درست ثم أكملت في متوسطة ابن خلدون بعد افتتاحها. كان فيها مدرسون أكفاء ومدير صارم وعدد أقل في كل فصل، كنت في فصل الصغار وهم المجتهدون أيضاً. أعجبت بطالب كان ترتيبه الأول بين الطلبة دائماً، كان محط أنظار المدرسين لغزارة علمه وسعة اطلاعه، حاولت منافسته على المركز الأول لكن حصلت على المركز الثاني بفارق كبير، سألت عن ذلك الطالب وبحثت عن إنتاجه لكنني لم أجده، ربما ماتت جذوة النبوغ عنده كما تموت لدى الملايين من أمثاله كل عام.

بداية التغيير

زاد العداء بين المملكة بقيادة الملك فيصل ومصر بقيادة عبد الناصر، وانقسم الناس بين مؤيد ومعارض، واستقبلت المملكة آلاف الإسلاميين من مصر وسوريا، اتجه معظمهم إلى التعليم في الجامعات والمعاهد العلمية والثانويات، معظمهم كانوا أصحاب خلفيات سياسية، وبعضهم محكومون بالسجن لأسباب سياسية في بلدانهم، كانوا يقولون: غيروا التعليم يتغير كل شيء، البرمجة تبدأ من البيوت ومن المدارس، الضابط والمهندس ومدرس المستقبل من نتاج المدرسة، إذا أمسكت بالتربية والتعليم أمسكت بأهم مقدرات الأمة. وكانت البداية الحقيقية للتغيير الذي لا نزال نعيشه.

نجح هذا التغيير نجاحاً منقطع النظير، ولم يكن التأثير محلياً فقط، بل تعداه إلى دول أخرى، أسهمت في إنجاح هذا المشروع أربعة عوامل:

- عامل محلي، أساسه ثقافة محلية لا مجال فيها للنقد الذاتي أو التجديد أو الاجتهاد، ولا روافد من ثقافات أخرى تثريها وتطرح أمامها مسارات مختلفة، وأسئلة جوهرية تستحث عقول أبنائها على التفكير والتدبر واختيار الأفضل.

- تنظيم حركي وافر ضيق عليه في بلده، فوجد ضالته في بيئة

مناسبة، اتخذ من التعليم (معلماً ومنهجاً) أسرع الطرق وآمنها للتغيير لما يراه الأفضل للمستقبل.

– أوضاع سياسية مؤاتية، احتدم فيها الصراع بين الأنظمة العربية، وبين الشرق والغرب، وصار توظيف القومية من فريق، والإسلام السياسي من فريق آخر أهم سلاح لمواجهة بعضهم بعضاً.

– الاستعمار وما خلفه من مأس وإرث ثقيل في المنطقة، وما جرّه الوضع المتردي والانقلابات العسكرية من ظلم وهزائم على جميع المستويات.

ليت التغيير كان جوهرياً، ليته في إشاعة الحب والتسامح بين أفراد المجتمع وحسن التعامل والاحترام، في حب العمل وإتقانه، في بناء العقول بتفتيحها وإكسابها مهارات التفكير، لا برمجتها وإغلاقها وتجييشها على الآخر، ليته في كشف قدرات الشباب الهائلة من عقلية وبدنية وروحية وعاطفية وصقلها والعناية بها، ليته في تشجيع الفن الرفيع الذي يسمو بالذوق وينشر المعرفة، الفن الذي يسهم في نقد المجتمع وإعادة إنتاج الوعي لديه، وإضاءة الطريق أمامه، والإسهام في بنائه، ومحاربة الهابط الذي يثير الغرائز ويدفع للخواء، ليته في بناء الفرد (رجلاً كان أو امرأة) وجعله أساس كلّ تقدم وحفظ حقوقه وتعليمه المهارات اللازمة للعمل ضمن الجماعة، ليته في محاربة الظلم والفقر والفساد وإصلاح القضاء. ليته في مكافحة الغش والكذب والخداع.

كان قادة الصحوة مجتهدين، ورجالاً مخلصين أشداء، لكن ما كلّ مجتهد مصيب. كانت لهم أهداف نبيلة، لكنهم أضاعوا الفرصة

في التركيز على المظاهر واللباس والدعاء والتركيز على عبادات معيَّنة، وإهمال عبادات تنظّم الحياة بين الإنسان وأخيه، وبين الإنسان وبيئته. عبادات تهذب أخلاق المسلم، وتبرز أفضل ما لديه، وتبيّن الدين على حقيقته، عبادة تجعل شبابنا يقارعون الغرب والشرق في ما تنتجه عقولهم و ما تبنيه سواعدهم.

صارت المناهج تهتم بالتلقين والحفظ على حساب الفهم والتطبيق، وتهتمّ بالكميّة على حساب النوعية، صارت المناهج منفرة للطلاب، فهجر القراءة وصار ينتظر نهاية السنة لإلقائها جانباً، لكن أخطر عوامل ضعف التعليم وأكثرها تأثيراً هو المعلّم. جاء للتعليم من يبحث عن الوظيفة فقط دون إيمان برسالة التعليم السامية والمهمّة لنهضة الأمة، وبعض المعلمين لهم مفاهيمهم المختلفة عن التعليم ورسالته.

لم تعد المدارس مكاناً لاكتساب مهارات التفكير، وحب القراءة وممارسة الرياضة وتأصيلها، لتصبح هذه المهارات عبادات يمارسها الشاب أو الشابة وقت فراغه، وعبادات تبقى مع الطالب مدى الحياة. المعلمون والمناهج هم أهم وأخطر عوامل التغيير.

عودة إلى القرية

انتهى العام الدراسي بالنجاح ومعه المكافأة المجزية. خفت على المبلغ الكبير الذي جاوز الألف ريال من السرقة فسلمته إلى عمي لحفظه، وعندما أردت العودة إلى بلدتي وأمي، خجلت من طلبه وسافرت بدونه. أخبرت أمي، التي هونت علي وقالت:

- لا بد أن عمك سيستثمره بشكل أفضل منا.

- لكنني أريد أن أسدد ديونك.

- ديوني سأسدها قريباً إن شاء الله، التجارة بدأت تعود علي ببعض المال، والنعجة أصبحت خمس نعاج، الحمد لله.

كنت مهموماً وذهبت للسلام على عمتي الغالية، أخت والدي، سألتني عن المكافأة ماذا عملت بها؟ أخبرتها أنها عند عمي وأنها عنده لحفظها.

- لكن أمك بأشد الحاجة لها، سأكتب لأخي رسالة ليرسل المكافأة بسرعة.

بعد أسبوع وصلت المكافأة وسلمتها لأمي التي لم تصدق أن لديها ألفاً وخمسين ريالاً دفعة واحدة، ذهبت في صباح اليوم الثاني إلى من أقرضها لبناء البيت وقالت له:

- أتيت لأسدد الدين وأشكرك على أريحيتهك وصبرك.

- لكنني طلبت منك أن تسدديها من راتب ولدك وهو لا يزال طالباً.

- هذا المبلغ من مكافأته وبقي منها الكثير.

- لن آخذ ريالاً واحداً إن كنت بحاجة إليه.

- لست بحاجة لشيء، بل لقد بدأت أقرض الناس. لقد علمتني درساً في الإحسان والوفاء.

بقي أربعمئة وخمسون ريالاً وزعت منها مئة ريال على أقاربنا المحتاجين، وخمسين ريالاً على الفقراء، والباقي ثلاثمئة ريال سأشتري بها مزيداً من البضائع، الخير في التجارة.

عدت إلى الرياض وكان الطريق ترابياً وعراً، يستغرق حوالى نصف يوم لمسافة لا تتعدى مئتين وخمسين كيلومتراً. اشتكيت لعمي من وعورة الطريق وطوله. ضحك وقال: ألا تدري أن والدك قد مشاه سيراً على الأقدام مع صديق له؟ استغرقا سبعة أيام حتى وصلا إلى الدرعية قرب الرياض. أتذكر ذلك جيداً عندما شحَّت المياه وتأخر المطر، أوصاني أن أهتم بالمزرعة وغاب ستة أشهر، كان هو وصديقه يسيران بالنهار، وينزلان عند أول بيت يقابلانه بالليل، أحياناً يكون مضيفهم ميسور الحال ويقوم بواجب الضيافة ويهيئ لهما مكاناً ينامان فيه، وأحياناً لا يجد مضيفهم إلا عشاء أولاده يشاركهم إياه، ثم يشير عليهما بالمسجد ليناما فيه، أحد مضيفهم لم يجد سوى عباءة زوجته ليعطيها أحدهما ليتقي البرد حتى الصباح.

وقد عاد والدك بعد ستة أشهر ومعه بعض المستلزمات التي

نحتاجها، وخاصة القهوة والشاي والأرز الذي كان شبه معدوم في ذلك الوقت.

أما جدك فكانت حاله أسوأ منا بكثير عندما عضه الجوع بأنيابه، وماتت ناقته الوحيدة التي تساعده على مصاعب الحياة، وخاصة متطلبات الزراعة كإخراج الماء من البئر وجلب الحطب من النفود، صار هو الذي يخرج الماء بسحب الدلو وربط الحبل بظهره وسحبه حتى يخرج الماء، ويسقي النخل حتى لا يموت. وعندما تعب كتب رسالة لابن عم له بالكويت ومعها قصيدة. يشكو فيها حاله وما آلت إليه أوضاعه المعيشية. كانت قصيدة مؤثرة يقول في أولها:

أشكي عليك الحال وأشكي غشيّه صوته رفيع حين دُلبِحثَ برشاه

وغشيّة هذه هي المحالة التي يمرّ من فوقها الحبل (الرشا) فتنظم حركته وتسهلها ويربط في آخره الغرب وهو يشبه الدلو يمتلئ بالماء ثم يسحبه هذا المسكين مدلبحاً أي (منحنياً) من ثقل الحمل، بدلاً من سحبه بواسطة الناقة التي ماتت وثمرتها لا يزال ديناً لم يسده.

أرسل الرسالة ومعها القصيدة مع أحد الذاهبين إلى الكويت، بعد أن قرأ ابن عمه الرسالة بكى ثم قال: أعرف جيداً أنه لولا الحاجة لما كتب لي.

سأل ابن العم حامل الرسالة عن موعد عودته إلى نجد، وطلب منه أن يمر عليه قبل العودة، وعندما مر عليه أعطاه ناقة محملة بالخيرات ورسالة لابن عمه وفيها رد على القصيدة، بعد أيام كانت الناقة وحمولتها أمام بيته، الحمولة مكونة من كيسين من الرز وشاي وقهوة وسكّر، لم يصدق المسكين، وبعد صلاة المغرب طلب من

أهالي الحي وكانوا في مجاعة، أن يحضر كل منهم إناء، وأخذ يعطي لكل واحد صاعاً، وعندما انتهى الكيس الأول بدأ الثاني حتى أعطى الجميع، كان كريماً رغم فقره.

كانت الحالة صعبة لدى الجميع، حتى أمير البلد رغم إمكاناته الكبيرة، لا يستطيع أن يستقبل كثرة ضيوفه الوافدين على البلدة من أبناء البادية، يبقى أكثرهم عنده، ويوزع البقية على الميسورين من أبناء البلدة.

يقول العم: في أحد الأيام حضر مندوب الأمير إلى الحي ومعه عشرة رجال، ليوزعهم على بعض البيوت ضيوفاً، أعطى المندوب والذي سبعة، وواحد أعطاه لأحد الجيران، واثنين لبيت آخر. سمع والذي امرأة الجار تناديه وتقول: خذ ضيفي مع ضيوفك. كان زوجها مسافراً، وبعد قليل يحضر المندوب ومعه الاثنان الآخران لأنه لم يجد صاحب البيت الآخر. ويجد المندوب لدى والذي خمسة آخرين من أبناء البادية.

ذهب المندوب إلى الأمير وأخبره بما حصل ثم أضاف: أقتراح ألا نرسل لهذا الرجل ضيوفاً بعد الآن، يكفيه من عنده.

بعد وصولي إلى الرياض ذهبت إلى السوق واشترت كل ما أوصت به أمي من بضائع، في المدرسة علمت أن المكافأة نقصت من مائة وخمسين ريالاً إلى مائة فقط يذهب منها ريانان للطوايع.

في العطلة الصيفية ذهبت أختي مع زوجها إلى الجنوب، إلى (بلجرشي) أو كما يسمونه أحياناً (سوق السبت)، طلبوا مني مرافقتهم، أمضيت هناك إجازة من أجمل الإجازات. أول ما لفت

نظري وادي (بيدة) الجميل بتعرجاته وكثرة مزارع الرمان، تحيط به جبال السروات الشاهقة من جانين، وينتهي بصعود متعرج تحيط به الغابات من كل مكان. أعجبت بسوق السبت، منظر النساء والرجال يتقاطرون إليه من كل مكان، تمرّ النساء أمام المنزل ذاهبات إلى السوق وعلى رؤوسهن الزنابيل والسلال المحملة بالفواكه والخضروات والبضائع المصنوعة محلياً، أعجبتني جبل (حزنة) الشاهق وواديها المليء بالماء والأشجار، أحاطنا الأهالي بكرم منقطع النظير. ففي كل يوم على الأقل هناك مناسبتان، أكثر ما أعجبتني كثرة الفواكه وتنوعها، عدت إلى الرياض قبل بدء الدراسة بأيام ومعني الهدايا، أوانٍ مملوءة بالعسل الصافي.

قرّرت وابن عمي الأصغر مني أن نجرب التجارة، ولأن كلينا محب للقراءة فقد قررنا افتتاح مكتبة سمينها (مكتبة العاصمة) ولم نكمل العام إلاّ وقد كسبنا القراءة وخسرنا رأس المال، ولم ينقذنا سوى خياط من الإخوة اليمينين حوّله إلى محل للخياطة الرجالية.

جرّبت بيع الخُصَر في (المقبرة) أثناء العطلة الصيفية لكن النتيجة لم تكن أفضل من مشروع المكتبة، وجرّبت كتابة الخطابات أمام بعض الدوائر الحكومية، لكن صغر سني أفقدني ثقة المراجعين بي وبقدراتي.

في إجازة ما قبل امتحان السنة الثالثة المتوسطة، ذهبت إلى والدتي في الغاط علّني أجد جواً أفضل للمذاكرة واستعداداً أكثر للامتحان، لكنني وجدت العكس تماماً، ففي الصباح أسير بين الحقول أستمتع بجمال الطبيعة وسحرها، وبقية النهار في زيارة الأقارب والأصدقاء، وفي الليل أحاول المذاكرة على ضوء مصباح

الكيروسين، ولأستطيع القراءة جيداً؛ عليّ أن أقرب من المصباح كثيراً والانحناء حتى لا تتجاوز المسافة بيني وبين المصباح بضعة سنتمترات، مما يجلب النوم خلال دقائق خاصة بعد جهد النهار وتعبه .

تسكن والدتي وزوجها في بيت قديم انتقلوا إليه بعد هجر المزرعة لنضوب الماء وتأخر المطر. ورث زوجها البيت عن والده، وأصر على سكنه رغم عدم صلاحيته للسكن، يقع هذا البيت في وسط البلدة قريباً من المسجد الوحيد في البلد، مظلم من الداخل ولا يوجد فيه نوافذ عدا فتحة في السقف يخرج منها الدخان. في مدخل البيت سارية لا يراها الداخل إلى البيت، من الصعوبة أن ترى العين في الظلام بعد الضوء الساطع في الخارج. وزيادة على الظلام والسارية ربطوا عنزة في المدخل تدور حول السارية وتنشر روائحها النفاذة في البيت كله، ومن يدخل البيت لأول مرة لا بد أن يصطدم بالسارية أو العنزة، أما أهل البيت فحالما يدخلون يسلمون على العنزة أولاً ثم يطلبون منها إفساح الطريق، ولا يوجد تفسير مقنع لبقاء العنزة في ذلك المكان، ولا لبقائهم أصلاً في هذا البيت بعد أن أصبحت حالهم أفضل من السابق بكثير.

البيوت التي لا تزورها أشعة الشمس ولا يتجدد هواؤها تصبح كالأوطان التي تصادر الحريات وتمنع النقد البناء، يسودها الظلام وتطير الخفافيش في أجوائها المظلمة، وعلى أرضها تدب الزواحف والقوارض، ويتنفس ساكنوها روائح العفن والفساد.

قررت العودة إلى الرياض في أقرب فرصة، حتى أعوض ما

ضاع من أيام دون مذاكرة .

قيل لي إنّ سيارة تابعة للإمارة محملة بالخيام متجهة إلى الرياض، لكنني وبعد أن وصلت إلى سوق البلدة كانت السيارة قد غادرت، تطوع أحد أصحاب السيارات بإيصالي (للمجمعة) لعلمي أدرك سيارة الإمارة. وجدتها عند محطة وقود وليس فيها إلاّ الخيام والسائق وفلاح كبير السن.

غادرنا (المجمعة) بعد الظهر وبعد ساعتين من السير البطيء، توقفت السيارة وتعذر إصلاحها، اقترح السائق وكان ممن عركتهم الحياة وأنضجتهم التجارب أن نتركه عند السيارة لحراستها، وأن نتجه نحو الرياض مشياً حتى نجد سيارة تأخذنا إلى هناك. كتب السائق رسالة يصف فيها مكانه وحاجته إلى إصلاح السيارة وسلمها للفلاح وأوصاه بالحرص على تسليم الرسالة بأسرع وقت لوكيل الأمير شخصياً.

سرت والفلاح، وسرعان ما خيم الظلام، وليس معنا ماء ولا طعام، سوى كيس طحين رفض الفلاح تركه في السيارة خوفاً عليه من الضياع، خاصة أنه هدية لإحدى بناته في الرياض. ساعدته في حمل عباءته التي أحكم طيها حتى غدت كأنها كتاب متوسط الحجم، سرنا في ظلام دامس، تنتشر فوق رؤوسنا مظلة من ملايين النجوم التي أسهمت في هدوء الصحراء وسكينتها.

سألت الفلاح:

- هل يوجد هنا ذئاب؟

- موجودة بكثرة، وقد تهاجمنا في أي وقت.

ازددت قرباً من الفلاح وتخيلتها تركض خلفي، تمر السيارات

في فترات متباعدة، ولا تتوقف. سيارة واحدة تحمل أثنائاً مدرسياً لإحدى قرى (سدير) آتية من الرياض، توقفت وقدم لنا أصحاب السيارة القهوة والماء، وأشاروا علينا أن نسير مسافة عشرين كيلومتراً قبل أن نصل إلى مكان تجتمع فيه الطرق لوعورة المنطقة وكثرة رمالها. وصلنا المكان قبيل الفجر، وكنا نتحدث لكل صاحب سيارة تتوقف، ويفتح السائق معنا تحقيقاً: أين سيارتكما؟ ولماذا تركتموها؟ كل السيارات التي توقفت رفضت إركابنا خوفاً منا وتحت أعدار غير صحيحة. توقفت سيارة وطلب سائقها مبلغ ثمانية ريالاً عن كل واحد حتى يوصلنا إلى الرياض. رفض الفلاح هذا العرض المبالغ فيه والذي يستغل الظروف لرفع الأجرة، التفت الفلاح إليّ وقال: ليس من علاج للجشع والطمع سوى تركه، ثم قال: محاربة الجشع بحاجة إلى شجاعة وقناعة.

أخيراً، وجدنا من يوصلنا إلى الرياض دون السؤال عن الأجرة، لكنه أركبنا مع الأغنام بروائحها النفاذة، السيارة تتكون من دورين، الدور الأول للأغنام والدور الثاني لنا، نمت من التعب ولم أستيقظ إلا في مواقف السيارات (بالغرابي) في الرياض. جمعنا الأجرة ثلاثة ريالاً عن كل واحد (هكذا قدرناها بعد مشاورات). وسلمناها لصاحب السيارة الذي رفض أن يأخذ شيئاً مقابل إيصالنا، واعتذر عن ركوبنا في الدرجة الأقل من السياحية لضيق المكان وعدم معرفته لنا في ذلك الظلام الدامس.

قررت أمة حيال إصراري على تغيير البيت أن تبحث عن بيت تشتريه. وجدت البيت المناسب بمبلغ سبعة آلاف ريال دفعته نقداً، ثم اشترت البيت الذي بجانبه بأربعة آلاف ريال ليكون فيه مجال

للتوسعة ومكان مناسب للعنز، وسمح المكان بإضافة عدد من الماعز، وصار الحليب الطازج متوافراً في كل وقت. في المنزل الجديد ازدهرت التجارة وخصصت لها غرفة بكاملها، وصارت توصي من يذهب من الأقارب إلى الرياض ليزودها بما تحتاجه لتجارتها.

في ربوع اليمامة الثانوية

كان ذلك في عام 1966 حين التحقت باليمامة الثانوية وهي الأولى في الرياض، أما الثانية فمعهد العاصمة، المخصص لعلية القوم من المجتمع.

في اليمامة الثانوية نخبة من المعلمين المتميزين من مختلف الدول العربية. أعجبت بمدرس الأدب الأستاذ خالد البرقاوي، الذي زرته في بيته بعد تقاعده. وقلت له هذه الكلمات:

كلماتك ترنّ في أذني بعد قرابة الثلاثين عاماً، لا أزال أتخيل وجهك البشوش كما أتخيل قوس قزح في صباح ماطر وقد طوّق بألوانه نخيل قريتي الهادئة.

كأنني أراك اليوم أمامي بلباسك النظيف وخطواتك الواثقة. بتلك الحماسة التي أقرأها في عينيك، كنت تذرّع الفصل كفلاح داهمه المطر، ويريد أن يبذر الحَبّ قبل أن تجفّ الأرض ويصعب حرثها.

كم كنت تتألم وتغضب عندما يكشف فأسك عن أرض سبخة فقدت القدرة على العطاء، ومع ذلك تحاول أن تجعل منها أرضاً صالحة تحتضن البذور.

لم يثبط من عزمك كثرة الطلبة وشقاوة بعضهم، خاصة من كان منهم في مثل سنّك. لا أزال أذكر ذلك الصباح الذي حلّقت بنا

كقائد طائفة يعرف طريقه جيّداً. طلبت منا أن نربط الأحزمة وأن نستعد للتخليق معاً إلى قمم عالية من الإبداع. أحضرت لنا لوحة فنية بدأتها بهذه الأبيات:

أصبح السفح ملعباً للنسور فاغضبي يا ذرى الجبال وثورى
إن للجرح صيحة فابعثيها في سماع الدنيا فحيح سمير
كان هذا مطلع قصيدة للشاعر عمر أبي ريشة صوّر فيها نساً كان
مسكنه قمم الجبال، وميدان لهوه طبقات الجو العليا، ثم شاخ
وصار السفح مسكنه وملعبه ومأواه.

حاولت أن تأخذنا معك إلى عالم الشاعر وكشف أسراره وسبر
أغواره، أخذتنا معك على بساط الخيال الممتّح، لنقابل الشاعر
ونسأله ماذا يقصد بذلك النسور؟ هل يقصد نساً شاهده في سفح
جبل؟ أم يقصد الأمة العربية؟ أم إن الشاعر يصوّر معاناته وما يمرّ
به من صعوبات؟ أسئلة تفتح العقول وتثريها وتبقيها متيقظة متوقّدة،
مبدعة.

كان درسك لوحة فنية جميلة أشركتنا في رسمها، بطرحك الكثير
من الأسئلة.

كنّا نبحث عن الجمال في القصيدة، وكاننا نبحث عن زهر
الخزامى في روضة معشبة. كنت تطلب منا أن نعيش في الأعالي
كما تعيش النسور والصقور لا في السفح كما تعيش بغاث الطير
وضعافها.

سألته: كيف أبداع وحبب إلينا الأدب، وبيّن لنا أهدافه النبيلة؟

فكان جوابه مختصراً قال بكل ثقة: (الحُب) أحببت المادة فأحطت بأسرارها، أكثر المبدعين هم من يعشقون ما تحت أيديهم من أعمال. آمنت برسالة التعليم فأديت الرسالة على الوجه المطلوب، عرفت أن الوطن لا يبينه سوى أبنائه فأحبتهم وأخلصت لهم.

جوابه ذكّرني بعاملين يقطعان الحجر، سئل أحدهما: ماذا تعمل؟ أجاب: ماذا ترى؟ أفضي نهاري في شقاء مع الحجر. سئل الثاني: ماذا تعمل؟ أجاب وكلّه فخر: أسهم في بناء المساجد والمدارس والمستشفيات.

تشعّ الحماسة ويظهر الفخر على وجه معلّم يؤمن أن التعليم أعظم رسالة، ويتلبس الكسل والإهمال مدرساً آخر يرى في التعليم وظيفة مملة ومصدر رزق فقط.

أذكّر كلماته جيّداً عندما قال: أرى مستقبل الأمة في الطالب الجالس أمامي.

أراه وقد صار طبيباً ناجحاً يعالج المرضى، أراه معلماً يقف أمام الطلبة، أراه ضابطاً أو قاضياً، أراه أباً يحنو ويربّي صغاره. أرى فيه أهم مقومات بناء الأمة.

أعجبنى جوابه عندما قال: فهم المادة وتطبيقها وتحبيب الطلبة فيها أجدى من حفظها. وإثارة الأسئلة أهم من إعطائهم أجوبة جاهزة. لا أزال أذكر ذلك المثل الذي كان يردده: (العقول كالمظلات لا تعمل إلا إذا فتحت).

ذكّرني بمثل طالما ردّه الناس دون العمل به: (لا تعطني سمكة، بل علمني كيف أصطادها).

كنت أعلم أنه كان يستعين بوالده الضليع في اللغة العربيّة، كان

يهدد والده بترك التعليم إن لم يساعده في أداء المهمة، كان محظوظاً بوجوده، يشرح الدرس أمامه كما سيشرحه للطلبة.

قلت له قبل وداعه:

أعلم أن الإتقان لا يأتي وحيّاً ولا مصادفة، بل جهداً ومثابرة، لكنّ النتائج واعدة، ألا تراني واحداً من طلبتك الذين بذرت فيهم حب الأدب واحترام العمل؟ ها أنا اليوم أقابلك بعد كلّ هذه الأعوام لأشكرك. لقد تعبت في البحث عنك، وكم فرحت حين اهتديت إلى عنوان منزلك.

لقد سعدت كثيراً وأنا أراك بعد ثلاثين عاماً، ولا زلت والحمد لله تتمتع بالحيوية والنشاط والأريحية.

سألته: هل كنت تتوقّع أن يثمر عملك؟

أجاب: كنت أتوقّع ذلك، بدأت والنهاية ماثلة أمامي، تعلّمت من الحياة أموراً كثيرة، لكنّ أهم ما تعلمته، الثقة بالله، ورسم الأهداف واستثمار الوقت وترك المحرمات وحبّ الناس والمداومة على عادة القراءة غذاء عقلي، وممارسة الرياضة، مصدر وكنز صحي الجسميّة والنفسية. حاولت أن أتعلّم من أخطاء الآخرين، وليس من أخطائي فقط. الحياة جميلة إذا عرفنا كيف نحياها، أعظم ما في الحياة أن نمد أيدينا لمساعدة الآخرين مبتدئين بالأقرب فالأقرب، ما استثمرته من حب في أسرتي ما ضاع هباء، فالיום أجنبيه حباً وتقديراً مضاعفاً، وعلى الأخص زوجتي التي بقيت معي بعد أن غادرت الطيور أعشاشها.

ودّعته وتمنيت له الصحة في مساء عمره المديد، وتذكّرت أهمية حسن اختيار المعلمين والمعلمات، وتمنيت لو وضعت الوزارة

معايير صارمة لاختيارهم مع وفرة المتقدمين، مستفيدين من خبرة الدول المتقدمة والناجحة فالمعلم الناجح هو أهم أعمدة بناء التعليم الناجح.

كانت الإمامة الثانوية تعج بالتيارات السياسية والدينية وخاصة القوميين العرب والإخوان المسلمين الذين بدأ نشاطهم يزداد في المدارس. كان أكثر ما يتداول الطلبة القوميون كتب السياسة والأدب الروسي.

قرأت (في بيتنا رجل) و(الأم) وروايات (تولستوي) و(مكسيم غوركي). وعلى الجانب الآخر قرأت كتب سيد قطب وخاصة (معالم في الطريق) وكتب محمد قطب ومنها (جاهلية القرن العشرين).

جاءت حرب الأيام الستة وكانت نتائجها المدمرة ضربة قاضية، للقوميين العرب وهزة عنيفة لمكانة قائدها عبد الناصر، الدكتاتورية لا تبني أمة قوية تصمد أمام الأزمات، مصادرة الحريات تعني السماح للفساد بالانتشار، زج المعارضين في السجون يعني إخفاق النظام في معالجة الخلل ونجاح المعارضين وزيادة أعدادهم.

الجيش لا تحارب بعيون مغمضة وآذان مسدودة ومعنويات هابطة، إذا كان القادة يُختارون على أسس خاطئة فكل النتائج ستكون خاطئة، أهم عناصر قوة الأمة جودة تعليمها ونزاهة قضائها وحسن اختيار قادتها ومحاربة الفساد على كل مستوى.

بينما كانت إسرائيل تبني قدراتها على أسس علمية، وتعج جامعاتها بالعقول ومراكز الأبحاث، ويستفيد تعليمها من كل جديد في المناهج وإعداد المعلمين، كان العالم العربي ينام على الخطب العصماء والوعود الزائفة وكَمّ الأفواه والفساد بأنواعه وأشكاله.

قرر بعض المتحمسين لنصرة إخوانهم العرب، تنظيم تظاهرة بعد صلاة الجمعة تنطلق من ساحة الصفاة، اتصل بي أحد الطلبة وأبلغني بموعد التظاهرة وطلب مني المشاركة، وطلب مني إبلاغ من أثق به عن موعد المظاهرة ومكانها، أبلغت عمي وطلبت منه أن يشارك في التظاهرة إلا أنه عارض الفكرة بشدة وطلب مني عدم المشاركة مهما كانت الدوافع. قال لي: من أنت أيها العصفور الصغير لتغيّر سياسة العالم؟

ذهبت لصلاة الجمعة وتركت دراجتي الهوائية عند قريب لي في (المقبرة) واتجهت للصلاة في المسجد الكبير، بعد الصلاة سمعت النداء وبدأت التظاهرة، سرت معهم أردد ما يقولون، سارت التظاهرة في طرق رئيسية ثم فرعية وأخيراً تدخلت الشرطة وهرب من هرب وقبض على من قبض عليه وكنت ممن نجا بأعجوبة.

عند وصول الشرطة حاولت الهرب فأمسك بي أحد الإخوة الذين يردد المتظاهرون النداءات لدعمهم ولأجلهم قامت التظاهرة. لكنني أفلت منه بأعجوبة، وربما أحس هذا الأخ بتأنيب الضمير فتظاهر بمحاولة إمساكي، كيف يمسك بهذا الصغير الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة ويسلمه للشرطة في قضية هي قضية العرب جميعاً.

وقد لاحظت أن من خططوا للتظاهرة لم يشتركوا واكتفوا بالمراقبة من بعيد. هكذا يدفع الشباب المغرّر بهم حياتهم، بينما القادة وأبناؤهم في مأمن.

ركضت من شارع لشارع وفقدت حذائي من شدة الركض، توقفت أخيراً عند صاحب بقالة صغيرة من الإخوة اليمينيين، اشتريت منه نعالاً رخيصة، وقد لاحظ البائع خوف الصغير وسمع

دقات قلبي التي ربما سمعتها أُمي من بعيد. طلبت زجاجة من مشروب غازي وأخذت نفساً طويلاً ثم فكرت: ماذا لو أمسكوا بي؟ من سيخبر عمي وأُمي؟ وهل سمع الوطن الأسير ندائي؟

عدت إلى دراجتي ولم أخبر أحداً بما صار، وجدت عمي ينتظرني على الغداء الذي جاء في وقته وحمدت الله أن عمي قد نسي كل شيء عن التظاهرة. في المساء جاء الجار وشرح لعمي كل تفاصيل ما حدث بعد صلاة الجمعة وكان ضمن المشاركين، وقد أمسك به شخصان، لكن أحد كبار السن هدهما بعصاه فأقلت منهما واختفى في غرفة بعض الإخوة اليمنيين حتى تفرق الجميع. رأي الجار ورأى من أمسك بي وجاء يخبر عمي ليفخر بي، جاء العم إلى غرفتي غاضباً وأتبنى على المشاركة وذكّرني أنني الوحيد لوالدتي، لكنّه في قرارة نفسه كان فخوراً بي وبحسّي الوطني، وناداني إلى حيث يوجد الجار وتناولنا العشاء معاً.

وصلت إلى قناعات استمرت معي في جميع محطات حياتي. أولاًها: أن التحزب على أساس ديني أو قومي داء أصيبت به الأمة العربية بصرف النظر عن دوافع الأحزاب المعلنة، فكل حزب وراءه طامع في السلطة، قد تؤسس لهدف نبيل، لكن سرعان ما تتداخل الطموحات الشخصية والأحقاد مع الأهداف النبيلة فتفسدها.

القناعة الثانية: ألا آخذ كل ما يقال بالقبول بل لا بد من الشك وإثارة الأسئلة والتحليل قبل القبول. فكم من مثاليات أخلّ بها من لم أتصور أنهم سيخلون بها. وكم ردد الناس من خرافات، أخذت صفة الحقائق من كثرة التردد والاستشهاد بها، كم تمنيت لو تعلمت مبادئ الفلسفة لأفكر بشكل جيد، ولأكشف زيف كثير مما

يقال ويفعل . الأسئلة مفاتيح للمعرفة إذا أجدنا استخدامها .

القناعة الثالثة: أن أداء الأمة من ثقافتها قبل أن يكون من أعدائها، ولا سبيل إلى أي إصلاح إلا بثقافة مختلفة تراجع الكثير من العادات والقيم السائدة والمعتقدات. وما أصدق قول الشاعر:

لا يدرك الأعداء من جاهل ما يدرك الجاهل من نفسه

القناعة الرابعة: هي أن التعليم بنوعيه الكمي والكيفي، هو الطريق إلى النهوض من مستنقع الجهل والتخلف، والذي أهم عناصر نجاحه المعلم والمربي الناجح، المحب لعمله ثم المنهج الذي يسهم في فتح العقول وشحذها لا برمجتها وتدجينها. لن تنهض الأمة إلا بتعليم يقَدِّس العمل وينبذ الكسل ويؤسس لتربية مختلفة عما نعيشه. حين سُئِلَ وزير التعليم العالي الياباني عن سرّ تقدم اليابان أجاب: «السبب هو نظام تربيتنا الأخلاقية».

كلما أحسست بحرقه في صدري وغصّة في حلقي من الوضع المتردي، عدت إلى التعليم أستنجد به، طالما العقول هي العقول فكيف يتقدمون ونتأخر؟ كيف أن شركة واحدة هي (IBM) منحت في عام واحد عدد (3288) براءة اختراع. وعدد (22358) براءة في عشرة أعوام، كسبت منها الشركة نحو خمسة عشر بليون دولار. نبيع من ثروة ناضبة ويكسبون من نتاج عقول متجددة، وهذا ما حداني لأن أكتب لأكثر من وزير تعليم في بداية تسلّمه الوزارة، أبارك وأسجّل بعض الاقتراحات.

الغريب أن المنتصر في حرب 1967 الخاطفة هو الذي شكل اللجان لدراسة أسباب النجاح وأوجه التقصير وتسجيل الدروس المستفادة، أما المهزوم فاكتفى بالبحث عن عوامل خارجية، كدعم

أمريكا وخيانة الأصدقاء وعامل المفاجأة من العدو. إلقاء اللوم على أكتاف الآخرين يخلص المقصّر من تحمّل المسؤولية.

لو كانت هناك دراسة جادة، لتجاوزنا سبب الهزيمة. كان من أهم الأسباب غياب الحريات، وسوء القيادة، ونقص التدريب، وضعف الروح المعنوية، وغياب النقد الذاتي الذي نتجنبه ولا نتقنه أبداً، نعتقد بأن النقد يقلل من قيمتنا، لذا سنظل في المستنقع نفسه حتى نبتلع كبرياءنا ونسمح بالنقد الذاتي المبني على حقائق وأرقام ودراسات جادة.

ساد الارتجال في اتخاذ القرارات مع غياب مراكز الأبحاث، وانتشار الفساد، والمحسوبيات في اختيار القادة.

من السهولة أن نلقي بإخفاقاتنا على الآخرين، لكن هذا لن يحل المشكلة كما أن الزمن لا يحلها بل يزيدا تعقيداً. كُنّا نقارن بين الأعداد فقط، دبابه بدبابه، وطائرة بطائرة، وهذه مقارنة مضللة. طالما استخدمت لأغراض دعائية وتضليل.

* * *

عدت إلى والدتي فوجدت بيتاً أكبر، وهواء أكثر نقاء، ووالدة أكثر ثقة بنفسها، فقد اشترت بيتين متجاورين أدخلت عليهما الكثير من التحسينات، وشاركت شخصياً في بعض التعديلات. صارت تعتنى بعمتها سارة التي كبرت كثيراً وصارت شبه مقعدة، وتعتنى بزوجها الذي شارف على السبعين عاماً، تستعين بابنتها الصغيرة في كثير من أمور البيت. زادت المسؤوليات وكثر من يعتمد عليها في الكثير من الأمور، أصبح الإحسان للآخرين مصدر سعادة لها، صارت تكثر من رفع يديها بالدعاء والشكر لمن في السماء. كانت

تقول: سبحان من غيّر الأحوال، اللهم لا تجعله استدراجاً اللهم
ارزقنا شكر نعمتك. كثيراً ما يقصدها المحتاج بطلب قرض بسيط
يعد بالمشات فتعطيه ما طلب وتضيف دون مقابل، لكنها تحته على
التوجه للقبلة والدعاء لابنها الغائب.

محاولات لم يكتب لها النجاح

انتقلت الأخت إلى أبها ورغب زوجها في الحج، فلا بد من السفر إلى هناك حتى أكون رجل البيت في غياب صاحبه، ولم ينس نسيبي أن يزودني بتذكرة الطائرة وإن لم تكن باسمي بل باسم راكب آخر، فرحت كثيراً بالرحلة خاصة أنني سأركب الطائرة لأول مرة. حجزت بمساعدة أحد أبناء بلدتي الذي يعمل موظفاً بالخطوط، حضرت إلى المطار بعد صلاة الفجر مباشرة. أخذوا ينادون على الأسماء ونسيت اسم صاحب التذكرة، وانتظرت المناداة على اسمي لكن أوقلت الرحلة وأنا أحاول إقناعهم بأهمية سفري بأسرع وقت، هناك رجل سيحج وبحاجة إلى حضوري.

مرت الطائرة من أمامي ومراوحها تكنس الأرض من خلفها، وبعض المودعين يؤشرون لها، وبعد قليل شحذت همتها وانتعلت الريح وحلقت في سماء بعيد.

فكرت في أسرع وسيلة للوصول إلى أبها فقررت أن أذهب عن طريق البر، وخلال يومين أكون هناك على أبعد تقدير، ركبت سيارة الأجرة إلى الطائف، ووصلتها بعد صلاة المغرب بقليل. أنزلوني في محطة تغادرها السيارات إلى أبها في الصباح، كانت الطائف مليئة بالحجاج، وخاصة المقاهي التي اتخذها الحجاج سكناً مؤقتاً لهم، وكذلك فعلت، فقد استأجرت كرسيّاً طويلاً اتخذته سريراً أنا

عليه حتى الصباح، يكلف الكرسي رباين تدفع قبل النوم. لسوء الحظ كانت النائمة أمامي عجوزاً مريضة رسم الزمن على وجهها لوحاته البغيضة، تكثر من السعال وتبصق بين كل سعدة وأخرى، وربما جعلت من مكة محطتها الأخيرة. اقترح علي أحد رواد المقهى أن أذهب معه إلى بيته حتى الصباح لكن رفضت العرض السخي. وفضلت النوم بجانب العجوز على الذهاب إلى بيت لا أعرفه. نمت على جانب واحد وكلما انقلبت على الجانب الآخر ورأيت العجوز بمنظرها المحزن وصوت سعالها الذي لا ينقطع، عدت إلى جانبي المتعب. تذكرت دعاء السفر وكررت مراراً، أحسست بوعناء السفر وكآبة المنظر.

في الصباح ركبت مع أول سيارة متجهة إلى أبها وحجزت في المقعد الأمامي وهو الأعلى لأنه الأقل تأثراً بالمطبات الكثيرة في الطريق غير الممهّد، في آخر كرسي ركب أحد الإخوة اليمنيين الذي ظل يصرخ مع كل مطب، في النهاية نزل من السيارة وجلس تحت ظل شجرة وأوماً لنا بتركه والذهاب إن كنا مستعجلين، لقد أجرى عملية جراحية ولا يستطيع مواصلة المسير مع هذه المطبات اللعينة، أحضره السائق ووضعني بينه وبينه، لم أمانع حين رأيت الابتسامة على وجه ذلك الراكب.

لم تصل الرحلة في الوقت المناسب فقد اعترضها الكثير من العوائق، أصعبها تجاوز وادي (بيشة) الذي امتلأ بالماء، وظللنا ننتظر عبوره يومين.

أصبحنا على مشارف خميس مشيط بعد ثلاثة أيام من مغادرة الطائف، نمنا آخر ليلة في مقهى يقال له قهوة (أبو جنية). ولم يكن

به جنّية، بل رأيت فيه ولأول مرة امرأة جميلة عليها لثام زادها جمالاً، تعمل بالمقهى، بكل جد ونشاط. كانت تعد القهوة وتطبخ الطعام وزوجها يقدمه للضيوف، نمت لأول مرة نوماً عميقاً لم أذقه منذ عدة أيام، لم يقطعه إلا صوت المؤذن لصلاة الفجر. وصلت إلى أبها بعد صلاة الظهر، لكن بعد فوات موعد الحج، فما حج النسب ولا ركبت الطائرة.

بهرتني أبها بجمالها، وأكثر ما شدني تلك الجبال الشاهقة والأشجار الملتفة وكثرة الأمطار فوق جبال السودة والضباب يغطيها وينشر عليك السكينة والانشراح. أعجبت بالأودية القريبة من أبها وصرت أذهب لها يومياً مع ابن جارنا الذي يعمل والده بالزراعة. إحدى الجارات تأتي يومياً من السوق حاملة على ظهرها المؤن والماء، واضعة حزاماً على بطنها وعصابة على رأسها، وبوجه مكشوف ينم عن الجهد والتعب. لديها ثلاث بنات لا أراهن إلا نادراً وعندما يفتح الباب.

أخذت أقارن بين جبال بلدي والجبال المحيطة بأبها. لا يوجد وجه مقارنة، لكن المتعة موجودة في كليهما، أليست المسألة نسبية؟ طالما أنك تصعد وتجد قمة تعتلها وترى بعيداً فهذا هو المطلوب.

ذهبت مع نسبي وصغاره بالسيارة إلى وادي حجلا الجميل الذي تتوسطه بحيرة مليئة بالماء طول العام، أكلنا وشربنا وقبل عودتنا غاص جانب من السيارة في الأرض الرخوة وتعذر إخراجها، جاء الليل ولا وسيلة للاتصال بأحد سوى صاحب بيت يطل على الوادي هب لنجدتنا.

أخذنا إلى بيته الحجري الذي تسكن في طابقه الأرضي مواشيهم، وفي الدور الثاني سكنهم وغرفة الضيافة، سعدنا جميعاً إلى الدور الثاني من خلال درج ضيق مظلم، جاد علينا مضيفنا بحسن الضيافة وكثرة الترحيب. لكن لا بد من العودة إلى أبها بسرعة، فهناك امرأة لا تدري ما مصير زوجها وأطفالها وأخيها.

لا يوجد وسيلة نقل سوى الحمار، ركبته، أما المضيف فكان يهرول ويمشي بجانب الحمار وكأنه في نزهة. بقي النسيب مع الأطفال الخائفين.

سرنا ليلاً عدداً من الكيلومترات في طريق ترابي وغير مستو، هدوء لا يقطعه سوى صوت حوافر الحمار تزيح الحجارة من أمامه وبعض الأصوات يصدرها الحمار دون تكلف.

وصلنا طريق أبها - خميس مشيط وركبت أول سيارة ذاهبة إلى أبها وعاد المضيف بالحمار إلى بيته. عدت بالنجدة بعد ساعات ومعني سيارة ثانية أخذتنا إلى أبها.

تعجبت من شهامة المضيف وكرمه، فتح بيته لأناس غرباء هب لنجدتهم وهو لا يعرفهم، بل تركهم في بيته وغاب ساعات لنجدتهم، هذا هو الوطن العظيم بأهله الطيبين الكرماء.

على مفترق الطرق

نجحت في الشهادة الثانوية مع التفوق، إلا أنها أقل مما كنت أأمل. تراكض الطلبة للتسجيل في الجامعات والكليات العسكرية، أما أنا فذهبت إلى بلدتي لأرى والدتي وأساعد أهلي على صرام النخل، وخاصة خالي الذي يشكو من آلام في رجله. عدت بعد شهر وقررت أن أدخل كلية الطب أو الطيران، كان لدي طموح بلا حدود، كنت أريد أن أكون مثلاً يحتذى لغيري من أبناء البلدة، وكنت أظن أنني قادر على إصلاح العالم، استشرت عمي، فشجعتني على الطيران، لكنه طلب مني أن أستشير أمي أولاً، فهي التي ستكون بحاجة لي وليس لها من يعتني بها غيري. ذهبت إلى أمي أستشيرها، وفي نفسي خوف من عدم موافقتها. فاتحتها بما أنوي ويدي على قلبي فأجابتنني بكل ثقة: اذهب حيث تشاء، الله من يهب ويمنع، والله من يعطي ويأخذ، وهو الحافظ في كل زمان ومكان.

زميل آخر شجعتته أمه على دخول الطيران، وعندما أشعرها بتخوفه من أنه قد لا يجيد الطيران، أجابته: (من له عيون وراس، يسوي مثل ما يسوون الناس) مثل لو طبّق على أكثر من مستوى لاستفدنا من تجارب الناجحين على مستوى العالم. اختار هذا المثل (العيون) لترى ما يعمل غيرك، وتقرأ تجارب الآخرين

الناجحة، واختار (الرأس) مستودع العقل والفكر، ليستوعب ويحلل ويختار.

وعلى النقيض منهما، زميل ثالث كان مغرمًا بالطيران، وبعد دخوله الكلية بثلاثة أيام جاء أخوه الكبير ليلبغه أن أمه بحالة سيئة لدخوله الطيران، وأنها خائفة عليه ولا بد من خروجه، ترك الكلية وظل يسأل عن الطيران كلما وجد واحداً من زملائه القدامى.

قدّمت أوراقي لدراسة الطب لكن الخيارات محدودة إما داخل المملكة أو في باكستان، أما أوروبا فلا مجال، سحبت أوراقي وقدمت على كلية الطيران، قُبلت لكن الكشف الطبي يقول: غير صالح مؤقتاً بسبب احمرار في العين، قد يكون بقايا مرض التراخوما المنتشر في المنطقة ويحتاج لشهرين على الأقل للعلاج.

لن أبقى عاطلاً عن العمل، سأستجّل في كلية الهندسة. أمضيت فيها شهرين، استفدت أساساً قوياً في الرياضيات، وراتب شهرين وتصميماً على دخول الطيران، كان أمني أن أصبح قائداً، أما الهندسة فلها فرسانها.

قُبلت بالكلية، والدخول بعد إجازة رمضان، والدتي تريد أن تكون إلى جانب ابنتها التي ستضع مولودها في أبها قريباً، لا مجال للسفر بالطائرة، فجميع الطائرات المدنية والعسكرية مسخرة للمجهود الحربي، البلاد في حالة حرب مع اليمن الجنوبي بسبب منطقة (الوديعة).

هذه المرة لن أكرر الخطأ، وسأسافر جنوباً عن طريق وادي الدواسر، السيارة شاحنة نقل بضائع وأشخاص، حجزت مقعدين بجانب السائق، بقية المسافرين ركبوا مع البضائع.

ركبنا إلى جانب السائق، ولكن السائق أصرّ على أن يركب ثالث معنا. والدتي كانت محشورة بجانب الباب. طلبوا من الركاب دفع عشرة ريالات عن كل راكب لتأمين الأكل مسافة الطريق. استشرت أمي التي ارتأت أن نأكل في المقاهي التي نتوقف بها. لكن على مدى ثلاثة أيام، وهي المدة التي قضيناها مسافرين، لم يكن على طول الطريق ولا مطعم واحد، أكلنا بقية دجاجة اشتريناها من الرياض وبقية خبز يابس. والدتي أصيبت بصداع بسبب عدم شرب القهوة، تحدثت مع المسؤول عن الإعاشة في اليوم الثاني، وأخبرته أنني سأدفع كامل المبلغ وأشاركهم في الإعاشة. أجاب المسؤول: لم يبق سوى يوم واحد، ومن التبذير دفع كامل المبلغ. أخذ عشرة ريالات عن الاثنين، فشكرته وقلت له: الآن والدتي تريد قهوة. أخذت دلة القهوة لوالدتي، ورحت أصبّ لها الفناجين حتى أتت على الدلة بكاملها، رأيت حبيبات العرق تتساقط من جبينها، توجهت إلى السماء مرة ثانية، وتعابير الرضا بادية على وجهها.

تركت والدتي هناك، وعدت لألتحق بالكلية. زملاء من أماكن مختلفة، بعضهم لم أسمع باسمه من قبل، فيهم الشهري من الجنوب، ومحروس من الشرقية، والبلوي من الشمال، ورادين من جدة، ومراد من مكة، والردادي من المدينة، والفيفي من جازان، واليامي من نجران، والبيشي من بيشة.

هؤلاء هم الوطن، هم زملائي وإخواني للثلاثين عاماً القادمة، هم من سيطيرون على جناحيّ الأيمن والأيسر، من سيدفعون حياتهم فداءً للوطن، ومن سيدفنون عيونهم في شاشات الرادار لحماية سمائه.

وضعت لِنفسي ثلاثة أهداف: أن أخرج طياراً، وأن أحصل على الترتيب الأول مع مرتبة الشرف الأولى، وألا أرتكب خطأ كبيراً أحاسب عليه.

يبدو أن الأنظمة كالعادات تنتقل من جيل إلى جيل، ومن بيئة إلى أخرى ومن الصعب تغييرها، بل إنها تكتسب صفة القدسية أحياناً، ويصبح لها حماتها الذين يستسلمون في حمايتها، لأنهم لا يعرفون أفضل منها. كان النظام العسكري شديداً جداً، بعضه مقبول، وبعضه لا يمكن تفسيره. معظم الأنظمة نقلت من الكلية الحربية التي وصلت إليها مع مدربين عرب الذين أخذوها من دول أخرى كتركيا.

أكثر ما كان يضايقني الكلمات البذيئة التي يطلقها الطالب القديم على الطالب الحديث، حتى بعض الضباط الصغار أيضاً يستخدمونها، ألم يكونوا طلبة تقال لهم هذه الكلمات؟ منهم من فسرها بأن الهدف اختبار التحمل، ومنهم من قال: هكذا العسكرية. تضايقني الجزاءات البدنية التي تتعارض مع كرامة الإنسان كالانبطاح والزحف، وهناك الجزاءات التي تتعارض مع الصحة، كالوقوف في الشمس لساعات، أو الوقوف في ليالي الشتاء الباردة بلباس خفيف جداً. يقسو الطالب على الطالب، كما يقسو الأخ على أخيه أحياناً.

ألا توجد وسيلة أخرى لتهديب سلوك الطلبة سوى الجزاءات؟ يقول المثل: «إذا كان سلاحك الوحيد مطرقة، فلن ترى أمامك سوى مسامير».

على رأس قيادة الكلية قائد ناجح لا يتدخل في صغائر الأمور ولا يفرض رأيه، لكنه قليل الاجتماع بالطلبة. كان الجو العام بالكلية مريحاً إذا خلا من الجزاءات التعسفية. هناك نشاط رياضي وثقافي. المباريات يحضرها قائد جناح الطلبة، والنشاط الثقافي يحضره الجميع. جميع الأدوار في النشاط الثقافي يؤديها الطلبة. منهم الشاعر والملحن والمغني.

كان الجو العام متسامحاً. أحد الطلبة كان يبدأ الحفل بالقرآن الكريم وكان حسن الصوت كأنه المقرئ عبد الباسط عبد الصمد، وفي منتصف الحفل يغني الطالب نفسه أغاني محمد عبد الوهاب، وأحياناً يختار مواويل وأغاني مشهورة يرددها معه الطلبة.

معظم المدرسين من الجنسية البريطانية، وأكثر ما يركزون عليه اللغة الانجليزية وعلوم الطيران، أما العلوم الإنسانية والإسلامية فلم تكن مقررة بعد، يمتاز المدرس الغربي بحزمه وإجادته للمادة كما أنه لا يفرق بين طالب وآخر، فالمجتهد يأخذ نصيبه. كانوا يصرون على سماع (شكراً) بعد كل عمل يقدمونه، وسماع (لو سمحت) قبل كل طلب. يصرون على سماعها، وكان الطلبة يقولونها لهم فقط، ولا يقولونها لغيرهم، نستحي أن نسدي الشكر للآخرين، نظن أن النطق بها مذلة، ونظن أن الابتسام يضيع المهابة. ما لم نعلم أبناءنا هذه الكلمات الجميلة في البيت والمدرسة، سيظلون يصرخون في وجوه المساكين من الخدم والباعة ومن يتعاملون معهم في حياتهم اليومية، وكأنهم أتوا للتو من الصحراء، لا أثر للتربية والتعليم في حياتهم.

يركز الغربيون في عملهم على شيء واحد، فإذا انتهوا منه انتقلوا

إلى غيره، لا يسمحون لآخر أن يقاطعهم، مما يعطي لكل عمل ما يستحقه من جهد ووقت.

بعض معلمي الطيران يعامل الطلبة معاملة جافة لا أثر للحب فيها، يتناقل الطلبة أخبارهم، ويتحدثون عن صفات كل واحد منهم في غرفة استراحة الطلبة. آمنت أن من يصرخ في وجه الطالب، أو ينعته بما لا يحب، أو يعتدي عليه، يعلن إخفاقه وفشله. كما آمنت برعاية الله لي، وأن لا نجاح إلا بتخطيط وجهد ومثابرة.

انتهت الحرب في الجنوب، وأبلت القوات الجوية بلاء حسناً، وتناقل الناس بطولات طيارها، جاء موعد الحج وانتهت مهمة أمي في أبها، وقرر نسيبها أن يكافئها بأن يأخذها إلى مكة لتؤدي فريضة الحج التي تكررها كثيراً وتحرص على أدائها كلما سمحت الظروف، سبق وأن حجت لوالديها اللذين لم يتمكنوا من الحج.

أقلعت الطائرة من أبها إلى جدة وفيها والدتي ونسيبها الشهر. استغرقت الرحلة أقل من ساعة، توقفت الطائرة، سألت أمي: لماذا توقفت؟ قيل لها: وصلنا جدة، لم تصدق أنها وصلت بهذه السرعة، أول مرة تركب الطائرة، تذكرت رحلتها الشاقة من الرياض إلى أبها بالسيارة، رفعت يديها للسماء وقالت: اللهم أدخل من صنعها الجنة. ضحك كل من سمعها، وقال أحدهم: لكنه كافر، لم ترد عليه وظلت تدعو له بالهداية والجنة.

سلوك الطلبة ينبئ عن خلفياتهم، فقد أتوا من أسر وبيئات مختلفة، من السهولة معرفة الكثير عنهم من تصرفاتهم. أبناء البادية تبدو عليهم الشدة والصبر، لكنهم يفتقدون سلاسة التعامل، ولديهم عصبية قبلية بغيضة فرضتها ثقافة الصحراء، وتأصلت عبر الأجيال.

أبناء القرى تعرفهم من نحافتهم وحاجتهم الشديدة إلى المادة، أحدهم كان قليلاً ما يغادر الكلية في نهاية الأسبوع، سألته عن سبب بقاءه، أجاب: المكافأة أربعمئة ريال أسدّد منها ديناً على والدي والباقي أحفظ به لما بعد التخرّج. لا يدفع أجرة السيارة ليذهب إلى أقاربه في الرياض. الآتي من الجنوب أقرب ما يكون لأبناء البادية، إلّا أنهم أكثر صبراً ومثابرة.

من تربي تربية حسنة تعرفه من سلوكه في الكلية، من دماثة خلقه وحسن حديثه مع الآخرين، واهتمامه بنظافته ومظهره. من تربي في محيط جاهل وإهمال يُعرّف من تصرّفاته ومن تخاطبه مع الآخرين، يكون مُتعباً لمن هم أحدث منه، لكنه يبقى عادة في أسفل السلم بالنسبة للرتب الشرفية التي تمنح لقدامى الطلبة.

من الدراجة إلى الطائرة

أنهيت السنة الأولى من الكلية بنجاح وانتقلت إلى جناح الطيران، هناك دروس تحضيرية على الأرض قبل الطيران وكشف طبي خاص اجتزتهما بنجاح. في الرحلة الأولى شرح لي المدرب كيف أحرك الطائرة من موقفها إلى المدرج. يقول لي: استخدم المكابح كالسيارة تماماً، تلتفت يميناً ويساراً قبل الدوران لأي اتجاه، كما تفعل عندما تقود السيارة تماماً.

ذهبت مع المدرب إلى مكان وقوف الطائرات، شرح المدرب كل شيء. لا بد من التأكد أنها بحالة ممتازة، الزيت والماء والإطارات. تماماً كما تتعامل مع سيارتك، تحركت الطائرة على الأرض، طلب مني المدرب أن أقلد كل حركاته وأن أتبعه في كل ما يعمل. أعطاني المدرب فرصة أن أجرب ما شرح لي وأطبّقه أمامه، لكنني أبالغ في رد الفعل في كل حركة، والمدرب يفقد صبره ويقول: في الأرض تتحرك الطائرة كالسيارة. أخذ المدرب الطائرة وفجأة صرت معلقاً لأول مرة بين السماء والأرض. كنت خائفاً من كل حركة، تميل الطائرة فأكاد أمسك بالمدرب، تخيلت نفسي فوق أرجوحة مجالها الفضاء الواسع، نزلنا من الرحلة وعدنا إلى السرب. في غرفة الإيجاز سألني المدرب: لماذا تبالغ في رد الفعل؟

يكتشف أنني لا أعرف شيئاً عن قيادة السيارة. يضحك المدرب ويلومني على إخفاء الحقيقة، قال لي: الأرض مكان الشرح والأسئلة والتوضيح، وفي السماء نطبق ما تعلمناه. ليس العيب أن تسأل، لكن العيب أن تدعي المعرفة.

اعتقدت في الرحلات الأربع الأولى أنني لن أجتاز هذه المرحلة، خاصة أنني سمعت عن كثير من الإخفاقات لأسباب مختلفة، وحتى المدرب كانت لديه شكوك في نجاحي. في الرحلة الخامسة قررت أن أتعامل مع الطائرة دون خوف وحزت رضا المدرب، فقال لي بعد الرحلة مباشرة: ستكون طياراً. زادت ثقتي بنفسي، وكان هذا ما أحтаجه.

جاء زميلي في الغرفة والحزن باد عليه ليخبرني أنه انتهى من الطيران، وأنه استفد جميع الفرص، هدأت من روعه وأخبرته أنها ليست نهاية المطاف، من لم يوفق في مجال، سوف ينجح في مجال آخر، المهم بذل الجهد. هذا الوقت هو الأصعب على طالب الطيران، ولا بد من الوقوف إلى جانبه، خلقنا الله بصفات وقدرات ومواهب مختلفة. من لا يملك موهبة الفن لا يمكنك أن تجعل منه فناناً، وكذلك الطيران، لكن ملايين من ذوي الإمكانيات الهائلة والمواهب العالية، ماتوا وطمرت معهم مواهبهم، القدرات والمواهب كالبذور في التربة تبقى مطمورة حتى يتم تحريكها وسقيها وقد تنبت الحشائش الضارة بدلاً منها إن لم يتعهد الفلاح بالعناية. نحن لا نرى من عدد المبدعين سوى جزء من جبل الجليد العائم في المحيط.

ليست كل أيام الكلية بدون منغصات، للطيران ضربته، وطالما

وجد الإنسان ستوجد الحوادث التي معظمها من صنعه بسبب تجاوزه أو نسيانه قوانين السلامة التي كتبت بالدماء.

كان أحد الطلبة في رحلة ليلية منفرداً، والطيران الليلي هو الأصعب، خاصة على الطالب، إذ يعتمد على قراءة العدادات وتصديقها. الطيران في الليل أو عند تدني الرؤية، يعتمد على العدادات، وليس على ما يظنه الطيار أو يمليه عليه إحساسه أو تقديره للوضع. الإنسان خلق ليمشي على الأرض تؤثر فيه الجاذبية، ويرى ما حوله من أرض وسما فيضبط توازنه.

تأكد خبر اختفاء الطائرة، وخيم الحزن على جميع طلبة الكلية ومنسوبيها، وعلى الأخص زملائه. لكنها الحياة طالما أن الإنسان يرتكب المخالفات ستستمر الحوادث. (قانون مورفي Murphy Law) مهم في المساعدة على منع الحوادث. ترجموه كما يلي: (الأمر تجنح للخطأ) والترجمة الصحيحة هي. (إذا كان هناك مجال لحدوث الخطأ فسيحدث لا محالة). والهدف منه ألا تترك مجالاً للخطأ لأن الحادث سيقع يوماً ما. (If any thing can go wrong, it will)

هي الأقدار خيول جامعة وأكثر ضحاياها الشباب.

في الكليات العسكرية تقليد ممتاز وهو إعطاء طلبة المرحلة النهائية الفرصة لقيادة زملائهم، منهم الرقيب ووكيل الرقيب والعريف وكلها رتب شرفية. يمارسون القيادة فعلياً، ويُختار أحدهم كأقدم الطلبة ليكون المسؤول الأول عن جميع الطلبة وفيهم زملاؤه. يعتمد نجاحه على صفاته القيادية، وعلى مدى تعاون

زملائه معه، وكم مرة كان الزملاء سبباً في الكثير من الإحراج لزميلهم.

وقع الاختيار عليّ لأصبح رقيب الطلبة في المرحلة النهائية. حاولت أن أجرب طريقة جديدة في قيادة الطلبة، وذلك بالاجتماع بزملائي وأخذ آرائهم عن كيفية قيادة الطلبة، استقر رأينا على تقليل الجزاءات، وإعطاء فرصة أكثر للمذاكرة، الاحترام والتشجيع بدل الجزاءات. كانت المعارضة من بعض الطلبة القدامى، الذين قالوا: نريد أن نطبق عليهم من الجزاءات ما طبقه علينا من سبقنا.

لكن للقيادة ضريبتها، فكم مرة بقيت في الكلية في عطلة نهاية الأسبوع لأن الطلبة أحدثوا صوتاً عالياً أثناء تناول إحدى الوجبات، أو كان بعضهم يمشي داخل الميدان بدلاً من الهرولة.

يأتي يوم التخرج وأفوز بالمركز الأول مع مرتبة الشرف الأولى وثلاث جوائز أخرى. سلمت على راعي الحفل أربع مرات، وفي كل مرة ينادى على اسمي، وتنقل عبر التلفزيون كاملة بعد الأخبار، لكن أثناء إذاعتها كنت في طريقي إلى الغاط، لدي أم أريد أن أبشرها وأفرحها، يسمع عمي النتيجة فيملأه الفخر، وتسمع عمتي اسمي يتردد أكثر من مرة فتبكي، وتذكر الله: (ما شاء الله) خوفاً من العين.

في بلدتي قليلون من عندهم جهاز تلفزيون وسمعوا النتيجة، مع ذلك كان هذا الحدث حديث البلدة، يتحدثون بفخر أنه صار في البلدة طيار من أبنائها. أما أنا فاستمتعت بهدوء القرية وصفاء جوها، وظلال النخيل وهديل يمامها، بعد أيام وصل من الرياض صديقي محمد الذي أصبح سفيراً في ما بعد، رأني أرعى

الغنم قريباً من المزرعة، ضحك وكله إعجاب وقال: من ينال مرتبة الشرف الأولى في الطيران لا يرعى الغنم. قلت له: نشأت في هذه البيئة وبين هذه الجبال وأوديتها وما ترسمه من لوحات جميلة طالما متعنتني بمنظرها الأخاذ، فيها ومنها تعلمت حب العمل والناس واحترام البيئة، لن أملّ منها ولا من أهلها الطيبين، سأعود إليها أرعى الغنم، وأستمتع بمراى طيورها كلما سنحت الفرصة. سأكون ناسك جبل، متيماً بأشجاره وحجارته وطيوره، سأسرق سويعات من وقت المدينة الصاخب، لأمشي وحيداً بين أوديتها، أتحدث إلى أشجار الطلح والسدر وأصغي لطيور الحجل، أحتسي الشاي على وقع أصواتها.

لم تجر العادة أن يحتفل الأهل بالناجحين ولا أن تقام لهم الولائم. فالولائم فقط للضيوف حتى ولو كانوا غير معروفين، أما من أمضى بالدراسة والمثابرة خمسة عشر عاماً فيكتفي بالتهنئة.

قررت أن أعمل وليمة كبيرة لنفسي، فاتحت أُمي بالفكرة فرحبت وأعطتني خروفين ونعجة من غنمها، قررت أن تكون في النفود بعيداً عن البلد، وحتى يؤدوا فنّ السامري بكل حرية، استأجرت سيارة لنقل الغنم والمتطلبات الأخرى، وأبلغت جميع شباب البلدة، تقاطروا إلى النفود واختاروا موقعاً مناسباً بين كثبان الرمال النظيفة التي اجتهدت الرياح في تكوينها وتشكيلها والمرور عليها صباح مساء.

سهرنا حتى اقترب الفجر، ومنهم من أغراه جمال المكان وهدوؤه فنام هناك. قال أحد كبار السن وكان هو قائد فرقة

السامري وحافظ قصائدها: جميل ما عملت، سنطالب كل ناجح من أبناء البلد بمثل هذه الوليمة.

بعد تأكدي من أن كل شيء على ما يرام، انتحيت جانباً، واتخذت لي مناماً بين الرمل والنجوم، أخذت أقلب بصري في هذا الكون العظيم، ها هي مجرتنا (درب التبانة) تمتد فوقى مباشرة، لسنا في هذه الكرة الأرضية سوى ذرة من هذه المجرة، وليست هذه المجرة سوى ذرة من مئات ملايين المجرات في هذا الكون الواسع العجيب. كون تقاس أبعاده بملايين السنين الضوئية، سرعة الضوء تلتف حول الكرة الأرضية ثماني مرات خلال ثانية واحدة. أسرار كثيرة لم يجب عنها أحد ولم يتوصل إلى كشف أغازها العلم الحديث. «الكون مكتبة لا حدود لها» عبارة قالها (لويس بورخيس Luis Borges) الأديب الأرجنتيني الشهير.

الجميل أنني قرأت قبل أيام كتاباً صغيراً عن هذا الكون العجيب، وها أنا أطبق ما قرأته تأملاً وتفكيراً، أقلب عيني بين صفحات هذا الكون العظيم. أستغرب كيف يتصارع الناس في بيوتهم وفي أماكن عملهم، وكأنهم المالكون لهذا الكون، أو أنهم باقون في هذه الحياة إلى الأبد.

عدت إلى الكلية فعلمت أنني وبعض زملائي سنبعث إلى الولايات المتحدة لمواصلة دراسة الطيران. لا بد من جواز سفر وتأشيرة، ولا بد من مبالغ مالية لشراء ما نحتاجه، ذهبت وزميل لي إلى البطحاء، المكان المناسب لشراء ملابس السفر بأسعار مناسبة، لأول مرة ألبس القمصان والبزات، أنتقد كل لباس، فهذا ألوانه زاهية، وهذا ضيق من الوسط، وذاك واسع من أسفل، تعب مني

مرافقي وظل يذكرني بهذا الموقف في أكثر من مناسبة .
 بقيت مصاريف السفر . لا بد من سلفة تؤخذ من الراتب في ما
 بعد، الروتين قاتل والأمور المالية معقدة، جاء موعد السفر وليس
 معنا نقود .

انبرى ضابط شهم أمضى كل حياته من دون أن يتزوج . كتب
 شيكاً بمبلغ ألفي ريال لكل منّا . لم يكن هذا مطلوباً منه، لكنه
 الضمير الحي والإحساس بأهمية المساعدة .

في الولايات المتحدة

صعدت وخمسة من زملائي إلى الطائرة المتوجهة لندن، وركبنا بالدرجة الأولى كما هو النظام في ذلك الوقت .

نزلنا في مطار (هيثرو) ومنه ذهبنا إلى الفندق ذي الخمسة نجوم . كل شيء يبهر في تلك الليلة . من الفندق ذهبنا إلى حي (سوهو) يبدو أن لدى بعضهم معلومات عن أماكن الترفيه، أسير معهم مبهوراً مستمتعاً، لكن ليس لي رأي في ما يعملون فكل شيء جديد، وكل ما في لندن باهر . دخلنا حي (سوهو) واستقبلنا تجار سوقه رأينا صوراً على الواجهة أعجبتنا، دخلنا جميعاً لرؤية العروض، دفع كل منا نصف جنيه، عرضوا علينا غير ما نريد، طلبوا من كل منا نصف جنيه آخر وهكذا حتى أخرجونا من الباب الآخر من دون نتيجة، ذهبنا إلى البيكاديللي، ورأينا الشباب بملابسهم الرثة وشعورهم الطويلة، إنها موضة جديدة، بل تمرد على واقع لا يرضونه، اكتسحت الموضة الهيبة أوروبا الغربية بموسيقاها ولباسها وهيئتها، متمردون على الحروب وخاصة حرب فيتنام، لكنهم انغمسوا في حروب أشد هي حروب الجنس والمخدرات التي تفرّغ العقول والجيوب من محتواها، بعض الشباب من بنات وأولاد يهجرون أهاليهم لسنوات لأنهم اعترضوا على نمط معيشتهم .

في الرحلة إلى نيويورك وفوق المحيط يجلس ستة شباب في بداية العشرينات حليقي الرؤوس، ويركبون في الدرجة الأولى، ومع ذلك لا يشك فيهم أحد ولا يتعرضون للتفتيش في كل محطة، كان ذلك في السبعينات، الإرهاب لم يركب الطائرات بعد والعالم أكثر أماناً، حرب فيتنام تلفظ أنفاسها، أما العرب فلم يستيقظوا بعد من هزيمة حرب الأيام الستة. لكن الإرهاب لم يكن كما نعيشه الآن. كان هناك اختطاف الطائرات، خاصة من قبل بعض المنظمات الفلسطينية، لكنه غالباً ما ينتهي بنجاة الركاب على الأقل.

وصلنا إلى قاعدة (لاكلمند) الجوية في مدينة (سان أنطونيو). بوابة المجندين في القوات الجوية الأمريكية، كان التجنيد إجبارياً لكل حامل جنسية أمريكي من الشباب. أقيمت دعاوى على من رفض التجنيد، ومنهم الملاكم المسلم محمد علي كلاي، دفعنا الكثير من المال لحضور مباراة ملاكمة أقيمت في (سان أنطونيو) بينه وبين ملاكم مغمور، كانت استعراضاً من جانب واحد، تؤخذ العبر من المقارنة بين تلك القفزات والخفة والنشاط وما هو عليه الآن، بعد أن أقعده مرض شلل الرعاش البغيض.

الحالة المادية لا تسمح بشراء سيارة. هناك شخص يعمل بالكنيسة يأتي مع زوجته كل يوم أحد ويأخذني وبعض زملائي إلى الكنيسة، لأول مرة أدخل كنيسة، يجلسون على كراسٍ شبه دائرية، تمرر عليهم قبة يجمعون فيها المال للكنيسة، يتحدث القس ثم يتقدم منه أناس يغطس رؤوسهم في الماء، بعد الكنيسة نذهب إلى الحديقة لتناول الغداء، كانت فرصة للتعرف على الآخرين.

معظم الطلبة من فيتنام وإيران والمملكة العربية السعودية، ومعظمهم ذكور. الأساتذة خليط من الرجال والنساء، القاعدة ليس فيها الكثير من وسائل الترفيه، أكثر ما يذهب إليه الطلبة نادي الضباط ويذهب ضباط الصف إلى ناديهم، وهو أكثر حيوية ونشاطاً.

وتُقام في نادي الضباط بعض الحفلات الليلية كلعبة (البينجو Bingo) وفي بعض الليالي يستقدمون بعض الفرق الموسيقية. أسوأ شيء ضايقني تلك المخاصمات التي تقع بين الزوج وزوجته أو صديقته بعد أن تلعب الخمرة في رؤوسهم، اضطرت في إحدى الليالي إلى العودة إلى الداخل ومهاتفة الشرطة عندما رأيت رجلاً يصرخ في وجه امرأة ثم يضربها وهي تستغيث، الكثير من الطلبة الأجانب لا يعرفون الحدود التي يقفون عندها، وبعضهم يصبح عالة على زملائه، يتحايلون عليه حتى يوصلوه إلى سكنه، بعضهم يشرب ليمرض آخر الليل ومعظم نهار اليوم الثاني.

نظام المرور صارم ولا مجال للأخطاء، بعض الطلبة الأجانب فقدوا رخص القيادة إما بسبب القيادة تحت تأثير الكحول أو تكرار المخالفات، يختارون رجال المرور من أصحاب الأجسام الكبيرة والقوية ويدربونهم بشكل صحيح.

يقع كثير من الطلبة ضحايا النصابين من بائعي السيارات، سواء من أبناء جلدتهم أو من أصحاب معارض السيارات المستعملة. لم يدلهم أحد على الصحف المتخصصة في الإعلانات عن بيع السيارات، بعضهم يشتري السيارة دون فحصها، وهذا ما حصل لي وزميلي عندما اشترينا سيارة قديمة بأربعمئة دولار ودفعنا مبلغاً

مماثلاً لإصلاح (القيِر الأتوماتيك) الذي يكلف الكثير، وتعود أسوأ مما كانت، وفي النهاية بعناها بسبعين دولاراً أخذ من دَبَر أمر بيعها عشرين دولاراً. لم أتعلم قيادة السيارة لأنها كانت في الورشة معظم الوقت.

سافر أحد زملائي، رجاني أن أخذ سيارته وأتصرف بها وأن أقرضه ثلاثمئة دولار، هي مقدار راتبي لشهر كامل، أخذت السيارة لأجدها لا تسير إلى الخلف، للأمام فقط، علي أن أجد موقفاً يسمح لي بالسير للأمام دائماً. اكتشفت أن السيارة ليست باسم زميلي، بل باسم صاحب حانة مكسيكي، فرح صاحب الحانة عندما علم يسفر من اشترى منه السيارة، طلب منّي إحضارها لإصلاحها، بعد استلام السيارة أخفاها، وفي كل مرة يدعي أن السيارة ستجهز غداً، وأحياناً يقول إنها خربت بعد إصلاحها مباشرة، يبدو أنه طمع في السيارة وخاصة أنها بحسب الأوراق لا تزال مسجلة باسمه.

علم أحد ضباط الصّف بالمشكلة، قال: عندي الحل، وكان ممثلاً بارعاً وميكانيكياً متميزاً، جمع هذا الصديق ثلاثة من زملائه وذهبوا إلى الحانة، سلّموا على صاحبها وشكروه على العناية بزميلهم وطلبوا منه شراء ثلاث سيّارات لهم، التهم صاحب الحانة الطعام، وأخذ الجميع إلى موقع معزول بين أشجار على طريق ترابي قريب من حدود المكسيك، أطلعنا على ما لديه من السيارات، ومن ضمنها سيارتي التي لم يحرك بها ساكناً، تركناه حتى مضى ثم أدار هذا الشهم محرك السيارة بطريقته الخاصة، وقادها إلى مكان آمن، داخل القاعدة ثم غُيِّرَت ملكية السيارة من مالِكها الأول دون

المرور بصاحب الحانة بمساعدة المكتب القانوني بالقاعدة الذي يقدم خدماته للعسكريين دون مقابل. أصلحت السيارة بثلاثمئة دولار لأبيعتها ديناً لأحد الطلبة السعوديين الذي أعطاني مئة وخمسين دولاراً فقط، والباقي في ذمته حتى تاريخه.

ابتسم الحظ لي عندما اشتريت سيارة رياضية جميلة لا تتسع لأكثر من راكبين من أحد زملائي العائدين للمملكة، كان أميراً في نسبه وأخلاقه، توفي عليه رحمة الله أثناء التدريب، وكان واحداً من أفضل الطلبة سلوكاً وكرماً وشهامةً وتواضعاً، استمتعت بقيادتها، وجلبت أنظار الآخرين خاصة الشباب منهم، ثم بعته بعد تخرجي بنفس القيمة لمدرّب الطيران.

انتقلت من مدرسة اللغة إلى مدرسة الطيران في قاعدة (لافلن) الجوية المحاذية للحدود المكسيكية. الدراسة مع الطلبة الأمريكيين مفيدة جداً، وفيها الكثير من التحدي، العمل من الساعة الخامسة صباحاً حتى الثالثة بعد الظهر، والمجموعة الثانية من الظهر حتى الساعة التاسعة مساءً. المطلوب قراءته يومياً يزيد على الخمسين صفحة. لديهم قدرة عجيبة على القراءة السريعة، لا بد أنهم أخذوا دورات لإتقانها، لكل طالب مهمة، يبدأ اليوم بالإيجاز الصباحي، يقرأ أحد مدربي الطيران الأحوال الجوية، ويتضايقون من كثرة الأمطار، اليوم المناسب لديهم هو اليوم المشرق، بينما يفرح الآتي من الصحراء بالغيوم والأمطار مهما كثرت، يناقش مدرب آخر مشكلة أو حالة طوارئ ويسأل أحد الطلبة كيف يتصرف حيالها، من لا يستطيع الإجابة قد يوقف عن الطيران ذلك اليوم. سألوا أحد الطلبة من إحدى دول أفريقيا عن المعضلة التالية: بينما أنت محلق على ارتفاع عشرين ألف قدم فوق القارة الأفريقية، تعرض محرك

طائرتك لخلل بسبب تراكم الثلوج عليه فماذا تفعل؟ تردد الطالب قليلاً ثم أجاب:

- لنكن دقيقين في أسئلتنا لا توجد ثلوج في أفريقيا.

ضجت الصالة بالضحك وعلموا أنه لا يعرف الجواب. فوجه المدرّب نفس السؤال لطالب غيره.

لا يمكن أن يتساهلوا في الانضباط وبشكل خاص لا يمكن أن يتساهلوا مع من يكذب.

أحضر أحد الطلبة ورقة من طبيب الطيران توضح أنه مريض، ولن يحضر ذلك اليوم ليكتشفوا أن الطبيب أعفاه من الطيران فقط ولكن عليه الحضور للقيام بالأعمال الأرضية. شهد عليه بعض زملائه أنه سافر إلى ولاية ثانية. عرفوا أنه تحايل عليهم ليسافر، كان هذا يوم الجمعة، السبت والأحد إجازة، ويوم الاثنين كان الطالب مفصلاً من القوات الجوية، شوهد آخر مرة عند المكتب القانوني بالقاعدة لعله يقنعهم بعدم دفع التكاليف.

سألت قائد الوحدة: ما الداعي لهذه القسوة؟ أجاب: الكذاب لا يمكن الوثوق به ولا يصلح للقوات الجوية.

تذكّرت حديثاً لرسول الله ﷺ معناه أن المسلم يمكن أن يسرق ويزني لكنه لا يكذب. ظللت أستشهد بهذه الحادثة كلما مر عليّ موقف مشابه. مع الفارق الكبير في إصدار الجزاءات.

طالب آخر فصل لأنه شاذ جنسياً، والشواذ لا يسمح لهم بدخول القوات المسلحة في ذلك الوقت. في الوقت الحاضر يسمح لهم بدخول القوات المسلحة بشرط ألا يفصح عن ميوله الجنسية، وعليهم ألا يسألوه.

الغش يعاقب عليه بنفس القسوة التي يعامل بها الكذب، إضافة إلى معاقبة من يرى الغشاش ولا يبلغ عنه.

سألت قائد الوحدة: رأيتك بالأمس مع الطلبة تشرب وتضحك، وكأنك مع زملاء دراسة قدامى، ألا تعتقد بأن هذا سيؤثر في مهابتك وانضباطهم؟

أجاب القائد: بالأمس كان الوقت للترفيه، أما وقت العمل فمختلف تماماً. لو سألت أحدهم ممن كانوا معي البارحة أن يقفز الآن عالياً، لن يجيب بالامتناع بل سيسأل: كم الارتفاع؟

كان هذا القائد محباً لكرة السلة ومتحمساً لفريق الجامعة التي تخرّج منها، في تلك السنة لعب هذا الفريق في المباراة النهائية على مستوى الولايات المتحدة، كانت الحماسة في ذروتها أثناء المباراة في نادي الضباط. في اليوم الثاني لم أسمع تعليقاً ولا نقاشاً حول تلك المباراة. حاولت أن أذكر القائد بروعة أداء فريقه فقال: اسمع يا عبدالله مباراة الأمس صارت من التاريخ، لتتحدث عن الحاضر والمستقبل.

ذهبت إلى المستشفى لأحصل على كشف طبي سنوي ليبلغني الطبيب أنني بحاجة إلى نظارة طبية لأتمكن من الطيران، لكنني أخاف أن أوقف عن الطيران، عشقي الأول، طمأنني الطبيب أن النظام يسمح لي بالطيران مع لبس النظارة، ماذا عن طيران المقاتلات؟ لا أرغب في غير المقاتلات. طمأنني الطبيب، لكن عليّ أن أنتظر ستة أسابيع، مما يعني تأخري دورة، لا بأس فهذا شهر الإجازات والأعياد.

خططت مع مجموعة من زملائي السعوديين لقضاء الأجازة في

(لاس فيغاس). مقصد السيّاح في هذا الوقت من السنة، ركبنا ثلاث سيارات، سرنا عبر ولايات كثيرة، وبعد أربعة أيام كنا على طاولات القمار نعتقد بأن كل واحد منا سيعود بمبالغ طائلة. هناك قصص كثيرة يتداولونها عن أشخاص عادوا بألاف الدولارات، لكنهم لم يتناقلوا قصة ذلك الشخص الذي باع سيارته وقامر بها ولم يجد من يعيده إلى بيته. تلك المباني الشاهقة والتجهيزات الضخمة في تلك المدينة العابثة بنيت من خسائر مرتاديهها، لا من مكاسبهم.

السكن متوافر في القاعدة الجوية (نلس Nellis) المشهورة بميادين التدريب الجوية والأرضية التي تحاكي الواقع، والتي كلفت البلايين، لكنها تحاكي أصعب المعارك الجوية ودفاعاتها. العرق في السلم يوفر الدم في الحرب. السكن متاح للجميع متى ما توافر المكان، بصرف النظر عن الجنسية، ما دمت تحمل بطاقة عسكرية سارية المفعول.

أضاع معظم الزملاء ما لديه من نقود، وكنت ممن جرب حظه فكسبت الكثير في البداية ثم خسرت كل شيء في نهاية الأمر. كان هناك أمين للصندوق عاقل لم يقامر، احتفظ بما يكفي من مصاريف الوقود والأكل أثناء العودة وإلا لتكبدنا عناء العودة جياً.

عدت إلى القاعدة وذهبت للمستشفى أستعلم عن نظارتي الجديدة، صرخ في وجهي ضابط صف صغير وطلب مني الانتظار وعدم إزعاجه. تظلم الدنيا في عيني، لا أدري ماذا أعمل، لا بد أن هذا الشخص جاهز لمزيد من المشكلات. ركضت إلى مدير المستشفى، دخلت عليه وأنا أنتفض من الغضب، المدير برتبة عقيد

وكبير السن، أجلسني وقدم لي سيجارة وانتقل إلى كرسي مجاور ثم طلب مني أن أقول له ما حصل بالتفصيل. طمأنني وأرسل سكرتيرته لإحضار النظارة وقال لي: الناس تغيرت، وشباب اليوم غير شباب الأمس، لم تعد الأمهات والآباء يربون كما يجب، ولمزيد من الألفة قص عليّ قصة حصلت له وهو في هذه السن والرتبة من سيدة نهرته بصوت عال عندما خرج عن الصف وقالت له: لا تظن أننا سنخدمك قبل الناس لأنك عقيد. يقول كان سبب خروجي انزعاجي من مدخن أمامي ينفث الدخان في وجهي، وكان الأولى بتلك السيدة أن تنهره بدلاً من أن تنهرني.

خرجت من مكتب المدير وقد زال غضبي الذي تلبّسني كدمائي التي كانت تفور. شكرته وأعدت له السيجارة والكثير من الامتنان، كسبت صديقاً وتعلمت درساً ظللت أذكره كلما لجأ إليّ مستجير.

* * *

القاعدة الجوية كخلية نحل، وخاصة الطيران والأنشطة الرياضية، منذ الصباح الباكر يتوافد الطلبة والطالبات على الملاعب. لا يجيدون لعبة كرة القدم، ويعتقدون بأن من جاء من المملكة لا بد أن يكون بارعا فيها، وهذا ما حصل لزميل من المملكة، عندما حاول كل فريق ضمه إليهم، وهو يستعرض مهاراته أمامهم. لم يكن في الواقع يعرف من كرة القدم إلا اسمها، وبعد الخمس دقائق الأولى أخرجوه محمولاً وقد كسروا ساقه، ليبقى دون طيران ستة أسابيع، ويعاد للدفة التي تلي دفعته.

أكثر ما أعجبني وأثر في منظر الأصحاء من رجال ونساء من مختلف الأعمار، يمارسون الرياضة في أماكن معدة لهم بعناية،

أكثرهم يمارس رياضة الجري في الهواء الطلق إذا سمحت الأحوال الجوية، كثير منهم يأتي للعمل راكباً دراجة هوائية وهذا ما عملته في الأشهر الأولى، تذكّرت كيف أنه في بلادي لا يمارس كثير من الناس الرياضة إلاّ بعد فوات الأوان، بعد أن يمرضوا، وبعد أن تراكم الشحوم على أجسادهم حتى تقعدهم.

كثير من الطلبة الأجانب يرتكبون مخالفات من الممكن تفاديها، أحدهم أوقف سيارته على جانب الطريق ونزل يقضي حاجته، بعد العودة لسيارته وجد ضابط المرور بانتظاره ليعطيه قسيمة مخالفة، يذهب للقاضي في اليوم الثاني ويخيره القاضي بين دفع ثلاثين دولاراً أو ثلاثة أيام في السجن، يختار السجن لأنه لا يملك المبلغ المطلوب. يرق القاضي لحاله، ويسأله عن السبب الذي جعله يستخدم الطرق السريعة كدورة مياه؟ يجيب: في بلدي نعمل ذلك دائماً. يعفيه القاضي على ألا يعود لهذا الفعل مرة أخرى.

زميل آخر دهس غزلاً ولم يتوقف، وواصل سيره للقاعدة الجوية، بعد أسبوع وصله إشعار من المحكمة يطالبه فيها بدفع مئتي دولار أو الحضور إلى المحكمة، ذهب إلى المسؤول في القاعدة لعله يساعده، ضحك المسؤول وقال: عليك الذهاب أو دفع المبلغ. علم أن أحد سائقي السيارات بلغ عنه وأعطاهم رقم لوحة سيارته، أخبروه أنه لو توقف وحاول إنقاذها أو نقلها لأقرب مستشفى لما تعرّض للعقوبة.

أجمل ما في الأنظمة تطبيقها على الجميع، لا يستثنى منها أحد.

مرّ عليّ الضابط المسؤول عن الأجانب، ليخبرني أن هناك ضابطاً من بلدي برتبة مقدم، يشعر بالوحدة ويبدو أنه يحن إلى أطفاله. لم يجد من يتحدث إليه، ويريد العودة إلى بلده قبل انتهاء المهمة. هل يمكنك المرور عليه والتحدث إليه؟

لم أذهب في اليوم الأول، فألح عليّ الضابط ورجاني أن أذهب إليه، ذهبت إليه فوجدته في غرفته لا يغادرها، ليس معه سيارة وليس له معارف، طلبت منه أن يأخذ جواز سفره، وذهبت به إلى المكسيك ودرت به على أكثر من محلّ وشاهد أكثر من عرض، أعدته إلى غرفته في المساء، وفي اليوم الثاني أخذته إلى بحيرة (أمستد Amistad) التي صنعتها إرادة البناء على النهر قبل مصبّه بالمكسيك، بحيرة بمساحة عشرات الكيلومترات. جلسنا معاً والمياه تحيط بنا، تناولنا العشاء ثم استأجرنا قارباً، استمتعنا بجمال البحيرة وهدوئها وسحرنا منظر الغروب، رأينا الشمس تغوص في نهاية البحيرة.

في اليوم الثالث أخذته إلى وسط البلدة، تجولنا في محلاتها وتوقفنا في أحد مقاهيها، وشاهدنا فيلماً مشهوراً.

في إجازة نهاية الأسبوع أخذته إلى مدينة مجاورة واستمتعنا بما تحويه من متع وجمال. مرّت الأسابيع على المقدم دون أن يشعر بها، وتعرّف على جمال البلد ومباهجها، مرّ عليّ الضابط المسؤول عن الأجانب ومعه خطاب شكر على ما قمت به، وليسألني في نفس الوقت: كيف استطعت أن أرقه عن المقدم إلى حد أنه لا يمانع في التمديد؟

أثناء تسوقي في محل داخل القاعدة ركضت ورائي امرأة في

منتصف العمر، سألتني: هل أنت من السعودية؟ زوجي ذهب إلى هناك ويعمل مدرب طيار، هل تمانع في زيارتي في البيت؟ أريد مزيداً من المعلومات عن المملكة، كانت امرأة فاضلة لها الكثير من النشاطات الخيرية، رغم إصابتها بسرطان الثدي مما اضطر الأطباء لاستئصاله. كانت تشارك بالترفيه عن بعض أبناء الفقراء، وتأخذهم معها مجموعة من المتطوعين إلى بعض الحدائق، فيرفهون عنهم بإجراء المسابقات وحلّ الألغاز وتقديم الهدايا للفائزين، لينتهي العرض بغداء مناسب. لم تنس هذه المرأة أن تأخذني معها وتشركني في بعض الألعاب. (ذهبت في ما بعد إلى زوجها في المملكة). تقول هذه المرأة: لم يكن الأطباء متأكدين من شفائي، بل إن أحدهم قال لي: لم يبق لي سوى أشهر معدودة في الحياة، ضحكت منه وقلت: سأزورك بعد سنوات. كنت واثقة بالله، ومُحِبّة للخير، داومت على العلاج واستمتعت بكل مباحج الحياة الجميلة، وركزت على عمل الخير، ومشاركة الصغار فرحهم، أعشق الحياة وأكثر من الضحك، وأتوكل على الله، أصغر بناتها تبلغ خمس سنوات، وأكبرهن اثنتي عشرة سنة.

* * *

حرب فيتنام على وشك الانتهاء ونتائجها واضحة، هزيمة أقوى بلد في العالم. الأمم كالأفراد لا تقرأ التاريخ، ولا تستفيد من أخطائها وأخطاء الآخرين، التحاليل التي تُبنى على فرضيات غير صحيحة ستكون بالطبع غير صحيحة، لكن تخريج الطيارين على أشده، معظمهم من خريجي الجامعات بنسبة 75 في المئة أما البقية فمن كلية الطيران الأمريكية. الطلبة برتبة ملازم ومعظمهم متزوجون، أكثرهم تزوجوا أثناء دراستهم بالجامعة.

في القاعدة صالة كبيرة للسينما تعرض فيها الأفلام، والدخول بسعر مخفض، قبل بداية عرض الفيلم يعزف السلام الوطني ويقف الجميع رجالاً ونساء وأطفالاً، تستخدم الصالة في الشهر مرّة للقاء القائد والتحدث عن السلامة بشكل عام وسلامة الطيران بشكل خاص.

انتهى برنامج الطيران وبقية دورتان، واحدة في واشنطن الولاية، والثانية في فلوريدا.

ذهبت إلى الدورة الأولى، وهي عن كيفية البقاء على الحياة في ظروف الحرب، وخاصة في حالة سقوط الطيار في أرض العدو، يعلموننا السير ليلاً باستخدام البوصلة والتخفي عن العدو ومحاولة الاتصال بالقوات الصديقة، والحصول على الماء كعنصر أساسي لا بد من التفكير فيه ووضعه على قائمة الأولويات.

الغذاء يتم الحصول عليه من الحيوانات البرية حتى الثعابين، أفضل شيء يمكن عمله في النهار مع اشتداد الحرارة والشمس اللاهبة البحث عن الظل والراحة للتقليل من شرب الماء والتعرق. (تذكرت كيف أن الكثير من هواة الصحراء، إذا تعطلت سياراتهم بذلوا جهداً لإصلاحها أو إخراجها من مأزق، وإذا لم يستطيعوا تركوها وساروا في الصحراء، تحت لهيب الشمس والحر، وكثيراً ما يعثر على السيارة قبل العثور على أصحابها ميتين على بعد عدة كيلومترات). ينصحون بالسير ليلاً لبرودة الجو وإمكانية رؤية المدن ومصادر الضوء من بعيد، يعلمون الطلبة كيف يصنعون ظلاً مما هو موجود في البيئة، هناك برامج وتعليمات خاصة بهم، كيف يتصرف أحدهم عندما يقع في الأسر، لا يطلعون عليها الطلبة الأجانب.

مدة الدورة أسبوعان، منها خمسة أيام في الصحراء أو هكذا يسمونها. غابات ملتفة وجداول جارية وطيور صادحة، يحذرون من شرب الماء إلا بعد تعقيمه، يعيش الطالب على إعاشة الطواريء المعلبة والشحيجة، يمضي خمسة أيام لا يذهب خلالها للحمام.

في اليوم الأول يصطاد المدرب ثعباناً، ويشرح لنا كيفية السيطرة عليه وشيّه ثم أكله، معظم المدربين ضباط صفّ خدموا في فيتنام، من أهم ما يركزون عليه قوة الإرادة، وحب الحياة، وعدم الاستسلام مهما صعبت الأمور أو قلت الموارد الضرورية أو بعدت المسافة، هناك من سار قرابة الخمسة كيلومترات حبواً على يديه وركبتيه ونجا، وهناك من توافرت له فرص البقاء، لكن انهياره جعله يسيء التصرف ويستسلم بسرعة ويموت.

لديهم تعليمات لمن يقع في الأسر، وكيف يتصرّف في تلك الظروف. تختلف المقاومة من شخص لآخر، فهناك من ينهار ويبلغ العدو بكل شيء، ومنهم من لا يزيده الأسر إلا قوة وصموداً، يضربون أمثلة من الحربين العالميتين الأولى والثانية، بعض الأسرى أصبحوا ملهمين لزملائهم في الأسر، ومنهم من ألفوا أفضل الكتب عن الأسر والمقاومة. يستخدم الأسرى لغة الإشارة والضرب على الجدران.

في مدينة (سبوكان Spokane) القريبة من القاعدة الجوية، التقيت بصديق قديم دعاني إلى حفل كبير تقيمه الجامعة في ملعب كرة القدم، شباب وشابات من البيض والسود، يكتظ بهم الملعب، يرقصون على أنغام الموسيقى ويشربون البيرة حتى الثمالة، وفي آخر الوقت صاروا يشربونها غير مبرّدة لكثرة الطلب عليها.

كانت روائح (الماريجوانا) تملأ المكان، وقبل نهاية الحفل كان نصفهم نائمين، يتوسد بعضهم أطراف بعض، بعضهم ينام وكأنه سقط في ساحة المعركة.

في يوم الاثنين أول أيام الأسبوع عندهم، ذهبت مع صديقي للجامعة فوجدت شباباً مختلفاً عما شاهدته تلك الليلة، رأيت النشاط والتحدي ورأيت الحركة الدائبة، طلبت من صديقي أن يأخذني إلى المكتبة، وجدتها مبنى مستقلاً يتكون من عدة أدوار وصلات لا تقفل أبوابها إلا ساعات قليلة آخر الليل، بعض الجامعات مكتباتها مفتوحة أربعاً وعشرين ساعة، بعض الطلبة يغلبه النوم فينام في إحدى زوايا المكتبة، بعض هؤلاء كانوا في أمس يسهرون ويشربون في الملعب، لو تخلصوا من شرب الخمر والمخدرات لكان لهم شأن أعظم مما هم فيه.

في الجامعة نشاطات كثيرة، ثقافية وفنية ورياضية، بعضها على مستوى الولاية وبعضها على مستوى الدولة. الجامعات هي مصدر الفكر النير والحاملة لمشعل الحرية، ولكل جامعة قيم تعزز بها، وإلا ما الفرق بينها وبين المدارس الثانوية؟

(سيوكان) من أجمل وأنظف مدن ولاية واشنطن، وأهلها يصادقون الأجانب بسهولة، لكن عليّ الإمساك بعصا الترحال ومواصلة السفر إلى فلوريدا.

في قاعدة (هومستد Homestad) على المحيط في ولاية فلوريدا، يدرّب أفراد القوات الجوية، وخاصة الطيارين، على سبل النجاة في البحر، السباحة شرط أساسي، ثم الاستخدام الأمثل للمعدات الموجودة في قارب النجاة الذي يكون مع الطيار إذا قفز

في البحر مستخدماً كرسي النجاة، لا بد من إعطاء الإشارات الصحيحة عند اقتراب فريق الإنقاذ حتى يراه، عليه أن يجيب بشكل صحيح عن الأسئلة التي يطرحها طاقم الإنقاذ للتأكد من هويته .
 مدة الدورة ثلاثة أيام، لكنها تبين أهمية السباحة والتدريب الجيد لكل إنسان، هذه الدورة والدورة السابقة تعودان الإنسان على روح المغامرة والتغلب على الخوف .

* * *

العام هو 1973 حرب فيتنام في نهايتها، الصحافة الأمريكية والإعلام بشكل عام مشغول بفضيحة (ووترغيت Watergate) التي اتهم فيها الرئيس نيكسون بالتجسس على الحزب الديمقراطي . كان من الممكن أن ينجو من الاستقالة لو لم يكذب في شهادته، الصحافة لديهم هي السلطة الرابعة التي لا سلطة عليها ما دامت تبحث عن الحقيقة .

العودة إلى المملكة

مضى أكثر من عام على مغادرتي المملكة، الآن أستعد للعودة، لا يوجد وسيلة اتصال بيني وبين أهلي سوى الرسائل التي يستغرق وصولها أسابيع، كنت أنوي وزميلي المرور على مصر في طريق العودة، لكن شوقي إلى أهلي وبلدي ألغى الفكرة، وعدت إلى المملكة مباشرة عن طريق إيطاليا.

تغيرت أمور كثيرة فالعمة سارة ماتت ولم يخبروني، حزننت عليها كثيراً مما أفسد بعضاً من فرحة اللقاء، تمنيت لو أخبروني عن وفاتها قبل وصولي، أحضرت لها هدية، شال من الصوف الناعم، ماتت ومات معها الكثير من الأمنيات والذكريات، تخيلت طفولتها وما بها من حب وكره، من جوع وشبع، ثم وهي تلك المرأة المعتدة بنفسها، والتجارب الثرية مع الزواج والطلاق. تذكرت تلك الحكمة الأفريقية التي تقول: (حين يغيب الموت عجوزاً، تغيب معه مكتبة واسعة).

عدت إلى بلدتي الجميلة وأخذت أسير بين نخيلها، أسمع غناء يمامها وأستظل بظلها، لكن العناية بالمزارع القديمة قلت فهي دائماً تحت رحمة واديها الكبير، فإن سال ملاً الآبار وجلب معه النماء، وإن شح غار الماء وشحب منظر النخيل وشاخت بسرعة، تذكرت

تلك اليمامة الجميلة ذات الطوق الأسود حول عنقها، سألتها
الفلاح: هل تبعين الطوق الجميل؟

ردت عليه اليمامة (ما أبيع طوقي والملحح بالنخل) وتعني أن
النخل قد أطلع وبدأ الفلاح بتأبيره. هو الأمل يضيء الطريق.

عندما رأيت اليمام بطوقه الجميل قلت قصيدة منها هذا المقطع:
قال فلاح وشاعر لليمامة:

هل تبعين لصبي

طوقك الحلو الجميل؟

هزت المنقار، قالت:

لا أبيعه.

هل يبيع الأوفياء

ذرة من كبرياء

من يبيع الحب يشقى.

أفلا يكفيك تحظى

كل يوم بالجمال؟

سوف أبقى.

أرسل اللحن شجياً

بين أشجار النخيل

عله يوقظ قلباً

نام في الليل الطويل

خلّ طوقي لحبيبي.

يتغنى بجماله .

كيف أحيا؟

كيف أبقي وحيبي؟

هجر العش إخاله .

داعبت الماء بيدي، هنا كانت والدتي تضع اللبَن على حجر يحيطه الماء من كل جانب حتى يظل بارداً، وتحفظه من الزواحف المتطفلة. الأشجار صامته وأعشاش الطيور في كل مكان، الدار كثيبة موحشة يسكنها النمل والزواحف من كل جنس، جلست تحت السدرة التي طالما آوت الطيور، خلتها لا تعرفني، نهرتني: لماذا تجلس هنا؟ إذهب كما ذهب غيرك، هكذا الحياة، في هذا المكان تبالغ السماء بزرقتها، فلا تلوث ولا غيوم، رياح كسلى تهب وتأخذني إلى عالم من الأحلام.

هناك مزارع جديدة، تفوق المزارع القديمة أضعاف المرات، بدأت تنتشر خارج البلدة في منطقة واسعة بين الجبال والنفود، حلت الآبار الارتوازية محل الآبار التقليدية التي لم يكن يتجاوز عمقها عشرين متراً. أما الآبار الارتوازية فتتراوح بين ستين متراً وستمئة. لم يعد الفلاح يعتمد في رزقه على ما تنتجه الأرض، معظمهم التحق بعمل حكومي. يقول أحدهم: كنت أحصل على قوت يومي من المزرعة، نبيع ما زاد عن حاجتنا من التمر وأحياناً نبيع بقرة أو شاة، وبهذا المبلغ نتدبر أمورنا، كان المبلغ طوال العام لا يزيد عن ألف ريال، أما الآن فأحصل على أكثر من ألف ريال شهرياً.

سألتنى أمي عن النساء هناك، وهل هن مثلنا في الشكل؟ وهل هن جميلات وما لون بشرتهن؟ وهل يلبسن العباءة وغطاء الوجه مثلنا؟

زاد استغرابها عندما علمت أنهم لا يسترن وجوههن أمام الرجال. قالت: لا أصدق، لكن النار موعودة أن تمتلئ بالناس والحجارة. تذكرت تلك المفارقة العجيبة عندما سألتني واحدة في نادي الضباط في أمريكا:

- لماذا لا تشرب وترقص؟

- لا أحب الشراب، ولا أعرف الرقص.

- وأمك وأبوك وعائلتك ألا يشربون ويرقصون في إجازة نهاية الأسبوع؟

- لا لا يرقصون ولا يشربون.

- إذاً كيف يمضون إجازة نهاية الأسبوع؟

- يمارسون الرياضة ويخرجون للحدايق ويحضرون السينما ويدعون الأصدقاء.

- لا أصدق، أهكذا فقط يقضون نهاية الأسبوع؟

ليتك تعرفين كيف يقضون كل أيامهم - قلتها بيني وبين نفسي - تمر أيام وليال دون راحة. يؤجلون الأعمال الشاقة إلى يوم الجمعة، نهاية الأسبوع، بل إن أسبوعهم كله أعمال شاقة متواصلة بلا نهاية.

قارنت بين أسئلة أمي وبين أسئلة تلك المرأة، فعرفت أنه من السهولة أن يبرمج الإنسان إلى أبعد ما يكون.

تسألني أمي أسئلة كثيرة بعضها تستوعب أجوبتها، وبعضها لا يمكن أن تصدقها، رغم إدخال بعض التعديلات عليها. سألتني عن دينهم:

- هل هم مسلمون؟

- لا ليسوا مسلمين.

- ما هو دينهم إذاً؟

- لهم دين أهملوه، بل ضربوا به عرض الحائط، تسلط عليهم قبل عدة قرون من يدعون امتلاك الحقيقة ونصبوا أنفسهم وسطاء بين الله والناس، تاجروا بالدين فشوهوه وحرفوه وأفرغوه من معانيه العظيمة، جعلوه طقوساً بلا معانٍ وسيلاً من الدعاء والأمانى، صار للجنة ثمن مادي لا بد من دفعه لهم. صار مطية للوصول إلى السلطة والحكم، ففسروه كما يحلو لهم، نسوا معاني الرحمة والحب والتسامح، تسلطوا وجعلوا الساسة حجة، وسوطاً يلهب ظهور الآخرين ويثير الحماسة ضد أعدائهم. حماسة تحولت إلى تعصب أعمى ترك آثاره الدامية على أوروبا وبقية العالم عدة قرون، كفروا من يخالفهم وحاربوه دون هوادة، وأحرقوا العلماء والفلاسفة أحياء.

اشتعلت الفتن بينهم، وقامت الحروب التي لبست الدين قناعاً والقوة منطقاً، تفرقوا بسبب المذاهب، حرب واحدة استمرت ثلاثين عاماً بين مذهبي الكاثوليك والبروتستانت، أهلكت ثلثي الشعب الألماني.

- هل هم إلى هذا الحد من الغباء؟

- بل هم من أشد الناس ذكاءً وحرصاً على الحياة، لكن سوء استغلال الدين يقود إلى كوارث، والتعصب يعمي، ومعظم مآسي

هذا العالم من نتائج التعصب، ومحاولة فرض الرأي وأسلوب الحياة بالقوة.

يتمتعون بصحة جيدة وبشرة صافية وذكاء، لكن تقرأ في عيونهم وتعابير وجوههم التأثير السيئ للمادة وهجرة الروحانية وتفكك الأسرة، سيعودون إلى الدين، لكن بعد أن يحكموا العقل والقلب في كثير من مواده وممارساته، بعيداً عن التسلط وضيق الأفق وهما نتاج العصور المظلمة.

- ألا يتزوجون؟

- بلى يتزوجون ويربون أبناءهم بالصغر أفضل مما نفعل، يكتفون عادة بطفل أو طفلين، يربونهم على الطاعة والثقة بالنفس، ويحببون إليهم القراءة وإتقان فنّ من الفنون منذ الصغر، يعطونهم مجالاً أكبر للأسئلة وقبول الأجوبة، يعلمونهم الاعتماد على النفس منذ الصغر، لكنهم يتركونهم أحراراً بعد سن الثامنة عشرة، مع أن الابن أو البنت بحاجة إلى التوجيه والحماية لكثرة المغريات في هذه السن، يتركون أبناءهم بعد هذه السن فيتركهم الأبناء في ما بعد.

سألت زميلاً لي عندما كنت هناك:

- متى رأيت والدتك؟ أجب: قبل شهرين.

- هل تسكن بعيدة عنك؟

- لا إنها في المدينة نفسها لكن ظروفها لا تسمح برؤيتها دائماً.

- هل تسمح لي بزيارتها معك؟

- بكل سرور.

ذهبنا لزيارتها في نهاية الأسبوع واقترحت المرور على بقالة في

الطريق، لنشتري لها هدية من صديقه العربي، تحب والدته الحلوى والفاكهة والبطاطس المقلية.

رحبت بنا كثيراً، ورحب بنا صديقها الذي يسكن معها وقد جاوز السبعين، لكنه يتمتع بحيوية الشباب.

تعمل هي مع منظمة خيرية تابعة للكنيسة، ويعمل صديقها الضابط سابقاً، مدرساً في مدرسة ثانوية.

استمتعت بالحديث مع صديقها الضابط الذي تقاعد برتبة عقيد، كان طياراً سابقاً في الحرب العالمية الثانية والحرب الكورية، آخر عمل له كان قائداً لكلية القيادة والأركان.

يقول هذا الضابط: أحب التعليم وأعدّه أعظم رسالة في الحياة. عُرِضت علي بعد تقاعدي فرص كثيرة للعمل والكسب المادي أضعاف ما أكسب من التعليم، لكنني فضلته لرسالته السامية، أرى في كل طالب أو طالبة أمامي مستقبل أمريكا وقوتها، أشجعهم على القراءة وإثارة الأسئلة، وكتابة البحوث، يسألني الطلبة عن أمور كثيرة وأجيب عنها. ميزة تعليمنا حث الطالب على الشجاعة وحب المغامرة وقول الحق، وعدم السكوت على الظلم، لذا تفوقنا على أوروبا عسكرياً واقتصادياً، طلبتنا يؤسسون من الشركات أضعاف ما يؤسسه غيرهم من شباب العالم، والسبب جودة التعليم وعدم الخوف وحب المغامرة.

- هل تعتقد بأن أمريكا ستبقى في القمة دائماً؟

- لا أعتقد ذلك، لكننا نحاول، أهم أسلحتنا للبقاء في القمة الاستمرار في تطوير التعليم وتحريره من المركزية القاتلة، وزيادة الاستثمار في الرياضيات والهندسة، وتكريم المبدعين في كافة حقولهم وخاصة في التقنية والعلوم، علينا زيادة الصرف على

البحوث والتطوير وتشجيع هجرة العقول إلى أمريكا، وزرع القيم والاهتمام بالتربية، ومحاربة الفساد والغش والكذب والنفاق. سباق يقوده الآباء والأمهات والمعلمون والمعلمات وأساتذة الجامعات ومراكز الأبحاث، من أهم مصادر قوتنا ما نتمتع به من حرية نتغلب بها على الآخرين. إن التضييق على الحريات يوجد المناخ المناسب للفساد بأنواعه والظلم وكثرة الأزمات ثم التفكك والانحلال.

قال لي زميلي الأمريكي بعد خروجنا من عند والدته: فكرتك جميلة وسوف أكررها. فقلت له: جرب في المرة القادمة أن تحضر معك زوجتك وطفلك، ديننا يبحث على ذلك، بل الدين جاء لنشر الحب والرحمة وتهذيب الأخلاق وتحسين العلاقات بين الناس فكيف إذا كان من تتعامل معه أحد والديك.

- هل أسلم بعد ذلك؟

- لست أدري لكنني بالتأكيد تركت له انطباعاً ودرساً عملياً أفضل مما تركه الكثير من المواعظ وتكرار الكلام.

كنت ووالدتي جالسين تحت عريش العنب الذي لم يبق منه سوى أغصانه اليابسة. وأمامنا النخل الكثيب الذي تهدلت أطرافه وازداد طولاً ونحافة، لم تحافظ على الخضرة سوى أشجار السدر التي تلجأ إليها الطيور والزواحف سألتني أمي: هل لديهم نخيل مثلنا؟

لديهم كل شيء، عندهم الأنهار والأمطار الدائمة وعندهم القوة التي صاروا يعبدونها كربّ جديد، لقد أعمتهم القوة، فصار لها دعائها ومصانعها وتجارها، وشنوا الحروب لأجلها، يشنون

الحروب لردع المعتدي، لكنهم يعتدون بصلف أكثر، الحرب قد تقضي على ظالم، لكنها تنتج أعداداً مضاعفة من ظلمة جدد. الحرب تكشف وتظهر أسوأ ما في الإنسان من توحش وظلم ونقائص، للحروب إفرافات لا تظهر إلا بعد انتهائها.

نظرت أُمِّي إلي بيتها القديم الذي يحاصر البئر من ثلاث جهات ثم قالت: هل تصدق أننا عشنا هنا أكثر من ثلاثين عاماً؟ لو زلت قدم طفل لاستقر في أعماق البئر ميتاً. انظر إلى شجر الأثل كيف يقف صابراً يصارع العطش والغبار وغادره اللون الأخضر، الماء هو الحياة.

كانت الشمس تسحب أشعتها بعيداً وتختفي خلف التلال يتبعها الظلام من الجهة المقابلة عندما قالت لي: عمك بحاجة إلى العشاء، هيا إلى هناك. لقد كبر كثيراً وصار ينسى ويغضب لأتفه الأسباب، لكنه يملأ حياتي حباً وأماناً.

عدت إلى الرياض، عينت موقتاً في كلية الملك فيصل الجوية، الدورة القادمة على المقاتلات لا تستوعب مزيداً من الأعداد.

الحديث في المجالس يتركز على الأراضي والمكاسب الخيالية التي جناها تجار العقار، اختفى الحديث عن الثقافة والسياسة، الطفرة تطل برأسها، ولا تصريف لفائض الأموال سوى العقار.

يصرف للمبتعث راتب في بلده عدا المكافأة، في حسابي خمسة وعشرون ألف ريال، فكّرت في أفضل طريقة لاستثمارها. لم لا أنتهج سياسة القطيع؟ الكل متجه للعقار، الأراضي سحرت الجميع، فلان اشترى أرضاً بكذا وباعها بضعف قيمتها، وفلان رفض العرض المقدم له لبيعها بكذا.

ذهبت لشراء أرض، لكن دليلي ذهب بي إلى شرق الرياض بدلاً من شمالها، اشتريت أرضاً بعشرة آلاف ريال وبعثتها بعد عام بمئة ألف ريال أي عشرة أضعاف، ولو كانت في شمال الرياض لكانت القيمة أكثر من ذلك.

اشتريت سيارة بعشرة آلاف ريال وأرسلت لوالدتي خمسة آلاف ريال لتكمل إصلاح البيت وترميمه.

ليس لي ولزملائي في الكلية عمل محدد، لكن هناك طلبة مستجدون كلّفَت بإعطائهم محاضرات عن العسكرية والطيران، وضعت لهم برنامجاً لزيارة أقسام الكلية ومنها جناح الطيران. أخذتهم إلى هناك لأفاجأ بقائد جناح الطيران يستدعيني وكان من الإخوة الباكستانيين، كان غاضباً على وجود الطلبة وانتشارهم في الجناح بشكل عشوائي، كان سبب غضبه عدم إبلاغه عن الزيارة، دافعت عن نفسي، يشفع لي نبل هدفي وأبلغته مع من نسقت، لكن لا بد للقائد الأعلى رتبة أن ينتصر، دونت في مذكرتي درسين مهمين: الأول أن التنسيق والاتصال سيظلان مشكلة أزلية تؤثر في سير معظم العمليات، الثانية: أن من يجتهد ويعمل سيخطئ، وعلى الآخرين عذره.

ركبت مع زميل لي بالطائرة العمودية، ورغم أنها رحلة تدريبية إلا أن زميلي كان يستغلها لمطاردة من يشك في وضعهم خاصة من يتخذون الجسور والأشجار ظلاً وسترأ، من يركب سيارته مسرعاً ويهرب يعرف أنه مذنب ويطارده، ومن يبقى في مكانه ويؤشر بيديه مسلماً يتركه، كما يطارد من يراهم يفطرون في رمضان خارج المدينة، كم تعرّض وعرض الآخرين للخطر بعمل ليس من صميم

عمله، أخطر شيء في الطيران مخالفة الأنظمة دون رقابة صارمة وجزاءات رادعة.

قامت حرب 1973 بين العرب وإسرائيل، لتعلن عهداً جديداً من الصراع، ومقدمة لحلّ دبلوماسي وخاصة على الجبهة المصريّة، نتائج الحرب كانت مرضية للطرفين، فلا هي نصر واضح ولا هزيمة واضحة. هناك قوات تقدمت من الطرفين على ضفتي القناة، كلّ يدعي أنه حقق أهدافه، كانت رد اعتبار للعرب وللمصريين بشكل خاص، ورسالة لإسرائيل أن الحل لن يتم بمزيد من الحروب واحتلال أراضي الغير، كانت حرباً أدارها السياسيون أكثر من القادة العسكريين على أرض المعركة.

ذهبت إلى الظهران، تلك المدينة الجميلة المنظمة، أهلها منضبطون، ينامون في وقت مبكر، يعمل معظمهم في أرامكو، لا ترى من يسير في الشوارع بعد الساعة التاسعة ليلاً، احترام الأنظمة واضح في كل مكان.

هناك محلان للسينما، واحد في القاعدة اسمه (سينما النخيل) لم يلبث أن أقفل، والثاني في سكن كبار الموظفين في أرامكو لا يختلف عن الموجود في خارج المملكة، ويسمح للضباط بدخوله.

هناك الشواطئ الممتدة على الخليج في العزيزية وشاطئ نصف القمر، اللذين أخفى الجشع مساحات كبيرة منهما في الوقت الحاضر، لم يكن أجمل من تلك الليالي الصيفية على تلك الشواطئ الرملية النظيفة، التي من أكبر الأخطاء تحويلها إلى ممتلكات خاصة تحرم منها الأجيال القادمة.

كان معي في السيارة جميع متطلبات الشاي والقهوة، ومن عبث

الشباب أن يكون معي غليون، أملاًه وأمرره على الجالسين، وربابة لا أجيد العزف عليها، نتخذ من الرمال المحاذية للشاطئ مكاناً للجلوس، نأنس بأموج الخليج وحركتها الدائبة والمياه تمسح بلمساتها الحانية رمال الشاطئ، تسامرنا النجوم في سماء صافية، ويزورنا القمر في بعض الليالي، نبقى حتى منتصف الليل، وهذا البرنامج هو المفضل لمن يزورنا من الرياض.

في بعض الليالي يصلنا مدّ المياه ونحن جالسون بجانب البحر، وتعود المياه إلى الجزر في الصباح وقد تولت تنظيف ما تركه الناس من بقايا.

لدى زملاء دراسة في مدينة رحيمة الواقعة قريباً من ميناء رأس تنورة، أذهب مع واحد من أعز أصدقائي إلى هناك لزيارة زميلنا المتزوج الذي لا يملّ حديثه ولدى زوجته قدرة على طبخ أفضل الأطباق الشعبية، لدى هذا الصديق بنت جميلة وولد ذكي مؤدب، يفرحان بنا ونحضر لهما ما يفرحهما. توفي الولد في ما بعد.

أصبح سكني، وهو غرفة متواضعة، مقصداً للكثير من الأقارب والأصدقاء، في أحد الأيام وبعد نزولي من الطائرة أخبرني زملائي أن هناك من ينتظرنني في استراحة الطيارين، هذا الشخص أتى بالقطار ومعه فراشه المربوط جيداً وحقيته الصغيرة.

بعد نزوله من القطار أخذ يسأل كل من يقابله عن طيار من بلدته اسمه عبدالله، حتى سائقي الأجرة يسألهم عنه! يصفه لهم! ويخبرهم أنه طيار، كلهم يقولون: لا نعرفه، أخيراً ذهب الجميع، وبقي وحيداً في محطة القطار، وقف أمامه سائق أجرة وسأله: أين تريد أن تذهب؟

أجابته: لست أدري أين أذهب، خذني إلى أي مكان أنام فيه .
أخذته سائق الأجرة إلى مقهى، وصعد للسطح الذي يعج بالناس
من المدخنين وقاتلي الوقت، نام حتى سمع أذان الفجر، نزل
ليصلي في المسجد، وجد الباب مقفلاً، صلى الفجر وحيداً، عاد
ليناام فرأى من يصلي ولكن باتجاه معاكس لصلاته، قام ثانية
وصلى، وعرف أن البحرين كانت قبلته في صلاته الأولى .
أتى في الصباح إلى القاعدة وبحث عني، وجدني وسكن معي
في غرفتي أياماً حتى أتم عمله .

تمتاز المنطقة الشرقية بقربها من البحرين وقطر والإمارات
والكويت، مما يتيح التقاط البث التلفزيوني، خاصة في فصل
الصيف، لكنه بحاجة إلى عمود طويل ولاقط خاص يوجه بين وقت
وآخر بحسب المحطة المراد التقاطها، إضافة إلى محطة شركة
أرامكو التي تبث باللغة الإنجليزية .

* * *

أسوأ ما في المنطقة الشرقية تلك النيران المشتعلة التي ترى من
مسافات بعيدة، تنتشر النيران كالحرائق في تلك الصحارى، مخلفة
الدخان والتلوث والروائح الكريهة، كان هدرأ لا يمكن تصوره إلى
أن بدأت المملكة خطواتها لبناء المصانع العملاقة للبتروكيميائيات
في الجبيل وينبع، على أيدي أبناء البلد المخلصين الذين سيذكرهم
التاريخ في صفحاته التي تخلد من يستحق التخليد .

اجتزت الدورة بنجاح، وحصلت على المركز الأول ليستدعيني
قائد السرب ويخبرني بترشيحي مدرس طيار، بقيت في الظهران،
أما بقية زملائي فتوزعوا على الأسراب المقاتلة .

أجمل ما في الطيران بالمنطقة الشرقية، تلك المناظر من علو

فهذا الخليج بسواحل المتعرجة، وهذه شواطئ نصف القمر والعزيرية، وعلى القادم من الشرق أن يلتفت يمينا ليرى البحرين يلفها الماء وهي تنام بين أحضانه كما ينام الطفل الجميل في مهاده، تذهب شمالاً فترى الدمام بشواطئها الممتد الجميل، وترحب بك بساتين القطيف وشواطئها، أما في الليل فلا ترى إلا الحرائق التي تحيل ليل الصحراء إلى نهار.

يأتي أحد الأقارب من الرياض، فيمضي ليلته يتحدث عن الطفرة وما أحدثته من غنى فاحش لبعض الناس، وما فات من فرص على البعض الآخر، فلأن الذي يعمل مراسلاً في إحدى الوزارات استقال لأنه اشترى أرضاً وباعها بمليون ريال، والآن لديه مكتب عقار يكسب منه يومياً آلاف الريالات.

فكرت كيف اشتري أرضاً دون أن أبيع ما لدي، أرسلت مع قريبي سيارتي وطلبت منه بيعها وشراء أرض بقيمتها في شمال الرياض، لا بأس من البقاء بدون سيارة بضعة أشهر طالما الأرباح بهذا الشكل.

اشترت سيارة من أحد زملائي المبتعثين إلى أمريكا بالتقسيط. استعارها أحد ضباط الصف للذهاب مع زميل له إلى الدمام، عادا بعد ساعات أشعثين أغبرين، علمت أن هناك شيئاً غير عادي قد حدث، أخبراني أن حادثاً وقع لهما، وأنهما بخير، أما السيارة فالعوض على الله. لقد انقلبت السيارة ثلاث مرات وخرجا من الزجاج الأمامي وسلما بأعجوبة. لقد كان درساً تعلمته في الغربية ألا آخذ سيارة أحد ولا أعطي سيارتي لأحد، لكنها الدروس تصبح أخطاء تتكرر في هذه الحياة.

أخطاء بين الأرض والسماء

أكثر الأخطاء في هذه الحياة من صنع الإنسان، ومنها حوادث الطيران. أفلعت للمرة الأولى بطائرة ذات مقعد واحد، مزودة بجهاز ملاحه ذاتي، يشير إلى الجهة المطلوبة، بشرط أن تكون المدخلات لخطوط الطول والعرض صحيحة.

اتجهت شمالاً. نقطة البداية خزان ماء فوق مدينة الدمام، أبدأ بحساب الوقت والمسافة كلها تشير إلى معلومات صحيحة، ها هي القطيف بنخيلها وشواطئها، عليّ الاتجاه إلى ذلك الرأس الداخل من اليابسة إلى البحر شمال مدينة الجبيل ومنه أتجه غرباً نحو النقطة الثانية، قرية صغيرة وسط الصحراء، لا وجود لها، ربما تجاوزتها من دون أن أراها، توجهت للمحطة الثالثة جنوباً في عمق الصحراء. أنظر إلى الخارطة فلا أرى شيئاً يتطابق مع ما أراه على الطبيعة، لا بأس سأكمل حتى النقطة الرابعة لعلّي أجدها، لا وجود لها، أجهزة الملاحة غير فعالة وتعطي معلومات خاطئة. والوقود قليل ويتحتم عليّ العودة إلى المطار مباشرة.

أتحدث بالراديو فلا يسمعي أحد، كنت على ارتفاع منخفض كما تتطلب الرحلة، تحيط بي الصحارى الصامتة من كلّ مكان، كلّ تضاريس الأرض متشابهة، كثبان الرمال الجميلة التي كانت تبدو كأساور من ذهب على ذراع حسناء، تحولت إلى أسوار من

الخوف واليأس واللامبالاة. أسوأ شيء نفاذ الوقود في صحراء حيث لا تدري إلى أي اتجاه تذهب. أصرخ في الراديو ولا مجيب، كل شيء يمر بسرعة، بدأت الهواجس والظنون تحاصرني: هل سأقفز من طائرة جميلة شبه جديدة لخطأ ارتكبته؟ ماذا سيقال عني؟ وهل سأنجو إن قفزت؟ وهل سيعمل كرسي النجاة؟

بدأ العرق يتصبب، أصرخ عالياً أريد المساعدة لكن لا مجيب.

تذكرت شيئاً واحداً طالما سمعته، تحويل السرعة والوقود إلى ارتفاع، والاتجاه نحو الشرق باستخدام البوصلة الاحتياطية، مع الارتفاع يقل استهلاك الوقود، ويزيد مدى الاتصال. أعلنت حالة الطوارئ وطلبت النجدة، من على ارتفاع ثلاثين ألف قدم، سُمع ندائي وجاء الجواب كدعاء بعد صلاة، وُجِّهت إحدى الطائرات الموجودة في المنطقة لترافقني وتقدم لي ما أحتاج من مساعدة، توجهت إلى القاعدة مباشرة وعيني على الوقود الذي يتناقص عداده بسرعة، العداد يشير إلى ستمئة لتر وأنا على بعد مئة ميل، الواجب أن أكون على الأرض بما لا يقل عن ثمانمئة لتر من الوقود، لكنه الارتفاع يحوّل إلى مسافة مع النزول التدريجي. يغيّر اتجاه المدرج ليكون نزولي مباشرة في نفس الاتجاه وتعلن حالة الطوارئ كالمعتاد في مثل هذه الحالات، في حالة انطفاء المحرك سأوجه طائرتي للبحر وأقفز مستخدماً كرسي النجاة، تلامس عجلات الطائرة أرض المطار وتتبعني سيارات الإطفاء والإسعاف، قبل الوصول إلى نقطة الوقوف ينطفئ أحد المحركات وأوصل الطائرة إلى موقفها بسلام، احتضنت الطائرة، وشكرت الله وكلّ من قدّم لي العون والمساعدة.

درس آخر تعلمته جيداً، فكم قادت المعلومات المغلوطة كثيراً

من الشباب إلى المهالك، إذا كانت البرمجة خاطئة فالنتائج مدمرة. الشك والمساءلة والمقارنة مطلوبة لمعرفة الاتجاه الصحيح والوصول إلى الهدف.

تجربة أخرى حصلت في صباح يوم جميل، الشمس تنشر أشعتها على مياه الخليج، الربيع يحيل الصحراء إلى عرائس مكلمة بالورود، قمت برحلة ملاحية على ارتفاع منخفض، تبدأ الرحلة من الصحراء وتنتهي فوق مياه الخليج، ها هي مدينة (سلوى) قرب دولة قطر، يبدأ منها آخر خط ملاحى إلى القاعدة، قوانين الطيران تحدد الارتفاع فوق البحر أو اليابسة لأغراض السلامة.

فوق البحر لا يوجد مرتفعات تفاجئ الطيار كما هو على اليابسة، خالفت الأوامر وطرت على ارتفاع أقل من الحد الأدنى. قبل القاعدة بثلاثين ميلاً، أتقابل مباشرة مع طائر بحري كبير، يحاول كل منا تفادي الآخر لكن السرعة العالية والمفاجأة لا تعطي فرصة للنجاة، يصطدم الطائر بالطائرة، أحس بالضربة الشديدة على جسم الطائرة، أخطر الإصابات تكون في كابينة الطيار، فقد تفقد الطيار وعيه، كانت الضربة في المحرك، بدأت صعودي مباشرة وأعلنت حالة الطوارئ، وسحبت قوة المحرك إلى أقل حد قبل إطفائه، لكن عداد الحرارة في تصاعد مما يعني احتمال حدوث حريق، الكتب تنصّ على إطفاء المحرك، أطفأت المحرك واتجهت إلى المطار مباشرة مستعيناً بالمحرك الآخر. حمداً لله لها أن للطائرة محركان. اتجهت إلى القاعدة وعيني على العدادات خوفاً من الحريق أو انطفاء المحرك الثاني.

هبطت الطائرة بسلام، بعد أخذها إلى حظيرة الطائرات شاهدت

الضرر في المحرك وجسم الطائرة وكأنها عائدة من معركة، طائر كبير وسرعة عالية، أحسست بتأنيب الضمير لطيراني أقل من الحد الأدنى ومخالفة التعليمات.

تذكرت مرة ثانية أن التعليمات كتبت بالدماء. تألمت لذلك الطائر الذي لا ذنب له سوى أنه كان في المكان والوقت غير المناسبين.

مرّ عليّ في إحدى الليالي زميل عزيز، كثيراً ما يقضي عندي بعض الوقت بعد صلاة العشاء، نشرب القهوة ونتحدث في شؤون الحياة.

كان الزميل على غير عادته في تلك الليلة، متحفزاً للحديث قال لي: لقد كنت في جولة في القاعدة، ذهبت إلى أكثر من مكان، كنت وحيداً، وقد قررت أن أتزوج، أريدها أن تكون معي في كل مكان، أريد أن آخذها إلى المطاعم الراقية، ونذهب معاً في الليالي المقمرة إلى شواطئ العزيزية ونصف القمر، نجلس قبالة البحر نفتش الرمال ونسامر النجوم، أريد أن أرى أمواج الخليج تداعب أقدامنا، تأتي الأمواج مسرعة فنهرب منها مسرعين ونعود بنفس السرعة التي تعود بها، وبعض الأمواج تبقى معنا وتنام على الرمال، أريد أن أسمع قهقهاتها العالية والماء يدغدغ أقدامها العارية، أريد أن أقول فيها شعراً واحتضنها على ضوء القمر، مللت من العيش وحيداً.

في الصباح كان هذا الزميل في طائرته في رحلة تدريبية بصحبة المدرس، سقطت طائرتهما قبالة شواطئ نصف القمر، واحتضنته مياهها الضحلة وحيداً، ومعه دفنت أحلامه الكبيرة، كان المدرب يقوم بحركات بهلوانية على ارتفاع منخفض (قانون مورفي مرة أخرى: إذا كان هناك مجال للخطأ فسيحدث).

أهم خطوة في الحياة

مللت حياة الوحدة، ورغم كثرة المهمات، فقد اختاروني مسؤولاً عن سكن وإعاشة زملائي، إضافة لعملي طياراً في السّرب، أجمع الإيجار الرمزي أشترى الشاي والقهوة والمنظفات والجرائد والمجلات، أحياناً تختفي الأكواب فأجدها في غرفة أحدهم وقد بعثرت في كل مكان.

من الصعب أن تحوز رضا الجميع في الإعاشة، فساكن الصحراء لا يحب الأسماك، بعكس أبناء البحر، الذين يريدونها على الأقل مرتين في الأسبوع، لا يوجد أي نشاط ثقافي، فالفراغ يتكفل به البحر والأسواق والسينما في أرامكو.

يبدو أن الابتعاث إلى أمريكا قريب فقد غادر كثير من الضباط إلى هناك.

لا أريد أن أكون وحيداً في الغربية، وقد حان الوقت لأبدأ مشواري الجديد مع من ستكون رفيقتي لما بقي لي من أعوام، أريد من تقاسمني الهموم والأفراح، أريد من تعنتني بي وأعتني بها في قادم الأيام، أريدها جميلة، والأهم من ذلك مخلصّة وذكيّة وخلوقة. سأستثمر فيها الكثير من الحب والوقت والجهد، ستكون نصفي الثاني ومستودع أسرارتي، ستربي أبنائي وبناتي، عليّ أن أحسن الاختيار، لكن كيف أعرف عن زوجة المستقبل كل شيء

والفصل بين الجنسين بهذه الشدة؟ لا أريد جسماً يمر من أمامي، أهم ما أريد معرفته، علاقة الأسرة بعضها ببعض، وألا يكون العنف هو الوسيلة المستخدمة للتربية، فاقد الشيء لا يعطيه، أريد فتاة طموحة وذكية، فالأبناء نتاج ما يرثونه ويتعلمونه من والديهم، أريدها متعلمة، ولديها الاستعداد لتعلم المزيد.

ذهبت إلى والدتي أستأذنها في الزواج وأخذ رأيها في من وقع عليها اختياري، إنها ابنة عمي التي عشت معها سنوات كثيرة وعرفتها جيداً، أعرف جيداً أمها التي يضرب بها المثل في احترام زوجها وتهيئة الجو المناسب له، وحرصها على تربية أبنائها تربية سليمة، أما والدها فمعروف بعصاميته وحسن أخلاقه وكرمه.

فاتحت والدتي في الموضوع، فرحبت وباركت الاختيار وشكرتني على استشارتها، ووعدت بتهيئة غرفة مستقلة لنا بعد الزواج.

عدت إلى عمي في الرياض، وبعد صلاة الجمعة أمسكت بيده وطلبت منه يد ابنته الغالية، تلثم العم برهة ثم أجاب: لن أجد أفضل من ابن أخي لكن هناك شرطاً واحداً:
- أن تكمل تعليمها.

- دعك من هذه الشروط، أنا الذي يهمني تعليمها، كل زواج يبدأ بشرط يعني عدم الثقة وبداية الإخفاق.

- على بركة الله. متى تريد الزواج؟

- لدي سفر إلى الولايات المتحدة بعد ثلاثة أشهر وأريد الزواج قبله.

- بعد ثلاثة أسابيع إن شاء الله.

كان زواجاً عائلياً، المُلَكة بعد صلاة المغرب من يوم الزواج، وكل شيء تم في البيت، المدعوون من النساء والرجال أكلوا ورقصوا وغادروا، أما أنا فبقيت عند حبيبتي حتى الصباح.

أمضينا جزءاً من شهر العسل في ربوع الغاط الجميلة، نسير في الصباح بين نخيلها، وفي المساء فوق رمالها الذهبية، استمتعنا بأوقات جميلة معاً إلى حدّ أننا وضعنا الأساس لأول مولود، لم تستمتع زوجتي بشهر العسل كما استمتعت أنا، فحياتها كلها في الرياض، استمتعت بوقتي مع زملائي القدامى، أما هي فزميلاتها في الرياض، لكنني وعدتها بشهر عسل يمتد عاماً في الولايات المتحدة.

عدت من الظهران لإنهاء إجراءات السفر والحصول على التأشيرات المطلوبة، إلا أن زوجتي أكدت لي وجود الحمل وخوفها من الغربة وحيدة، بعيدة عن أمها التي ستقلق عليها.

أقنعتها بالسفر إلى الولايات المتحدة، وأشارت عليها أن تبقي خبر الحمل سرّاً خاصة عن والدتها.

قلت لها: رأيت هناك أشياء جميلة أريدك أن تشاركوني في التمتع بها، الناس هناك يعشقون الحياة ويقدرّون الجمال، ولا يتذمرون من العمل، ويحترمون النظام، نريد أن نتعلّم معاً ونريد صوراً وذكريات نستعيدّها بعد سنوات ونرويها لأبنائنا في بعض المناسبات، أريد أن أرى مولودنا عندما يخرج للحياة، الاستثمار الحقيقي فيك وفي الأبناء وليس في المال.

أمضينا أسبوعاً في لندن بصحبة زميل وزوجته، كانت مختلفة تماماً عن توقفي الأول مع زملائي العزاب، اشترت خارطة عليها

معالم لندن الشهيرة، ووضعت جدولاً لرؤية أهم معالمها، ذهبنا لرؤية المتاحف واستمتعنا كثيراً بزيارة المتحف القومي في ميدان (الطرف الأغر) و(مدام توسو) للشمع الذي يضم تماثيل من الشمع للشخصيات المرموقة، صورنا مع المشاهير، هل علم هؤلاء كيف سيحكم عليهم التاريخ؟ كان من بينهم القائد الناجح والدكتاتور والكاتب والمخترع والفيلسوف، (ابداً والنهية ماثلة أمامك)، واحدة من العادات السبع للناجحين في كتاب (ستيفن كوفي) المشهور. لو تصور كل إنسان نهايته فهل ستكون النتيجة هكذا؟ في أحسن الأحوال ستكون هيكلًا من الشمع يتفرج عليك السياح، أما ما تترك من أثر طيب فسيبقى ويتنفع به الناس.

أكثر ما أعجبنا حدائقها الملكية الخمس المفتوحة للجمهور (هايد بارك، وريجنت بارك وسان جيمس وغرين بارك وكنسينغتون)، رثة لندن، تلك المدينة الصاخبة. السيارات تفتت السموم والحدائق تنقيها، رأيت الناس تستمتع بوقتها دون قيود أو ضغوط أو معاكسات، رجل وامرأة يمارسان الرياضة، في حديقة (الهايد بارك) رأيت المساحات الواسعة والأشجار الكبيرة والمياه وما حولها من طيور ومناظر خلابة، زرنا ركن الخطباء، استمعنا إلى بعضهم، لكنها أحاديث مملة، معظمها يخوض في الدين والسياسة.

ذهبنا إلى حديقة (ريجنت بارك)، هناك عشرات الأحواض من الورود التي تحمل شتى الألوان والأشكال وكتبت أسماء الورود أمام الأحواض. تستقبل قبلات المطر صباح مساء، أعجبنا منظر البط يلتقط الحب من أيدي الصغار، أمام أحد الشلالات يجلس

أحدهم وييده كتاب وحوله الأشجار، اختار مكاناً يصعد إليه بدرجات .

ما أجمل الحرية التي تؤتي ثماراً من الحب والعمل والإبداع! ما أسوأ أن تحاط بالحزن والريبة من صنع يدك! ما أسوأ أن تحاك حياتك على مقاس الآخرين! أن تلبس في كل مجلس ومناسبة قناعاً!

رحم الله من ترك للأجيال معالم مثل تلك الحداثق . لم يفره الطمع وقصر النظر لتحويلها إلى مساكن وشوارع وأرصدة تضيق بها المصارف، ها هم الأبناء والأحفاد يجنون ما زرع آباؤهم . داخل تلك الحداثق تنسى أنك وسط مدينة يخنقها التلوث من كل الاتجاهات، هناك أكثر من ثمانين حديقة أخرى داخل منطقة وسط لندن .

ذهبنا إلى مكتبة (فوي) ذات الأدوار الستة . دخلتها ضاحكاً، سألتني زوجتي متعجبة من ضحكي أجبت: تذكرت تلك المكتبة في (دخنه) التي لم يكتب لها النجاح، وكيف تحولت إلى محل لخياطة الثياب، بدلاً من مكان تتلاقح فيه عقول الشباب .

في ربوع الولايات المتحدة

على ضفة نهر (البوتوماك) تنام مدينة واشنطن العاصمة، أولى محطاتنا في الولايات المتحدة. تذكرت مقولة (توماس جيفرسون) عندما وقف عند ملتقى النهرين (البوتوماك وشيناندواه) وقال: هذا المنظر وحده يستحق عناء عبور المحيط.

سميت واشنطن بهذا الاسم تخليداً لأول رئيس للولايات المتحدة، هذا الرئيس الذي رفض اقتراحاً بالتمديد له لولاية ثالثة بدعوى أن الأوضاع لم تستقر بعد، فقال: لو كسرت القانون وبقيت لولاية ثالثة، فلن يصبح للقانون قيمة بعدي وسيتجاوزه الآخرون. ولهذا الرجل فضل كبير على الولايات المتحدة ودستورها الذي ينص على استقلال السلطات الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية ما أمكن ذلك، فقد كان من أكثر المتحمسين لهذا البند، ودعم السلطة الرابعة، الصحافة التي تعد صمام الأمان ضد أي تجاوز أو فساد.

تعج هذه المدينة التي أحسن تخطيطها بالمتاحف والمباني الحكومية والنصب التذكارية والمكتبات والحدائق والمسارح التي يقصدها السياح من جميع أنحاء الولايات المتحدة. ومعظم سكانها من السود وموظفي الحكومة الفيدرالية. تكثر فيها الجريمة نتيجة المخدرات وتجارة الجنس والسرقات، ويركز الإعلام على كل ما يقع فيها من حوادث ومخالفات.

المحطة الأخيرة مدينة (سان أنطونيو) تلك المدينة التي انتقلت من إسبانيا إلى المكسيك ثم إلى الولايات المتحدة، أكثر سكانها يتحدثون اللغة الإسبانية، ويتحدرون من أصول إسبانية، تكثر بها المنشآت العسكرية من قواعد ومنشآت صحية ومراكز أبحاث.

البحث عن سكن وسيارة ليس مشكلة ما دمت تمتلك المعرفة والمال، من أهم الفوائد التي يكتسبها الذهاب إلى الولايات المتحدة معرفة النظام وتطبيقه، انتظمتنا الأربعة، أنا وزوجتي وزميلي وزوجته في دورة ينظمها المستشفى عن الحمل والولادة والعناية بالحامل ووليدها أثناء الحمل وفي ما بعد، كانت العناية فائقة والزيارات منتظمة إلى مستشفى (ولفرد هول) الشهير داخل قاعدة (لاكلاوند) الجوية.

انتقلنا إلى قاعدة (راندولف) الجوية التي تؤهل الطيارين ليصبحوا مدرسي طيران، كنا أربعة من السعوديين والبقية من الأمريكيين، اثنان منهم عادا للتو من الأسر في فيتنام، أحدهما برتبة عقيد والآخر برتبة رائد. كان التنافس شديداً والمعنويات عالية، يقول أحد المدرسين: قبل وصولكم حذرنا المسؤولين عن الأجانب من كثرة غيابكم، لكن دُهشنا عندما لم يتأخر واحد منكم ولو لمرة واحدة، بينما تأخر بعض طلبتنا من الأمريكيين، لقد غيرتم النظرة المأخوذة عن الأجانب.

عندما يكون الاختيار والإعداد جيداً، تكون النتائج مشرفة. أسوأ شيء عندما يرسل إلى تلك البلاد من لا يهمه مصلحة نفسه ولا مصلحة بلده، إما لصغر سنه أو لسوء تربيته ونقص إعداده، يرتكب الكثير من حماقات بحق نفسه ودينه وبلده، أفضل من

يبتعث إلى هناك شركة أرامكو العملاقة، تختار بشكل جيد، وتعد بشكل أفضل، ثم تتابع عن كثب، خاصة التحصيل العلمي، وبعد عدد من الإنذارات يفصل المقصّر. لذا فالفرق واضح بين مبتعثيهم ومبتعثي الجهات الأخرى من حيث التحصيل والسلوك، لدى هذه الشركة العملاقة الناجحة تجارب وممارسات كثيرة يمكن أن يستفاد منها في أكثر من ميدان.

* * *

ضاق الطفل بمخبئه وأراد الخروج، أخذت المسكينة تصرخ، تذكرت ما تعلمته من تلك الدورة في المستشفى، هناك طلق كاذب، وهناك طلق صادق، أخذت أحسب الوقت بين حدوثهما فوجدته ثابتاً، لا بد أنه الطلق الصادق، أخذت السماعه وهاتفت المستشفى، رد المناوب، شرحت له كل شيء ومع هذا قال: أحضرها غداً في الصباح، بعد نصف ساعة زادت الآلام، اتصلت بالمستشفى ثانية رد عليّ الشخص نفسه، قال لي: أحضرها بسرعة، كنت مخطئاً في المرة الأولى ولم آخذ رقم هاتفك.

المستشفى على بعد ثلاثين ميلاً والسرعة حددت بعد أزمة نقص إمدادات البترول عام ثلاثة وسبعين وتسعمائة وألف بخمسة وخمسين ميلاً. تجاوزت السرعة بكثير، لا أريد طفلاً على الطريق السريع، أوقفني ضابط المرور، شرحت له الأمر فطلب مني أن أسير خلفه وأشعل أنواره واتجهنا معاً إلى المستشفى.

أدخلوها مباشرة إلى غرفة الولادة، وخيّرني بين الانتظار أو الدخول معها، بقيت إلى جانبها ممسكاً يدها حتى خرج الطفل يصرخ، معلناً استعدادده لخوض معترك الحياة.

هاتفت أهل زوجتي في الرياض، الهاتف عند جيرانهم وقد حصلوا عليه بالواسطة. لهم ابن يعمل في الإذاعة ويعرف الناس المؤثرين، أما من لا يعرف أحداً فعليه أن ينتظر سنوات ليحصل على الهاتف الثابت، ركض الجيران ودعوا الأب والأم اللذين تلقيا الخبر بمزيج من الفرح والخوف. لم يعلما أن ابنتهم حامل أصلاً، بعد أسابيع وصلتهم الرسالة وفيها صور المولود تحمله أمه.

* * *

عادت من المملكة الأمريكية التي تعرفت عليها في رحلتي الأولى إلى أمريكا، ازدادت ضعفاً وتقادم المرض كثيراً، لكنها لا تزال بكامل نشاطها وحبها للخير، تعرفت على زوجتي وصارت مستشارتها في كثير من الأمور الخاصة بالنساء. أحضرت لها ملابس ولدها القديمة الذي مضى على ولادته عشر سنوات، وأحضرت حفائظ القماش التي كانت تستخدمها لأبنائها الثلاثة، شكرتها زوجتي لكنها استخدمت ما أحضرته تلك المرأة لتنظيف الزجاج.

حضر إلى الولايات المتحدة أحد المبتعثين وزوجته من المملكة، قابلتهما صدفة وقد وصلا للتو، لا يعرفان أين سيسكنان ولا كيف سيتدبران أمورهما، أخذتهما إلى سكن مناسب، وأمضيت وقتاً أبحث لهما عن سيارة مناسبة، نشأت صداقة بين الأسرتين الصغيرتين، استمرت الاتصالات حتى بعد انتقالنا إلى قاعدة ثانية قريبة، زارنا مع زوجته في نهاية الأسبوع، أخذته وزميلي إلى نادي الضباط، في نهاية الأسبوع يمتلئ النادي بالضباط، متزوجين وعزّاباً، يشربون ويرقصون، ومنهم من يمضي وقته في لعبة البلياردو.

بعد العودة إلى البيت حدّث الضيف زوجته وشرح لها كل شيء بالتفصيل الممل، وزاد من عنده ليثبت لها حسن سلوكه مقارنة بالآخرين.

لم يكن من عاداتهم زيارتنا كل أسبوع، هذه المرة أصرت زوجته على الزيارة وذكرت أن دافعها الشوق والوله.

قمت بواجب الضيافة وأخذتهم جميعاً إلى منتزه جميل داخل القاعدة يطل على بحيرة صغيرة، أجيد شَيّ اللحم وتجيد زوجة الضيف نقل المعلومة وزيادتها وتنهي كل حكاية بِقَسَم أن كل ما قالته صحيح، أسألهم: كيف تريدون اللحم؟ نصف استواء أم استواء كاملاً؟ يجيب زوجها أما هي فمشغولة بالأهم، هناك معلومة لا بد من إيصالها وانتظار نتائجها في ما بعد.

ذهب الضيف وزوجته إلى بيتهما بعد أن أديا مهمتهم على خير وجه، ألاحظ التجهم على جبين حبيبتى على غير عاداتها، ما لهذا الحزن يزورنا بعد يوم جميل؟

قصت عليّ ما قالته تلك المرأة، وأردفت أعرفك وأثق بما تعمل، لكن تلك المرأة عملت جاهدة لتزرع الشك، شيء واحد أريده: ألا نراها بعد اليوم.

اتق شر من أحسنت إليه، أحسست في حلقي بمرارة تشبه طعم الألم.

تعطلت سيارتي، أوقفتها عند أول ورشة إصلاح، وطلب منى صاحب الورشة تسعين دولاراً لإصلاحها عدا قطع الغيار، الشهر في نهايته وليس لدي هذا المبلغ، ذكرت ذلك لزميلي الرائد الذي عاد لتوه من الأسر في فيتنام، أجاب: سأصلحها أنا وأنت غداً،

ذهبنا في الصباح وأحضرناها إلى ورشة داخل القاعدة الجوية، تسمى ورشة الهوايات، كل يقوم بإصلاح سيارته وما على صاحب السيارة سوى دفع قيمة بسيطة مقابل استخدام المعدات. يوجد متخصصون للاستشارة، لكن لا يؤدون العمل، العمل يقوم به صاحب السيارة.

بجانبا في الورشة ضابط كبير برتبة فريق، عليه ملابس الطيران يصلح سيارته الرياضية، يعامل هذا الضابط الكبير في هذا المكان كما يعامل غيره، لا نفاق ولا تقرب ولا محاباة، على الجانب الآخر ضابط شاب يحاول إصلاح سيارته وزوجته الشقراء تراقبه وتنتظر.

أنهينا إصلاح السيارة التي لم تكلف سوى خمسة دولارات، منها أربعة دولارات لقطع الغيار ودولار مقابل استخدام المعدات، علينا تنظيف المكان وتسليمه كما كان، شكرت زميلي الرائد الشهم كثيراً وطلبت منه أن يختار المطعم المناسب للغداء، اعتذر، ومع إصراري اختار (ماكدونالدز) تناولنا غداء غير مكلف، شكرته وظللت أتذكر وجهه البشوش كأغنية قديمة.

لا يمارس الطيران الليلي في قاعدة (راندولف) بسبب كثرة الخفافيش في الليل. تخرج بأعداد هائلة عند حلول الظلام وتشكل خطراً على الطيران. سألتهم:

- ألا تستطيعون القضاء عليها؟

- بلى وبكل سهولة، لقد كلفنا الجامعة المختصة بدراسة المشكلة، ووجدوا أن ملايين الخفافيش تسكن في مغارة قريبة من القاعدة، ومن السهولة القضاء عليها في تلك المغارة.

- لِمَ لَمْ تقضوا عليها إذن؟

– وجدوا من دراستهم أنه في كل ليلة تخرج الخفافيش من مغارتها، وتنتشر في هذه المنطقة، تأكل من خمسة إلى عشرة أطنان من الحشرات. ألا ترى أننا نعيش في بيئة متوازنة.

ساق محدثي مثلاً آخر ليثبت نظريته قال: اشتكى الفلاحون من أكل الصقور والبوم لصغار الأرناب والدواجن، فشنوا حملة شارك فيها معظم سكان القرية، دفعوا دولاراً لمن يصطاد صقراً أو بوماً، قضوا على أعداد كبيرة منها فماذا كانت النتيجة؟ لقد كثرت أرنابهم ودواجنهم ولكن كثرت القوارض أيضاً وأتلفت محاصيلهم، فتخلوا عن محاربة الصقور والبوم وتمنوا تكاثرها.

كان محدثي من أنصار المحافظة على البيئة، يحضر كل يوم إلى العمل راكباً دراجته الهوائية، يقول: أتريض وأحافظ على البيئة، أترك السيارة لزوجتي لتأخذ الأبناء إلى المدرسة.

كان قرار الإبقاء على الخفافيش مدروساً بطريقة علمية لذا اتخذنا القرار الصائب وتركنا الطيران للخفافيش لتفتش عن الحشرات، أما طيارونا فلديهم فرصة الطيران في مكان آخر.

في دول العالم الثالث تتخذ القرارات بناءً على مصالح شخصية أو اقتصادية دون النظر إلى أضرارها البيئية، فلا دراسات عن تأثيراتها المستقبلية، وأحياناً يقضى على الغابات وتشوه الشواطئ، وتلوث البحار نتيجة الطمع والحلول المرتجلة السريعة.

انتهت دورة مدرسي الطيران بنجاح تعلمت خلالها أموراً أساسية، من أهمها أن التدريب الجيد هو الأساس لقوات جوية محترفة، لا تجامل على حساب أحد، لا تسمح لمن لديك شك في قدرته على النجاح بالتجاوز، فالطيران مقدرة، والضعيف سيرافقه

الضعف كظله ما بقي في هذا المجال، وقد يكون سبباً في هلاكه وهلاك غيره. تذكر أن الطالب الممتاز هو من قد يقتلك لأنك تثق به ولا تراقبه بشكل لصيق، أحبب عملك تستمتع به وتبدع وإلا صار عبثاً وحملأً ثقيلأً، ستقضي الساعات الطويلة داخل السرب، ولكن تذكر أنها ضريبة النجاح ورد جميل الوطن. استمتعك بعملك وممارسة الرياضة علاج لكثير من الضغوط والأمراض.

الدورة الثانية في قاعدة (وليمز) في (فينيكس أريزونا) القاعدة أقفلت في ما بعد وأعيدت ملكيتها لبلدية المدينة التي استثمرتها بتأجيرها للقطاع الخاص الصناعي الذي له علاقة بالقوات الجوية، أما المدينة فواحدة من أسرع المدن نمواً وجذباً للسياحة. تقع على أرض منبسطة تحيط بها الجبال المنخفضة، تسمى بعض طرقها المؤدية إلى القاعدة بأسماء الهنود الحمر، تحيط بها البساتين الكثيرة التي تزرع بها الحمضيات وتباع بأسعار زهيدة.

تعرفنا على جارنا الجديد وزوجته وابنتيه، من بلاد حاتم الطائي، الزوج يجيد العزف على العود والربابة، والزوجة غير متعلمة، لكنها تجيد الطبخ وتقرأ في تعابير وجهها الطيبة وحسن الخلق والمحبة، تلك الليلة سهرنا عند جارنا ابن عم حاتم، وجادت قريحة مضيفنا بالشعر المغنى على العود والربابة. وأجادت زوجته طبخ الأطباق الشعبية، فكانت ليلة عائلية ممتازة. كنت ومضيفي نتحدث اللغة العربية الفصحى، لم تعند زوجة المضيف على هذه الكلمات، سألته: لماذا تمظون كلامكم هكذا؟

أجابها بكل برودة: هذه لغتنا يا حمقاء. سكتت المسكينة ولم تجب، لم تكن حمقاء، كانت عاقلة.

في الصباح ذهبنا جميعاً ومعنا أطفالنا في رحلة صيد كانت حصيلتها أرنبه مسكينة، كبيرة الجسم والسن. أكلتها وزميلي، أما البقية فقد طلبوا التوقف عند أول مطعم وجبات سريعة.

الصيد في الولايات المتحدة منظم وتحدد مواسمه، وعدد ما يصطاد ونوعه، فلا يصيد الإنسان لمجرد المتعة ولا يصيد الأنثى، لا بد أن يرى قرني الغزال قبل صيده، لم أستمتع بالصيد، وكانت المرة الأولى والأخيرة.

يتوسط السكن ناد يستخدم للمناسبات، ويطل على مسبح جميل، كاد أحد أطفال زملاء أن يغرق فيه لولا تصرف المديرية وقفزها بملابسها وإنقاذه.

الصغير يكبر ويزداد شقاوة، يسقط مرتين واحدة من السيارة وهي متوقفة، والثانية من عربة التسوق وفي كلتا الحالتين لم يصب بأذى لكنه كان درساً قاسياً لوالديه.

رأيت أحد الزملاء يصلح أسنانه، فقررت إصلاح أسناني التي لم يتعامل معها الطبيب في حياتي سوى مرة واحدة، حين أجبرني الألم على زيارة الطبيب، كان ذلك في المرحلة الثانوية، طلبت من الطبيب أن يخلع السن ويريحني منها، حاول الطبيب معالجة السن لكنني اتخذت قراراً بخلعها.

تعد أمريكا من أفضل الأماكن للعناية بالأسنان، لكنها مكلفة جداً وشكرت الله أن العلاج لم يكن على حسابي الخاص، دفعت تكاليفه السفارة بكل رحابة صدر.

تعرفت على طالبين من المملكة لا يتجاوز عمر كل منهما ثمانية

عشر عاماً، يبدو أن أحدهما من أسرة ميسورة، دعوتهما إلى بيتي وذهبت معهما إلى بيتهما، صغار السن يشكلون فرصاً لا تعوض للنصابين.

لاحظت أنه يزورهما شخص عربي متزوج من سيدة أمريكية، يبقى عندهما طويلاً ويستخدم الهاتف بكثرة خاصة في غياب أحدهما، ذهبوا جميعاً لشراء سيارة لأحدهما بقيمة لا تقل عن ستة آلاف دولار، أقنع هذا الشخص المشتري أن تكون السيارة باسمه حتى يخفف على المشتري أعباء التأمين الباهظة لصغر سن المشتري.

وافق الشاب، إلا أن تدخلني كشف اللعبة وأفسد الصفقة، مما أغضب النصاب وسبب القطيعة.

أمسكت بالطالبيين وحذرتهم من الثقة الزائدة بالآخرين، ونصحتهم بمراجعة البنك في أمورهما المالية.

المهمة في نهايتها ولا بد من وداع عام جميل أثمر عن تجارب ثرية ومعلومات قيمة خاصة في مجال الطيران، والحق أن من يريد أن يتعلم ويستفيد سيجد المكان والإمكانات المناسبة. المدربون من أفضل من يقوم بالمهمة، معظمهم من الشباب برتبة نقيب ورائد، تملأهم الحماسة ويقضون الساعات الطوال داخل الأسراب، يطبرون ويحاضرون ويكتبون التقارير. لديهم تنافس عجيب وتعاون منقطع النظير وإحساس كبير بالمسؤولية، لكن لديهم أيضاً مفاهيم خاطئة عن الحياة، فهم يروجون في ما بينهم أن الطيارين المقاتلين لديهم صفات مشتركة: قيادة سيارة رياضية وشرب الكحول وتدخين السيجار ومطاردة البنات. ومنهم من

صدقها وصارت بعضاً من قيمه . حبذا لو استعاضوا عنها بصفات أفضل مثل مكافحة التدخين وممارسة الرياضة وبناء العقول والأجسام ومساعدة الآخرين، لكنها الحياة وأسرارها التي لا يوجد لبعضها تفسير .

وضعت إعلاناً صغيراً في لوحة إعلانات السرب عن عزمي على بيع السيارة، كانت صغيرة واقتصادية، لم أفاجأ بطلبها من قبل أحد المدربين بقيمة مجزية .

عودة إلى الأهل

هذه المرة لست في عجلة من أمري بالعودة مباشرة، قررت وزميل لي مع أسرتنا أن نتوقف في سوريا لمدة أسبوع، بلد جميل يعبق بروائح التاريخ.

ها هو الجامع الأموي بمحرابه ومناراته وأروقته وأعمدته الصامدة، هل في المصلّى أو المحراب مروان؟

سلّمت على دمشق وأهلها، سلام من صبا بردى أرق، وسألت عن الغوطة، قلت لدليلي: أريد أن أرى الغوطة والدنيا غروب.

قال لي أشياء لا أعرفها كالعصافير تناءى ونؤوب ذهبت إلى الناس الطيبين في سوق الحميدية وإلى بائع الحلوى القريب من الفندق. هؤلاء هم أهلي يتحدثون لغتي وأتحدث لغتهم، تناولنا طعام الغداء في مقهى بجانب جنة ملتفة في الزبداني، شربنا من مياه النبع الباردة، ومساء لا يعوّض في قاسيون حيث الجمال يناديك من كلّ جانب.

كيف آتي إلى سوريا ولا أرى المعرّة التي ولد فيها الشاعر والمفكر أبو العلاء المعريّ، إنها معرّة النعمان، تلك المدينة الشامية الجميلة، التي تضمّ قبر ذلك النابغة الذي أعمل فكره وقلّب بصره وحلّل كل ما سمع تحليلاً عقلياً بعيداً عن الدروشة أو التزمت وأكاذيب المتاجرين بمصائب البسطاء، كره الصراع بين الأديان

والصراع داخل الدين الواحد، خصص حيزاً من شعره للرد على المذاهب المختلفة التي زرعت الفتنة بين المسلمين، جادل المعتزلة في ما يقولون عن خلود أهل الذنوب في النار، وانتقد الصوفية لاهتمامهم بالمظاهر وانتقد الشيعة لانتظارهم إماماً غائباً لن يأتي أبداً، وقال عن المذاهب جميعاً:

إنما هذه المذاهب أسباب لجذب الدنيا إلى الرؤساء...

لم يوافقني الباقون على الذهاب إلى هناك، فأخذت سيارة أجرة وقضيت بعض نهاري في المعرة، وزرت القبر الذي عاد بي إلى الورااء عشرة قرون، اعتذرت للسائق عن تأخري في المعرة فضحك وقال: لو بقيت أياماً لبقيت معك مثل هذا العمل يستحق عناء الانتظار.

أزعجني كثيراً الفارق الكبير في المعاملات المالية، بين المصارف في سوريا ومثيلاتها في الغرب. ذهبت لأصرف شيكات سياحية في المصرف، المكان الوحيد لصرفها، قضيت أربع ساعات، كلما وصلت أمين الصندوق بعد وقوف طويل مزدحم طلب مني إكمال النواقص، طلب مني في المرة الأولى كتابة معروض، وفي المرة الثانية توقيع المدير، وفي المرة الثالثة وضع طوابع، ذهبت إلى المدير هذه المرة وشرحت له معاناتي وتنازلي عن إكمال المهمة، أجلسني المدير وأرسل من يكمل الإجراءات الطويلة لشيك سياحي من المفروض أن يصرف في الفنادق والمتاجر.

لماذا أيها الموظف؟ وما أنت إلا صورة من ملايين موظفينا في هذا العالم البائس، لماذا لا تجود بطلباتك التي جاوزها الزمن دفعة واحدة؟ تتلذذ في تعذيبي، وكأنني أستجديك قوت يومك، مع

أنه لولا الزبائن لما كان لوجودك داع، تخاطبني وكأنني طارق لبابك في يوم إجازتك الأسبوعية، لست وحدك من يظن أنه صاحب الحق في سوء معاملة الآخرين، فمثلك من يتربص بالمساكين في الوزارات والمدارس والمستشفيات وغيرها، ناسياً أنه سيعامل بالمثل في مكان آخر.

ليت كل موظف في دول العالم الثالث تتاح له فرصة زيارة دولة من الدول (الاسكندنافية) ليعرف قيمة الإنسان، هناك يركب رئيس الوزراء بجانبك في القطار أو يقف خلفك ينتظر دوره للحصول على بطاقة دخول إلى دار سينما.

من يستثمر القروض؟

البنك العقاري يقدم القروض لبناء المساكن، والبنك الزراعي يقدم القروض للمزارعين، وصوامع الغلال تشتري محصول القمح بأربعة أضعاف سعره في الخارج. الكيلو بثلاثة ريالات ونصف، البنك العقاري يشمل الجميع رجالاً ونساء، هناك من تزوج بأربع ليستفيد من القروض، وبعضهم لا ينوي السداد.

لدي أرض في بلدي تنازلت عنها لوالدي حتى تتمكن من بناء بيت بدلاً من بيت الطين، لكن البنك العقاري يقفل أبوابه لكثرة التجاوزات، ما خصص لسنوات استنزف في عام.

فتح البنك أبوابه بعد عام، ولكن بشروط ومبالغ مختلفة، لا يحق للنساء الاقتراض إلا بشروط صعبة، خفضت مبالغ القروض للمدن الصغيرة، لن تستفيد والدي، ما العمل وقد شرعت في البناء؟ سأكملة بلا قرض من البنك.

كثير من موظفي الدولة تركوا وظائفهم، إما لفتح مكاتب عقار، أو لفتح مؤسسات للبناء والأعمال الأخرى الكثيرة، كثير منهم كان مصيره الإخفاق لعدم وجود الخبرة وسوء الإدارة ورداءة العمالة.

لدي مزرعة وأريد أن أستفيد من القروض، أفضل أنواع النخيل في الأحساء، أخذت سيارة كبيرة وتوصية من أحد المزارعين لصديق له في الأحساء، قرأ الفلاح الرسالة وسألني: ماذا تريد؟

– أريد أجود أنواع النخيل، أريد نوعاً واحداً فقط.

– لا بد أنك تريده من نوع (الخلاص)، ليس لدي شيء لكن دعني أسأل جاري أبا فلان.

سأل جاره فقال: عندي ما تريد، تعال بعد غد، وسيكون كل شيء جاهزاً إن شاء الله.

ذهبت إلى أحد الفنادق وسط البلد ونمت تلك الليلة.

لم أكن مطمئناً لما قاله ذلك الفلاح. لم لا أذهب وأخذ رأي رئيس المحاكم الذي تربطني به صلة رحم؟

هافتته فردت زوجته الطيبة، وأصرت على حضوري في الحال ووصفت لي الطريق إلى البيت، وقالت: سنتظرك على الغداء، لا تتأخر الشيخ في طريقه إلى البيت. حضر الشيخ ورحب بي ولامني على السكن في فندق وطلب مني أن أحضر حوائجي من الفندق وقال: هنا الفندق حتى تغادر.

ذهبت مع القاضي أولاً لفلاح يقال له أبو عباس، لديه أعداد هائلة من النخيل وهو أمين وصادق في تعامله، رحب بنا وقدم لنا القهوة والرطب، سألناه عن فساتل النخيل، فاعتذر لكثرة ما باع منها لأهل الرياض.

ذهبنا إلى من قابلتهم بالأمس والتزموا بما أريد من أعداد وأنواع النخيل، بدا عليهم الارتباك حين رأوني ومعني رئيس المحاكم، أجلسونا وقاموا بواجب الضيافة، لكنهم ظلوا يدخلون ويخرجون ويتشاورون، ثم قدموا اعتذارهم: نعتذر عن عدم الوفاء، الفلاح الذي قال إن لديه الفساتل لا يعرف عن نخله شيئاً، لكن إكراماً

لحضور رئيس المحاكم سنؤمن الفسائل المناسبة من البساتين الأخرى.

أمسك بي أحدهم وقال: لم تقل لنا بالأمس إنك تعرف رئيس المحاكم.

أجبتة: ماذا كنتم ستبوعونني؟

إذا غاب الضمير والخوف من الله وأسيء فهم الدين تنتشر الممارسات الخاطئة في كل مكان ومجال، ويفرغ الدين من معانيه العظيمة، بل يصبح طقوساً وحركات تؤدي في أماكن وأوقات معينة من دون أن يكون له أثر في تهذيب سلوك الإنسان وتعامله مع الآخر، وفي زرع قيم تحث على الاستقامة وتحارب الغش والكذب.

لا بد من زراعة كل فراغ في المزرعة. لقد أصبحت زراعة القمح مجدية، لا يزال سعر الكيلو ثلاثة ريالات ونصفاً.

نقل النخيل من وسط المزرعة إلى إحدى الزوايا، وأثناء النقل مات أكثره، خسرت الكثير من المال لنقل الرمل من النفود إلى الأراضي السبخة والصفراء، بعد عامين تغيرت الحال، أصبح سعر الكيلو من القمح ريالين لا تصرف إلا بعد ثلاث أو أربع سنوات، حتى تسليم القمح للمصوامع يحتاج إلى انتظار، أصبح سعره ريالاً ونصفاً وزادت مدة الانتظار، أخيراً صار سعره ريالاً واحداً فقط.

ليست المملكة بلداً زراعياً، فلا أمطار ولا أنهار، وأجواء شديدة البرودة والحرارة. كل قرار لا تتم دراسته من قبل أهل الاختصاص ودراسة جدواه الاقتصادية بشكل خاص، مآله الفشل، النيات الحسنة لا تكفي لنجاح الخطط الكبيرة، خلو البلد من مراكز

الأبحاث الجادة يحرمها من اتخاذ القرار الصحيح في معظم الأحيان.

ندرة المياه تجعل من المستحيل قيام اقتصاد قوي يعتمد على الزراعة بطرق تقليدية، لن يروي عطشنا سوى البحر بعد مزيد من الأبحاث والصرف عليها بسخاء.

مستقبلي ليس في الزراعة، بل في القوات الجوية، عليّ أن أكثف جهودي وأن أتعلم المزيد لأعلم الآخرين.

في الظهران عملت مدرّساً طياراً وأسندت إليّ مهام أخرى كغيري من المدرسين.

عينت في قسم توحيد المعايير والإجراءات والتقييم مساعداً لزميل من أنشط الضباط، شرعنا في ترجمة الدليل الذي أصبح مرجعاً لهذا القسم على مستوى القوات الجوية.

تطوعت لتدريس الضباط الجدد، خاصة قبل مرحلة الطيران. أفضل وسيلة لفهم المادة هو تدريسها.

نداء في الظلام

رمضان على الأبواب، لا يسمح بالطيران والطيّار صائم، قانون تعلمناه في الكلية وصار الإفطار ضرورياً، وأثبتته لنا طبيب الطيران. عندما تقل نسبة السكر في المخ، يقل النشاط ويتأخر اتخاذ القرار ويرتكب الصائم أخطاء قاتلة خاصة إذا كان وحيداً في الجو بطائرته المقاتلة. لذا يغضب الناس سريعاً وتكثر حوادث الطرق في رمضان.

تحول الطيران في رمضان إلى طيران ليلي، يبدأ البرنامج بعد صلاة العشاء، لأنني وزميلي الذي صاحبني إلى أمريكا نسكن متجاورين، نأتي للعمل بسيارة واحدة. أقلعنا في رحلتين مختلفتين، طرت مع طالب، وطار زميلي بطائرة ثانية منفرداً في تدريب على الاعتراض الجوي، سارت الأمور كما خطط لها في أول تمرين للاعتراض، في التمرين الثاني اختفت طائرة زميلي من على شاشة الرادار، نادى الموجّه الأرضي الجالس أمام شاشة الرادار على زميلي ولم يجب، تكرر النداء ولكن لا جواب.

في الليل وفي الأحوال الجوية السيئة، يعدّ طيران العدادات، صمام الأمان، ومعظم الحوادث في مثل هذه الأحوال تعزى إلى أسباب لها علاقة بطيران العدادات، إما عدم تصديقها من الطيار، أو نقص التدريب عليها أو خلل بالعدادات.

أعلنت حالة الطوارئ في القاعدة وأقلعت طائرة البحث والإنقاذ، ظلت طائرة ثانية تحوم حول المكان، بحثاً عن صوت أو إشارة تدلّ على مكان الطائرة المخفية، أو الطيار، لعلّه تمكن من القفز من الطائرة، صمت رهيب، لا جواب سوى الصحراء صامتة يلفها الظلام، لا جواب على كلّ النداءات. لا يوجد دليل يبعث على الأمل بالنجاة.

هناك إشارات تلتقطها أجهزة الاستقبال عندما يقفز الطيار بكرسي النجاة، لكن هذه المرة لا توجد إشارات ولا نداء استغاثة. علمت بالحادثة بعد نزولي من الرحلة، سأكون المكلف بإبلاغ أهله ونقطة الوصول معهم.

زوجة زميلي وحيدة في بيتها، لا بد من إحضار والديها من الرياض ليكونوا إلى جانبها عند إبلاغها بالخبر السيئ إذا تأكد، بقي الجميع في السرب حتى الصباح وتأكد الخبر، خضبت دماؤه الطاهرة رمال بلاده، جاء أهله وأهلها بطائرة أمنتها القوات الجوية لهذا الغرض، كان الحزن بادياً على الجميع، خاصة أن الحادث كان من أول الحوادث على هذا النوع من الطائرات، سار أهل زميلي وأهل زوجته نحو البيت أتقدمهم لأدلّهم عليه، حالما دخلوا على المسكينة عرفت أن حادثاً مؤكداً وقع لرفيق دربها، وسمعت من بعيد صوتها الحزين، تفتطّر قلبي ودخلت بيتي وأجهشت بالبكاء.

عرفت عن قرب كيف يكون فقد الزوجة لزوجها، الزوجة والأم هما الأكثر تأثراً لفقد الزوج والابن، صرت كلما ذهبت لعزاء أسأل عن الزوجة والأم، وكيف هما؟ أصعب أيام الزوجة المفجوعة أشهر الحداد الثقيلة.

تكفل صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبد العزيز بشراء بيت للزوجة وطفليها في الرياض ليكونوا قريبين من أهلهم، ممّا خفف المصاب وأعطى معنى آخر للتكافل والتآزر.

هناك طائرات جديدة وحاجة لمدرسين. كلفوني بالسفر إلى الجنوب، للمساهمة في تأسيس سرب جديد، سافرت عن طريق البرّ ومع زوجتي وطفلي البالغ عامين، صار معي سيارة بدفع رباعي تأخذني أينما أشاء، كنت أزور الجنوب عازباً، والآن أزورها ومع عائلتي، أشرح لهما مختلف الأماكن التي نمرّ فيها.

دعاني أحد زملائي إلى متنزه جميل منبسط، تغطيه الأشجار الكبيرة وتحرسه الجبال وتجميل جوانبه الأودية، ما أكرم الضيافة وما أجمل صيف أبها، وجدت مكاني المناسب للمشي والتمتع بجمال الطبيعة الحالم، النساء على مقربة من الرجال، يأكلن ويشربن ويستمتعن بالأحاديث، على مقربة منهن يلعب الأطفال، التفتت زوجتي تبحث عن صغيرها فلم تجده، سألت الصغار فلم يجيبوا، رأت على البعد رجلاً وامرأة يركضان بعيداً، وبحاسة الأم عرفته، وبشجاعة الأم ركضت خلفهما يسبقها الصراخ، ووجدت الطفل معهما، وانتزعت من يد الراعي وعادت به مسرعة، اختفى الراعي والراعية وسرهما معهما، هل كانا يمزحان؟ أم يريدان طفلاً بأسرع وسيلة ممكنة؟ لم تكن تجربة سهلة لزوجة صغيرة تنتفض خوفاً على صغيرها، رفضت زوجتي الذهاب ثانية إلى ذلك المتنزه، وفي كلّ مرة أحاول إقناعها بقضاء الإجازة في الجنوب، تذكّرني بتلك الحادثة.

عقد شراء الطائرات مع شركة (نورثروب) تضمن التدريب والصيانة وبناء المرافق والسكن والصالات الرياضية، التدريب يشمل الطيارين والفنيين، معظم المدربين كانوا متقاعدين من القوات الجوية الأمريكية وبعضهم خدم في فيتنام، أتوا بعائلاتهم ونشأت بينهم وبين طلبتهم صداقات وزيارات متبادلة.

رأيت بعد أعوام أحد ضباط الصف المتقاعدين وكان واحداً من طلبتهم وقد أطلق لحيته الكثة وتغيرت شخصيته تماماً، كان يتهجم على الغربيين والأمريكان بشكل خاص لما يقومون به من أعمال حول العالم، ذكرته بتلك الأيام، تهللت أساريره وبدأ بالثناء على تلك الأيام وعلى مدرّسيه الذين درّبوه من نفس الجنسية التي يهاجمها، قلت له: دعك من السياسة والأدلجة، الإنسان هو الإنسان في كل مكان، كالبضاعة تماماً، فيها الجيد والرديء، فيها الأصلي والمقلّد، السياسة وجهابذتها والمؤدلجون وطموحاتهم وتجار السلاح ونهمهم، هم من يزرع الفرقة في هذا العالم الكئيب، الشمس ترسل أشعتها كل يوم دون أن تفرق بين البشر، لو شاء الله لجعلنا أمة واحدة، لكن لله في ذلك حكمة لا نحيط بها.

كان ذلك المشروع واحداً من أنجح المشاريع، أحلت من خلاله الأيدي الوطنية محل الأجنبية بكل جدارة رغم صعوبة المهمة، كان وراءها قادة مخلصون ودعم غير محدود من الحكومة ودليل واضح على أن شباب المملكة لا يقلون عن غيرهم ذكاءً وجلداً وإخلاصاً.

لابد من صنعاء

أعلنت القيادة عن طلب مدرسين لطائرات (ف5 - F5) التي وصلت حديثاً إلى اليمن الشمالي الذي خرج لتوه من حرب مع جزئه الثاني اليمن الجنوبي. كنت أول المتطوعين للذهاب إلى صنعاء: (لا بد من صنعاء وإن طال السفر) لكن لن يطول السفر والطائرات تقطع المسافة في أقل من ساعة، أفلعت من الطائف بطائرتي ذات المقعدين. في المقعد الأمامي أحد الطلبة اليمنيين.

ماذا أحدث عن صنعاء يا أبتى مليحة عاشقها السل والجرب لكن، لا لم أجد هناك لا سلاً ولا جرباً، بل أناساً طيبين أنهكتهم الحروب والانقلابات وتخزين القات، كغيرهم من العرب، يعشقون الجلوس لساعات، يتحدثون ولا يعملون، ومثلنا تماماً ينتقدون كل شيء إلا أنفسهم، يعشقون الحديث عن السياسة وصناعتها. كان ذلك في عام 1979 لم يمضِ على تولي الرئيس علي عبدالله صالح سوى أقل من عام.

لا يزال طيارو ما يسمى الاتحاد السوفياتي سابقاً بطائراتهم القديمة في الجانب الآخر من المطار، أما هذا الجانب الذي نحن فيه، فكل شيء حديث، المباني والطائرات والمدرسون وأطقم الصيانة.

أهم شيء إقامة علاقات طيبة مع الإخوة اليمنيين، لن تكون

هناك سلاسة في العمل ونجاح إلا بعلاقات جيدة وثقة، يقال: إنهم لا يحبون السعوديين. مشكلتنا في كل حياتنا أخذ ما يقوله الناس حقائق غير قابلة للنقاش، لدينا داء اسمه (التعميم) فمن السهولة أن نقول (كل أو 100%) مع أننا لم نكلف أنفسنا عناء البحث. طالما أن الثقافة مشافهة فقط، فهذا هو المنتج.

لقد وجدنا إخوة رحبوا بنا، من قائد القوات الجوية حتى أصغر جندي على البوابة الخارجية، لاحظ اليمينيون الفارق الكبير بين التدريب الشرقي والغربي، مدربو الطيران السوفيات تكاليف وجودهم قليلة، لكن إنتاجهم قليل وروحهم المعنوية هابطة، من سلب الحرية سلب الشيء الكثير، يدرّبون بعض الطلبة الذين لا يتحدثون نفس اللغة، بل يكون معهم في إيجاز ما قبل الإقلاع مترجم، أما الغربيون فمكلفون للغاية، لكنهم بروح معنوية عالية وفائدة لمن يريد أن يستفيد.

التأسيس ليس بالبساطة التي كنا نتوقعها. وجدت وزميلي أننا أمام مسؤوليات جسيمة. مسؤولان عن كل ما له علاقة بالطيران، حتى الصيانة والوقود لا بد من مراقبتهما والتأكد من توافر كل المطلوب، حتى الأجهزة الملاحية المساندة من رادار ووسائل مساندة لا بد من التأكد من عملها قبل الطيران.

أقلعت وزميلي ومع كل منا طالب يماني، في واحد من أيام صنعاء الجميلة، سماء صافية إلا من بعض السحب التي تتكئ على جبالها الشاهقة. الرحلة تمرين على الاشتباك الجوي، في منطقة التمرين بدأت تتكاثف السحب ابتعدنا عن القاعدة بحثاً عن مكان

خال من السحب يسمح بإجراء التمرين، وجدنا المكان المناسب وأجرينا التمارين المطلوبة، يؤدي المدرس التمرين مع الشرح ثم يعطي الطالب فرصة تطبيقه.

نظرت إلى الوقود فإذا هو يشير إلى وجوب العودة إلى القاعدة دون تأخير، نظرت إلى العدادات لا يوجد ما يدلنا على القاعدة، نادي مراقب الرادار لا يجيب، بدأ زميلي وهو قائد الطائرة الثانية بالنزول إلى ارتفاعات منخفضة محاولاً الطيران تحت السحب، اقترح الطالب الذي معه أنه لو رأى الجبال لعرف الطريق، صحت به والخوف يدفعني: اسحب الطائرة إلى أعلى ثم أردفت أعطني القيادة، سوف أتجاوزك من اليمين، اتبعني.

تذكرت القانون الذي طالما أنقذني أكثر من مرة: تحويل السرعة والوقود إلى ارتفاع، مع الارتفاع يقل استهلاك الوقود، ويسمك الآخرون، وتعمل أجهزة الملاحة بشكل أفضل. أخذت الاتجاه التقريبي للقاعدة، وأخذت أنادي على مراقبي الرادار ليعطونا الاتجاه المباشر للمطار لكن لا مجيب. (التاكان) وهو جهاز ملاحة ممتاز يبين المسافة والاتجاه لم يعمل ذلك اليوم. الوقود يشير إلى كمية حرجة ولا بد من إعلان حالة الطوارئ، وعدونا بتشغيل الرادار بأسرع وقت، الرادار مهم جداً خاصة في مثل هذا اليوم الذي تتكاثر فيه السحب ولا ترى سوى السماء والأفق البعيد، من يضمن سلامتنا لو قفزنا بالمظلات فوق هذه الجبال العالية؟ بدأ عداد المسافة يعمل وبدأت المسافة إلى صنعاء تتناقص بسرعة، ولاحت صنعاء الجميلة من بعيد خاصة بعد أن تجاوزنا منطقة السحب الكثيفة.

نزلنا بسلام والرادار لم يعمل، وربما أن مشغله قرر ذلك اليوم أن يبدأ (التخزين) مبكراً.

يمتاز أهل اليمن بكرم الضيافة وفي كل إجازة أعود إلى المملكة، أجد نفسي محملاً بالهدايا وخاصة من البنّ والعنب والزبيب، لكن عليّ أيضاً إحضار ما أوصى به طلبتي من أجهزة تعد رخيصة، مقارنة بأسعارها في اليمن، الحياة طريق ذو اتجاهين، عليك أن تأخذ وتعطي وإلا اختل ناموس الحياة.

اليوم هو السادس والعشرون من سبتمبر من عام 1979، عيد الثورة التي قضت على واحد من أقدم الأنظمة الملكية في المنطقة، يوم يذكّر بذاك الشاعر الثائر الزبيري القائل:

لما استهلّت على الدنيا بشاشته تلفتت أفق الدنيا تحيِّبنا
هبت به نسّمات البعث وانطلقت تهزّ كل دفين هاجع فينا
يوم من الدهر لم تصنع أشعته شمس الضحى بل صنعناه بأيدينا
قد كونه ألوف من جماجمنا وجمّعته قرون من مآسينا
القصيدة قالها الشاعر في الذكرى الأولى لاستقلال دولة باكستان الإسلامية لكنها أعجبت بعض الطلبة وصاروا يرددونها في ذكرى الثورة، وللزبيري شارع يليق بمقامه في صنعاء.

أكثر الشوارع ازدحاماً آنذاك شارع جمال عبد الناصر الذي ترتاده غزلان صنعاء الجميلات بأجسامهن القوية التي تهتز الأرض تحت أقدامهن، وترى بشاشتهن الواثقة من تحت اللثام.

كيف نأتي إلى اليمن ولا نرى مدينة تعز بجبلها الصابر(صبر).
ذهبت إليها وزميل بعد ظهر جميل، ها هو لواء (إب) بجباله

الشاهقة والطريق يتلوى في مثنائها، عند شلال جميل توقفنا للغداء عند مطعم شعبي لامرأة تقوم عليه بنفسها، لم نأكل في حياتنا ألد من ذاك الغداء الصحي المسمى في اليمن بالسَّلْتَة، مكون من الحلبة الخضراء واللحم الطازج يغمس به الخبز البلدي الذي ينضج أمامك، لم نكتفِ بطلب واحد بل كررناه أكثر من مرّة، لا يعيب هذه الوجبة سوى إفرازات الجسم في ما بعد.

ها هي مدينة (تعز) تحيطها التلال الخضراء ويحرسها جبل (صبر)، لاغرو أن وصفها ابن بطوطة بأجمل مدن اليمن وأحسنها، سحنا في تعز القديمة ورأينا آثارها باقية وخاصة مساجدها، سهرنا تلك الليلة في مطعم مقابل جبل صبر، ولم ننم إلا بعد أن أطفأ الجبل أنواره ونام، في الصباح زرنا المخا ذاك الميناء الحر وسلّمنا على أهله.

المهمة توشك على نهايتها، مضت ستة أشهر، هي المدة المعطاة لنا، جاء مدرسان من الظهران بدلاً منا، بقينا معهما ثلاثة أسابيع أطلعناهما على كل ما يحتاجانه لمواصلة المسيرة.

هاتفنا قائد القوات الجوية اليمني في يوم عودتنا لنمر عليه ونودعه، لكنه طلب منا الانتظار، حضر قائد القوات إلى خط الطيران ومعه مفاجأة، كان بصحبة رئيس الجمهورية، كان الرئيس في جولة تفقدية وعلم بسفرنا من قائد القوات وسمع ثناءه الكثير علينا، فقرر المرور على خط الطيران والتحدث معنا، قال لنا الرئيس: لا أريدكما أن تذهبا، أريدكما أن تبقيا ستة أشهر أخرى، لكن أقنعناه بأن من جاء لتكملة المهمة من أفضل المدرسين وسيواصلان المهمة كأحسن ما يكون، نظر رئيس الجمهورية إلى

قائد القوات وأمر لكل منا بوسام الواجب اليميني، ودّعنا قائد القوات وشكرناه وهمست في أذنه: سوف أراك قريباً إن شاء الله وزيراً للدفاع، وهكذا كان بعد سنوات.

عدت وزميلي إلى الظهران، بدأنا بالتدريس ثانية بعد تجربة ثرية مختلفة.

بعد ستة أشهر جاءتنا دعوة من وزارة الدفاع اليمنية لحضور حفل تخرج طلبتنا وإنهاء دورة ال (ف 5) وسافرنا إلى صنعاء، تأخر حفل التخرج أسبوعاً مما يعني مزيداً من الوقت مع الزملاء القدامى، سيكون التخرج كبيراً يشتمل على عرض جوي بطائرات ال (ف 5)، قرر أحد المدرسين السعوديين أن يقوم بالعرض الجوي المنفرد ويشمل الحركات البهلوانية. صنعاء ترتفع عن البحر بأكثر من 7000 قدم، مما يعني نقص قوة المحركات وكل حركة لا بد أن تنفذ بعناية.

رأيت زميلي في الجو يتقلب ويرتفع ويهبط، فطلبت منه بعد نزوله تقليل الحركات الخطرة وأخذ الحيلة والحذر.

يقوم على البيت الذي نسكنه في صنعاء حارس مسكين، وكبكية الفقراء في كل بلد، لديه عدد كبير من الأطفال، غير قادر على تربيتهم أو العناية بهم، يمتاز أحد الأطفال بالذكاء مع سنه التي لا تتجاوز أربع سنوات، إلا أنه يعرج بشكل لافت لعب خلقي في إحدى قدميه. أقنعت والد الطفل بأخذه إلى المستشفى وذهبت معهم وحجزت له سريراً وتحديث مع الطبيب.

عدت إلى البيت بعد أداء المهمة وكلني فرح أنني أدخلت البسمة إلى هذا الحارس المسكين وزوجته التي بقيت مع الطفل، وربما

كنت سيباً في شفاء طفل يحاصره الإهمال والجهل والفقير .
 دخلت البيت فوجدت الحزن مخيماً على الجميع، وزميلي الذي
 أتى معي من المملكة يجهش بالبكاء، سألته: ما الخبر؟ فلم يجب،
 توجهت بالسؤال إلى زميل آخر أقلّ تأثراً، أخبرني بما حصل، وقع
 ما كنت أخشاه واصطدمت طائرة زميلنا بالأرض في واحدة من
 الحركات التي تتقلب بها الطائرة، وكأنها ريشة في مهب الريح،
 كان رحمه الله واحداً من أفضل الطيارين أداءً وأحسنهم عشرة
 وعصامية. علينا العودة إلى المملكة مع الجثمان الذي لم يبق منه
 إلا أجزاء متناثرة، لف بعلم المملكة ونقل بطائرة خاصة جاءت من
 المملكة ومعها بعض الضباط لتقديم واجب الوفاء والعزاء لأهله
 وبقية زملائه.

عدت إلى الرياض متعباً مهموماً، كيف لا؟ وقد فقدت واحداً
 من أعز زملائي، لكنها الحياة تأبى أن تتوقف أو تعود للوراء،
 وجدت بانتظاري طفلاً جميلاً لم ينتظر عودتي، بل لم ينتظر
 الوصول إلى المستشفى، ولد في البيت، فصارت والدتها هي
 القابلة، وتم كل شيء على ما يرام.

الموجة الأولى

طرت مع أحد الطلبة في أول يوم من عام 1400 الموافق لعام 1980 وقبل نهاية الرحلة سمعت النداء الذي لا يقال إلا في أمر جلل: «على جميع الطائرات العودة حالاً إلى القاعدة». تأويلات كثيرة مرّت بخاطري، لكن أتى لي أن أعرف السبب.

استدعي الجميع إلى غرفة المحاضرات وأبلغوا أن المسجد الحرام بمكة اقتحم وأن الوضع لا يزال غامضاً، وتقضي التعليمات بالبقاء في القاعدة والاستعداد لأي تطورات في الموقف، اقتحمه رجل مغامر نصف متعلم يطمح للقيادة، ولم يجد سوى موجة الدين ليركبها، وقد تبعه الكثر. ألم يقل المثل: (العقل كالمظلة لا يعمل إلا إذا كان مفتوحاً)؟ للأسف تبعته عقول كثيرة فقدت التفكير المرن والتحليل العاقل المتأنى، كيف استطاع أن يقنع هذا العدد من الرجال أن مصلحة الأمة في تكديس الأسلحة داخل الحرم، واستخدامها ضد الأمنين؟

سيظلّ عالمنا الإسلامي بيئة مناسبة لبروز ظواهر كثيرة تتخذ من الدين سلاحاً ووسيلة إقناع، والغوص في التراث بحثاً عن دلائل مقنعة لما يخططون له، وسيستمر المتعطشون للزعامة جاهزين لبذل كلّ ما يستطيعون لكسب الأتباع وخوض المغامرات.

معظم مصائب العالم وحروبه خلقها متعصبون لرأي، تسلّحوا

بأدلة كثيرة تدعو للتعصب والإقصاء، ورسوموا أهدافاً تدغدغ مشاعر الجماهير .

من يصدق أن شعباً بذكاء الشعب الألماني ومستوى تعليمه، يمكن أن يجزّه متعصب برتبة عريف إلى حرب عالمية، لكنها الشعوب تجري خلف سراب الكلمات ومعسول الوعود، خاصة إذا دغدغت الكلمات مشاعر وآمال الأكثرية، وإذا خان المثقفون ضمائرهم وبرّروا أفعال الظالم وشفقوا له .

كلّ الحضارات التي جلبت التقدم والرخاء، قامت على احترام العقل وتحريره من الوصاية عليه، فصارت عقول متفتحة منتجة، تتمتع بالشجاعة والتسامح وتأخذ أفضل ما أنتجته الحضارات التي قبلها. لولا الفلسفة التي تطرح الأسئلة بحثاً عن الحقيقة ما تقدّمت أوروبا .

المرونة والتسامح لا يعينان الضعف أو الاستسلام، بل القوة وبعد النظر، لا بد من قبول الآخر والتعايش معه ومعرفة أن الكثير مما يحتفظ به العالم من ثقافة وتراث وأفكار ليست يقينية ولا مطلقة .

تمت السيطرة على الموقف بعد أيام، لكن آثاره بقيت عشرات الأعوام، غياب التحليل العلمي المدروس لما حصل منع دراسة الظاهرة دراسة متأنية تعيد الأسباب إلى جذورها، وتمنع حدوث ما هو أكبر منها .

المصيبة والعلّة في ثقافة الأمة، التي تشجع على الانطواء وتكرّس أحادية الرأي التي هي إفراز لتهميش العقل وتضخيم الخصوصية ونظرة الاستعلاء على الآخرين .

يقول الأديب الإسباني خوان غوبتسولو المهتم بالقضايا الإنسانية: «إن انحطاط ثقافة ما، يسير جنباً إلى جنب مع انطوائها على خصوصية مزعومة، أو توقعها على قِيم متحجرة. وإن رهان انتشارها وحيويتها يتوافق دائماً وتعدد الروافد الأجنبية التي تخرقها فتغذيها وتخصبها». نظرة واحدة إلى الحضارة الإسلامية يؤكد صدق ذلك، سواء في العهد العباسي مع افتتاح دار الحكمة في عهد المأمون، أو في الحضارة الإسلامية في الأندلس، حيث نشطت الترجمة وكثرت الروافد وأخذوا من الثقافة الفارسية والهندية والفلسفة اليونانية.

* * *

الاستثمار في العقول

الدورات في الولايات المتحدة كثيرة، والاستثمار في العنصر البشري على أشده، لا بد من تدريب نخبة من الضباط للمراكز القيادية. دورة ضباط الأسراب من أهمها. كنت من بين الضباط المرشحين لهذه الدورة التي تعقد في (مونتغمري) عاصمة ولاية (ألاباما)، وهي مدينة جميلة تقع على ثلاث تلال على طول نهر (ألاباما)، ومنها انطلقت الاحتجاجات على الفصل العنصري، عندما رفضت امرأة سوداء عزيمة التخلي عن كرسيها في الحافلة لشخص أبيض، أسيئت معاملتها وأنزلت لكنها أشعلت فتيل النضال ضد الفصل العنصري البغيض، الحقوق لا تأتي تفضلاً من أحد، بل تؤخذ بالمطالبة بها والتضحية في سبيلها.

الطلبة من دول كثيرة، لكن أكثرهم من الولايات المتحدة، من الدول العربية يوجد طلبة من مصر والأردن والمغرب والكويت، وهناك طلبة من أوروبا. يوزعون الطلبة الأجانب على الفصول، فلا يوجد طالبان أجنبيان في فصل واحد. كما يوزعون الضباط بحسب تخصصاتهم على الفصول، في كل فصل توجد على الأقل طالبة واحدة، هذا التوزيع لإثراء النقاش والاستفادة من الخبرات والتخصص.

أثناء العمل يركزون على التطبيق العملي لما يدرسون، يقيّمون

كل ضابط تقييماً دقيقاً من حيث المشاركة والصفات القيادية والانضباط.

يركزون على ثلاثة أمور لنجاح العمليات يختصرونها بحرف (CCC) مكرراً ثلاث مرّات (Communication Coordination Cooperation) وتعني الاتصال والتنسيق والتعاون. لهذا الغرض يحاضر أستاذ متمكن، ويضرب الأمثال على ما يحاول توضيحه، يقول عن الاتصال ومشاكله: إن أكبر المشكلات سوء الفهم فأنت تفهم شيئاً وأنا فهمت شيئاً آخر وكلانا يعتقد بأنه فهم الآخر. يسوق حكاية طريفة حصلت له مع زوجته إذ طلب منها أوراقاً نسيها في البيت ويحتاجها للمحاضرة بعد الغداء مباشرة، يقول: طلبت منها أن تحضرها في مطعم معين، تناولت غدائي في ذلك المطعم وانتظرت ولم تحضر، ليس من عاداتها التأخر خاصة في مثل هذه الأمور، انتهى الوقت وعدت إلى العمل غاضباً واتصلت بالبيت. (لم يكن الجوال موجوداً في ذلك الوقت).

- أين أنت؟ ولماذا لم تحضري؟ ألا تعرفين أهمية المحاضرة؟

- بلى وقد حضرت ولم أجدك كيف تتركني ساعة ولا تأتي؟

- لأي مطعم ذهبت؟

- للمطعم الذي ذكرت.

- ولكن أي فرع؟

للفرع الذي نذهب إليه دائماً، القريب من البيت.

- لكنني أريدك هذه المرة في المطعم القريب من العمل، ألا

تعرفين أهمية الوقت عندي؟ الواجب أن تفهميها، لو كنت أريدك

هناك لحضرت بنفسى إلى البيت.

وهكذا يكون سوء الفهم مصدراً لكثير من الأخطاء والخلافات .
وهكذا يستمر في ضرب الأمثلة، محاضرة لا يتسلل إليها
الملل، وتبقى راسخة حاضرة بعد ثلاثين عاماً .

تركز الدورة على التواصل وحسن الإلقاء ويحددون لكل طالب
موضوعاً ومدة محددة، ويسجلون محاضراته على شريط مرئي يطلع
عليه الطالب بعد المحاضرة، يقوم الطلبة بنقده بعد المحاضرة بكل
صراحة وبلا مجاملة، فهذا يحسب عليه حركات جسمه، وآخر يعدّ
كم مرة كرر تلك الكلمة، وثالث يخبره عن تجاوز الوقت، ورابع
ينتقد الموضوع وعدم وضوحه، وهكذا يستمر النقاش البناء الذي
يستفاد منه في الحياة العملية .

يدرّس في الدورة ضباط شباب يعملون اثنتي عشرة ساعة يومياً
دون كلل، لكنهم يستبدلون غيرهم بهم بعد ثلاث سنوات على
الأكثر، الدراسة تبدأ من الثامنة، وتستمر حتى الخامسة مساءً، يبقى
المدرسون بعدها لكتابة التقارير والتحضير لليوم الثاني، أما الطلبة
فلهيهم واجبات أخرى . المدرسون وفيهم قائد المدرسة الكبير بسنه
ورتبته يشاركون الطلبة مختلف أنواع الرياضة التي تمارس يومياً،
ولها أهداف كثيرة . فإلى جانب بناء الأجسام ومحااربة الأمراض،
يستفيدون منها لتأكيد أهمية العمل الجماعي وروح الفريق وتنمية
روح القيادة . يركزون على الألعاب الجماعية، وقبل اللعب
يرسمون الخطة ويناقشونها، وبعد انتهاء اللعب يناقشون النتيجة
ونقاط القوة والضعف، بصرف النظر عن الفوز أو الخسارة،
يضربون مثلاً حياً لما يجب أن يطبق في الحياة العملية .

يطلبون من كل طالب أن يكتب أهدافه من الدورة ومنها

الرياضة، كم من الأميال سيجري يومياً، وكم المجموع حتى نهاية الدورة، وما هدف الدورة بشكل عام. في الفصل لوحة يسجل فيها الطالب يومياً كم جرى، بعض الطلبة يسجل كل يوم عدداً من الأميال من دون أن يجربها، لكنه في النهاية لا يغش سوى نفسه، وينكشف عندما يتسابق الطلبة بشكل جماعي، تجده يصل نهاية السباق متأخراً متحامللاً على نفسه. أكثر من لا يمارس الرياضة إما مدخن، أو لديه زيادة في الوزن، مع أنهم الأكثر حاجة إليها.

في كرة الطائرة عدد كل فريق تسعة بدلاً من ستة، الهدف أن يزدحم الملعب ويصبح التنسيق بين اللاعبين أكثر أهمية، لا بد من تحديد من سيتعامل مع كل كرة، وإلا تصادم لاعبان أو أكثر أثناء محاولة صدّ الكرة. لديهم ألعاب خاصة بهم مثل لعبة (فلكر بول) قريبة من السلّة لكنها أكثر تعقيداً، تحتاج لثلاثة حكام، الهدف منها تأكيد معرفة القوانين والأنظمة لمن أراد النجاح، ويؤكدون تطبيقه في العمل، إضافة إلى الأهداف التي يركزون عليها في كل لعبة من الألعاب الأخرى، يستفيدون من الرياضة لمعرفة القادة أيضاً. الرياضة ليست عندهم ترفاً بل ضرورة، تمنحهم قوة التحمل واللياقة والصحة. تحارب أمراض العصر كالسكر والضغط وهشاشة العظام (الترقق) والأمراض النفسية، والرياضة من أفضل وأجدى وسائل الترفيه والتعليم.

في هذه الدورة يزرعون عادات تبقى مع الضابط طوال حياته، يحددون لكل يوم موضوعاً أو مواضيع للنقاش وصفحات كثيرة للقراءة، من لا يقرأ لا يستطيع أن يشارك بشكل فاعل، يقترحون الكتب لكل موضوع، وفي الكلية مكتبة كبيرة بأدوار متعددة، الكلية

تضم دورة الأركان وكلية الحرب، إضافة إلى هذه الدورة، يدعون المحاضرين من جميع أرجاء الولايات المتحدة، منهم قادة بسجل حافل من الإنجازات، ومنهم أساتذة الجامعات وسفراء بعض الدول، يعطون وقتاً للمداخلات والأسئلة، يختارون المحاضرين بعناية بحسب المواضيع وما يجري على الساحة الدولية.

شيء آخر ومهم في هذه الدورة، وهو التركيز على النقد البناء، يذهبون إلى أحد المطاعم للغداء ثم يبدأ بعضهم بنقد بعض، يوضحون ما يكرهون من كل واحد ومن بينهم المدرس، وغالباً يعملون ذلك بعد عدد من كؤوس النبيذ ليكونوا أكثر صراحة، يهتمون كثيراً بإقامة المناسبات التي تقربهم أكثر وتزيل الحواجز بين القائد والمقود، وكأنهم يقولون: هكذا يجب أن تكون الوحدة المقاتلة، وعلى المدرس حضور جميع المناسبات، كما هو المفروض بقائد الوحدة.

دعوتهم للعشاء في شقتي الصغيرة وعددهم خمسة عشر، لم يتخلف منهم أحد وحضروا جميعاً في الوقت المحدد، جهزت زوجتي المتفانية أطباقاً مختلفة من الأكل العربي، وزادت من كميات اللحم والرز وأعجبهم كثيراً، كانوا جميعاً في غاية السعادة، عدا المرأة الوحيدة في الدورة، وهي امرأة متزوجة شقراء، بين الخامسة والعشرين والثلاثين، بقوام رشيق معتدل يميل إلى الطول، قالت عند الوداع وبصوت حرصت على إسماعه زوجتي: لا تنس المجيء غداً، كالعادة في غرفتي لنراجع المحاضرة، وختمت حديثها بابتسامة شائكة، رغم اختلاف الثقافات فالمرأة هي المرأة، لم تعرها زوجتي اهتماماً، من كان خصمه عاقلاً لا يتعب.

لم أنس هذه المرة أن أعلم زوجتي قيادة السيارة، تولت جميع شؤونها، خاصة ما له علاقة بالمستشفى لها ولصديقاتها، أما أنا فركزت على اجتياز الدورة بتقدير ممتاز.

فكرت كثيراً في هذه الدورة والفوائد الكثيرة التي جنيتها، سواء ما تحويه من مواد حديثة تجدد كل عام، وتطبق تمارين على الواقع لا مكان فيها للحفظ أو التلقين، ثم هذه البرامج الرياضية التي لها أكثر من هدف وهؤلاء المحاضرون المتمكنون، تعجبت من هؤلاء الشباب المدرسين والطلبة الذين يمضون الساعات الطويلة كل يوم استعداداً لرفعة بلادهم والدفاع عنها، لا تسمع منهم تدمراً أو شكوى، بل تجد تنافساً واستمتاعاً بما يعملون، لهذا صاروا قادة العالم.

مساكين من يقضون جل أوقاتهم في فصول يسكنها السأم والخوف والكسل، فلا عقول تتلاقح، ولا أجسام تتحرك، ولا سواعد تحقق الإنجازات، مسكين كل معلم سواء أكان مدنياً أو عسكرياً لا يجدد نشاطه بمثل هذه الدورات، ومفلس من عاد من تلك الدول المتقدمة بشهادة علمية، دون التشبع بثقافة البذل والعطاء والتعاون وروح الفريق واحترام الوقت وحب الوطن ورسم الأهداف لرفعة نفسه وأسرته ومجتمعه.

سرّ الحضارة في العنصر البشري الذي أطلق لخياله العنان، وعمل بكل جد وإتقان. أسوأ شيء أن تعتقد أنك تمتلك الحقيقة كاملة بلا زيادة أو نقصان، أليست الحكمة ضالة المؤمن؟ للأسف نراها ونعرض عنها. يقول (ألبرت شفاستر) في مؤلفه (فلسفة الحضارة): «الحضارة هي التقدم الروحي والمادي للأفراد والجمهير على حدّ سواء».

العظمة في البذل والعطاء لا الأخذ والاستئثار، من السهولة أن تجد المبررات لأخذ مال غيرك، لكن من الصعوبة أن تعطي بعض ما تملك. الجشع أن يكّدس الغني البلايين وهناك من لا يجد قوت يومه. للحرية جوانب سلبية، لكنها أعظم دعائم بناء الحضارة وازدهارها، لكنها الحرية المنضبطة التي تردعك عن الإساءة لنفسك أو الآخرين.

بيننا وبينهم اختلافات كثيرة، ولكن أليس الاختلاف سنة هذا الكون وسرّ بقائه؟

أليس الاختلاف باقياً بيننا إلى يوم القيامة. تذكرت قوله تعالى: ﴿ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم في ما كنتم فيه تختلفون﴾ (آل عمران، 55). لم لا نراه نعمة أنعم بها تعالى على عبده الضيق الأفق؟ لم لا نراه سرّاً لبقاء الحياة على الأرض؟ ألم يقل: إنه لولا المجرم والجريمة لما وجد الكثير من الوظائف من شرطة وأموري سجون ونجارين لصناعة الأبواب وأقفالها؟

هذه الدورة وغيرها من الدورات في الولايات المتحدة تتغير وتتطور بشكل مستمر، سواء في المدة أو المحتوى، قبل عام كانت أطول وأكثر مواد، والدورة القادمة ستتغير أيضاً.

في طريق العودة إلى المملكة، مررنا على المغرب، حيث صديقنا منصور العيسى يعمل مديراً للخطوط الجوية السعودية أعرفه منذ الصبا، يلح عليّ لزيارته، سمعنا الكثير عن هذا البلد الجميل فلم لا يكون محطتنا هذه المرّة؟

وصلنا إلى مطار الدار البيضاء وتكفل مضيفنا بتسهيل إجراءاتنا، حتى ما زاد من حقائبنا تركناه في مستودع بالمطار.

الدار البيضاء أخذت هذا الاسم من الإسبان (كازابلانكا Casablanca)، وهي نموذج لمدن العالم الثالث، تنمو بسرعة عالية وتمتد على حساب جمالها وراحة سكانها. أكثر ما تعانيه زيادة الهجرة لها من المناطق الريفية والجبال في المغرب، مما أوجد مساكن بائسة في ضواحي المدينة ونسبة عالية من البطالة بما لها من إفرزات اجتماعية وأمنية. ليس هذا ما أريد أن أراه. استأذنت من مضيفي وأخذت زوجتي وطفليّ إلى الرباط، المدينة الجميلة التي تنام على شواطئ المحيط وعند مصب نهر (بورقراق). من حي الرياض في الرباط، أخذنا السائق إلى تلال تطلّ على النهر، منظر يستحق وحده عناء التوقف في المغرب وقضاء أيام في ضيافة هذا الجمال، على ضفّته الأخرى تنام وادعة مدينة سلا، الخضرة تحيطك من كل مكان، جلست وعائلتي الصغيرة تحت ظلّ شجرة وتناولنا ما معنا من غذاء وشراب، لم يقنعنا بالعودة إلى السكن سوى تدثّر الشمس في مياه المحيط. في المساء كان شارع محمد الخامس يحتفل بليل ينضح بالحيوية والجمال، جمال نسائه وصفاء بشرتهن ذكّرني بما رأيته في شارع جمال عبد الناصر في صنعاء، وما كنت أراه في شارع الحبّ في الدمام، وما بقي في ذاكرتي من جمال بنات الرياض الساحر في شارع الوزير.

لكل مكان في الرباط تاريخ، ومطاعمها لها روادها المشهورون، وقد حرصنا على تناول العشاء في واحد منها. زرت واحدة من مكتباتها العامة الأربع، مارست رياضة الجري في إحدى حدائقها الكبيرة، الاهتمام بالشجرة جعل من الرباط واحدة من أجمل عواصم العالم العربي.

حزمتنا أمرنا وسافرنا إلى فاس ثالثة المدن المغربية، وهي تقع

على نهر فاس، ما أفسد اللقاء كان عدم حجز سكن مما اضطرنا إلى السكن في فندق كئيب داخل البلد، بعد أن تعذّر وجود سكن في الفنادق الراقية حيث الراحة والجمال، زرنا جامع القرويين وجامعته، ومسجد مولاي إدريس وضريحه، زرنا السوق بمحلاته الواقعة تحت الأرض واشترينا من منتجاته الجلدية.

القيادة

لن تبقى أيها النقيب مدرساً فقط، أنت تكبر ومعك تكبر الرتبة، وتلمع على كتفيك ثلاث نجوم تصعد بك نحو الفضاء إن تواضعت لها، وتهبط بك إلى الحضيض لو تعاليت بها على غيرك. لكن لكل نجاح ضريبة، عليك أن تغادر بيتك وزملاءك في الشرقية. ستذهب إلى الطائف، فهناك سرب بحاجة إلى قائد.

عُينت في البداية ضابطاً لعمليات السرب، سرب مقاتل، بعد أسبوع من وصولي استدعاني قائد السرب وفوض إليّ جميع صلاحياته، قال لي: من الآن أنت قائد السرب، أما أنا فممنقول إلى القيادة قريباً، عليك أن تتصرف دون الرجوع لي، فأنت أهل للثقة.

كانت كلمات كبيرة، ومسؤولية جسيمة، وتقديراً من قائد لم أمض معه سوى أسبوع. لكنها كانت درساً تعلمته وظللت أعده حسنة أتذكرها كلما تذكرت ذلك القائد.

* * *

بناء وحدة مقاتلة ناجحة، مثل بناء مؤسسة رابحة، بحاجة إلى جهد مضاعف من القائد. عليه أولاً أن يكون قريباً من ضباطه وأفراده، وأن يكون قدوة لهم، حاولت أن أتذكر ما تعلمته في دورة مدرسة ضباط الأسراب في الولايات المتحدة، أليس الإمام دائماً

في المقدمة ليقتردي به من خلفه؟ وهكذا القائد، ألم يقل (بنيامين فرانكلين): «القدوة أكبر موعظة». ما فائدة أن نتعلم علماً لا نعمل به؟

للضباط والأفراد قدرات ومواهب لن تبرز إلا في بيئة مشجعة على العمل والإنتاج وتحترم الإنسان وتحثه على التميّز والإبداع وتخطب فيه القلب والعقل والروح، في جو تسوده المحبة وتقدير المنتجين.

قررت أن أشاركهم الطيران، وأن أكون معهم في إيجاز الصباح، وأن أغادر السرب متأخراً، طبقت ما رأيته في الولايات المتحدة من علاقة متميزة بين الصيانة والعمليات، أقمنا الحفلات التي تجمعنا مع الصيانة أمام السرب في المناسبات، كانتهاء الطيران الليلي بسلام، وبعد التمارين الناجحة. كان لتلك الحفلات وقع ممتاز، خاصة بين ضباط الصف من الصيانة، الذين رأوا فيها تقديراً لجهودهم، كنت أراها في عيونهم وابتساماتهم في اليوم الذي يلي الحفلة مباشرة، كنت أسمعها في الدعاء الصادر من القلب عند وداعي قبل الرحلة، ومن لمسة يد الفنيّ حين يناولني أحزمة كرسي النجاة، وابتسامته العريضة بعد عودتي من المهمة سالماً. جميع ضباط السرب يشاركون في الإعداد لتلك الحفلات، وبعضهم يحضر بعض الأكلات الشعبية من بيته.

أسوأ شيء أن يكون للقائد جماعته، وهذا ما حاول بعضهم، لكنني استدركت سريعاً أنني قائد السرب كله وليس بعضه، حرصت أن أوزع المهام بالتساوي، لكن من أين لي كسب رضا الجميع وكل يرى أنه الأحق من غيره بهذه أو تلك؟

ليس كل ضابط قديم في الرتبة يصلح للقيادة، وليس كل طيار جيد يصلح قائداً. حرصت على إجراء تغييرات، لكنني اصطدمت بالواقع، فالممتاز لن يفرط فيه أحد، والسيئ لا يريده أحد، وكلاهما يسبقه ذكره.

هناك من جاء لهذا النوع من الطائرات، وهو لا يريدتها، إما لعدم مقدرة، أو لرغبة في غيرها. حرصت على تخليص السرب من كل عوامل الضعف. اشتكى أحدهم من مشاكل صحية أثناء الطيران الليلي، راجعت ملفه فوجدته يعاني من الضعف في بعض مراحل الطيران، سألته: هل تريد الانتقال إلى طائرة مختلفة؟ أجب: نعم. علمت سبب شكواه: إنه الخوف من الطيران الليلي منفرداً. أجاد هذا الطيار على الطائرات التي حوّل إليها، وصار واحداً من أفضل المدرسين على هذا النوع من الطائرات.

هناك مشكلات في الصيانة، لا يوجد عدد كاف من الرحلات كل يوم. الحل لدى مسؤولي الصيانة، إنقاص عدد الرحلات.

العدر جاهز، نقص قطع الغيار، لا بد من البحث دائماً عن عذر يجنبهم المسؤولية، لا شيء كالأسباب الخارجية فهي خارجة عن الإرادة، زادت المشكلة وتدخلت القيادة، ليتبين أنها ضعف الإنتاجية، وليس قطع الغيار.

إذا كان قائد الصيانة لا يدري كم تبقى الطائرة متوقفة في حظيرة الطائرات، فلا لوم على الرقيب الفني إذا لم يهتم بخروجها وجاهزيتها، يتسرب الإهمال بين العاملين من الأعلى إلى الأسفل أسرع مما يسري الاهتمام، وتنتشر الروح المعنوية الهابطة أسرع كثيراً من الروح المعنوية العالية، لأن الإنسان جبل على الكسل إن

لم يجد التشجيع والمتابعة والقُدوة، العيب ليس في الأشخاص لكن في القيادة والنظام، والدليل تلك الحماسة المنقطعة النظير في التمارين داخل القاعدة وخارجها .

* * *

التمرين القادم والمهم في دولة عمان، سيكون السرب ممثلاً للمملكة في واحد من تمارين دول مجلس التعاون.

بعد الظهر موعد إيجاز التحرك إلى قاعدة (ثمرت) في جنوب عمان، سيكون جزء كبير من الطيران فوق رمال الربع الخالي وما تعنيه من عدم وجود مطار احتياطي في حالة وجود أعطال، رتبنا جيداً للتزود بالوقود والبحث والإنقاذ، لا بد من الاستعانة بأرامكو في مثل هذه الحالات .

خرجت من السرب قبيل المغرب لأجد زوجتي في انتظاري لأوصلها إلى مستشفى الهدا . هي على وشك الولادة، وأنا على وشك السفر، لكنه الواجب وقيادة السرب لا يمكن التخلي عنها في مثل هذه الظروف . تركتها وحيدة في المستشفى، وعدت لأخذ قسطاً من الراحة قبل موعد الإقلاع، هناك أوامر صارمة في الطيران لا بد من إتباعها لتجنب الحوادث والإخفاقات عليّ أن أنام ثماني ساعات متواصلة، أخبروني بعد وصولي إلى البيت أنني رزقت ببنت جميلة ووالدتها بخير . كتبت في مذكرتي سنة ولادتها 1984، وسميتها «دانة» تركت زوجتي وحيدة وطرقت إلى عُمان .

في الصباح كانت والدتها إلى جانبها في المستشفى من دون تخطيط، لكنها العناية الإلهية تتابعنا في أكثر من مكان، كان والدها ووالدتها في إجازة في مصر ولم يجدا حجراً للعودة إلاّ عن طريق

جدة، عندها قررا المرور على الطائف ليجدا المفاجأة، ابنتهما وحيدة في المستشفى، بقيت والدتها بجانبها حتى عودتي من المهمة.

في الطريق إلى عُمان نظير فوق صحاري كثيرة تمتد أمامنا كمياه محيط، كل واحدة من هذه الصحاري تسيرنا حتى تسلمنا لمن بعدها، تتجمل أكثرها بعروق الرمال، وفي أماكن كثيرة تصبح الرمال سيدة المكان، تتزين أوديتها وواحاتها بأشجار الطلح والسدر التي تصارع من أجل البقاء، وتقتات على أغصانها الغضة الجمال، وإليها تلجأ الطيور. صحراء مترامية الأطراف تحب بعنف وتكره بعنف، كريمة إلى حد التبذير وبخيلة إلى حد التجويع، صفات تأصلت وانتقلت لساكنيها. تحت هذه الرمال تنام ثروات تكوّنت منذ ملايين السنين بحاجة إلى من يحميها ويحسن الاستفادة منها ليستمر خيرها آلاف السنين للأجيال القادمة من بعدنا، وليس لهذا الجيل وحده.

بقي السرب في عُمان أسبوعين، كان التمرين خلالها من أنجح التمارين على مستوى دول مجلس التعاون.

لدى الإخوة العمانيين طائرات قديمة من نوع (هوكر هنتر) وطائرات (الجاكوار) البريطانية. معظم المسؤولين عن القوات الجوية من البريطانيين، لم تكن القوات الجوية استثناء، بل هذا حال جميع قطاعات الدولة. كانت أول جامعة هناك للتو فتحت أولى كلياتها. والبلد خرج للتو من تخلف وانغلاق استمر مئات السنين، آخر مشاكله حرب ظفار التي كانت حرب عصابات تغذى من الخارج، عندها تحرك السلطان قابوس وقادها إلى التقدم بكل

جدارة وبصيرة، تقدم مدروس يسير بخطى ثابتة إلى الأمام، ومنها القوات الجوية التي صار قادتها عمانيين في ما بعد.

وصل السرب بطياريه وأفراد صيانتته وجميعهم من السعوديين إلى عُمان، ومنهم الطبيب والمسؤول عن الاتصالات، شكل هذا حافزاً للإخوة العمانيين للأخذ بزمام الأمور في ما بعد.

توطدت العلاقة مع الإخوة العمانيين، دعانا قائد القاعدة إلى بيته، واستمتعنا بمساء راق جميل، في آخر يوم تمت الرماية بالذخيرة الحية، وحضرها مسؤولون من الجانبين. كان أكبر مسؤول عماني برتبة عقيد هو محمد العامري ونشأت بينه وبينني صداقة ومحبة، أساسها المودة والكثير من الإعجاب، توفي عليه رحمة الله في حادث طائرة بعد هذا التمرين بسنوات.

لم يقتصر التمرين على جانب العمليات فقط، بل تعداه إلى الحياة الاجتماعية وتنسيق الزيارات، أطلعنا الإخوة العمانيون على ما تحويه عمان من جبال خضراء وأودية جارية وشلالات ترحب بزائريها ومناخ ممطر في الصيف وضباب يكسو الأودية والجبال. ذهبنا إلى الجبل الأخضر، وصلينا الجمعة في (نزوى) وحضرنا سوق بيع المواشي الذي يعج بالحركة والنشاط.

لم يخف العمانيون إعجابهم بما رأوا من القوات الجوية السعودية، خاصة من صغار الطيارين وحماستهم والفنيين وتفانيهم.

بينما كنا جالسين في واحدة من الأمسيات الجميلة نستمع إلى فن خليجي راق، سمع القائد العماني صوت محرك طائرة من بعيد، التفت إليّ وسألني عن سبب هذا الصوت في هذا الوقت المتأخر من الليل أجبته: لن ينام الفنيون إلا بعد إصلاح جميع

الطائرات، وما تسمعه صوت محرك يتم إصلاحه . لم يطلب منهم أحد ذلك، لكنه درس تعلموه من ثقافة مختلفة علمتهم حلاوة الإنجاز وحب الإتقان. ألا ترى أنه منذ وصولنا لم تقل الصلاحية عن مئة في المئة؟ التفت العقيد ثانية إليّ، وأشار إلى شاب من الفنيين معه جهاز اتصال لاسلكي وبجسم معتدل يميل إلى النحافة ويلبس لباس الميدان في هذا الوقت المتأخر من الليل ثم قال: هل لديكم من أمثال هؤلاء كثير؟

هي الجودة تبدأ بحسن الاختيار ثم التدريب، ووجود القدوة والمتابعة وإعطاء الحقوق، وأهمها جميعاً اختيار القادة بكل عناية . كان العميد فهد العبد الله على رأس هيئة العمليات الجوية السعودية رجل متمكن مخلص . يقضي الساعات الطوال في المتابعة والتوجيه، له شخصية قوية إلى حد الإخافة أحياناً، بعينين كبيرتين، تسري الدماء الملكية في عروقه .

لا شيء كإنتاج الكبير إذا أخلص، يأمر فيطاع، يعمل ولا يخاف، ويتحمل المسؤولية بكل جدارة، ولكن يعظم الخطأ أيضاً بعظم منصب المسؤول، هي فرصة لا تتكرر، ونهر التاريخ العظيم مستمر في الجريان، ولن يخلد في ذاكرته إلا من أخلص وثابر وأعطى وبنى .

انتهت المهمة وعادت الطائرات إلى الطائف سالمة، متخذة المسار نفسه فوق الربع الخالي .

عدت ووجدت بانتظاري زوجة في كامل عافيتها، وبين يديها دانة جميلة .

هل تظنّ بيتنا فندقاً؟

ركض الابن نايف إلى أمه ومعه صندوق صغير بحجم يده الصغيرة، كان بداخله عشرون جنيهاً ذهباً، سألته وفي مخيلتي تلك المرة التي ركضت لوالدتي وبيدي الريالان العريبان من الفضة التي سببت لي المتاعب والإحراج كلما ذكرتني أمي بذلك سألته:

- أين وجدت الصندوق؟

أشار الطفل إلى مخبأ في غرفة الملابس وجد فيه الجنيهات، لا بد أنها للساكن قبلنا.

ذهبت إلى المسؤول عن السكن وأخذت اسم الساكن قبلنا وعنوانه ورقم هاتفه، سألته إن كان قد فقد شيئاً في بيته السابق؟ لكنه أجاب بالنفي، فطلبت منه أن يتأكد من زوجته، جاء الجواب بعد يومين ليبلغني بأنه فقد صندوقاً مليئاً بالجنيهات، وردت الأمانات إلى أهلها. وعد الطفل بهدية من صاحب الصندوق، لكنه نسي في غمرة أعباء الحياة.

لم يكن الناس قد اعتادوا سكن الفنادق بعد، لذا كان البيت في الطائف ممراً لكثير من الأقارب والأصدقاء الذين يقضون بعض الأيام، إما للعمل أو للسياحة أو العبادة. تكررت زيارة أحد الأصدقاء في فصل الصيف، براءة الأطفال تخرج أحياناً، وجه الصغير إلى الضيف سؤالاً محرراً: هل تظن بيتنا فندقاً؟ لكن

الضيف كان لطيفاً، واثقاً من ترحيبنا به ولم يأبه لملاحظة الطفل بل داعبه بقوله: لا لست أعتقد بأنه فندق لكن سأتي إليه رغم ملاحظتك الوجيئة.

لم تمر سنوات الطائف على الزوجة في البيت كربة بيت فقط، بل واصلت دراستها في الجامعة انتساباً، تذهب إلى الرياض مقر الجامعة أكثر من مرة في السنة، بعضها يمتد لشهر كامل، أصعبها يوم هاجمت الحصبة الابن الكبير وكان في السنة الأولى الابتدائية ومرض مرضاً شديداً لم يعرف سببه في البداية، أبقيت المرض سراً ولم أبلغ أمه المشغولة بالدراسة والاختبارات، لتكتشف المرض فيما بعد، من كثرة سعال الطفل وعدم قدرته على الكلام أثناء حديثها معه بالهاتف. لم تكتف بتخرجها من الجامعة، بل حصلت على وظيفة معلمة لغة إنجليزية في المرحلة المتوسطة.

مع الوظيفة لا بد من خادمة، لا بأس، الإجازة الصيفية قادمة وجميع أسفارنا كانت إلى الغرب، فلماذا لا نجرب الشرق هذه المرة ونحضر معنا خادمة نختارها بأنفسنا.

في الطريق إلى الصين الوطنية (تايبان) كانت الطائرة شبه خالية، لذا اخترت وابني الصغير ثامر كرسيين بالخلف ليتمكن الصغير من الجلوس قرب النافذة. قدموا لنا وجبة الغداء اللذيذة، أكلتها وتأكدت أن الطفل أكل حتى شبع.

في المطار كانت زوجتي وزميلي وزوجته يبحثون عن شيء يأكلونه، سألتهم:

– لماذا لم تأكلوا من وجبة الغداء اللذيذ بالطائرة؟

– هل أكلت؟ سألت الزوجة.

- نعم وكان اللحم لذيذاً جداً .

- وهل أكل ثامر؟

- لأول مرة يشبع منذ غادرنا الطائف . الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا .

- لن أتركه معك بعد الآن . لقد أكلتم لحم خنزير .

- كيف عرفتم؟

- سألنا وعرفنا .

- الحمد لله الذي أطعمنا ، نحن لم نسأل .

ظل الطفل يتندر بهذه الوجبة زمناً طويلاً .

في تايوان وجدنا الضيافة الحق من زميل لي تعرّفت عليه قبل سنوات .

دعانا إلى بيته وأكرمنا أيما إكرام . الأسر في الصين مترابطة ، ويحترم بعضها بعضاً ، تسكن معه بنتاه الجميلتان ، إحداهما تدرس الطب ، والأخرى راقصة مشهورة على مستوى الوطن ، ولديه ولد يدرس الطب أيضاً .

في تلك الليلة قدموا لنا مختلف الأطباق الصينية في جو عائلي فاجأنا ، تولت البنتان إشغال الصغار باللعب أثناء العشاء ، وربة البيت تبالغ في تقديم الأطباق ، يضعون الأطباق على طاولة تدور فوق أخرى وبعد العشاء قدمت ابنتهم عدداً من الرقصات الصينية . لا تعرف البلد من فنادقها ومتاجرها ، ولكن من تعامل أهلها وكرمهم وعاداتهم الجميلة . المتاجر تعج بمختلف البضائع المصنوعة في تايوان وفي الصين الأم . معظم الباعة من النساء

الجماليّات بقاماتهن الرشيقة وبشرتهن الصافية، أما الرجال ففي الجيش والمزارع والمصانع.

مررنا على (هونغ كونغ) لكن شتان بينها وبين (تايوان) فلا صديق نعرفه، ويبدو أن الدولار والجنيه الإسترليني قد سرقا منهم الابتسامة، فالمتاجر مشغولة بالبائعين وما لم ير أحدهم جيبك متفتحاً فلن يحدّثك.

وصلنا محطتنا قبل الأخيرة (سنغافورة). أي معجزة صنعت هذه الجزيرة؟ لوحة فنية أبدع الخالق صنعها. ذهبت إلى المكتبات أبحث عن سر تألقها، وزرت سفارة المملكة أسألهم.

صنعت معجزتها عوامل من أهمها: اهتمام بالغ بالتعليم كمّاً ونوعاً، ومحاربة لا هوادة فيها للفساد وخاصة المالي بدءاً بالوزراء، «تنظيف الدرج يبدأ من الأعلى للأسفل»، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب، (أهم عوامل نجاح المؤسسات حسن اختيار قادتها)، التركيز على تنمية البلد اقتصادياً، واستقطاب الاستثمارات الأجنبية، وعلاقات متميزة مع الأقوياء أصحاب القرار في هذا العالم، واهتمام بالغ بالبيئة.

تمنيت لو أن قادة العالم الثالث الذين وصل معظمهم على ظهور الدبابات وبمباركة أصحاب المصالح، تعلموا بعضاً من دروس سنغافورة التي لا تملك عشر ما لديهم من مصادر طبيعية. أستغرب كيف يتاح للقادة فرصة قيادة الأمم وتخليد أسمائهم في سجلات العظماء، ومع ذلك يكتفون بتوريث من بعدهم المال والمنصب مع ما يتبعهما من مشاحنات على الإرث الثقيل.

الفساد داء استشرى حتى صار يستقبل السائح في المطارات وفي

الشوارع، وعلى وجوه الأطفال وعند أبواب المستشفيات. لو يعلم كل حاكم كيف سيحكم عليه التاريخ وإلى أين مآله لما ظلم ولما سرق. الله درك يا (سنغافورة) الجميلة ويا مهندس نهضتها رئيس وزرائها السابق (لي كوان يو Lee Kuan Yew) أعطيت درساً عملياً كيف تبنى الدول، وعريت من تكاسل عن اللحاق بركب الناجحين.

المحطة الأخيرة (ماليزيا) وصلناها بالقطار، ومع أننا حجزنا في الدرجة الأولى، إلا أنه كان كثيباً، وكل ما فيه يوحي بالإهمال والقدم، لكن عزاءنا رؤية تلك المناظر الطبيعية الخضراء على طول الطريق الذي تحفه أشجار نخيل الزيت بأوراقها العريضة والشديدة الخضرة لكثرة ما تستحم بمياه المطر.

كانت زوجتي جالسة قبالة النافذة تستمتع باللوحة الفنية التي رسمتها الطبيعة عندما فاجأها حجر رماه شخص من الخارج، لكن لطف الله وجود طبقتين من الزجاج حماها، وانحصرت الخسائر في كسر الزجاج الخارجي وأخافها كثيراً، مما اضطرها لتغيير مكانها وقطع عليها متعة التأمل.

في صباح اليوم الثاني ذهبت مع زميلي للسلام على سفير المملكة في (كوالالمبور) محمد الشبلي رحمه الله، المشهور بكرمه ومواقفه مع أبناء المملكة، بصرف النظر عن مكان قدومهم. وضع سيارة وسائقها تحت تصرفنا ودعانا في المساء للعشاء.

كان في مكتبه شخصان من المملكة، واحد من مكة وآخر من المنطقة الشرقية، وقد دعاهما إلى الغداء معه في البيت، كان الشبلي رحمه الله عميد السلك الدبلوماسي في (كوالالمبور)، ذكر أنه قد جاء للتو من زيارة سفير الصين المريض، لم يكن في ذلك

الوقت علاقة بين المملكة والصين، وعندما استغرب سفير الصين هذه الزيارة، قال له الشبيلي: ديني يأمرني بزيارة المريض قبل العرف الدبلوماسي.

في المساء حضرنا جميعاً إلى بيت السفير حتى الأطفال، لعب معهم وأشعرهم بالأبوة، قدم لنا عشاء شهياً بحضوره، وظل يلح على الجميع بالأكل وخاصة النساء المحافظات على أوزانهن. قال الولد وهو يشير إلى أنواع الفاكهة: في الفندق لا يقدمون لنا مثل هذه الفاكهة، ضحك السفير رحمه الله وصار يرسل إلى الفندق مختلف أنواع الفواكه يومياً.

أشعرنا السفير بأننا بحاجة إلى خادمة، فما كان منه إلا أن نادى على أربع كن في بيته، وقال لزوجتي: اختاري من تشائين، وفي حال موافقتها ستغادر معكم في نفس الطائرة إلى المملكة.

ماليزيا مثال للبلد الإسلامي الذي يحاول أن يلحق بركب الحضارة، متمسكاً بقيمه ودينه. وضعوا رؤية صاغها مهندسها (محاضرير محمد) الذي سيذكره التاريخ واحداً من بناء ماليزيا الجديدة، كلمات بسيطة لكن تحقيقها صعب جداً قال: في عام 2020 نريد ماليزيا دولة متقدمة، مما يعني مراجعة كل شيء بدءاً بالتعليم، أهم عناصر النهضة. لا تعارض بين الدين والتقدم، لكنّ هناك تعارضاً بين التقدم والانغلاق.

ليسوا ملائكة

منطقة الطائف قريبة من البحر الأحمر مما حمل الكثير من المستشارين الغربيين على تعلم رياضة الغوص في البحر الأحمر الذي يعد من أجمل مناطق العالم لهذا الغرض، فيه من الشعب المرجانية والنباتات وأنواع السمك الشيء الكثير. كانوا يذهبون في كل نهاية أسبوع ومعهم السيارات الكبيرة بالدفع الرباعي، ولا يأتون إلا يوم الجمعة مساءً.

دفعني الفضول لأعرف ماذا يفعلون في البحر إلى درجة أنهم لم يتخلفوا عن الذهاب ولو لمرة واحدة، أخبرتهم أنني سأذهب معهم في نهاية الأسبوع ومعني عدد من الضباط للاستفادة مما لديهم من وسائل ترفيه، استمتعنا جميعاً بمراى البحر، واستعرنا بعض معداتهم وشاركنا في صيد السمك وأكله، لكن ساءني عبثهم بالبيئة دون إحساس، في طريقهم إلى البحر يأخذون ما يصادفهم من عجلات السيارات المرمية على جوانب الطريق بكثرة، وعند وصولهم إلى الشاطئ الجميل يرصون بعضها فوق بعض بشكل دائري يرتفع إلى حوالي مترين ثم يشعلونها، تبقى المنطقة مضاءة طوال الليل، ويتحلقون حولها جالسين على الكراسي يتسامرون، حتى قهوة الصباح يغلون ماءها من جمر نار البارحة، وينطلق الدخان السام إلى عنان السماء وتتلوث الشواطئ الجميلة بالمخلفات.

في صباح السبت استدعيت من كان معي بالأمس من المستشارين ومعهم رئيسهم، لأخبرهم أن شواطئنا الجميلة وبيئتنا تستحق أفضل من هذه المعاملة، وذكرت لهم كيف كان زملاؤهم من كبار السن ومن نفس البلد يحافظون على البيئة في الظهران، كيف كانوا ينظفون الشاطئ حتى ولو كان من فعل غيرهم، قدم رئيسهم أسفه ووعد بعدم تكرارها.

للطائف إمكانات هائلة ليكون واحداً من أفضل المصايف في المملكة، يمتلك الموقع القريب من مكة وجدة، حباه الله جمال الطبيعة الذي لم يستغل، لو كان في إحدى الدول التي تعتمد على السياحة لصارت له شهرة عالمية.

* * *

اشتكى أحد الأسراب من سوء ألفاظ أحد المستشارين الذين وصلوا حديثاً، وأنهم يرغبون في نقله من السرب، استدعيت ذلك المستشار، ووجدت لديه تجارب وساعات طيران كثيرة ولديه حماسة للتدريب، لكنه يجهل ثقافة البلد الذي وصله حديثاً، استبدلته بمدرب آخر وأعطيته التعليمات ليصبح هذا المستشار واحداً من أفضل من مرّ على السرب علماً وخبرة.

قبل رحيل هذا المدرب اقترح أحد الضباط أن يستفاد من هذا المستشار قبل مغادرته بتقديم دورة مكثفة لثلاثة من الطيارين عن أفضل ما لديه، استمرت الدورة ستة أسابيع، أصبح بعدها هؤلاء الثلاثة مرجعاً في التخطيط والحسابات المعقدة للأسلحة المختلفة.

طلائع الصحوة

وصل إلى السرب جيل مختلف عن الضباط الموجودين، أحدهم تخرّج للتو من الولايات المتحدة، كان قوي الإيمان والبنية، لكنه لم يستطع أن يتأقلم مع الضباط وخاصة مع المستشارين الأجانب. كان واحداً من أفضل الطيارين، إذا أمسك بمقود الطائرة صارت طوع يديه، لديه ذاكرة قوية وشخصية مؤثرة ونبيل أخلاق وحسن مظهر، لكنه صرف جل وقته لما تعلم من العبادات، وأعطى القليل للعبادة التي من أجلها دخل القوات المسلحة.

اشتكى أحد المستشارين من قلة اهتمامه وعدم تجاوبه معه قال المستشار: هذا طيار ممتاز لو استطاع أن يوفق بين دينه وعمله، إنه يتصرف كشيخ في السبعين، لقد وأد الطفل الذي في داخله.

حاورته مراراً محاولاً إقناعه بالتسامح وبعد النظر والتقليل من مظاهر التدين المبالغ فيها، كان يخرج في كل مرة بوعده للتغيير، لكن الحماسة الشديدة لما تعلم، والبرمجة المبكرة جعلتا التغيير مستحيلاً.

الشخص الثاني كان عصامياً ومجتهداً، لكنه كان سريع الغضب إلى حد القطيعة مع من يختلف معه في الرأي، استدعيته وناقشته، وقلت له: أنت تسيء إلى نفسك وإلى الدين بهذه التصرفات، قال الضابط: أعلم ذلك لكنها طبيعتي الحادة، ثم أورد قصة حصلت له

مع أخيه في البيت ندم عليها كلما تذكرها أيما ندم. يقول: أتيت من الصلاة في الحرم ووجدت أخي جالساً في البيت لم يصل، نهفته فرد علي، فاشتبكت معه في عراقك وصراخ سمعته أمي وجاءت مسرعة، حاوَلت التدخل فدفعتها بقوة دون أن أشعر لشدة الغضب، خرجت من البيت مسرعاً كالعاصفة وعدت إلى الحرم، قام أخي واحتضنها ومسح على جبينها وقبّل رأسها وبقي عندها حتى هدأت، لكنه قلب الأم يسكن مع أبنائها أكثر مما يبقى في صدرها، قالت لأخي: إذهب للحرم وابحث عن أخيك وعودا معاً.

أكد لي الضابط أنه سيبدل جهده للتغيير، لكنه لم يتغير، وكيف يتغير من اجتهد المعلمون المؤدلجون في برمجه على مدى سنين؟

هل كان هذا التغيير نتيجة لحركة جهيمان في الحرم؟ لا أعتقد ذلك، لأن تلك الحركة لم يمض عليها سوى ثلاثة أعوام، تلك الحركة كانت نتيجة ولم تكن سبباً، لكنها البرمجة الخاطئة في المدارس، ركّز قادة الصحوة منذ البداية على التعليم، وركزوا على العبادات المقيدة المعروفة والمظاهر، وحصروا العبادة فيها. لم يقولوا: إن العمل عبادة، والقوة في العقل والجسم والمال عبادة، لم يؤمنوا أن الفن الرفيع الذي ينشر الفضيلة ويحارب الرذيلة عبادة، لم يحاربوا أسوأ ما في المجتمع من أمية وجهل وفقر وفساد مالي وإداري ومخدرات، لم يقولوا إن القمع مهما كان مصدره هو الوسيلة المثلى لنشر الفساد وترويج الأفكار الفاسدة. وأن حرية الفكر واحترام العقل هما الطريق إلى دين معتدل متسامح لا يخشى الظلام، وأن عظمة الدين في تهذيب الأخلاق والحبّ والتسامح.

ركزوا بدلاً من ذلك على المظاهر في الملبس والهيئة، والتوسع في سد الذرائع وتوظيف الولاء والبراء لأغراض حزبية وأيديولوجية.

كان شباب الصحوة من خيرة الشباب، وكان من الممكن أن يقفزوا بالوطن إلى مصاف الدول المتقدمة لو اتجهوا للمستقبل بعلومه بدلاً من الركون إلى الماضي الذي لم يحسنوا الاستفادة من جوانبه المضيئة، واكتفوا باجترار تناقضاته وهمومه، لو اتجهوا للبناء مرفقاً بالدعاء بدلاً من الدعاء فقط، لو ركزوا على ما في الدين من حب وتسامح وتعاون، ركزوا على الاختلاف بدلاً من الإلتلاف فكان الاحتقان الطائفي الذي زاد مع الصحوة وقيام الثورة الإيرانية التي لها طموحاتها في هذه المنطقة المنكوبة من العالم، ولم تتعلم من أخطاء من سبقوها.

في القرآن الكريم وسيرة الرسول ﷺ ما يعزز قيم الحب والتسامح، لكن قادة الصحوة لهم برامجهم الخاصة بهم، وأساء ما ابتليت به الأمة أنصاف المتعلمين الذين ظنوا أنهم يملكون الحقيقة كاملة والويل لمن يخالفهم.

كان الدليل على صفاء وأصالة معدن جيل الصحوة وحبهم للخير توجيههم إلى جبهات القتال وتعريض أنفسهم للهلاك، وحرمان أنفسهم من الكثير من المتع التي يتوق لها الشباب، كنت أراهم بكثرة في معارض الكتاب، وأراهم يسرون مع الجنائز طمعاً في الثواب، وهم القائمون على الجمعيات الخيرية باذلين في سبيلها الكثير من الجهد والمال، لكنهم لم يعلموا أن ما يظنونه جهاداً كان لعبة دولية كبيرة، جعلت من دول العالم الثالث رقعة شطرنج تحرك فيه الدول الكبرى أحجارها لتوسيع نفوذها وبسط سيطرتها. جندتهم

وسهلت مهمتهم قيادات حزبية محلية وعالمية رأت الفرصة مؤاتية للتغيير على مستوى الأمة.

لم يفهموا أن لكل زمان جهاده، وإن الجهاد في هذا الزمان في مراكز الأبحاث وبين رفوف المكتبات، وما تحويه الحاسبات وما يجري من تجارب في معامل الجامعات. وأن رفعة الوطن هي أسرع وسيلة لرفعة الدين، وأن رفع مستوى المعيشة للمسلمين خير دليل عملي على التأثير الإيجابي للدين. أليس العالم بأجمعه يتجه إلى اليابان يبحث عن سر تقدمها؟ يدرس رجال الاجتماع ومتخصصو التعليم والاقتصاد سر تفوق اليابان. لا تقدم إلا بثقافة تفضح الجهل وتمجد العلم والعمل وتجعل من قيمة الفرد وحرية محور اهتمامها. يردد الألمان ثلاث كلمات ويعلمونها لأبنائهم (العمل يهب الصحة). أكثر الدول غنى ورفاهية، أكثرها عملاً وإنتاجاً. كثرة الكلام والتنظير وقلة الإنتاج وادعاء الكمال مصيبة تغلغت في ثقافتنا.

لن يكون الحل إلا بفكر ونظرة مختلفة عن الفكر الذي أوجد هذا الوضع. يقول العالم (آينشتاين) «المشاكل الشائكة التي نواجهها لن تحلّ بنفس تفكيرنا الذي كان لنا عندما أوجدناها».

الاتجاه شمالاً

أتيت من الشرق إلى الغرب. أمضيت خمس سنوات من أجمل سنوات عمرك بالمنطقة الغربية، كانت بين (1981 - 1986) فلماذا لا توجه البوصلة نحو الشمال؟ هناك طائرات ينتهي عمرها وتحال إلى التقاعد ويبقى الإنسان.

لا يوجد أفضل من هذا السرب ليقوم بالمهمة نيابة عن بقية الأسراب. أنت عسكري وليس لك الخيار، بل من أهم أسس العسكرية أن تكون جاهزاً لتلبية النداء في أي وقت وأي مكان. ليس مقاتلاً من يرتدي اللباس العسكري ثم يبحث عن الراحة بين أهله وذويه، أن تدخل هذا المجال هو أن تنذر نفسك لما هو أهم من النفس والأهل والمال، لدى رجال القوات المسلحة مهمة لن يقوم بها غيرهم.

فوق جبال السروات الممتدة من جنوب الجزيرة العربية حتى شمالها طار السرب وقائده في المقدمة يتبعه البقية كسرب من الطيور المهاجرة. كل تشكيل يتكون من أربع طائرات، متوجهاً نحو الشمال، محطتهم القادمة تبوك حديقة الشمال وغوطته.

شعور غريب أن تمتطي طائرة مقاتلة في صباح باكر وأشعة الشمس لم تلامس الأرض بعد، وأجمل منه عندما تكون على ارتفاع ثلاثين ألف قدم. طبقات من الجو لا تصلها ذرات الغبار

ولا تحركها أجنحة الطيور، خلف مقود الطائرة المقاتلة تستمتع برؤية الفضاء الواسع وترى عظمة هذا الكون وروعته، وتحس بأنك قريب من خالقه ومبدعه، ويزيد وجود السحب الجو جمالاً، تلك السحب التي ترسم لوحاتها الجميلة بين الأرض والسماء، مبشرة بيوم ممطر جميل، وموسم ربيعي واعد.

قبل قليل جاوزنا تلك المدينة التي تهفو إليها أفئدة المسلمين من كل مكان (مكة المكرمة)، وها هي المدينة المنورة بمسجدها النبوي الشريف ومناراته العالية تشاهد من علو ثلاثين ألف قدم. وطن عظيم بما يحويه من مقدسات وخيرات، لكنه أحوج ما يكون إلى المخلصين من الرجال والنساء ليحجزوا له مكانه اللائق بين الأمم المتقدمة.

نزلنا في القاعدة فوجدنا في استقبالنا قائد القاعدة وأركانه مرحبين ومهنيين بسلامة الوصول. ما هذا الطقس الجميل الذي ينافس الطائف باعتدال جوه حتى في فصل الصيف؟

في القاعدة تبدأ معركة جديدة من أجل تأمين السكن للضباط والفنيين وتعديل الورش لتناسب الطائرات الجديدة. الإمكانيات جيدة، ومن سبقنا اجتهد وبنى ليجدها من جاء بعدهم مهياً لهم، علينا أن نبني كما بنى من قبلنا.

أفضل وسيلة لتذليل العقبات هي إقامة علاقة طيبة مع المسؤولين وخاصة قائد القاعدة الذي هو الأمر الناهي. لن يجني المرء شيئاً من الصدام وكثرة الشكاوى. أكبر خاسر من يضيع وقته في شجار مع الآخرين، وخاصة في الحياة العسكرية. دعمنا قائد القاعدة بكل قوة، لكن لا بد من الإلحاح والمتابعة لسرعة الإنجاز. تذكّرت قول

ابراهيم لينكولن: (لا تتشاجر أبداً، فليس هناك إنسان قرر أن يصنع من نفسه شيئاً، يستطيع أن يضيّع وقتاً في مشاحنات شخصية والأفضل لك أن تتخلى عن طريقك لكلب، بدلاً من أن يعقرك).

مدينة تبوك والقاعدة على الأخص هي الأفضل لتربية الأبناء والعناية بالصحة. كل شيء متوافر، الوقت والمكان والجو الجميل والصحي، في القاعدة صالة رياضية حسنة التجهيز مماثلة لما في غيرها من القواعد، تعد واحدة من أجمل الصالات وأكثرها فائدة. مكونة من ثلاثة أدوار ومسبح بمقاييس أولمبية، وبها أفضل المدربين في ذلك الوقت. أحدهم من كوريا ويدرب رياضة (التايكواندو) هذه الرياضة التي انتظمت بها مع طفلي، مبتدئين بالحزام الأبيض ومتدرجين حتى الحزام البني بدرجاته الثلاث.

لم أنس أن أعلمهما السباحة، وأشركهما في السباقات المختلفة.

لكن الأبناء بحاجة إلى أكثر من الرياضة، الرياضة تبني الجسم وتزيد من ثقة الطفل بنفسه وتعوده على أهمية العمل الجماعي وتنمي فيه روح القيادة، لكن ماذا عن جوانب الثقافة والفكر والتفوق بالدراسة؟ ليس لهذه حلّ سوى تعويدهم على حبّ القراءة.

علماء التربية يقولون إن الطفل الناجح في دراسته بمختلف مراحلها وخاصة الجامعية، هو القارئ وليس الذكي كما يردد دائماً، ويضيفون إن الطفل يتعلم حبّ القراءة بين السنة الأولى والثانية من عمره، يبدأ بمشاهدة الصور وربط بعضها ببعض، ثم قراءة قصص الأطفال عليه قبل النوم، وإعطائه قصصاً ومجلات خاصة بالأطفال، بعدها يبدأ بتحديد ميوله في القراءة ويصبح قارئاً

جاداً مميزاً ناقداً لما يقرأ، وفي المراحل الأخيرة قد يصبح كاتباً.

بدأت أنا وأهمهم نأخذهم إلى المكتبات بدل دكاكين الحلوى والبطاطس، نترك لهم حرية شراء ما يشاؤون ونذكّرهم بشراء أقلام ملونة وكراسات رسم، نحرص على اشتراكهم في مجلات الأطفال ونحثهم على مراسلتها، أوجدنا في البيت موسوعة مليئة بالمعلومات والصور مع حثهم على استخدامها، يرمي الطفل ما لا يعجبه من الكتب سريعاً، لذا حرصنا على عدم إجبارهم على نوع معين من الكتب، المهم أن يقرأوا ويتعدوا عن التلفزيون ما أمكن ذلك. يقول علماء التربية: لن تجني من مشاهدة قصة في السينما أو التلفزيون نفس الفائدة التي تجنيها عند قراءتها في كتاب.

نتحدث كثيراً عن برّ الوالدين، وعظم الأجر لمن يحسن إليهما، ولا نتحدث عن تربية الأبناء بما فيه الكفاية، مع أنها أخطر وأهم. فالكبير بحاجة إلى الاحترام والرعاية بأنواعها، أما الصغير فبحاجة إلى ما سبق وأكثر، هم أهم استثمار لمستقبل الأمة.

وضعت برنامجاً لطيفي السرب. عليهم الذهاب إلى الصالة الرياضية ثلاث مرات في الأسبوع. يختار الطيار الوقت المناسب، ويسجل اسمه، وترفع الأسماء لقائد السرب في نهاية كل أسبوع. وجدت الفائدة في الرياضة فقررت تعميمها، الإنسان كسول بطبعه وبحاجة لمن يساعده على التغلب على كسله. يعرف من يمارسون الرياضة بنشاطهم وحيويتهم وتفائلهم وخلوهم من الأمراض الجسدية والنفسية. يشعر الرياضي بالسعادة والنشوة نتيجة إطلاق الجسم لمادة (الأندروفين) التي تمنع إشارات الألم من الوصول

إلى المخ، ويقول العلم الحديث أنه في أحيان كثيرة يتفوق (الأندروفين) في تسكين الألم على مادة (المورفين) المخدرة.

وقفت مرة أمام عمليات السرب، فرأيت طياراً عليه علامات الخمول والإحباط، كان كغصن ذابل لا يأخذ كفايته من الماء، سألته: متى كانت آخر مرة مارست فيها الرياضة؟ فرد الطيار: قبل ثلاثة أسابيع، طلبت منه أن يذهب يومياً إلى الصالة الرياضية مدة أسبوع ثم يخبرني بالفرق، داوم الطيار على الرياضة، ثم جاء إلي يشكرني وهو بشكل ونفسية مختلفة. كنت أعرف أنه يعاني من مشكلة، لكنني لا أريد أن أناقشها إلا إذا بدأها. عليّ أن أبدأ بأسهل الحلول وأنفعها، لن تحل المشاكل بتذكرها ولا بحمل همها، ألم يقل المثل: (يومان لا تحمل همهما، يوم مضى لا يمكن استرجاعه ويوم قادم في علم الغيب ولا يعلم ما به). وآخر قال: (كم حملت هموم وألم أمور لم تقع لي). هموم ومسؤوليات أسرية وشخصية كثيرة لن نحلها بإيذاء أنفسنا.

أسوأ ما يصيب المؤسسات سواء كانت عسكرية أو مدنية، تدني الروح المعنوية وسريان الروح الانهزامية بين أفرادها، والتي من أهم أسبابها سوء القيادة وعدم اهتمامها بمشاكل أفرادها، والفراغ وتدني الإنتاجية، ووجود قادة أو مُديرين كسالى بمعنويات هابطة يصيب الوحدة بالشلل، ويؤثر سلباً على أفراد الوحدة وخاصة القادمين الجدد. تعرف المحبطين من كثرة شكواهم وتذمرهم وقلة إنتاجهم، كنت أحذر منهم دائماً وأقول في أكثر من مناسبة: هؤلاء أشد تأثيراً علينا من العدو لأنهم بيننا ونصدّق ما يقولونه بسرعة.

لدى الغربيين هوايات ومتع كثيرة فيها روح المغامرة، لم لا نستفيد منهم؟ أليست الحكمة ضالة المؤمن؟ لديهم نادٍ صغير للدراجات كان يقوم عليه مدرب بريطاني ذهب مع ذهاب الطائرات القديمة، قررت إحياءه ووجدت عدداً من المهتمين بهذه الرياضة من ضباط السرب، صارت الدراجة الهوائية هي وسيلة التنقل لهذا الفريق داخل القاعدة.

قرر بعض أفراد النادي الذهاب في نهاية الأسبوع إلى (ضبا) الشاطئ الجميل على البحر الأحمر، على الدراجات. المسافة مئة وثمانون كيلومتراً. كنا ستة، اثنان من أمريكا وأربعة من طياري السرب. سرنا في صباح يوم جميل تبعدنا سيارة فيها ما نحتاجه أثناء الرحلة ولما بعد الوصول. اخترنا أفضل فصول السنة، وأي فصل أفضل من الربيع؟ سرنا في الصباح الباكر وشمس الصباح تطبع ألوانها الذهبية على دراجاتنا، وروائح زهور الربيع تستقبلنا. نتوقف كل خمسة عشر كيلومتراً لشرب الماء والراحة قليلاً. توقفنا بعد مئة كيلومتر محطتنا الأخيرة هذا اليوم، اخترنا ظل شجرة وأنزلنا الكراسي وجلنا بأبصارنا نحو كثبان رملية خلفها كثبان، هناك بدوي يعبر الصحراء بسيارته حاملاً الماء لما يملك من ثروة في هذه الصحراء. داعبنا الشجيرات وسقيناها ما بقي من الماء. تناولنا غداء بعيداً كل البعد عن التكلف، قطع من الخبز المدهونة بالجبن وبيض مسلوق وعصير طازج، بعد الغداء حملنا جميع مخلفاتنا ودراجاتنا في السيارة واتجهنا إلى الشاطئ الجميل. كانت مغامرة بسيطة لكنها مهمة لحفز الهمم.

استمر النادي في القاعدة لكن مع بعض المنغصات. من أهمها

عدم تعود الناس على مرأى ضابط يركب دراجة، بعضهم يستخدم المنبه للسلام والتعجب، وبعضهم يعرض عليك إيصالك وبعضهم يخاف عليك، جاء أحد الضباط من أعضاء النادي ممتعضاً وغاضباً ومتأخراً عن إيجاز الصباح، أوقفه الجندي الواقف على البوابة باجتهاد منه ودون أوامر يستند إليها، قال له: ممنوع دخول الدراجات الهوائية، حاول صاحب الدراجة إقناعه وقال له: إذا كانت السيارات تدخل فما المانع من دخول الدراجة؟ في هذه الأثناء كانت الدراجة تستلقي بهدوء على الرصيف، تنصت لما يدور بينهما مستغربة جهل الناس بأهميتها، وما هي إلا لحظات وإذا بواحد من الإخوة الباكستانيين يدهمها بسيارته القديمة لاوياً عجلتها الخلفية.

في البحر يمارس الأجانب رياضة الغوص ويستمتعون بها أيما استمتاع، خصوصاً أن البحر الأحمر واحد من أجمل مناطق العالم لهذه الرياضة، ما المانع من تعلمها؟ ألم تقل أم زميله: (من له عيون وراس فليعمل ما يعمله الناس). لم تقل عيون فقط بل ربطته بالرأس مصدر الفكر والتحليل. لم لا نتعلم في بيوتنا ومدارسنا حب الصحراء والبحر وعشق المغامرات المدروسة؟ لم لا نستمتع مثل غيرنا بمرأى النجوم في الليل ونحتفل بالليالي المقمرة؟ وشروق الشمس ومنظر الغروب؟ لم لا نتعلم حب الطبيعة وما تزخر به من جمال ونعلمه لأبنائنا، ونحثهم على احترام البيئة وعدم العبث بها وتركها دائماً نظيفة، وترك ما بها من طير وحيوان يعيش ويتكاثر آمناً نراه ونسمعه كلما خرجنا إلى نزهة؟ بدلاً من الاحتفال بمطاردته وقتله. أخفقت البيوت والمدارس والمساجد والإعلام في إيصال هذه الرسائل المهمة.

ذهبت إلى قائد القاعدة ومعني مشروع لنادٍ ثانٍ هو نادي الغوص . أخذت معني دراسة بسيطة فيها التكاليف وطريقة التنفيذ، قائد القاعدة من القادة المحبين للحياة، يتدفق نشاطاً وحيوية . كثيراً ما يزور الأسراب وخط الطيران ومحالّ صيانة الطائرات، رحب بي وأجلسني وقرأ الدراسة فوراً، التكاليف خمسة عشر ألف ريال قيمة المعدات لسته طالبة، وألفا ريال لإعادة تأهيل المدرس الأجنبي الموجود في القاعدة، المكان داخل الصالة الرياضية، نحتاج لفصل دراسي في الصالة وبعض الدروس تطبق في المسبح، والتطبيق العملي في البحر نهاية الأسبوع، وافق على كل شيء وشدّد على عنصر السلامة .

بعد شهر كان خمسة ضباط ورقيب فني يعمل في الإطفاء منتظمين بالدورة التي هي من شقين، نصفها في الفصل والنصف الآخر في المسبح والبحر . بعد مرور شهر على الدورة كان قائد القاعدة يحضر حفلاً بسيطاً بمناسبة تخرجنا مع شهادة غوص معترف بها من نادي (بادي) الأمريكي . استمر النادي يؤدي دوره في تخريج الغواصين الذين أسهم بعضهم في ما بعد في عمليات بحث وإنقاذ مع الدفاع المدني .

لكن كلّ مشروع ناجح يختنق إذا لم يجد من يتبناه، وما لم يكن هناك جهة رسمية ترعاه وتحافظ عليه فحتماً سيتوقف بعد رحيل مؤسسه، وهذا ما حصل لنادي الغوص . لكن رياضة الغوص انتشرت واستمرت، وبعض أعضاء النادي تابعوا دورات متقدمة .

مرّ عليّ طبيب الطيران من الجنسية النروجية يطلب إذناً بالذهاب إلى شواطئ (ضبا) (وشرما) لممارسة رياضة الغوص مع ابنه الذي

يدرس في المرحلة الثانوية في النروج. يقول الطبيب: لقد ساعدت ابني على اختيار بحث موضوعه (الأسماك في البحر الأحمر) ننجزه في العطلة الصيفية، البحث مطلوب من كل طالب. استعد الطبيب وابنه للبحث جيداً، مرّا على مدينة جدة واشترى من المكتبة ما يحتاجه من معلومات عن الأسماك في البحر الأحمر، ومعلومات عن المنطقة، واشترى آلة تصوير تعمل داخل الماء. كانت آلة التصوير مكلفة، لكنها أقل كلفة من وليمة لضيف غير معروف.

أجرى الطالب بحثاً نظرياً وتطبيقياً وعمل على إعداده مدة شهرين هي مدة الإجازة في المملكة. بعد شهر من مغادرة الطالب إلى بلده أخبرني الطبيب أن ابنه حصل على المركز الأول على زملائه في بحوث الإجازة الصيفية.

لا غرابة أن يحصل على المركز الأول بعد هذا الجهد. ما الفوائد التي جناها هذا الطالب من عطلة الصيفية؟ وكيف سيكون تأثيرها في دراسته الجامعية وحياته العملية لاحقاً؟ لا غرو أن يفكروا ويحللوا ويبدعوا في مختلف ميادين الحياة.

تذكرت هذا الطالب ووالده وقارنتهما بما يواجهه أبناؤنا من إهمال واتكالية وخواء فكري وفراغ روحي وعاطفي، خاصة أولاد غير المتعلمين الذين يظنون أن مهمة الوالد والوالدة إنجابهم وتأمين المسكن والغذاء فقط.

الإجازة الصيفية ليست للكسل وكثرة النوم والتسكع بين المحطات الفضائية التي أكثر نتاجها غناء، وخلف الجدران بصحة الفراغ. لكنها يمكن أن تكون بحثاً ميدانياً عن مكان يقضي فيه الطلبة الإجازة بصرف النظر عن قربه أو بعده، غرابته أو إلفته.

المهم أن يمسك بورقة وقلم وكتاب وآلة تصوير، ثم يشحذ فكره وقدراته في الحاسب الآلي لإخراجه بشكل مقبول، أهم عناصر نجاح البحث العلمي عشق المادة، والمثابرة، والعمل لساعات طويلة، وتوفير الامكانيات، والعمل بروح الفريق.

قد يكون هذا البحث عن فنّ تعلمه أثناء الإجازة أو مزرعة تصالح فيها مع الطبيعة أو جبل قضى فيه سويعات مع الخلوة وطيور السكينة. قد تكون عن كتاب قرأه، أو حرفة أتقنها.

لم يصل الغرب إلى ما وصل إليه بالتمني ولا بالأمانى، ولكن بالعمل الدؤوب، والاهتمام بالتربية المتوازنة التي تعطي كل جانب ما يستحقه من اهتمام، والتركيز على الكيف قبل الكم، وأن يكون للعب نصيب من أوقات ومناهج مدارسنا. فالطالب يتعلم معظم المهارات عن طريق اللعب وخاصة في أعوامه الأولى.

بينما كنت راكباً مع قائد القاعدة في سيارته، مر من أمامنا شاب تجاوز السرعة داخل القاعدة بشكل كبير، فما كان من قائد القاعدة إلا أن انطلق خلفه وأوقفه وأسمعه بعض الكلمات الغاضبة، ثم تركه وسبيله. لكنه بقي متأففاً مما يرى وخاصة من الشباب داخل القاعدة، ومن تقصير المرور عن المتابعة.

قلت له بكل أدب:

- ما قمت به ليس مهمتك، لكل تخصصه في هذه القاعدة، وقد تتعرض لما لا تحمد عقباه.

- لكنني مضطر كما ترى، لا أحد يوقف هؤلاء المتهورين.

- هناك خطأ من جانب وتقصير من الجانب الآخر.

الجانب الأول مشكلة تهور الشباب في القيادة وهذه مشكلة

وطنية، وليست محصورة في القوات الجوية فقط. هل سألنا على المستوى الوطني: من علمهم قيادة السيارة بالشكل الصحيح؟ ما دور الآباء والمدارس والمساجد والإعلام والمرور؟

أما المشكلة الثانية فداخلية، وهي تقصير مرور القاعدة، ولدي حلّ لذلك: شكّل لجنة برئاسة من تراه لاختيار عناصر جديدة من المرور، وبرنامج خاص لتأهيلهم ودعمهم بما يحتاجون، ثم فوضهم صلاحيات لا تستثني أحداً من المخالفين. بعدها سترى كيف يكون النظام.

- ستشكل اللجنة من الغد وستكون رئيس اللجنة عليك اختيار الأعضاء.

اخترت أعضاء اللجنة من خيرة ضباط الشرطة والاستخبارات والتدريب، بدأت باختيار أفضل عناصر الشرطة الذين تنطبق عليهم الشروط، ومنها مستوى التعليم والثقة بالنفس والبنية الجسدية وخلو الملف من الملاحظات. ذهبت إلى مرور البلد في تبوك وطلبت محاضراً متمكناً مدة شهر بمعدل ثلاث حصص يومياً.

طلبت من الصالة الرياضية عقد دورة في الدفاع عن النفس للمرشحين لزيادة الثقة بالنفس والسيطرة على المخالفين، انتظمت المحاضرات وكنت من ضمن المحاضرين خاصة في مجال حسن التعامل واحترام الآخرين، وضرورة تطبيق النظام على الجميع، لكن بأدب وحلم.

بعد شهر نسق لحفل تخرّج للدورة يحضره المسؤول عن الشرطة في قيادة القوات وقائد القاعدة ومدير المرور في تبوك. كان عرضاً متميزاً بالدفاع عن النفس، والسيطرة على المخالفين، وحاز

إعجاب الحضور ما عدا المسؤول الذي حضر من القيادة، وكأنه غير موجود، فقد انشغل بالحديث مع جاره أثناء العرض وكأنه لا يعنيه.

كانت تجربة تستحق الدراسة والتطوير ثم التعميم، لكن وضع رجل غير مهتم في مكان مهم، يجهض كل مشروع ناجح، ويخنقه داخل أدراج الروتين.

أصبح المرور في القاعدة واحداً من أنشط أقسام الشرطة ومحل فخر المسؤولين.

عودة إلى مقاعد الدراسة

كنت أريد دورة القيادة والأركان في الولايات المتحدة لكنها أتت في المملكة في بلدة العيينة التي تبعد عن الرياض قرابة ثلاثين كيلومتراً.

وهي دورة أركان مشتركة بين القوات الأربع: البرية والجوية والبحرية والدفاع الجوي. وهذه ميزة كبيرة ليعرف قادة المستقبل زملاءهم من الأفرع الأخرى، تقول الإدارة الحديثة: إذا أردت أن تعمل مختلف الأقسام كفريق، فحطم الجدران التي تفصل بعضهم عن بعض، ليعرف كل مسؤول ما يحتاجه الآخر وما يمكن أن يقدمه للمجموعة.

ميزتها الثانية فرصة الحصول على درجة ماجستير في العلوم العسكرية. في الدورة عدد من الطلبة من الدول العربية والإسلامية وتعتمد في تقييمها الضابط على نظام الاختبارات الذي أساسه الحفظ.

أهم عوامل نجاحها حسن اختيار المدرسين المحبين للقراءة ولديهم مرونة وسعة اطلاع، وتغييرهم بشكل مستمر.

هناك محاضرون من خارج الكلية، لكنهم قلة وفي مواضيع لها علاقة بالأطروحة المراد الكتابة عنها.

صممت الدورة لتتخيم الطالب بالمواد. أحد الطلبة أصابه

الوسواس من كثرة الضغوط وقلة النوم. قال إنه مريض بالقلب، يفرك يديه ثم يبسطهما أمامي ويقول: انظر إنها صفراء، ذهب إلى المستشفى وكُشف عليه أكثر من مرة وخطط القلب. أخبروه أنه سليم إلا أنه لم يصدق وظل يشرح لزملائه معاناته مع القلب الذي كنت أعلم أنه لم يقصر في أداء واجبه. أخيراً حوّل إلى طبيب نفسي صرف له دواء أراحه وجلب له النوم.

استعنت كعادتي بالرياضة للسيطرة على الضغوط وكثرة الواجبات. أكثر الطلبة لا يمارسون الرياضة بدعوى عدم وجود الوقت. قلت لأحدهم:

- أنت بحاجة للرياضة، وزنك ومظهرك يقولان ذلك.

- ليس لدي وقت حتى للمذاكرة.

- الوقت موجود لكن ما هي أولوياتك؟ هل اشتكيت يوماً من عدم وجود وقت للأكل أو الصلاة أو النوم؟ الوقت موجود لكن لن تجده لأي نشاط إلا إذا وضعته ضمن أولوياتك وحجزت له الوقت المناسب.

الرياضة بالنسبة إلي علاج ومتعة وتجديد نشاط. لقد قال ستيفن كوفي في كتابه الممتاز (العادات السبع) تحت عنوان العادة السابعة (اشحذ المنشار) أي جدد النشاط، ثم أورد قصة ذلك المسكين الذي ظل لساعات يحاول قطع شجرة والعرق يتصبّب منه دون تقدم يذكر، فمر عليه شخص وقال له: اشحذ المنشار يعمل بشكل أفضل. لكنه رد: إنني مستعجل وليس لدي وقت. لو أخذ هذا المسكين راحة، يجدد خلالها نشاطه ويشحذ منشاره لأنهي المهمة بسرعة.

حددت مع أحد الزملاء ما بين صلاة المغرب والعشاء موعداً للرياضة نسير حيناً ونهرول أحياناً أخرى، حددنا مسافة ستة كيلومترات في كلّ مرة، خمس مرات في الأسبوع. ننتظر هذا الوقت بفارغ الصبر، ونتحدث أثناءها كثيراً عن الحياة والدراسة والعمل.

رسالة الماجستير لا بد من تسليمها قبل موعد التخرج بشهرين على الأقل. الرسالة كانت عن المواصلات في دول مجلس التعاون وأثرها في دعم المجهود العسكري.

طلب من الطلبة إعطاء محاضرة عن الحرب العالمية الثانية، وبالتحديد إنزال الحلفاء للقوات في (النورماندي) الواقع على شواطئ فرنسا لتحرير أوروبا من القوات الألمانية. وزعوا المحاضرة على الطلبة وكان نصيبي تحديد طبيعة الأرض في موقع الإنزال. ذهبت إلى المسؤول عن المحاضرة وقلت له: لا يوجد في المحاضرة شيء عن دور القوات الجوية التي أبلت بلاء حسناً في هذه المعركة، اقترحت أن أتحدث عنها بدلاً من طبيعة الأرض التي لا أتقن تحليلها. وافق ركن التعليم وأعجب بالفكرة. أعددت للمحاضرة جيداً. قرأت بعض ما كتب عن غزو (النورماندي) واستخلصت دور القوات الجوية بدءاً بالاستطلاع الجوي، ثم الإنزال المظلي، ثم المساندة الجوية للقوات البرية، وأخيراً عمليات التحريم، التي قضت على تجمعات الألمان وإمداداتهم ودمرت الجسور والطرق. حضر ركن التعليم المحاضرة وأعجب بما حوته وظل يتحدث عنها في أكثر من مناسبة.

وجود سكن عائلي قرب الكلية ساعد كثيراً، وأوجد جواً دراسياً مناسباً.

يصرف للمبتعث ما يعادل 75 في المئة من الراتب زيادة على راتبه الأساسي مما أوجد لديّ وفرة مالية لا أدري كيف أستثمرها. تذكرت تلك القاعدة الذهبية التي تقول: لا تضع بيضك في سلة واحدة، الأسهم في بداية صعودها، لذا قررت أن أشتري بنصف المبلغ أسهماً في شركة كبيرة ما لبث أن تضاعف سعر السهم عشر مرات، والنصف الثاني اشترت به مع قريب لي أغناماً، فالمزرعة لا تصلح بلا أغنام. كان سعر كيس الشعير خمسة ريالاً فقط. سياسة القطيع، الناس تتبع من في المقدمة، كل الفلاحين والبدو ركزوا على تربية الأغنام والجمال مما يعني ارتفاع أسعارها. بعد الصفقة مباشرة ارتفع سعر كيس الشعير إلى عشرين ريالاً، فملّ الناس مما عندهم ورخصت قيمتها. تمنيت لو اشترت شعيراً بدل الغنم. كل قرار لا يدرس بعناية يكون له ضحايا ومنتفعون.

* * *

بين أمي وأخيها

قربي من الرياض مكثني من قضاء وقت أكثر مع والدتي التي تسكن في تلك البلدة الجميلة التي أعشقها منذ الصغر، ولا تبعد عن الرياض سوى ساعتين. لاحظت في مشيتها بطناً وكأن قيداً يكبل قدميها، واختفت الابتسامة خلف قناع الحزن والتعب. أصبحت وحيدة بعد وفاة زوجها الذي قضت معه ثلاثين عاماً، تدهورت حالتها بعد وفاته تدهوراً كبيراً. صارت تقضي النهار في بيتها، تهتم بغنمها وبأشجار العنب والتين والليمون والنخيل المشهورة به حديقته. في المساء تذهب لتنام عند أخيها وزوجته التي هي مثل ابنتها، يرحب بها أخواها ويستعيدان معا بعض الذكريات الجميلة والمؤلمة، عاشا معاً حياة كفاح مع اليتيم والفقر والمرض، يقول لها أخواها: ألا ترين أن الحياة قصيرة إلى درجة أنني لو عدت إلى بيتنا القديم لوجدت بعضاً من لعبي؟ ألا ترين أننا محرومون من المتع؟ في الصغر كنا محرومين من الأكل لقلته، والآن محرومون خوف التخمة والسمنة والأمراض المصاحبة.

قالت أمي لأخيها: ما أجمل الحياة مع العمل والبذل للآخرين! من جرّبه سيرى السعادة تشع من عينيه قبل عيون المساكين، بالأمس جاءت امرأة ضاقت بها الحياة. ولدها لا ينفع لشيء، ترك الدراسة وابتلي بالمصائب التي جرّها على نفسه وعلى غيره. جاءت

تطلب سُلفة، أعطيتها ما طلبت وزدت عليها ما قدّرتني الله عليه وقلت: هذه صدقة، أريد منك الدعاء لوحيدي الذي هو كل يوم في مكان. تذكرت نفسي عندما رأيت دموعها تسبق الدعاء. حتى عندما أذهب إلى مناسبة غداء أو عشاء، أطلب منهم تجهيز ما بقي من الأكل وآخذه إلى بيوت الفقراء. أستمتع بمرأى الأطفال فرحين يتسابقون لفتح الباب. جذوة الحبّ في داخلنا بحاجة لمن يشعلها. كثير من المصائب من صنع أنفسنا، ومن سوء تربيتنا لأبنائنا، بالأمس زرت سيدة تزوجت ابنتها قبل ستّ سنوات، وقد تركها زوجها بعد أن حنّ لحياته السابقة وصعبت عليه ضريبة الزواج. تركها عند أمها ومعها طفل صغير، رثيت لحالها، واليوم لم أكد أعرف المسكينة من الهم والظلم وطول الانتظار، استحالت تلك الزهرة إلى بقايا امرأة، تأخر المطر فذبلت الزهرة والتحفت أوراقها الجافة وملّت الحياة. أهملت نفسها ولجأت إلى الصلاة والدعاء. تحتسي دموع الصبر والقهر صباح مساء. هاجمتها الأمراض وهدها الانتظار. كانت فتاة حالمة جميلة ولديها كتاب دوّنت فيه الكثير من الأحلام والأمانى والأشعار. أصعب شيء يواجهه الإنسان ظلم من يحب وهجره، والسهر مع النجوم والدموع بانتظاره.

سألت أمها: هل ذهبت للقضاء؟

أجابت: نعم لكنها كانت أعواماً، عام لإحضاره للمحكمة وعامان للجلسات، وفي النهاية ماطل في تنفيذ الحكم بحجج واهية. المحاكم تنوء بما لديها من مشاكل كبيرة. وبعض القضاة يرى الوقت كفيلاً بحلّ الكثير من المشاكل والاختلافات، جاءها الطلاق لكن بعد أن طلقتها الصحة والسعادة وتبخّرت الأحلام.

أسوأ المجتمعات مجتمع يتلذذ بقهر أفراده، وخاصة النساء بتركهن على أرصفة الإهمال، الإنسان أعظم مؤثر في مسيرة الحضارة، ويقاس تقدم الأمم بمدى إعطاء الناس حقوقهم، وصون حرياتهم، ومدى إسهام النساء في البناء.

قال خالي لأمي:

- جميل أن تساعدي الآخرين، لكنك تذهبين مع عامل المزرعة بالسيارة وهو ليس محرماً لك.

- سأتركه من اليوم يا أخي إن كنت مستعداً لإيصالي للمزرعة وجلب كل متطلباتي وزيارة بيوت المحتاجين، أعلم أنك مشغول ببيتك ومزرعتك وعملك.

- لكنك تركبين معه في المقعد الأمامي وألسنة الناس لا ترحم.

- لم أعر المقعد ولا كلام الناس أدنى اهتمام، ما دمت واثقة من نفسي ومما أعمل. أهم ما عندي رضا الله لا رضا الناس، أكثر الناس كلاماً أقلهم نفعاً وإنتاجاً. تذكّر عممتنا العظيمة سارة ودروسها العملية. دخولي الكثير من البيوت ومجيء النساء إليّ لطلب المساعدة، أطلعني على الكثير من المآسي داخل البيوت. هل تصدق أن رجلاً كان معتكفاً في المسجد في العشر الأواخر من رمضان ضرب زوجته حال خروجه من المسجد لخلاف بسيط في صباح العيد؟ تطور ليتحول إلى تعدد على كرامة المسكينة. يذهب كل يوم إلى المسجد ولا يدرك أن الدين المعاملة، ربما سمعها لكن لا أحد طبّقها أمامه. وشاب أدمن المخدرات يضرب زوجته عند أنفه الأسباب. تلعب بعقله المخدرات والمسكرات والعياذ بالله ثم يأتي للبيت متأخراً ويعتدي عليها فتخور قواها أمامه وكأنها فارة

أمام ثعبان، كلما ذهبت لبيت أهلها عادت إليه لأنها تحب بيتها وأطفالها، لم أر في حياتي تلك الآفة التي تسمى (المخدرات) لكنني سمعت عن مآسيها الكثير.

– هل تثقين بهذا العامل الذي صار سائقاً أيضاً؟ يشتري ويبيع ويتسلم القيمة.

– كنت أثق به في البداية. علامات التقى بادية على وجهه. اختاره ابني من بين كثير من المتقدمين للعمل في المملكة. قدّم له ابني الشاي عند إجراء المقابلة في بلده فرفض، قال: إنه يصوم الخميس والاثنين، لكن لاحظت عليه الارتباك كلما راجعت معه المبالغ في البيع والشراء، اختبرته فلم ينجح في الاختبار، عدت الغنم في المزرعة فوجدتها ناقصة. سألته عن الباقي فغضب مني وقال: ماذا تقصدين؟ سكتُ لكنّه فهم الرسالة، صرت أقوم بكل شيء بنفسي: البيع والشراء وحتى ملء السيارة بالوقود، طلبت من ابني أن يغيره بعد انتهاء عقده، لا ألومه بل ألوم نفسي على الثقة المفرطة، المال بحاجة إلى ضوابط ومراقبة وإلا ضاع.

مصيبتنا الثقة الزائدة بالناس، وخاصة من يتخذ من الدين غطاء لتصرفاته. وبعضهم يتخذ من الدين مطية ليفوز بمسكينة يخدع أهلها بمظهره وتقاه المزيف، ثم لا يلبث أن يعود أسوأ مما كان بعد الزواج.

– قبل أسبوع ذهبت إلى الرياض مع ابن عمك مع أنه ليس محرماً لك.

– مستعدة ألا أذهب معه إن كنت مستعداً لإيصالي إلى بنتي ولمراجعات المستشفى كلما احتجت. المرأة يا أخي ليست سلعة

يلعب بها الآخرون إلا إذا رغبت هي، وغاب الخوف من الله، عندها لن تستطيع أي قوة في العالم منعها مما تريد. المرأة يا أخي نتاج ثقافة المجتمع وعاداته. ألا ترى أنها تختلف من بيت لبيت، ومن بلد لآخر، ومن عصر لعصر؟ دعني أعمل وأنتج وأساعد الآخرين وأصارع الحياة. لن أكون عالة عليك ولا على ولدي، إلا إذا فقدت القدرة على العطاء. ما الفرق بين جيل اليوم وجيل عمتي العظيمة؟ بنت اليوم يخيفها كل شيء، لو عبرت أمامها سحلية أو قط أليف لصرخت، ولو رمى عليها رجل كلمة لماتت من الخوف. نحن السبب في زرع الخوف في داخلها. الرجل هو الرجل والمرأة هي المرأة في كلّ زمان ومكان. نحن بخير يا أخي، أتذكر ذلك البيت الطيني العتيق؟ كيف استبدلنا به بيتاً كبيراً وحديقة غناء؟ أتذكر يوم كنت أجلب الماء فوق رأسي في الصيف والشتاء؟ وكيف صار يصلنا بأنايب إلى داخل البيوت؟ أتذكر تلك العتمة في الليل وتلك الذبالة نطفئها قبل أن ننام؟ وكيف بددتها الكهرباء؟ أستغرب يا أخي من سرّ هذه الكهرباء، تدخل البيت أسلاكاً مغلّفة فتحوّل ناراً في الفرن وصقياً داخل الثلاجة، هواءً بارداً في الصيف وساخناً في الشتاء، ليتني أعرف سرّها. انظر يا أخي إلى الجوانب المضيئة من الحياة. للظلام فوائده أيضاً، دعك من المتشائمين فهم أتعس الناس وأقلهم إنتاجاً. يسعون جاهدين لإتعاس الآخرين. أوافقك يا أخي لسنا مجتمعاً مثالياً لكن لو قام كل مواطن بما عليه من واجبات لتحسّنت أحوالنا، مصائبنا منا وفيها، وكما نكون يوئى

علينا . ولو أصلح كلّ منّا نفسه ومن عنده، لصلح المجتمع، لو أطلق كل منا صرخة في وجوه الظالمين، والفاستدين، لأخفناهم ولاختفى الظلم والفساد. الظالم والسارق يمشيان على أصابع قدميهما خشية إيقاظ العدالة .

تذكّرت وأنا أستعيد ما حدّثتني به والدتي عمّا دار بينها وبين أخيها، المثل الصيني الذي يقول «خير للمرء أن يضيء شمعة بدلاً من أن يلعن الظلام» .

* * *

عودة إلى الشمال

انتهت دورة القيادة و الأركان في نهاية عام 1987 وكانت النتيجة ممتازة، لكن لم أكن من العشرة الأوائل، حصلت على امتياز في الرسالة أيضاً. عدت مع أسرتي إلى تبوك.

تغير السرب بتغير القيادة. غبت عنهم سنة كاملة فتغير الكثير: توقفت الرياضة، وقلت المناسبات الاجتماعية، تفرق الشباب إلى مجموعات صغيرة. انعكس ذلك على الروح المعنوية وعلى العطاء. لا بد من العمل على تصحيح الأمور، أعدت الاجتماع الأسبوعي الذي يعد مناسبة للعشاء وإعطاء فرصة ليتحدث الجميع. أعدت الرياضة، لكنني وجدت صعوبة، ولولا الأوامر العسكرية والتقارير نهاية العام لما مارسها بعض الكسالى.

منظر والدتي لم يعجبني. كما أنني عملت خارج الرياض حوالى عشرين عاماً. ليتني أنقل للرياض، لكنني لن أذهب إلى أي مكان لمجرد أنه شاغر، ولن أطلب النقل إلا إذا ساءت الأمور.

جاءني الفرج من القيادة لأطلب بالاسم مديراً لإدارة مهمة في القيادة. حاول قائد القاعدة ثنيهم عن نقلي لكنهم أجابوا: لن نقبل غيره وعليه الحضور.

لبيت النداء، وحلقت كطائر في أكثر من مكان، شاهدت بلادك

الجميلة من علو وبنيت عشاً فوق أكثر من شجرة. وعاشت نجاحات كثيرة وإخفاقات كثيرة أيضاً. عشت حلاوة النجاح بحصول سربك على المركز الأول في مسابقة ضرب النار أو ما يسمى (Top gun) والثناء على أفراده في كل مشاركة. كان من أهم عوامل النجاح التركيز على المهمة الأساسية التي من أجلها وجد السرب، وحضور القائد كل نشاط ومناسبة، والعدل بين الجميع وعدم المحاباة على أسس قبلية أو مناطقية أو مذهبية ورفع الروح المعنوية في كل مناسبة.

لكن الحوادث بأنواعها هي أكبر المنغصات، حوادث السيارات والطائرات، معظمها مخالفات لأوامر كتبت بدماء من سبقهم. لكن لله في ذلك حكمة، تمر بنا مواقف لا يمكن تفسيرها إلا بإيمان عميق، بأسرار لا يعرفها سوى موجدتها.

سأترك تبوك بهوائها العليل وأهلها الطيبين القانعين، بصحرائها الجميلة ورمالها النظيفة وشواطئها الرملية الحانية وتلك الشعب المرجانية التي تضاهي أجمل ما في بحار العالم، إلى الرياض حيث الزحام والتلوث والضجيج تقذفه المصانع والعربات.

عليّ قبل أن أغادر تبوك أخذ إجازة طويلة مدتها شهران، شهر لأسرتي الصغيرة وشهر لوالدتي. قررت أن تكون إجازة أرى فيها ما قد لا يتاح لي رؤيته بعد اليوم. بدأتها مع أسرتي الصغيرة بمدينة (الوجه) بموقعها المتكئ على البحر الأحمر وبهوائها العليل وجوها المعتدل معظم فصول السنة. مررنا شمالاً على (ضبا) ونمنا ليلة في (شرما) واسترحنا في اليوم الثاني في (مقنا). ما هذا الجمال المتخفي عن الناس في هذه الجبال التي تمد أقدامها حتى البحر؟

وهذه الأودية التي تعود لمصدرها . كل أنواع المتع والحُب يمكن أن تنمو هنا .

هل يمكن أن آتي إلى هنا ولا أزور العقبة؟ على الجانب الآخر (إيلات) وما يحمله ذلك الجانب من ذكريات أليمة، كل شيء في العقبة متواضع، فنادقها ومطاعمها وأسواقها . علينا الذهاب إلى عمّان ومنها نأخذ الطائرة إلى مصر، لكن قبل ذلك لا بد من رؤية البتراء . تلك المعجزة النائمة بين الجبال، معابد ضخمة نحتت من الصخور وممرات وطرق تفصل بين كل تحفة معمارية وأخرى . بيوت بنيت في أعماق الصخور يزورها مئات الألوف سنوياً ويعيش على دخلها مئات الألوف أيضاً، لدينا بتراؤنا (مدائن صالح) لكنها تركت للجهل ونقص الوعي بأهميتها ومكانتها .

أوقفنا سيارتنا في فندق بجانب المطار، وسكنا فيه تلك الليلة . أخذنا سيارة أجرة وطلبنا من سائقها أن يرينا العاصمة عمان وما حولها . تنام عمّان على هضاب تتخللها الأودية مما يجعلها لوحة فنية جميلة وخاصة في الليل . طلبت من السائق أن يكون دليلاً سياحياً أيضاً . وأخذنا إلى جرش والمسرح الروماني الذي يتسع لخمسة آلاف مشاهد، أخذنا إلى حديقة جبل القلعة ثم إلى مطعم جميل، وأجمل ما فيه لطافة أهله، جلس السائق معنا كواحد منا وأمتعنا بقصصه الجميلة، طلبنا منه مقابلتنا بعد عودتنا من مصر وأعطيناه مبلغاً من المال لشراء هدايا الحلوى لناخذها معنا عند عودتنا إلى تبوك .

أسوأ ما في مطار القاهرة طريقة استقبال الضيوف . أشار عليّ أحد الموظفين بالخروج من الصف وخدمتي بشكل أسرع، فشكرته

وبقيت في الصف. قلت له: لست في عجلة من أمري. تذكرت موقفاً حصل لي في الهند في مطار بومباي، عندما أخرجني مراقب بدعوى خدمتي أسرع ثم بدأ يساومني على دفع البخشيش. كانت غلظة مني عندما أكلت الطعم ودفعت عشرين ريالاً لأطالب بمثلها عند كل نقطة تفتيش بالمطار، لماذا ندفع لهم ونحن الذين ندفع رواتبهم؟ ولولا المسافرين لما كان لوجود الموظف معنى، لديهم فراسة في اختيار ضحاياهم من الجاهلين، تذكرت موقفاً آخر في تايلاند عندما طلب مني أحد الموظفين الصغار دفع مبالغ لاتفادي دفع مبالغ أكثر عن العفش الزائد، رفضت لكرهي تلك الطريقة الرخيصة للحصول على المال، وقلت بكل حزم: سأدفع المبالغ عن العفش الزائد للخطوط، لم تكن هناك زيادة، ليس الخطأ خطأهم وحدهم، بل يتحمل أكثره من يوافقهم على ما يفعلون ويدفع بكل غباء.

مصر جميلة بأهلها، ونيلها العظيم، وتاريخها الحافل بعبق الماضي البعيد. لكن الزحام والتلوث يشوه كل جميل كما يشوه الفساد الذي يظل عليك عند وقوفك لطلب الخدمة، حتى ولو كانت من صميم عمل الموظف. أكره شيء أن تدفع لشخص مبالغ مقابل استغفالك، أما أن تدفع مقابل خدمة إضافية فهو المعمول به في كل مكان. أن تعرف مصر عليك أن تذهب إلى بيوت المصريين، حيث غاية الطيبة والكرم وحسن الحديث.

جاءتنا مكالمة من الرياض: لا بد أنكم مستمتعون. تحدثت الأم إلى ابنتها وأخبرتها أن والدها يرقد في أحد المستوصفات الصغيرة في القاهرة. ذهبنا إليه ومعنا طبيب عرّفنا إليه صديق. رفض

المريض كل ما قاله له هذا الطبيب، وبعد أن ودعنا الطبيب وعدنا لعمي المريض ابتسم تلك الابتسامة التي تعبر عن التعجب وعدم الرضا وقال: لو كان هذا الطبيب يفهم شيئاً لاهتم بنفسه. ألا ترى وزنه الزائد ولهائه بعد صعود دور واحد من الدرج، ورائحة الدخان تتصاعد من فمه؟ هذه الأمور الثلاثة السمنة والكسل والتدخين، أفضل بيئة مناسبة لأمراض السكر والضغط والقلب والشرابين، دعه يعالج نفسه أولاً، من فعل غير ما يقول فقد مصداقته بصرف النظر عن تأهيله. تذكّرت قول أبي العلاء المعري

يحرّم فيكم الصهباء صباحاً ويشربها على عمد مساء
إذا فعل الفتى ما عنه ينهى فمن جهتين لا جهة أساء
أقنعناه وأخذناه إلى مستشفى كبير مناسب، حيث العناية والنظافة وكفاءة العاملين. وبقينا عنده حتى شفي وعاد إلى المملكة، لكن بعد أن أدخلنا تعديلات كثيرة على برنامجنا السياحي الجميل.

عدت إلى عمّان ولم أجد سائق الأجرة بانتظاري، ظننت به مختلف الظنون، ذهبت إلى الفندق وسألت عنه ليخبروني أنه لم يستطع الانتظار لظرف طارئ، لكنه أحضر المطلوب ومعه ورقة سجّل فيها ما بقي من النقود، لا تزال الدنيا بخير.

عليّ ان أقضي الشهر الثاني مع والدتي، في بلدتي (الغاط) الجميلة، تنتظرنني كل المفاجآت الحبيبة إلى نفسي.

وجدت أمّاً مريضة تغيرت كثيراً لكنها تحاملت على نفسها كيلا تصرف ابنها عن واجبه، غضبت كثيراً على قريب لها عندما أشار إلى أنه سيطلبني للحضور لأهتم بها. أقسمت عليه ألا يخبرني بمرضها فيزعجني ويثنييني عن أداء عملي، تحاملت على نفسها

واستقبلتني لكن المرض كان أقوى من أن يخفى، أقنعتها بالذهاب إلى المستشفى في البلدة المجاورة وذكرت للطبيب المرض الذي أخشاه ويبدو عليها أعراضه (الحمى المالطية) وبعد التحليل قالوا: إنها سليمة مئة في المئة.

لم تقنعني التحاليل، وأقنعتها بالذهاب معي إلى الرياض للمستشفى العسكري، وذكرت للطبيب مخاوفي من نوع المرض، جاءت التحاليل لتؤكد تشخيصي وسوء التشخيص في المستشفى السابق. معرفة المرض جزء كبير من العلاج، لدى الطبيب المختص تمت أولى مراحل العلاج، لا بد من مضاد حيوي مدة ثلاثة أشهر، كان التحسن واضحاً يوماً بعد يوم.

عدت إلى تبوك وبعد أسابيع ودعوني بحفل متواضع، لكنه من القلب إلى القلب، وسلموني في نهايته هدية ترمز للسرب وخطاب شكر سلمه لي قائد القاعدة. طلبت من الصقر الذي في داخلي أن يلتم جناحيه وأن يذهب لبيات شتوي طويل. توجهت إلى الرياض. ليست الرياض كتبوك، لكن فيها أهم دواعي نقلي وهو النهوض بإدارة الحرب الإلكترونية التي تعد من أهم عناصر الحرب الحديثة. وفائدة أخرى هي قربي من والدتي التي أصبحت بحاجة إلى الرعاية والعلاج. سأفتقد طيران المقاتلات، فروسية هذا العصر ورياضتي المفضلة. سأفتقد روح الشباب الوثابة التي تجري في عروق صغار الطيارين، وروح التحدي لإصابة الهدف والعودة من المهمة بسلام. أتيت إلى إدارة في القيادة حيث الاجتماع ينتظر الاجتماع والمحضر يدفع المحضر. وكثرة الأوراق تلتهم المال والوقت معاً.

سأترك أسرتي هناك حتى ينتهي العام الدراسي وأتدبر أمور

السكن، ليس لدي سكن خاص بي، هناك سكن للقوات المسلّحة، تطوع ضابط كان معي في الطائف لمساعدتي في إيجاد السكن المناسب، لكن هذا الضابط ظل يتلذذ بنفاد صبري مدة ثلاثة أشهر، وفي كل يوم يعدني ثم يأتي بعذر عن عدم الوفاء. أخيراً اكتشفت الحقيقة المرة، لم يذهب ذلك الضابط للإسكان ولم يحدث أحداً وإنما سوء التربية وحب المماطلة، يريد ذلك المريض أن يصنع له هالة من الأهمية على حساب الآخرين، يريد أن يثبت للآخرين أنه مهم، وها هو من هو أقدم منه بحاجة إليه، ويمر عليه كل يوم. (ما حك جلدك مثل ظفرك) أخذت ورقة من رئيسي وذهبت بها للمسؤول عن السكن، وسارت الأمور على ما يرام.

ضريبة الإهمال

كل ما تحملته والدتي من آلام، وما أخفته عني حتى لا تصرفني عن مهمتي التي من أجلها دخلت القوات المسلحة. سأدفعه الآن من وقتي وجهدي وتدفعه هي من صحتها وراحتها. الزمن لا يحل المشكلات بل يزيدها صعوبة وتعقيداً، الإهمال يزيحها مؤقتاً عن طريقك لكنه يحفظها لك في المحطة الثانية، شفيت والدتي من الحمى المالطية لكن هناك مرضاً غامضاً لا أعرف ما هو ولا كيف علاجه. لاحظت أنها لا تمشي بشكل متزن وأنها تجد صعوبة في صعود الدرج تقف عند كل درجة وتستعين بيدها لرفع رجلها اليسرى، ليتني كنت طبيباً لأشخص المشكلة، شخصت مرضها الأول بحدسي وتعافت منه بفضل مداومتها على المضاد الحيوي. توقعت إصابتها بمرض (البلهارسيا) وطلبت من الطبيب التحليل الخاص بهذا المرض. استغرب الطبيب طلبي، لكنه وافق واكتشف المرض وعالجه. أخذتها لطبيب العيون وطلبت منه التأكد من عدم إصابتها بمرض ارتفاع ضغط العين وللأسف وجده عندها. أما هذا المرض الذي شلّ حركتها فغامض بالنسبة لي. هي لا تساعدني على التشخيص تقول دائماً: إنا على ما يرام. تكثر من شكر الله وحمده. تكره المستشفيات وتريد العودة إلى بيتها بأسرع وقت ممكن. توصي جاريتها وابنة عمها بالغنم. الغنم تعرف صاحبها ولا تقف إلا

لها. تلبس جارتها ثوب صاحبة الغنم فتشمّه وتقف لها لتقوم بحلبها، وإن شكّت في هويتها تركتها بسرعة.

ذَهَبْتُ للطبيب الذي عالجها من المالطية والبلهارسيا وشكوت له مرضها الجديد، جميع التحاليل تقول إنها سليمة، لكنها غير ذلك. بدأت كشوفات من نوع جديد، تخطيط للمخ وأنواع أخرى من الصور المختلفة، كلها تقول إن كل شيء على ما يرام.

قالت أُمِّي بكل ثقة: لقد قلت لك يا ابني إن المستشفيات لا تعالج العين، لكنك لا تصدق. الناس لا تترك الناس، لقد بنيت كل ما أملك من تعبي وعرق جبينني، أما أكثرهم فيستسلمون عند أول كبوة، والآن يحسدونني على ما أنا فيه من نعيم، ولا أنسى مساعدتك لي، ولولا الله ثم ذلك المبلغ الذي أعطيتني لما سددت ديوني بتلك السرعة، ولما ازدهرت تجارتي التي كانت مصدر رزقي وسعادتي، لقد كفتني مَدَّ يدي للناس. ما أصعب أن يمد الإنسان يده للآخرين! دعك من المستشفيات وابحث عن قارئ ورع يخاف الله. العين ليس لها سوى القراءة.

بدأت رحلة جديدة مع القارئين، زرنا خلال سنتين حوالي عشرين قارئاً، كلهم جعلوا من القراءة ومعاناة المرضى مصدراً للتجارة والشراء السريع إلّا واحداً كان كبير السن وإماماً لأحد المساجد، ذكره لنا إمام مسجد مثله، ذهبنا إلى بيته فقيل لنا: إنه في المسجد ولا يقرأ على الناس داخل بيته. تعرّفت عليه بعد الصلاة وأخذته لوالدتي الموجودة في السيارة. ركب بجانبها وقرأ عليها بصوت عال يتحول أحياناً إلى صفير لفقده بعض الأسنان.

أتينا إليه مرة ثانية لكن والدتي تعبت منه وقالت: صوته يكاد يخرق أذني.

أحدهم طلب منا أن نأتي مدة شهر كامل، صادف شهر رمضان، أحضرها بعد صلاة التراويح مباشرة. لديه زحام كثير لذا يقرأ على المرضى على دفعات. هناك أوقات للرجال، ومثلها للنساء، لكن أكثر مرضاه من النساء، اصطحبت معي أختي لتمسك بيدها وتشرح لها ما يقول القارئ وما يطلب. كل دفعة يقرأ عليها تتراوح بين عشر نساء إلى خمس عشرة، لا يأخذ مالا على القراءة، لكن لا بد من شراء ما قرأ به من ماء وزيت، الماء للشرب والزيت لدهن الجسم.

ذكر لي أحد زملائي قارئاً متميزاً وذهبنا إليه. يحتفظ في بيته بذئب داخل قفص صغير لا يتجاوز مترين في نصف متر، مسكين ذلك الذئب يدور حول نفسه طوال الوقت، ويجد صعوبة في الالتفاف، فسر بعضهم وجوده بأكل الجنينة حال خروجها من المريض. التفت الشيخ إلى المريضة وسألها عن المرض وأعراضه ثم قرأ عليها وطلب منا شراء ماء وزيت ليس عليه اسم ولا تاريخ انتهاء. قال للمريضة: ليس بك سوى عين. تهللت أساريرها والتفت إليّ وقالت: ألم أقل ذلك ولم تصدقوني؟

استمرت الزيارات وفي كل مرة يسأل إن كنا نريد مزيداً من الماء والزيت، فنجيبه بالنفي لتوافره عندنا. بعد الزيارة الرابعة قال لي: أمك بحاجة إلى طبيب مختص ليس عندي لها علاج. سمعت الأم المحادثة فانهارت آمالها بالشفاء على يده، خرجت تجر الحزن والإحباط خلفها والألم بين أضلعها. كانت تحلم بشفاء عاجل

يعيدها لجنيتها التي افتقدتها، وجيرانها الطيبين الذين ظلوا يسألون عنها في كل مناسبة ويزورونها كلما جاؤوا إلى الرياض، وأخيها الذي افتقدها كثيراً وظل يتصل بها ويزورها هو وزوجته كلما أتيا للرياض. يقول لها: لقد افتقدت أحاديثك الشائقة وحليب معزاتك الطازج، كنت لي أختاً ووالدة.

أخذتها في نهاية الأسبوع إلى بيتها بعد شهرين من الغياب، كل ما في البيت تغيير، الغنم تتراكم نحوها، تقبل كل واحدة على حدة، ما بال غنمي ضعيفة؟ وهذه جفّ ضرعها، صحيح من قال (عيونك لحلالك دواء) غبت عن مالي فغابت عنه البركة، رغم ثقتي بمن أوكلت، لا شيء كمالك الشيء له حافظاً.

أتت المطبخ فإذا الروائح الكريهة تستقبلها، البيت بلا كهرباء وكل ما في الثلاجة من أطعمة قد تعفنت، اتصلت بشركة الكهرباء ليخبروني أنهم فصلوا التيار لعدم التسديد.

- لكنني فوّضت البنك بذلك وتذكرون عندما جئت وكتبت لكم خطاباً يخوّلكم ذلك بناء على طلبكم.

- تذكرنا الآن ونأسف وسنعيد التيار خلال دقائق، ونكرر الأسف مرة ثانية.

- لا يهمني ما خسرت، لكن من يعيد لأمي بسمتها؟

رفضت الأم العودة معي للرياض وقالت: أريد أسبوعاً أتدبر فيه أموري وأرتوي خلاله من رؤية أخي وأقاربي وجيراني، أريد أن أعيد لغنمي بعضاً من عافيتها وطمأنيتها قبل بيعها.

عدت إلى الرياض وحيداً بعد أن كانت أمي رفيقتي في رحلة الذهاب، كانت تحثني على الأكل مذ خروجي من الرياض، هذه تفاحة مفيدة، وهذه برتقالة قشرتها فلا تردني، وهذه كأس من

الشاي يبقيك مستيقظاً، وهكذا طول الطريق. تطلب مني تشغيل الراديو قائلة: (خلّه يهوذل*) عليك حتى لا تنام).

مضى على المرض عام كامل، والأم تزداد ضعفاً وصعوبة في المشي، مللت من المستشفى العسكري وطبيبها الذي عجز عن تشخيص المرض، كان في كل مرة يقلب الأوراق ويقرأ التحاليل، ولا يجد شيئاً فيطلب تحاليل إضافية، ويعطينا موعداً بعد عدة أسابيع، ينظر إلى التقارير ولا ينظر أو ينصت جيداً إلى الأهم، المريض. لا وقت لديه، المرضى ينتظرون دورهم، وبعضهم يدق على الباب لنفاد صبره.

هذا المستشفى من أفضل المستشفيات، لكن لا بأس من تجربة مستشفى الملك فيصل التخصصي، أخذت والدتي على حسابي الخاص وذكروا لي طبيباً كندياً مشهور، أخذت منه موعداً عن طريق معرفة لي في المستشفى، كشف عليها الطبيب وطلب عدداً كبيراً من التحاليل والصور وسرنا في نفس الطريق السابق من جديد.

قال لي الطبيب بعد عدة زيارات:

- والدتك سليمة وليس بها عيب سوى الكبير.
- لكنها لم تكمل عامها الستين بعد.
- ليست السنين هي المقياس. الناس تختلف من شخص لآخر.
- لكنني لاحظت التغير سريعاً والمشي غير طبيعي.
- لأنها أمك لا تصدق أنها قد كبرت، وتتمنى بقاءها شابة إلى الأبد.

(*) يهوذل: كلمة عامية ومعناها الغناء بصوت مرتع.

– لا أوافقك يا دكتور ومع احترامي لرأيك والدتي مريضة، ومرض الشيخوخة يأتي متدرجاً، لقد كانت قبل أربعة أعوام أقوى وأكثر صحة من بناتها.

أعاد النظر إليها هذه المرة وطلب منها خلع عباؤها ونظر إلى وجهها الشاحب وعينيها الغائرتين بلا جواب وقال: معك حق، والدتك مريضة لكنني عاجز عن معرفة المرض.

كان أميناً في اعترافه لكنه لم يقترح تخصصاً آخر وتركنا نغادر غرفته، سرنا في ممر طويل ممسكاً كل منا بيد الآخر، تكاد المريضة أن تتعثر في مشيتها، وأكد أن أيأس من معرفة المرض والإسهام في شفائه.

قالت لي والدتي: أريد زيارة قارئ آخر، ابحت لي عن قارئ.

التأم شمل العائلة لدى أختي الكبيرة، واقترحت عليّ أختي الصغيرة شراء بيت لوالدتهم بجانبها لتحس بالاستقلال ولتهتم بها بشكل أكبر، وبجوارنا بيت صغير انتقل منه المستأجر قبل أيام وسمعت أن المالك يريد أن يبيعه.

اشترت البيت وفتحت باباً بينها وبين ابنتها الغالية.

اقترحوا قارئاً لكن محله مكتظ بالمرضى وخاصة النساء، أخذت العنوان ووصلت المكان مع أمي وأختي الكبيرة المختصة والمتحمسة لهذه الأمور، المكان عبارة عن استراحة كبيرة استؤجرت لهذا الغرض، يقوم عليها شباب متدين وحارس من إحدى الدول الإسلامية، المكان مزدحم والوالدة تمشي بصعوبة، لا أستطيع الدخول فاليوم للنساء، سألوا الأخت:

- هل هي الزيارة الأولى؟

- نعم .

- إذن عليك فتح ملف .

عند النافذة المتواضعة وقفت في طابور غير منتظم ودفعت خمسين ريالاً لفتح الملف تدفع لمرة واحدة، القراءة تتم بشكل جماعي والماء والزيت يباع لكل مراجع بأسعار مخفضة، علبة الماء التي تباع بريال يبيعونها بخمسين ريالاً فقط .

قالت الوالدة: ليست هذه هي القراءة التي نعرفها، لم يصلني من قراءته ولا نفخة واحدة، لنبحث عن غيره .

ذكر لنا قارئ جديد، شاب قريب من بيتنا . ذهبنا إليه وقرأ عليها وحدها وأعطانا ماء صحة دون مقابل . قالت الوالدة: هذا هو من يرجو الثواب من الله .

في كل زيارة يأخذ وقته في القراءة ويعطينا ماء صحة دون مقابل .

بعد الزيارة الرابعة سألني القارئ الشاب :

- هل هناك تحسن؟ وما رأيك في ما نعمل؟

- لا يوجد تحسن لكن والدتي ترتاح نفسياً لسماع القرآن وحسن قراءتك له .

- لقد قررت أن أستأجر استراحة لهذا الغرض، وأريد منك شهادة بما رأيت وما قلته لي قبل قليل .

- لا أستطيع إعطاءك شهادة لأن أربع زيارات غير كافية للحكم

على من سيعالج الناس لاحقاً، أخشى أن أتحمّل جزءاً من الذنب لو صارت قراءتك تجارة في ما بعد، المال يعبث بالضمائر والذمم كما تعبث النار بالحطب.

أخذت والدتي واختفينا في زحام الحياة من جديد.

قلت لأختي:

- لن أذهب بها لقارئ بعد اليوم، سوف نقرأ لها أنا وأنت وولدك الذي يحفظ القرآن ولتقرأ على نفسها.

- بقي شخص واحد مدحوه لنا، لكنه يسكن المدينة المنورة. لِمَ لا نذهب إلى هناك ونزور مسجد الرسول ونعرضها عليه لعله يكون سبباً في الشفاء؟

- لكن من قال إنه ليس كغيره يبحث عن الغنى على حساب المساكين؟

- لقد زاره فلان قريبنا وكانت لديه حساسية من أكل السمك والآن يأكله في كل وقت.

- من قال لك ذلك؟

- زوجته كانت معه وقد طبخت له سمكاً بعد العلاج مباشرة، والآن ما شاء الله يأكل السمك كما نأكل التمر.

أردت التأكد قبل التوجه إلى المدينة المنورة، ذهبت إلى ذلك الرجل الذي عولج في المدينة وسألته عن الشيخ وعنوانه وأثر العلاج؟ أجاب:

- ليس صحيحاً أنني صرت آكل السمك، لقد طبخت لي زوجتي

طبقاً لذيذاً وتحاملت على نفسي لأكل منه لكنني عفته بعد عدة قطع، ولم أكله بعد ذلك اليوم إلى الآن، جاملتها وشكرتها، لكن لدي نفس الشعور تجاه السمك. هذه الحكاية وما شابهها تمتلئ بها مجالسنا نسمعها ونصدقها كمسلمات لا يرقى إليها الشك، ثم نرويها لغيرنا فنبت دعاية مجانية مضللة لكثير من المتاجرین بصحة الناس ومن السحرة والمشعوذين.

رآني أحد زملائي ماشياً في ممر المستشفى العسكري، وقال لي: لقد أكبرت فيك عنايتك بوالدتك وأنت العقيد، لكنني رأيتك تقسو عليها بسحبها من يدها أثناء المشي، أجبته:

- شكراً لك على الإطراء الذي لا أستحقه، فالرتبة أعتز بها كثيراً، لكن لا تعني لي شيئاً عندما أخدم والدتي، وهذه الأوسمة التي تزين صدري هي من أعز وأغلى ما أملك، لكن وسام خدمة والدتي أعزها وأقربها إلى نفسي، أما ملاحظتك عن طريقة إمساكي بها فلولا مساعدتها على المشي لما مشت، لديها مشكلة لا أعرف لها سبباً، والدتي مريضة ولم أجد طبيباً يفهمني ويستمع إلي.

ألحّت عليّ قيادة القوات الجوية للذهاب إلى كلية الحرب War College في الولايات المتحدة التي طالما حلمت بها وقرأت مناهجها، مدة الدورة عام كامل، كم أنا بحاجة للعلم وتجديد النشاط، جميع الشروط تنطبق عليّ، ولا يوجد من هو أحق مني بها، جئت إلى زوجتي التي تحلم بالذهاب معي إلى الولايات المتحدة، وأخبرتها بترشيحي للدورة وأن الخيار بيدي. قلت لها: إنني متردد بين الذهاب إلى هناك وتحقيق حلمي، وبين البقاء هنا والعناية بوالدتي. طلبت من القيادة مهلة قبل إعطائهم رأبي. بقيت

ثلاثة أيام متردداً، ماذا لو حصل لها مكروه وأنا وحيدها بعيد عنها؟ طلبت مني زوجتي أن أصلي صلاة الاستخارة، بعدها أقرر. اتخذت قراري بعدم الذهاب وقد تكرر الأمر ذاته عندما خيروني بعد سنة وبعد سنتين. ظلّت دورة كلية الحرب حلماً لكنني تركت شيئاً مهماً لشيء أهم.

مأساة أمة

كنت أقضي إجازة نهاية الأسبوع في ربوع محافظة الغاط، وكان الجو لاهباً في شهر أغسطس من عام 1991، والنخيل ينوء بها حمل ثمارها الصفراء والحمراء، وتحت سماء صافية تزينها كثرة النجوم المنتشرة في السماء وتغري بالنوم تحتها، كنا مجموعة من الأصدقاء جمعتنا الإجازة الصيفية، بعضهم جاء من الرياض، وبعضهم من ساكني البلدة، وأخوان جاء من الكويت مع عائلتيهما لزيارة والدتهما وقضاء بضعة أيام في موطن الصبا. يستمعون إلى الأخبار بالراديو من إذاعة لندن الساعة الحادية عشرة ليلاً آخر نشرة للأخبار. لقد فشل الاجتماع الذي رعته المملكة في جدة بين العراق والكويت لاحتواء الخلاف وأد الفتنة، وعاد كل مندوب إلى بلده من دون نتيجة.

بدأ الجالسون تحليل الموقف بين العراق والكويت. كل موجود أعطى رأيه، والأخوان من الكويت صامتان خائفان. التفتوا جميعاً إليّ، العسكري الوحيد وسألوا:

– هل تظن أن العراق سيغزو الكويت؟

– لا أظن ذلك، العراق خرج للتو من حرب دامت ثمانين سنوات كادت تدمر العراق، لولا وقوف المملكة والكويت لما كانت نتائجها كما نرى، لقد فتحت له الكويت سماءها وأرضها

وخزائنها . الحرب قذرة ومن جربها لن يكررها ثانية، لن يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

لكن حاكم العراق لم يكن مؤمناً، ولا محللاً استراتيجياً ناجحاً .

في الصباح أقوم مبكراً كعادتي وأفاجأ بالأخبار السيئة، بعدها بساعة يصلني اتصال من القيادة: عليك أن تكون في القيادة بملابس الميدان بأسرع وقت ممكن .

ماذا يراد بك أيها الوطن الكبير؟ وما هذا العقوق من أبنائك؟ أخذت أحلل الموقف وأنا في طريقي وحيداً إلى الرياض في يوم حار كحرارة الموقف . هل ستتقدم القوات العراقية إلى المملكة؟ وهل ستحتل المنطقة الشرقية؟ من سيكون معهم؟ ومن سيكون معنا؟ لا بأس أيها الوطن، سنبدل كل ما نستطيعه لحماية أرضك وسمائك . لن أقول لك في هذا اليوم الغامض إلا ما قاله ذلك البدوي يوماً:

حنّا حزامك لا عوى الذيب للذيب وحنّا يمينك لا رقص كلّ شيطان .

بعد ثلاث ساعات كنت في القيادة، أحلل الموقف مع الموجودين من الزملاء .

اختاروني وزمياً لي لنمثل القوات الجوية في وزارة الدفاع: أنتم أفضل من يعرف قدرات القوات الجوية، وعليكما حضور جميع الاجتماعات .

قدم الجانب الأمريكي قائمة بعدد الطائرات التي ستكون موجودة في المنطقة، موزعة بين دول مجلس التعاون، وحاملات

الطائرات، والجزر القريبة. عدد هائل يحمل معه الموت والدمار تناقلت أخباره إذاعات العالم ومحطات بثه التلفزيوني. هل يعرف هذا الدكتاتور الحاكم في بغداد ماذا سيحل بجيشه وشعبه من دمار؟ ليته يقنع بالانسحاب سريعاً، وتجنب المنطقة مزيداً من الدمار.

في غرفة الاجتماعات ترخمت على شعب العراق المغلوب على أمره، عرفت شهادتهم في الغربية، في اليمن، كان واحداً من أعز أصدقائي من العراق. ألا يستحق هذا الشعب أفضل من هذه المعاملة؟ فقدت الأمل في صدام منذ حربه مع إيران، معظم مصائب الشعوب من قادتها، لم ينسحب وتوالى وصول المزيد من الطائرات. آخر ما وصل أعداد هائلة من طائرات التزود بالوقود.

امتلات البلد بالقادمين من الكويت وفتحت لهم المدارس والبيوت لإيوائهم بشكل يدل على أصالة الشعب السعودي وكريم معدنه، أقفلت الحكومة باب التطوع لكثرة المتقدمين للدفاع عن الوطن، شعب شهيم مخلص يستحق كل حب وتقدير.

تلونت شوارع العاصمة باللون العسكري الذي يحاكي لون الصحراء، العسكريون في كل مكان ومعهم مجندات يعملن في المكاتب ويقدن السيارات العسكرية أيضاً، وفي القواعد يقدن الطائرات.

في كل مكان يوجدون فيه، تراهم كخلايا النحل، يعملون دون كلل، لا يضيعون وقتهم بالكلام والتسويق، إذا تولى أحدهم عملاً ركز عليه حتى ينهيه، لا يقاطعه أحد ولا ينشغل بغيره، إذا تحدث شخصان لا يقاطعهما ثالث، لا يكتبون على ما يتداولون من أوراق (سرّي) إلا إذا كان كذلك، الأوراق السرية يحفظونها حفظاً

صحيحاً ويتناقلونها بطرق آمنة. أهم ما رأيته تلك العلاقة المتميزة بين الضباط وضباط الصف، تعامل راق حضاري.

أعطوني مكتباً وسريراً للنوم في وزارة الدفاع، أذهب أحياناً إلى بيتي بعد الساعة العاشرة ليلاً وأعود عند السادسة صباحاً، هناك أعمال كثيرة لا يمكن أن أقوم بها أنا وزميلي فقط، الوقت لا يكفي، التنسيق مع القوات الجوية ومع القوات المشاركة الأخرى، حضور الاجتماعات وإعداد الإيجاز اليومي للقادة، زودونا بعدد من الضباط من مختلف التخصصات.

أذهب كل يوم اثنين قبل جلسة مجلس الوزراء لمقابلة المسؤول وإعطائه إيجازاً عن الوضع على الجبهات واستعداد القوات للتصدي لأي عدوان جديد وهو بدوره يطلع الملك والوزراء.

ذهبت مع ثلاثة من زملائي من القوات الأخرى لإعطاء مجلس الوزراء إيجازاً عن الوضع بشكل عام.

ساعة الصفر لا تخفى في مثل هذه الحرب الكبيرة رغم التعتيم، القواعد الجوية وحاملات الطائرات كخلايا نحل، الذخائر الحية تحمّل تحت أجنحة الطائرات، هذه القنابل المميّنة ستلقى على جنود قابعين في خنادقهم، تركوا أسرهم على أمل العودة إلى بيوتهم الدافئة سالمين، هؤلاء هم من سيدفعون أخطاء الدكتاتور والقوة الغاشمة، ونتائج ما يطبخ في مطابخ السياسة وتجارة السلاح.

ما هذه العنتريات يا صدام؟ وما هذا الغباء في تشجيعه والدفاع عنه يا مثقفي العالم العربي من الخليج إلى المحيط؟ المثقف هو عقل الأمة ولسانها، فكيف يطاوعه ضميره أن يخدع الشعوب

ويبرئ الظالمين؟ هل لأن الدكتاتور كان يعزف على الوتر الحساس دائماً: تحرير الأرض ومحاربة العدو وهو أكثر من يقدم الدعم والحجج لتدمير مقدرات الأمة؟ لم يخدم الأعداء وينفذ خططهم مثل النظام الدكتاتوري الدموي، ومن يحكم الشعوب المغلوبة على أمرها بالحديد والنار. أكثر هؤلاء وصلوا الحكم على ظهور الدبابات، لكنه التحزب الأعمى والأدلجة المقيتة من قبل المثقفين، سواء أكانت قومية أم دينية، لها مراجعها وبرامجها التي لا تحيد عنها، ومن أقل أولوياتها إيضاح الحقيقة بكلّ تجرّد ونزاهة، ما فائدة المثقف إذا سار إلى الهاوية مع القطيع؟ أن تكرهه الغالبية وهو على حق خير له من أن يحبوه وهو على باطل.

بناء جامعة تعج بالعقول المتفتحة والثقافة الحيّة ومراكز الأبحاث، أهم كثيراً من دبابات صدئة لا تسمن ولا تغني من جوع، القوة في العقول وما تنتج والسواعد وما تبني، الجامعات في الغرب هي أهم رافد للمجهود الحربي، منها يأتي الجديد من الاختراعات والعنصر البشري المدرب.

دوّت صفارات الإنذار وأصبحت العاصمة شبه خالية، أكثر الأسر ذهبت إلى المدن والقرى البعيدة عن الرياض، لجأت الأسر إلى بيوتها القديمة أو لدى أقاربها، سقطت الصواريخ في أماكن متفرقة من العاصمة، الصواريخ تنقصها الدقة، لم يكن هناك خسائر عسكرية، صار الجو ميداناً واسعاً بينها وبين الصواريخ المضادة، أصبحت الجبهة فرصة لتجربة أسلحة جديدة أو قديمة أدخلت عليها تعديلات.

بينت الحرب أهمية القوات الجوية والاستخبارات

والاتصالات، ولعبت الأقمار الاصطناعية دوراً مهماً في المعركة، كانت ميادين الحرب أربعة، البحر وأعماقه والأرض والجو. والآن يضاف له بعد خامس هو الفضاء الخارجي.

منذ الليلة الأولى والمعركة محسومة، لكن لا بوادر على انسحاب منظم، يقلل الخسائر البشرية والمادية، غرز قائد العراق أقدامه في رمال السياسة المتحركة وانتظر حتى تكمل القوات مهمتها في تدمير قدرات العراق، ألفا رحلة يومياً ترمج ضد أهداف أكثرها داخل العراق، التركيز على قوات الحرس الجمهوري والقواعد الجوية ومراكز الأبحاث.

ما أطول ليالي العبث وأصعبها! خسرت دول مجلس التعاون الشيء الكثير من الجهد والمال، وخاصة المملكة والكويت. وحدها عمان لم تخسر شيئاً، لا في هذه الحرب ولا في غيرها من مغامرات الرئيس.

وكما تجلب الحرب الدمار، فإنها تجلب معها الصفقات التجارية، كانت فرصة سانحة لتجار النقل الثقيل ومتعهدي الأغذية والسلاح، منهم من كوّن ثروات طائلة وخاصة في بداية الاستعدادات، لكن المستفيد الأول كانت مصانع السلاح في الغرب التي أفرغت مستودعاتها من بقايا الحروب السابقة، سبقى أيها العالم العربي أهم سوق للسلاح ما بقي يحكمك قادة متهورون ومتفردون بالسلطة كصدام، كلما حاول المخلصون تأمين مستقبل أبنائك وأحفادك وحفظ حقهم من ثروات ناضبة، جاء من يأخذها وكأنه الأحق بها.

لم تتقدم اليابان وألمانيا عن طريق شراء السلاح. بل برعاية

العقول وإعطائها الحرّية لتبدع وتفرد أجنحتها عالياً دون خوف وبلا حدود، واتباع سياسة متوازنة مع اللاعبين الرئيسيين لهذا العصر.

* * *

بقيت والدتي ببلدتها ولحقت بها عائلتي الصغيرة، والدتي سعيدة بوجودها بين أهلها وجيرانها، لكنها قلقة على ولدها الذي لم تره منذ شهرين، ما الذي دعا حاكم العراق لغزو الكويت؟ كان هذا هو سؤالها الدائم، لكنه لم يكن سؤالها وحدها بل كان سؤال الجميع.

كان يمكن لحاكم العراق أن يغزو قلوب الكويتيين بالتعاون والحب، ويشارك في اقتصادهم المتطور، كمد أنبوب من المياه التي تصب هدرا في الخليج، ليصنع بحيرة في وسط صحراء الكويت القاحلة تكون مزاراً لطيور الكويت وغزلانه والأحبة من البلدين، وتكون الكويت سوقاً لمنتجاته وعمالته الماهرة كما كانت كذلك لكثير من العرب قبل الغزو.

كثير من الأخبار والعمليات تعلن عنها شبكات التلفزة وخاصة (CNN) وصار المواطن العادي يتابع سير العمليات كما يتابعها العسكري في غرفة العمليات، في آخر أيام الحرب فقدت صواريخ (سكود) هيبتها وصار الناس يخرجون إلى الشوارع وأسطح المنازل لرؤيتها.

أبليت القوات الجوية السعودية بلاء حسناً، واحتلت المرتبة الثانية بعد القوات الجوية الأمريكية متقدمة على القوات الجوية البريطانية، العرق في السلم يوفر الدم في الحرب، أكثر الخسائر كانت من القوات الجوية البريطانية، لاتخاذهم التكتيكات

المنخفضة الارتفاع التي تكون عادة في مرمى المدفعية المضادة للطائرات، كان طياروها شجعاناً لكن التقنية العالية تتغلب على الشجاعة.

سئل أحد الطيارين الأمريكيين عن مدى صعوبة المهمة فقال: تقارب في صعوبتها صعوبة تدريبات العلم الأحمر المشهور في صحراء نيفادا الأمريكية، مما يدل على صعوبة تدريباتهم وقربها من الواقع.

جاءت الحرب البرية تحصيل حاصل، ومسيرة سهلة لتحرير الكويت، لا يعرقلها سوى الخوف من الألغام وكانت الخسائر في معظمها بسبب النيران الصديقة من الجو. في اليوم الثاني لتحرير الكويت ذهبت بطائرة عسكرية مع ضباط من القوات الأخرى إلى الكويت لتستقبلنا الحرائق من الجو، سماء الكويت يملأها الدخان الأسود في كل مكان وكأنهم أشعلوا النار في كل إطارات العالم، عبث ما بعده عبث وجهل ما بعده جهل، حاولنا النزول في مطار الكويت الدولي لكنه كان من الصعوبة رؤيته لكثرة الدخان، أخيراً نزلنا ورأينا الدمار، كل مباني المطار عبثوا بها والمركبات المعطوبة في كل مكان، أخذونا لمقر الاستخبارات العراقية أثناء الغزو وأرونا وسائل التعذيب، من تولى الشرح ضباط كويتيون كانوا في المقاومة، من الصعوبة التأكد من كل ما قالوه عن الاحتلال. زرنا المطار تلك المصيدة التي كمنّت للقوات العراقية المنسحبة من الجو، كانت مناظر مؤلمة على جانبي الطريق وفي وسطه: سيارات كثيرة محملة بما استطاعوا حملها في طريق العودة المشؤومة، ملابس ولعب أطفال ودراجات بثلاث عجلات، دماء كثيرة

وملابس ممزقة وعربات غاصت عجلاتها في الرمال، في محاولات يائسة للهرب.

الأسلحة من الرشاشات والبنادق العراقية مكدسة عند القوات الأمريكية. تناولت واحدة مرتكباً في مقدمتها حربة ومكتوباً على الحزام اسم الجندي الذي كان السلاح في حوزته، أيها المسكين، لن تخوض معارك نهاية القرن العشرين بسلاح الأربعينات، ترى هل صاحب هذا السلاح حي أو ميت؟ هل هو طليق أو أسير؟ هل هناك من لا يزال ينتظره في شوق ولهفة؟

انتهت الحرب بخيرها وشرها، وبدأ الأمل يدب من جديد، دُمّر الجيش العراقي، ودمرت البنية التحتية في العراق وسويت مراكز الأبحاث بالأرض، لكن بقي من كان السبب في قيام الحرب وكأن بقاءه دليل الانتصار، لماذا لم يتنحَّ أو يُنحَّ؟ هل له دور لم يكمله بعد؟ كل قادة العالم المهزومين ينتهون، إلّا قادتك أيتها المنطقة المسكينة.

مع الانتصار الكبير الذي تحقق، فإن أيام الحرب كانت أصعب أيامي، وأكثرها ألماً في حياتي العسكرية. كنت أرى آلاف الطائرات تجدول كل يوم، وملايين الأطنان تلقى في صحرائنا الجميلة. لقد زرعوا الكويت والعراق بملايين الألغام التي ستبقى تتربص بالأطفال والرعاة والمنتزهين، ناهيك عن الآثار البيئية التي تركوها قبل مغادرتهم على الشواطئ والرمال، والغازات التي صعدت إلى السماء، والأحقاد التي سوّدت بدخانها القلوب.

كنت أعد الليالي والأيام لأعود إلى القوات الجوية، وأساهم في بناء ما يمكن بناؤه من قدرات .

أقيم لنا حفل بسيط وزّعت خلاله خطابات الشكر والأوسمة من المملكة ومن الكويت ومن القوات الجوية الأمريكية، والتقطت الصور التذكارية وغادرنا وزارة الدفاع بعد قضاء عشرة أشهر طويلة هناك .

والدتي لا تزال هناك ولا بد من إحضارها إلى الرياض لمواصلة العلاج، لقد تغيرت كثيراً خلال هذه المدة وتأكد وجود مرض لا أدري ما هو، لكنني مصمم على معرفته، لن يكون من المستحيل معرفة مرض واضح للعيان في عصر اكتشفت فيه أدق الأسرار .

تذكرت زميلاً لي يعمل طبيباً في المستشفى العسكري وهاتفته قائلاً: أمي مريضة ولعلك تستطيع معرفة السبب، طلب مني إحضارها، وقرأ ملفها جيداً .

حضرت إلى مكتبه ومعني والدتي ممسكاً بيدها كالعادة، سألتني والدتي :

- هل هو مصري؟

- لماذا تعتقدين أنه مصري؟

- لونه أبيض وصحته ما شاء الله على ما يرام .

- لا، إنه من المملكة، ومن مدينة المجمعة بالتحديد .

- هل هو متزوج؟ هل له أولاد؟ هل أمه على قيد الحياة؟ بلغها

سلامي وتحياتي وبارك الله فيك .

همت بالخروج، ضحك الطبيب وقال: ما شاء الله والدتك هي

التي تسألني بدلاً من أن أسألها. أترك ملفها عندي وأعتقد بأنني عرفت المشكلة لكن ذلك يقرره الطبيب المختص.

بعد أسبوع كنت ووالدتي عند رئيس قسم الأعصاب. كشف عليها مدة ساعة كاملة، بعدها رفع سماعة الهاتف على زميله الطبيب الذي أحالها إليه وقال: أنت على حق عندها هذا المرض.

التفت إليّ وقال: أعتقد بأنني عرفت مرض أمك لكنني للأسف لن أستطيع علاجه. لكن سأخفف وقعه وأحاول أن أبطئ تقدمه.

– إنه مرض (الباركنسون) أو ما ترجم بالشلل الرعاش.

– أليس له علاج حتى الآن؟

– مع الأسف لا يزال الطب عاجزاً عن علاج الكثير من الأمراض، ومنها هذا المرض. ولو كان له علاج لوجده الملاك المسلم محمد علي.

صرف لنا الدواء، أمسكت بيد أمي ثانية وخرجنا. صرنا نزوره كل ثلاثة أشهر.

ذهبت إلى مكتبة متخصصة واشترت ثلاثة كتب إنجليزية عن (الباركنسون) وأعراضه وكيفية التعامل مع المريض والعناية به.

استغربت كيف استغرق تشخيص المرض من هؤلاء الأطباء ثلاث سنوات. والسبب هو عدم التحويل إلى طبيب مختص آخر عند عدم معرفة المرض، بدلاً من الاستمرار في التشخيص الخاطئ، ثم عدم استماع الطبيب للمريض والاكتفاء بما يعتقد، وفي دراسة غربية ثبت أن عدم استماع الطبيب للمريض بما فيه الكفاية، يعتبر من أهم مسببات فشل الطبيب في علاج المريض، كما أن عدم كشف الوجه للطبيب يعتبر مشكلة كبيرة، فالعيون

وتعابير الوجه ولون البشرة لها دلائل كثيرة، مريض (الباركنسون) لا يستطيع الابتسام بسهولة، يتحدث بصعوبة، ويغلف وجهه الحزن، وتهتز يديه، لكن لكل مريض بهذا المرض أعراضه الخاصة به.

أحد زملائي أصيب بالمرض نفسه وحول لطبيب العظام وظل يأخذ صوراً مقطعية وغيرها للعمود الفقري، ويتلقى العلاج الخاطئ مدة سنة، ولما ساءت الحالة، حول إلى عيادة الأعصاب حيث شُخص مرضه بشكل صحيح.

لماذا قبّلت صغيرتي؟

الحنين إلى المنطقة الشرقية لا ينقطع، كيف لا وقد قضيت فيها سنوات من أجمل أيام عمري؟ أحبّتها زوجتي بشكل خاص، المنطقة الشرقية وتبوك هما أجمل محطات الوقوف في حياتها، فيهما وجدت الراحة والأوقات السعيدة. ذهبنا إلى المنطقة الشرقية عن طريق البر. تبدل ذلك الطريق الضيق ذو المسار الواحد الخطر إلى ثلاثة مسارات في كل اتجاه، لكنه يظل خالياً من الاستراحات التي يتوافر فيها الظل ودورات المياه النظيفة.

الجشع يجعل التاجر لا يهتم إلا بالربح فقط، فمحطة الوقود والمحال التجارية بحالة جيدة، أما المسجد ودورات المياه ففي حالة سيئة، غياب المراقبة من الجهات المسؤولة يجعله لا يهتم.

تغيرت المنطقة الشرقية، لم تعد تنام مبكرة كما عهدناها، وبدأت تزحف مبانيها بكل نهم نحو السواحل الجميلة، لا تزال الحداثك دون المستوى المطلوب، الزحام أكثر مما كان مع توسعة الطرق وتعددتها. لا بد من قضاء وقت جميل في أحد الأسواق الجميلة الجديدة، بل أكبر أسواق المنطقة في ذلك الوقت، تتوافر فيه ألعاب الأطفال والمطاعم ومحال التسوّق.

دخلنا إلى السوق قبل المغرب بقليل واتجهنا مباشرة إلى صالة

لعب الأطفال، أخبرنا الحارس الواقف على الباب أن علينا العودة بعد صلاة المغرب، لأنه سيقفل بعد دقائق للصلاة.

أخذت أولادي ووالدتهم للمسجد واتجهت للباب الآخر منه.

ركضت امرأة من بين الجالسات على كراس قرب المسجد واتجهت إلي مباشرة وصاحت بي أمام الناس، أضحك أولاً أظنها تمزح أو أن خطأ سيصحح بسرعة، لكنها تثبت بي وتمنعي من دخول المسجد وتسحب شماغي بقوة أمام الناس، أحاول استيضاح الأمر منها وينضم لنا عسكري من حرس السوق، تقسم بالله أمام العسكري أنني من قبلت ابنتها البالغة ثماني سنوات.

قالت بكل ثقة: لدي الدليل والتفتت إلي وطلبت مني إخراج مسبحتي الزرقاء.

أخرجت مسبحة ليس فيها من الأزرق شيء، لكنها أصرت على أنني المطلوب مع فشلها في إثبات أول الدلائل.

طلب العسكري أن نذهب جميعاً معه إلى المكتب لحل المشكلة، بعيداً عن أعين المتطفلين الذين تكاثروا حولنا.

في المكتب حاولت إقناعها بالدلائل الكثيرة أنني لست المطلوب، لكنها أصرت أنني الذي قبل ابنتها قبل صلاة المغرب في صالة الألعاب، والحمد لله الذي مكّنها من الإمساك بي، بعد أن هربت منها وقت وقوع الجريمة.

طلبت استدعاء الحارس الواقف على باب صالة الألعاب، لعله يتذكر ويثبت لها أنني لم أدخل صالة الألعاب قبل صلاة المغرب، تذكر الحارس وجهي جيداً وعدد أفراد عائلتي، شهد أنني لم أكن موجوداً وقت وقوع الحادث.

توقعت أنها ستتراجع وتعتذر، أو على الأقل تسقط القضية، لكنها أصرت، بل واتهمت كل من شهد بما رأى أنه يحابي عسكرياً برتبة كبيرة، عندها علمت أنها تصرُّ على ظلمي وتلفيق التهمة بي دون خوف من الله، ودون بيّنة تستند إليها. فما كان مني إلا أن بادلتها السباب بمثله واتهمتها بطول اللسان وسوء النية والتربية، قلت لها: سأثبت براءتي بوجود عائلتي، وكبر سنّي، وهؤلاء الشهود، لست خائفاً، لكن ماذا لو كان الضحية شاباً في العشرين ليس معه أسرة، وكان موجوداً في ذلك المكان عند وقوع الحادث؟ ألا تعتقدان أنه سيكون ضحية يساق إلى مراكز التوقيف؟ وقد تصبح علامة مظلمة في سجله؟ ألا تخشين دعوة مظلوم تلحق بك أو بمن تحبين ولو بعد حين؟

أخذوا مني ومنها جميع المعلومات، وتركوني ألحق بعائلتي.

في نهاية التسوّق مررت على قسم الشرطة بصحبة العائلة، لعلي أجد كلمة اعتذار منها تخفف مما أعانيه من إحباط وشروذ ذهن، أو كشفاً عن الفاعل الحقيقي، فتعترف بغلطتها، لكنهم أبلغوني أنها عادت ثانية لتبلغهم غضبها من تركي أذهب دون عقاب رادع لي ولأمثالي، رأى العسكري الأطفال معي، وأبدى أسفه لما حصل لوالدهم وحمد الله على نهاية المصيبة.

تذكرت قصة حصلت لي في مدينة (دالاس) في ولاية تكساس قبل سنوات، كانت عكس هذه القصة تماماً: بينما كنت داخلاً مع اثنين من الزملاء إلى مطعم مشهور، صادف خروج ثلاث بنات جميلات أعمارهن بين العشرين والخامسة والعشرين، وبينما كنت منحنيّاً أسجّل البيانات المطلوبة أمام الواقف على الباب، تقدمت

إحداهن وقبّلتنني على خدي بقوة ثم لحقت بزميلتيها وهي تؤشر لي خارجة وتقول: جذبني عطرك لذا قبّلتك، وقفت مشدوهاً وزميلاي يلتفتان إليّ ويضحكان، حاولت أن أدير لها خدي الثاني لكنها اختفت كحلّم جميل، ضحكاتهن تدل على أنهن تناولن عدداً من كؤوس النبيذ.

أستغرب كيف حاولت تلك المرأة أن توقعني في أمر أنا منه براء مستخدمة كل ما تملك من حجة وبيان، خاصة أنه لا ثأر ولا معرفة سابقة ولا مصلحة ستجنيها من الشجار، أمثال هذه المرأة ينتشرون في كلّ مكان، ويمررون معلوماتهم الخاطئة لجهات تأخذها كمسلّمات، كم مظلوم راح ضحية مرضى يسعدهم إيذاء الآخرين دون خوف من الله والنّاس.

كرهت الأسواق داخل المملكة بعد تلك الحادثة، وصرت أودعهم عند الباب كلما قرروا الذهاب إلى السوق، وصارت زوجتي تشتري ما أحجّاه من مستلزمات. كم تساءلت: لماذا تصبح الأسواق عندنا مكاناً يطارد فيه الشباب وتتابع الأعين الفضولية كل داخل وخارج؟ لماذا تتابع النساء وتراقب في بلد إسلامي محافظ كالمملكة؟

خارج المملكة أصطحب أسرتي إلى الأسواق، نأكل معاً ونشاهد السينما، وإذا مللت التسوّق جلست في المقهى وحيداً بصحبة جريدة أو كتاب، لا أخاف سائلاً ولا متطفلاً. تمر من أمامي النساء بمختلف الهيئات والثياب، وبمقاييس جمال أخاذ، لا يتجرأ أي شخص مهما كان على أذيتهن أو متابعتن لأي سبب من الأسباب، إلا إذا رغبن في ذلك.

ألا توجد دراسات اجتماعية ونفسية ودينية عن سبب هذا التأزم في بلد تنوء مناهجه الدراسية بمواد الدين، وتعج أنشطته الطلابية بالوعظ، وترتدي نساؤه الحشمة؟

هل للمبالغة في الفصل بين الجنسين دخل في ذلك؟ أو هي التربية؟ أو التعليم؟ أو الفراغ؟ أو هي مجتمعة؟ هل هو الكبت يولد براكين تنفجر عندما تكبر وتضعف المقاومة؟

هل لقلة أماكن الترفيه دخل في ذلك؟ مشكلة فراغ الشباب مشكلة عالمية، لا يمكن أن نطلب من شاب في العشرين أن يقضي جلّ وقته عابداً أو دارساً أو عاملاً، لا يستثنى منه سوى الأكل والنوم، لدى الشاب في هذه السن طاقات هائلة لا بد من تصريفها بالوسائل المباحة والمتاحة، وإلا صرفها بمشورة أصدقائه وما تمليه عليه رغباته.

لا يمكن دراسة أي مشكلة اجتماعية وإيجاد حلّ لها إلاّ بشفافية وفكر مستقل، وحقائق تؤيدها الأرقام، وبمشاركة أكثر من مختص، وخارج أسوار البيت الذي ولدت فيه المشكلة.

عودة إلى الطبيعة

قبل غزو الكويت بأشهر، بنيت لي بيتًا صغيراً في المزرعة. أصبحت حذراً من كثرة الصرف على المزرعة من دون مردود يذكر. رجعتني زوجتي أولاً أدفن في المزرعة مزيداً من المال، الأولوية لبناء بيت في الرياض. قضينا جلّ حياتنا في بيوت أمتتها وزارة الدفاع، والآن أصبحت برتبة كبيرة وقد أحال إلى التقاعد في أي وقت ويطلب مني إخلاء سكني لغيري.

أخذت أسرتي ووالدتي ليقضوا بعض الوقت في المزرعة، قريباً من الأهل وبين أحضان الطبيعة. الربيع ينشر حسنه في كل مكان وقد أحال المزرعة إلى لوحة خضراء، دوائر القمح تنتشر في المنطقة، الجبال لبست حلاً زيتها الزهور البرية، تستقبلك نسمات الربيع حاملة روائح الفلّ والخزامى. كل ما في المزرعة يحتفل بالربيع، صغار الغنم تتراكم خلف أمهاتها وتتقافز بحركات بهلوانية جميلة.

أصعد في الصباح الباكر، وقبل أن ينهض من في البيت إلى أعلى الجبل، هواية نميته وأحببتها، تجمع بين الرياضة وعشق الطبيعة والتأمل، أحمل على ظهري حقيبة أضع بها الماء وما خف من الأكل وديوان شعر ودفتر ملاحظات، لا أسير إلى القمة مباشرة، لكن أتخذ من الشعاب القريبة وما تحويه من صخور

وأشجار مساراً إلى الجبل، في الطريق أستمع بمرأى الحجل، وفي مثل هذا اليوم من أيام الربيع تكثر الطيور وتزداد نشاطاً وحيوية، تمتلئ الشعاب بشتى أنواع الزهور وتعبق بالروائح المنعشة.

في أعلى القمة أستريح قليلاً وألقي نظرة على ما تحتي من جمال. ينعشني الهواء العليل النقي، أوصل سيرى لغاري المفضل، أجمع بعض الأعواد اليابسة، في الغار أجلس على كرسيّ صنعته الطبيعة من الحجارة، أخرج ما في الحقبة وأبدأ بإعداد مشروبي المفضل الشاي.

لا أملّ من النظر إلى اللوحة الفنية أمامي، حوت هذه البقعة من نجد أجمل ما في الطبيعة، جبال ورمال، وبينهما غابات من النخيل، تنتظم كطوابير جند في صفوف متوازية. ها هو العامل الآتي من النيبال يخرج من غرفته ويتجه بالغنم إلى المرعى. يتناهى إلى سمعي صوت من بعيد، لا شك أنه صوت الحجل المحبب إلى قلبي، يقترب الصوت، أتوقف عن إحداث صوت أو حركة، ها هو الذكر يتقدمها ويطلّ من رأس الجبل، يستطلع المكان ويتأكد من سلامة الطريق، لا أملّ من سماع صوت الحجل المميّز الجميل. أستغرب كيف يطارد ويقتل وكأنه أعتى المجرمين! من كانت هوايته الصيد فسيستمتع بقتله مرّة، لكن عاشقه يستمتع بمرآه كل مرّة، أثار الصوت قريحة الشعر فكتبت:

زدني من صوتك يا حجل لا تبخل ضيفك مرتحل
 زدني من صوتك لا تبخل تسبيحك رده الجبل
 ونداؤك خاطب وجداني بشعور يحدوه الأمل
 الشمس تجود بأنوار والطير يسبح يحتفل

والريح تداعب أشجارا والضوء يعانقه الطلل
الضيف بظلّ في غار بخيال الشاعر ينتقل
هل هذا المسرح موجود أم إن العين بها خلل
قبل تناول الغداء، تتأكد الأم أننا أرسلنا للعامل غداءه أولاً،
تقول لنا: أسرعوا قبل أن يخرج للعمل. رغم أنها لا تستطيع أن
تفهمه، له لغة ودين، مختلفان، إلا أنها تهتم به أيما اهتمام، قبل
دخول الشتاء تشتري له الملابس التي تقيه البرد وعلبة من
(الفازولين) يدهن بها يديه وقدميه، ومناديل وصابوناً. قيل لها: إنه
ليس مسلماً، قالت: أليس إنساناً؟ نأثم لو قصّرنا في حقه، تصوّروا
لو كان واحداً من أبنائكم مكانه في الغربة، كيف تريدونه أن
يعامل؟

تذكّرت وأنا أستعيد كلام أمي، سيرة رسول الله ﷺ عندما مرّت
من أمامه جنازة فوقف لها. ثم مرّت جنازة أخرى فوقف لها، فقيل
له: إنها جنازة يهودي. فقال ﷺ: أليست نفساً؟ أين هذا الحديث
وآلاف مثله من ثقافة يحتاجها عالمنا بعد أن صار بمنزلة قرية كونيّة؟

تطلب الأم من الجميع عدم ترك بقايا في صحنونهم تقول: إذا
أخذت شيئاً فلا تترك منه بقية في الصحن. تذكّرت ما تعلمته في
الغربة، أخذوا السفرة لرميها في برميل النفايات. تطلّعت الأم إلى
السفرة وقالت: العظام توضع على حجر يأكلها ثعلب أو قط جائع
في الليل، والقشور تعطى للغنم، وبقايا الحبّ للدجاج، وهذا
النوى يبذر في التربة لعله يصير شجراً، والسفرة تنشّف وتستخدم
ثانية.

تساءلت لماذا تجمع النفايات من أمام بيوتنا يومياً، بينما في الغربية كانوا يجمعون النفايات من أمام بابي مرّة في الأسبوع؟

ستموت هذه العادات الجميلة بموت من عانوا من الجوع والحاجة، وقَدِّروا النعمة حقّ تقديرها. ليس الخطأ من الأبناء، بل من الآباء والأمهات الذين قصروا في تعليمهم تلك العادات الجميلة.

عندما كانت الأم بكامل قوتها، تذهب إلى السوق في أواخر شهر شعبان، تشتري كيساً من الرز وكراتين من الدجاج وصناديق من الفاكهة، وتمرّ على المزارع القريبة، تعطي كل عامل كيساً فيه بعض من كلّ شيء، ومبلغ مئة ريال، تقول: هذا عشاء لوالدينا الميتين عليهم رحمة الله.

اشتكى ثلاثة من العمال الهنود أن السائق الذي أوصلها لتوزع ما لديها، عاد لوحده وأخذ المئة ريال من كلّ واحد منهم، وأعاد لكل واحد خمسين ريالاً فقط، بدعوى أنها طلبت منه ذلك، لأنها نسيت أن تعطي آخرين، وسيقوم بذلك نيابة عنها. علمت بذلك وغضبت كثيراً وأمسكت بالسائق وزجرته على قلّة الأمانة، وأعدت المبالغ لأصحابها. هذا السائق هو الذي قال: إنه يصوم الخميس والاثنين!

وفي نهاية شهر رمضان المبارك تذهب لبيوت محتاجة، وتدفع لهم الزكاة بنفسها، إذا فتح الباب لها طفل أو ولد طلبت منه أن يدعو أمّه، ثم تضع بيدها بعض النقود، لتسمع بعده سيلاً من الدعاء، وقبلات على الرأس واليدين.

لم تعد تستطيع الذهاب إلى السوق لشراء ما يحتاجه العامل، لذا تعطي إحدى بناتها مبلغاً من المال وتطلب منها شراء ما يحتاجه

العامل، لتسلمه لي عند ذهابي للمزرعة. تردد دائماً: لكم في كلّ كبد رطوبة أجر.

حتى وهي في الرياض تحث كل أقاربها على عدم رمي الأكل في براميل القمامة، تطلب منهم نشره وتجفيفه ثم وضعه في أكياس، تطلب مني إيصاله للمزرعة أو لمن عنده أغنام من الأقارب، تقول: إكرام النعمة في عدم رميها في براميل القمامة.

في أحد أيام فصل الصيف - والصحراء كساكنيها في مثل تلك الأيام، تغضب لأنفه الأسباب، فتثير أمام من يأتيها الزوابع المحملة بالرمال، تحيط بك الحرارة من كلّ الجهات - وبينما كنت ذاهباً من الرياض للمزرعة ومعني بعض هذه الأكياس التي تحوي بقايا الأكل، ويسمى باللغة الدارجة (نفيح) شمت رائحة بقايا الخبز والتمر القديم، فدار بيني وبين سيارتي أرجوزة فرضتها الوحدة وطول الطريق. منها:

سيارتي مسكينة تعبت من الخط السريع
لكنها نشوانة تشتم رائحة النفيح
قالت: فديتك صاحبي وفديت من جمع النفيح
قلّ لي بريك ما الذي جعل الروائح كالربيع
فأجبتها:

تمر تقادم عهده والخبز من ذاك الرجيع
والكيس ضمهما معا والدود يعبث بالجميع
قالت: أليس مقامكم يعلو على حمل النفيح؟
فضحكت منها قائلاً: من قال حامله وضع

أرنو إلى نجمٍ سما أجري مع الحمل الرضيع
من لا يعفّر خدّه لم يرق للمجد الرفيع
ليست الحياة كلها جدّاً ولا كلّها هزلاً، لكن ساعة وساعة. خُلق
الإنسان بعواطف ورغبات وبحب وكره، بأشواق وأمانٍ. يسمع
اللحن الجميل فيطرب له، ويسمع النشاز فيؤذيه.

مفارقات

لكل حرب إفرازاتها ومن إفرازات حرب الخليج تلوث البيئة وبقاء بعض قوات التحالف في المنطقة .

بعد تفجير مدينة الخبر اتخذت سلسلة من الإجراءات لمنع حدوثه ثانية، منها تجميع القوات في مكان واحد، وتعزيز الحراسات والإجراءات الأمنية حول المواقع .

شكلت الحكومة الأمريكية لجنة تحقيق للبحث عن الأسباب التي أدت إلى التفجير، وعن جهات التقصير أمنياً. أدانت لجنة التحقيق قائد المجموعة، وعاقبته بإحالة للتقاعد. لا بد من لوم مقصّر. لكن قائد القوات الجوية الأمريكية لا يوافقهم على هذا الجزاء ويقول: إن الانفجار كان مفاجأة للجميع، ولا يتحملة هذا القائد المتميز. يصرون على استنتاجاتهم وإحالة المسؤول إلى التقاعد، يعلن قائد القوات ذو النجوم الأربع تقاعده احتجاجاً على الجزاء غير العادل. إنها الشجاعة والأمانة، وما يمليه ضميره الحي، تخلّى عن منصب يتمناه كل ضابط في القوات الجوية، لكنه كسب ضميره وأصبح معروفاً، يضرب به المثل في الشجاعة، ويدعى لإلقاء المحاضرات في كلية القيادة والأركان وكلية الحرب، كواحد من رموز القوات الجوية الذين تفخر بهم وبشجاعتهم .

جاء صحافي من جريدة (الواشنطن بوست) لزيارة القوات الجوية

الأمريكية في موقعها الجديد، وليكتب للشعب الأمريكي عن ملاحظاته، طلبت القوات الجوية السعودية مرافقاً له فتطوعت لمرافقته .

تحركنا من الرياض الساعة السابعة صباحاً، ولم نعد إلا الساعة السابعة مساءً. أمضينا الوقت كله مع القوات، استقبل المسؤولون الأمريكيون الصحفي بكل حفاوة، وكأنه مفتش مرسل من جهة رسمية، شاهد كل الإجراءات الأمنية، وتناول وجباته مع الجنود، كان قائد المجموعة يرافقه في كل مكان، قدموا له شرحاً عن كل ما يبحث عنه وجاء من أجله .

سألهم أسئلة كثيرة، وبعضها له صفة السرية، لكنه يصرّ على معرفة الحقيقة، يردد دائماً: بصفتي دافع ضرائب، أريد أن أعرف أين تذهب الأموال، وكيف تصرف؟

في خط الطيران حيث الطائرات المقاتلة تجهّز وتُرسل لمراقبة جنوب العراق، رأيت الحماسة والروح المعنوية العالية، فهذا شاب بشعر ذهبي لم يبلغ الثانية والعشرين بعد، جاء من ولاية (أوريغون Oregon) حيث الماء والخضرة والجنان النائمة على ضفاف الأنهار، ها هو في وسط صحراء الجزيرة العربية اللاهبة وفي منتصف النهار من شهر أغسطس، يركض يميناً وشمالاً، وحول الطائرة المقاتلة، يجهزها ويساعد الطيار حتى يقلع، ليس عليه سوى لباس الميدان وواقية الصوت لحماية سمعه. يتحدث إليه الصحفي، فيجيب بكل ثقة وبلا تردد: أعشق عملي، وأخدم بلادي، وأفخر بقواتي الجوية .

تمنيت لو شاهده بعض شبابنا الذين أدمنوا المكيفات وتسمّروا

أمام شاشات التلفزة ساعات وساعات، بعضهم لا ينزل من سيارته المكيفة خشية حرارة الجو، يستخدم منه سيارته بكل صلف حتى يحضر البقال ويناوله علبة دخان أو مشروباً غازياً .

في المكان نفسه (خط الطيران) توقفنا عند المسؤول عن صيانة خط الطيران وهو رئيس رقباء في الأربعينات من عمره، يدور بين الطائرات على دراجة هوائية، عجلاتها ضامرة مثل قوامه الممشوق. يبتسم للصحافي ويخاطبه من على الدراجة، قدم على الدواسة و قدم على الأرض، يقول: أضرب عصافير كثيرة في وقت واحد. أراقب عن كثب، وأتريض، ولا ألوث البيئة، أعشق عملي وأستمتع برؤية هؤلاء الشباب يقلعون بطائراتهم، وأنتظر عودتهم بسلام والابتسامة على محياهم .

أجرى الصحافي مقابلة مع شابة تطير على طائرة مقاتلة، تقول: نعمل وننام في نفس المكان مع بقية أفراد السرب كمجموعة واحدة، نرفض فصلنا عنهم. يسألها الصحافي: ألا يوجد تحرش؟

- التحرش موجود من الجانبين، لكن الجزاءات الرادعة موجودة أيضاً، يفقد الضابط رتبته لو ثبت استغلالها لأغراض التحرش .

عدنا إلى الرياض وذهبت لأرتاح، أما الصحافي فقد ذكر أن عليه أن يعد التقرير ويرسله قبل أن ينام .

النجاح لا يأتي من السماء دون جهد أو تعب . هؤلاء الذين يراهم البعض كعابشين، يتحولون أثناء أداء الواجب إلى كتل من النشاط والبذل والعطاء، عطاء دافعه الشعور بالمسؤولية والإخلاص للوطن وحب الإلتقان وروح المنافسة، سرّ النجاح يكمن في حب العمل وإعطائه ما يستحق من وقت وجهد .

في زيارتي للولايات المتحدة وجدت نفس الشعور لدى من التقيتهم، أحدهم - وكان مسيحياً متديناً برتبة عقيد - يعمل اثني عشرة ساعة يومياً في وزارة الدفاع، يأتي من سكنه كل صباح على دراجة هوائية، يتركها عند موقف سيارات قريب من الخط السريع، ثم يركب مع من سيذهب لوزارة الدفاع دون مقابل، المهم أن هذا يتيح لصاحب السيارة استخدام الخط السريع الذي لا يسلكه إلا من في سيارته ثلاثة أشخاص أو أكثر، ونفس الشيء عند العودة، ثم يأخذ دراجته ويعود إلى بيته.

هذا العقيد لديه ولدان في سن الخامسة عشرة والسادسة عشرة، يأخذهما في نهاية كل أسبوع، ويلعب معهما كرة القدم، وأحياناً يكون حكماً لمباراة كرة قدم، وابناه مساعدي حكم على الخط. يقول هذا العقيد: أريدهما بصحة جيدة، وأريدهما أن يتخذا القرارات بكل شجاعة حتى لو كانت ضد زملائهما، يقول: كل وقتي لعملي وأسرتي، فواحد مصدر رزقي ونجاحي ورفعة وطني، والآخر مصدر سعادتي وفخري.

في قاعدة (كلي) الجوية، قاعدة معلومات ضخمة للحرب الإلكترونية. تعمل بها امرأة برتبة عقيد تقول: آتي قبل الزحام وأذهب بعده، أي بين الساعة السابعة صباحاً والسادسة مساءً، زوجي يتضايق كثيراً لكن العمل يتطلب ذلك. قلت لها عند الوداع: نراك في المرة القادمة عميداً. قالت: سأتقاعد بعد شهرين.

بعد حرب فيتنام ومع تقدم العلم وإبداعات العقول ونتاج التقنية، وتولي القطاع الخاص كثيراً من المهمات غير القتالية لم تعد أمريكا بحاجة إلى هذا العدد من القواعد الجوية. ومنها قاعدة (كلي)

الجوية التي سلّمتها وزارة الدفاع لبلدية مدينة (سان أنطونيو) التي أجرتها لشركات أمريكية لها علاقة بالقوات الجوية وبذا حافظت على المكان، وضمنت الوظائف.

من يرى الولايات المتحدة من الداخل، مصانعها وقواعدها المنتشرة وما تساهم به من تنمية، ويرى الجامعات والمعاهد العالية، وما تساهم به من دفع للاقتصاد، وما يحمله المواطن الأمريكي من طيبة وحب لبلاده وللآخرين، يستغرب كيف يجتمع ذلك مع سياسة خارجية تقوم على القوة الغاشمة والمصالح السياسية والاقتصادية البعيدة عن العدالة والرحمة والحرية للشعوب المستضعفة.

تستطيع الولايات المتحدة بما حباها الله من قوة ورجال مخلصين بنوها على أسس ثابتة من الحرية والاحترام للإنسان، أن تنشر نفس المبادئ خارجها، لو تخلصت من تلك العقيدة التي ترى الحلّ بالقوة دائماً، ولو تحررت من ذلك الإعلام المسير الذي يغض الطرف عن مآسي الشعوب في سبيل تحالفات ظالمة، بين أصحاب الأموال وبين صنّاع السلاح وأباطرة السياسة.

الحضارة كقطار له في كل يوم محطة، سافر عبر آلاف السنين من محطة إلى أخرى، حاملاً معه في كل محطة نتاج المحطات السابقة، وحضارتنا الحديثة حطت في أوروبا الغربية حين حررت العقل من قيوده، واستفادت ممن سبقها من الحضارات، ومنها الحضارة العربية وما ترجمته وجودته من التراث اليوناني، لتمتد منها إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وها هي تعبر المحيط ثانية للشرق البعيد، لتحط في اليابان التي آمنت بالعلم والجودة والإتقان

طريقاً للتنافس، بعيداً عن التسلح ومآسي الحروب. تجاوز قطار الحضارة هذه المنطقة دون توقف، لأنه يريد مناخاً أكثر ملاءمة، مناخاً تتفتح فيه العقول، ويستنشق فيه الناس أنفاس الحرّية، ويحاربون الفساد كما يحاربون الأمراض المعدية، ويكون للإنسان قيمة، بصرف النظر عن جنسه أو عرقه أو معتقده.

أمسك بي يوماً أحد شباب الصحوة في أحد ممرات مؤسسة علمية، وقال لي: الحضارة الإسلامية قادمة، ثم أضاف: إن حيننا بما فيه الكفاية فسوف ترانا متقدّمين على أمريكا واليابان، ضحكت في قرارة نفسي وقلت: لتوطن الحضارة شروط لم نمتلكها حتى الآن.

نفس الشخص أمسك بي في يوم آخر وفي نفس المكان، ليعرض عليّ عرضاً من الصعب عدم قبوله، الزواج من موظفة صغيرة وجميلة وتمتُّ لهذا الشهم بصلة. قال لي: لن يكلفك سوى تفرغ نفسك وإحضار ثيابك، لديها السكن والمال، وتريد زوجاً وأطفالاً، قلت له بكل أدب: شكراً على العرض لكن تبعات هذا الزواج وفواتيره ستأتي فيما بعد. لدي حياة سعيدة وأطفال بحاجة إلى تربية، وزوجة تستحق ردّ الجميل، وحب وقلب يصعب تقسيمهما. لماذا لا تحاول البحث عن مسكين أرهقته الوحدة وأثقلته متطلبات الحياة، ليتعاوننا معاً لبناء أسرة صالحة؟ أما أنا فلن أبني بيتاً جديداً إلاّ على أنقاض بيت قديم. ما يدفع غيري لمثل هذا الزواج ليس من أولوياتي في هذه الحياة.

القيادة مرة أخرى

ميزة الحياة العسكرية أن لكل رتبة منصبها المناسب، ليحفظ لها ولحاملها كرامتهما .

أصبحت عميدا وهي أول رتب (الجنرال) في الغرب لذا لن أبقى مدير إدارة الحرب الألكترونية التي بقيت فيها سبع سنين (1989 - 1996) آمنت أن هذا المجال مقدره وطيّة، يمتلك ولا يشتري . لن يتبرع بها أحد من الخارج، لا بد من مراكز أبحاث ولا بد من قاعدة صناعية تستقبل ما تنتجه العقول . قال لي ضابط فرنسي متقاعد: ذهبنا إلى الولايات المتحدة ليساعدونا في مجال الحرب الألكترونية، وأمضينا عدة أسابيع نفاوضهم وعدنا بخفي حنين وبفائدة واحدة: علينا الاعتماد على أنفسنا .

زارني أحد الزملاء ليهمس في أذني، وبارك لي مقدماً قيادة قاعدة جويّة . تأكد الخبر، ولكنّ هناك رتبّ كثيرة في القاعدة قبلي، ذهبت لسمو اللواء تركي بن ناصر الذي رشحني وسعى لتعييني لأقول له: إنني أشكره على هذه الثقة، لكنني لا أرغب في إخراجهم مع الآخرين، ولا مانع في تعييني في أي مكان آخر، أو الانتظار . يصرّ المسؤول ويبلغني أنني الرجل المناسب .

للقيادة سحرها الذي لا يقاوم، خاصة قيادة القاعدة . القاعدة مملكة القائد الصغيرة، يأمر فيطاع، لديه إمكانات كثيرة،

ومسؤوليات كبيرة. ويتم اختياره بكل عناية. أهم ما لديه العنصر البشري، والطائرات التي بها تنفذ المهمة.

هناك قانون تعلمته من دورة (مدرسة الأسراب) قبل حوالي عشرين عاماً. التعليم الجيد يبقى طويلاً، ويحفر له مكانه في تجاويف الذاكرة. يقول ذلك القانون: تعلّم قوانين اللعبة قبل بدء اللعب. لن يسمح لك الحَكَم أن تصول وتجول وتسجل أهدافاً إذا لم تطبق القوانين، وتعرف ما هي الصلاحيات، وما هي الإمكانيات، وما هي أفضل الطرق الموصلة لتحقيق المهمة، ما هي أهم المشاكل القائمة، وكيف حلّها.

كان هناك قائدٌ للقاعدة قبلي، أمضى ثلاث سنوات. عليّ الاستفادة من تجاربه وخبراته، وهناك رؤوساء أقسام، لا بد من كسب ثقتهم، وإشعارهم أنني جئت لمساعدتهم.

لكل منشأة مهمة أساسية، وكل ما عداها مساند لأداء المهمة، المهمة محددة من القيادة العليا. إن قصرت في أداء المهمة الأساسية فلن يشفع لك تحسين الجوانب الأخرى أو الأقسام المساندة.

القوات الجوية في كلّ بلد مثل شركات الطيران مع اختلاف المهمة، صيانة الطائرات وتجهيزها وتدريب الطيارين للقيام بالمهام المطلوبة، لن تكون الطائرة ذات فائدة إذا بقيت غير صالحة تسكن في حظيرة الطائرات.

هناك تَدَنٌ في صلاحية الطائرات. سألت عن السبب قيل لي: نقص قطع الغيار. تذكرت ما حصل في تجربة سابقة عندما كنت قائد سرب، أليس الإنسان يبحث عن سبب لإخفاقه بعيداً عن إدانته أو

تقصيره؟ يحاول أن يعزو كل إخفاق لعوامل خارجة عن إرادته .

الأب المقصّر في تربية أبنائه، يضع اللوم على المدرسة أو الأصدقاء أو الإعلام أو غيرها من الأسباب الخارجة عن إرادته . المهم ألا يلوم نفسه أو يكلف نفسه عناء البحث عن الأسباب، عليه أن يزيل المسؤولية عن كاهله . الهزيمة في المعركة ليست بسبب نقص الاستعداد والتدريب، أو سوء القيادة، أو تدني الروح المعنوية ، أو الفساد، لكن بسبب تدخل دولة كبرى وهكذا . النقد الذاتي فنّ لا تتقنه شعوب العالم النامي .

إذا أراد القائد أن ينجز مهمة فعليه أن يجعلها مهمته هو لا مهمة المساعد أو القادة من بعده، آنذاك سيرى كيف تكون لها الأهمية، وكيف يكون التحسن يوماً بعد يوم .

أخبرت الجميع : إن لصلاحيه الطائرات أولوية على ما عداها، قلت لهم : سأكون في الميدان صباحاً لمراقبة هؤلاء الشباب يؤدون مهماتهم، وسأكون أول من يشدّ على الأيدي السمر التي تجهّز الطائرات وترسلها للجوّ، أخبرتهم أنني سأطير معهم، وسأذهب لخط الطيران كغيري من الطيارين، ذهبت لأطير فوجدت الطائرة غير صالحة رغم أنها مُجدولة وأخذت الطائرة الاحتياطية فوجدتها غير صالحة أيضاً . عدت للأولى وقد أصلحوها .

هناك مشكلة في قيادة السرب، ليس كل ضابط قديم يصلح قائداً، وليس كل بارع في تخصصه يصلح قائداً .

قائد السرب كان فنياً ممتازاً، يعرف كيف يصلح الطائرات لكن لا يعرف كيف يقود الرجال، ومعظم رؤساء الأقسام من زملائه، بعضهم يرى أنه أحق منه بالقيادة لولا الحظ .

قيادة الرجال بحاجة إلى حزم وقدوة. هذا القائد يحاول جاهداً، ويسهم شخصياً في إصلاح الطائرات، لكن طالما أن بقية رؤساء الأقسام قابعون في مكاتبهم يديرون أعمالهم الخاصة، فلن يساعده على النجاح.

طلبت من القيادة قائداً جديداً للسرب، فلبّوا طلبي بسرعة، وبعد مدة غيروا قائد الجناح، صارت صلاحية الطائرات تمرر عليّ وعلى مساعديّ يومياً، مع شرح لعدم الوفاء بأي مهمة، صرت أقارن كل شهر بما قبله وأطلع شخصياً كم حقّق كل طيار من عدد الساعات شهرياً، لا بد من وجود قياس ومقارنة لمعرفة مدى التقدم.

خلال ستة أشهر اختفت مشاكل الصيانة، أطلعني قائد الجناح على رسم بياني لصلاحية الطائرات المرتفعة التي ظلّت كذلك حتى غادرت القاعدة، لم تكن المشكلة قطع غيار ولا تقصيراً من القيادة العليا، كان السبب الرئيس ضعف إنتاج وسوء متابعة وقبول أعذار غير صحيحة، لإقناع المسؤول أنها خارجة عن إمكانيات القاعدة. ألسنا نقول دائماً: إن كلّ مشاكلنا وإخفاقاتنا لأسباب خارجية؟

القائد السابق للقاعدة نظّم أولوية السكن للضباط والفنيين بحيث لا يقدم شخص على آخر والأولوية للمتقدم الأول. قال ذلك القائد حكمة بقيت أتذكرها وأقولها كلما حاول شخص خرق النظام: النظام كالبالون، جميل متماسك يؤدي المهمة حتى يثقب، بعدها يتسع الثقب وينتهي إلى بقايا يداس عليها، وهكذا النظام. طبّقت هذا القانون في كلّ مراحل عملي اللاحق، ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، فوقّرت على نفسي عناء الإحراجات والتعدّي على حقوق الآخرين.

أثناء زيارتي لنادي وحدات الشرطة، رأيت مستودعاً مليئاً بالمواد الغذائية، قال لي قائد الوحدة: هذا لرمضان، نحفظ ما زاد على الحاجة في أشهر السنة، ونقايضها بمزيد من الأكل في رمضان، نستهلك من الأكل في رمضان أكثر من أي شهر، خاصة اللحوم بأنواعها والمعجنات والحلويات.

- لكن الواجب في رمضان أن يقلّ الأكل، لأنهم في النهار صائمون.

- نقدم في وقت الإفطار والعشاء أنواعاً وكميات كبيرة ويطلبون المزيد.

- لذا تستهلكون أكثر وتزداد السمنة والأمراض المصاحبة، هل سبق أن أجريتم دراسة بسيطة قبل الشهر وبعده لمعرفة النتائج؟ وهل استفدتم من فوائد هذا الشهر العديدة؟ وهل وقفتم على الحاويات بعد صلاة التراويح لتعرفوا كم تحوي من نعم؟ أليس من الواجب أن تذهب للفقراء؟ نسيء إلى هذا الشهر الكريم وإلى أنفسنا إذا أحلناه إلى شهر نزداد فيه وزناً ونوماً ونقلّ إنتاجاً وعبادة وعملاً.

كان من عادتي أن أمشي كثيراً بعد صلاة التراويح، وهذا يجبرني على تقليل الأكل في وجبتي الفطور والعشاء، أثناء سيري أمرّ على الكثير من الحاويات التي تحتلها القطط وتحتفل بقدوم شهر رمضان، وتستغرب من مروري كل يوم في نفس الوقت بجانبها، تمتلئ تلك الحاويات بشتى أنواع الأكل. كم مرّة رأيت سيارة نقل صغيرة تخرج كلّ يوم من أحد القصور الكبيرة، ثم تقف بجانب حاوية كبيرة وتبدأ بإفراغ حمولتها من الأكل والمواد الأخرى، والقطط تنتظر قريباً من الحاوية، يستمر إنزال الحمولة دقائق تفيض

بعدها الحاوية الكبيرة، أكياس سود مليئة، وصناديق، يتعاون شخصان على نقلها للحاوية. تذكّرت وقارنت: في مدينة (ساوثهامبتون) في بريطانيا يأخذون الحاوية التي لا يتجاوز طولها متراً من أمام البيت مرتين كلّ أسبوعين، أسبوع للحاوية التي سيعاد تصنيع ما بها، والأسبوع الآخر للحاوية الأخرى، مع أنهم أكثر دخلاً وغنى، لكنها ثقافة التوفير وحماية البيئة.

هل سأل كلّ رب بيت: ماذا يخرج من بيته لتلك الحاويات وكم مرّة في اليوم يخرجونها؟

يقول الأستاذ محمد أسد في كتابه (الطريق إلى الإسلام): «إن الغاية من شهر الصيام كما علمت، غاية مزدوجة. إن على الفرد أولاً أن يمتنع عن تناول الطعام والشراب حتى يشعر في جسمه هو بما يشعر به الفقراء والجائعون، وبهذا تثبت المسؤولية الاجتماعية في الوعي البشري كفرض ديني. وأما الغاية الثانية من الصيام في رمضان فهي ضبط النفس - وهي ناحية من نواحي أخلاق الفرد التي تشدد عليها التعاليم الإسلامية جميعاً. وفي هذين العنصرين - الأخوة الإنسانية وضبط الذات - بدأت أميز الخطوط الكبرى في استشراف الإسلام الأخلاقي» (ص 191).

كلتاهما تحبو

قبل تولّي قيادة القاعدة، كان سكني في جنوب الرياض، أتعرّض للزحام يومياً، أربعون دقيقة في الصباح ومثلها بعد الظهر، تغلّبت عليها بالاتفاق مع أربعة زملاء، نذهب ونعود معاً. كانت فكرتي التي طبقتها مع زميلي ثم انضم لنا زميلان آخران. استمتعنا بالحديث في ما بيننا، وضحكنا ووفرننا المواقف في منطقة العمل، وقللنا من عدد السيارات والتلوّث في الشوارع.

لقائد القاعدة سكنه الخاص والقريب من عمله. الوقت من البيت للعمل خمس دقائق، البيت واسع وفيه قسم خاص للضيافة، ومسبح مغطى ومستقل، فيه أربع غرف كبيرة خصصنا واحدة منها لوالدتي، فيها دورة مياهها الخاصة. للصغيرات غرفتهن الخاصة.

خرجت من غرفتي كالعادة لأتوجه للعمل، رأيت والدتي ذات السبعين عاماً، وابنتي مشاعل الأقل من عام واحد، كلتاهما تحبو. الصغيرة كانت تبكي باحثةً عن أمها. لم يلبث أن تحوّل البكاء إلى ابتسامة طفوليّة ساحرة. الوالدة تحبو ذاهبة إلى الحمام، الخادمة أعيهاها السهر ونامت، لم تشأ الوالدة إيقاظها، تتمم بعبارات طالما رددتها: (أصبحنا وأصبح الملك لله، الحمد لله على هذه النعم الكثيرة، يا الله من حيلي إلى قبيري، اللهم لا تجعلني عالة على أحد).

الصغيرة تفتح الباب بيدها الناعمة لتخرج للحياة، والكبيرة تغلقه بيد متبسة، ملّت الحياة، لا تريد أن يراها أحد خشية أن يهب لنجدتها.

الصغيرة ببشرة نقية ملساء صافية، والكبيرة ببشرة تقاسمتها التجاعيد والخشونة وتحكم فيها اليأس.

الصغيرة بعينين جميلتين ضاحكتين، الكبيرة بعينين غائرتين لم يبق منهما سوى أحافير من الجلد والعظام.

الصغيرة تنضح بالصحة والحياة، والكبيرة هدها المرض وملّت الحياة.

الصغيرة تضحك لأبسط الأشياء، والكبيرة تجد صعوبة في الابتسام.

الصغيرة تحاول الوصول لكل ما حولها، والكبيرة تتجنب كل ما حولها.

وقفت بينهما على نفس المسافة، أنظر إلى هذه وتلك، واحدة تحاول الصعود، وأخرى تساق لمنحدر حزين.

لست هذه ولا تلك، بل حاصل مجموعهما معاً مقسوم على اثنين. أنا نصف عمرهما معاً، ونصف حياتهما معاً، ونصف سعادتهما معاً، وقفت على نفس المسافة أراهما معاً. واحدة تصعد في مرح، وأخرى واهية تنزل إلى منحدر.

فكّرت في الحياة ما أقصرها وما أطولها! ما أجملها وما أقبحها! ما أسعدها وما أشقاه!

ابدأ والنهاية ماثلة أمامك. من العادات السبع للكاتب ستيفن

كوفي. نحن الذين نصنع السعادة والشقاء، الصحة والمرض، النجاح والفشل، الفقر والغنى. أجمل ما رأيت تلك القناعة والرضا البادية على محيا والدتي، لم أسمع منها يوماً تدمراً من الحياة أو ممن حولها. لكنني حزنت لتلك الصغيرة القادمة بقوة للحياة. لتلك الصغيرة طاقات هائلة من القدرات قد تحيا وتموت وهي مطمورة، لن تجد من يصقلها ويبرزها للوجود. لن يكون لها خيار في أمور كثيرة، وقد تكون ضحية متسلط لا يخاف الله.

لن تبرز تلك الطاقات إلا بتربية سليمة متوازنة، بعيدة عن العنف والإيذاء الجسدي والنفسي، تربية تعطي للطفل مجالاً أوسع للعب وتجريب حظه مع الهوايات والأعمال الفنية، ثم تعليم يتيح لعقل الصغير مزيداً من النمو في عقله وجسمه، تعليم مبني على خبرة وتجارب الآخرين ودراساتهم. أليست الحكمة ضالة المؤمن؟ لِمَ لا نبحث عنها ونوظفها؟

لتلحق الأمة بنادي الدول المتقدمة حيث الرخاء والنظام وتقدير الفرد وحفظ حقوقه، لا بد من استثمار كلّ مقدرات الأمة سواء من الرجل أو المرأة. تسوء الحالة المادية والاجتماعية حيث يسود الجهل وتهتمش المرأة وتُساء معاملة الطفل وتستغل براءته.

من يعلمهم السلوك الحضاري؟

نفسو على الشباب، ونعيب تصرفاتهم ونحن سبب كثير منها، ننتج بغزارة ولا نربي بجدارة. من السهولة أن تنتج عشرة، لكن كم من الجهد تحتاج لتربيتهم التربية الصحيحة؟ التربية لا تتم من خلال النصح والوعظ فقط، هل تستطيع تعلّم السباحة من قراءة كتاب؟

أبنائي أمانة في عنقي ولا أترك غيري يعلمهم ما أستطيع أن أعلمه لهم، ومما أحرص على تعليمهم قيادة السيارة لخطورتها، السيارة سلاح نستعين به ولا نعطيه ما يستحقه من اهتمام، أتحدث إليهم ولا أبخل عليهم بالنصح والإرشاد وأكون دائماً قدوة لهم، لكن أهم من الكلام (التطبيق).

بعد بلوغ الابن سن الخامسة عشرة أبدأ بتعليمه قيادة السيارة قبل أن يتعلمها من غيري، في البداية أشرح له كل ما له علاقة بالسلامة، قبل التحرك أطلب منه ربط الحزام وضبط المرايا، أعلمه القيادة الصحيحة في مكان خال، وبعدها يستمر يقود السيارة معي مدة سنتين، يصبح سائقي كلما سمحت الظروف بذلك حتى تصبح القيادة السليمة هي العادة الثابتة عنده، أفضل وقت يتعلّم فيه الكثير عندما نكون ذاهبين إلى المزرعة، يقود السيارة ساعتين متواصلتين.

أثناء القيادة في المدن أشير إلى ما نراه أمامنا من مخالفات غير حضارية، وخاصة عند إشارات المرور كالوقوف على خطوط المشاة أو مضايقة الآخرين في الوقوف، وما يقوم به صغار السن من تهوّر وتجاوزات. أقول له: ليس هدفي من تعليمك هو عدم ارتكاب الأخطاء فقط، بل تفادي أخطاء الآخرين. بعد السنتين يكون جاهزاً للحصول على رخصة القيادة وقد أخذ مناعة ضد التهوّر. أذكره بقول وافد أمضى وقتاً طويلاً في المملكة، يقول ذلك الوافد: أحب في الشعب السعودي صفات كثيرة منها الكرم والتسامح وحب الخير والرغبة في المساعدة. لكنني أكره سلوكهم في الشارع. حال ركوب أحدهم السيارة يتحوّل إلى إنسان مختلف، عجول وأناني وغير منضبط. وأسباب ذلك مرور مقصر في تطبيق القوانين على الجميع، وآباء مهملون، ومدارس مشغولة بالتلقين الذي احتلّ جلّ مناهجها فحُرم الطلبة من تعلّم المهارات الضرورية للعمل والسلوك الحضاري. وإعلام أضع الأولويات، ودعاة وخطباء لا يحاربون أسوأ ما في المجتمع من ممارسات خاطئة.

ركب ابني مع زميله ذات صباح إلى المدرسة، في المساء أبلغني أنه لن يذهب معه مرّة ثانية، قال: زميلي يقود السيارة بكلّ تهوّر، سرعة زائدة وتجاوز خطأ، أخبّر والده أنني لن أذهب معه لهذا السبب، جاء زميله يعتذر ويقسم بالله أنه لن يتهوّر في القيادة طالما أن ابني معه.

جميع دول العالم المتقدم لديها دورات في المدارس وخارجها لتعلّم القيادة الصحيحة. لا يكفي أن يعرف كيف يمسك بالمقود

ويضع قدمه على الزناد لتنتقل القذيفة وتقتله ومن معه، ويكون وبالاً على مستخدمي الطريق.

واجبنا تجاه تعليم أبنائنا من أعظم المهمات الملقاة على كل أب وأم. ومما أعلمهم السباحة وصعود الجبال وحب الطبيعة واحترام البيئة، وقد أخذت معهم دورة في الغوص استمرت ثلاثة أسابيع. ومنذ الصغر أشجعهم على إصدار المجلات لزملائهم الصغار وأشجعهم على مراسلة مجلات الصغار والمشاركة في الرسم، يسمعون مني كلمة (لو سمحت) عندما أطلب منهم شيئاً، وكلمة (شكراً) بعد أدائه، لا يأتي النجاح حظاً ومصادفة، فكل طفل ناجح وراءه أم أو أب مهتم أو كلاهما.

أحب إليهم العمل وأهمية الاقتصاد وفضل الادخار دون تفتير أو بخل. أذكرهم بمثل يقول: «الفقر في الوطن غربة والمال في الغربة وطن». الفقر لا يحاربه سوى العلم والعمل وتعويد الأبناء على الاعتماد على النفس منذ الصغر. يروي أحد قادة القوات الجوية حين كان في دورة كلية الحرب في الولايات المتحدة قصة طريفة تدل على الجد والثقة بالنفس، يقول: يمتحن بعض الشباب والشابات تنظيف السيارات في مواقف الكلية، وفي كل مرة يتقدم إليّ شاب لا يتجاوز سنّه الرابعة عشرة ويطلب تنظيف سيارتي بدولار واحد. وفي إحدى الليالي دعاني قائد الكلية وهو برتبة فريق إلى بيته مع عدد من طلبة الدول الأجنبية، في بيته رأيت ذلك الشاب الذي ينظف السيارة، ظننته جاء للمساعدة في هذه المناسبة ولم أشأ إحراجه في السلام عليه، تقدم إليّ الشاب وسلّم علي بكلّ حرارة وقال لي: ألم تعرفني؟ أنا الذي أنظف سيارتك في كلّ

صباح . قدّمني لوالده قائد الكلية وبكلّ فخر قال : هذا هو الذي أنظف سيارته كلّ يوم . ابتسم والده ومسح علي رأسه وشكره . في صباح اليوم التالي تقدّم ذلك الشاب وشرع في تنظيف السيارة ، دفعت له خمسة دولارات بدلاً من دولار واحد ، رفض إلاّ بشرط : أن تكون للخمسة أيام القادمة .

وقفز الطائر من عشه

تخرّج الابن من الثانوية والتحق بشركة أرامكو، وهو الآن جاهز للابتعاث .

ودّعته في ذاك الصباح الجميل ليذهب للظهران أولاً . تخيلته طائراً صغيراً قفز من عشه الذي طالما ملأه حباً وشقاوة ومرحاً . أحسست بأن الابن بدأ بجمع القش وعلى وشك بناء عشه الخاص به، للتو أكمل السابعة عشرة، وقريباً سيفرد جناحيه ويحلق بعيداً في سماء الله الواسعة .

في الليلة السابقة تحدّثت إليه، لكن كثرة مشاغل الابن حالت دون إكمال الحديث . جلست في مكثبي وفكّرت في الأمر ورأيت أن من الأفضل أن أكتب رسالة أسلمها له، وأطلب منه قراءتها في الطائرة، جاء في الرسالة :

«لن تعيش سوى حياة واحدة فيإياك أن تضيّعها بالتجارب الفاشلة، النماذج الناجحة موجودة أمامك وفي طيات الكتب فاستعن بالله واختر أفضلها، الوقت أعظم رصيد لا يمكن الاحتفاظ به .

لن يحميك من الزلل سوى دين يذكرك بالاستقامة كلما ضعفت المقاومة، عليك بالاعتدال، فلا هو غلّو يشل تفكيرك ويقفل عليك أبواب الحياة، ولا هو تفريط يقودك للانغماس في المعاصي

والشهوات، تذكّر أنك في عبادة طالما أنك تسعى جاهداً لكسب القوة في كل مناحي الحياة، العلم قوّة، والرياضة قوّة، والفن الراقي قوة، وعدم الإسراف في المأكل والمشرب قوة.

عليك بأفضل هواية، وأنجح تجارة: القراءة، فلم يتقدم الجنس البشري إلاّ بها. ولن تجد أفضل منها لشغل الفراغ بما هو مفيد. عليك بقراءة سير الناجحين والعظماء، واتخذ في الغربية من المكتبات شبه سكن، ومن الميادين والحدائق مكاناً للرياضة وتصالح مع الطبيعة.

إياك أن تعود وقد أخذت منهم أسوأ ما فيهم، التدخين والمسكرات والمخدرات. التدخين بوابة تلج منها غيرها من المحرمات، التدخين يأخذ من رصيدك الصحي حتى ينفد دون أن تدري، تبحث عن رصيدك بعد سنّ الخمسين فلا تجده، بينما الرياضة تضيف إلى هذا الرصيد أعواماً وأعواماً بإذن الله، إن اجتنبت التدخين فلن تتوق لغيره، وإن دخنّت فمن الممكن أن يقودك للأسوأ.

إسبح قريباً من الشاطئ، وحذار من السباحة في الماء العميق، قد تكون وجبة شهية لواحدة من أسماك القرش، تجنب الشذوذ وبائعات الهوى، فهؤلاء يبيعون المرض والوهم والشقاء.

استمتع بكل فن رفيع واستفت قلبك في ما تعمل وتقول.

حاول أن تعود لوطنك بأفضل ما عندهم، وما كان سبباً في تقدمهم: عقول متفتحة توّاق إلى المعرفة وحبّ للعمل وسعي لإتقانه وصدق وانضباط، وتقدير للفن والجمال. لن يقدموا لك وجبات جاهزة من المعلومات، لكن عليك أن تتعلم كيف تبحث

عنها وتحصل عليها، تعلّم أن تسبح ضدّ التيار أحياناً، فالسمك الميّت هو الذي يسبح مع التيار دائماً كما يقول المثل، واصنع من الصبر والأمل قارباً يوصلك إلى شاطئ النجاح، ولن تصل إلاّ بثقافة مغايرة لما اعتدت عليه وتشبعت به منذ الصغر، لا تجعل الشهادة غاية، بل وسيلة، وتعلّم كيف تكون طالب علم على الدوام.

التاريخ يا بني لا يصنعه الكسالى ولا الخائفون، وقد تكون من قلة متميّزة شجاعة، تقود بلادها للرخاء بفضل نتاج عقولها، فلعلك تضيف جديداً تهديه لبلدك المعطاء. أصعب الطرق ما يقدّ من بين الصخور، لكن هو الذي يبقى ويسير عليه اللاحقون وتذكّر قول المتنبي:

وتكبر في عين الصغير صفارها وتصغر في عين العظيم العظام
يقول المؤرخ البريطاني توينبي: إن الحضارة هي عملية إبداع الأقلية، وتنهار حينما يفقد الناس قدرتهم على الابتكار.

أن تأخذ من الوطن فشيء بسيط، وما أكثر المتنقّعين! لكن أن تعطيه، فبحاجة لجهد مناكب وعصف عقول، لذا ترى القليل يعطون والكثير يأخذون وكأنهم يقيمون فيه بصفة مؤقتة.

كن خير سفير لدينك وبلادك الغالية، تذكّر أن الدين المعاملة، ولن يصدّقوك إلاّ إذا اتفق خطابك مع خصالك.

وأتركك مع حديث رسول الله ﷺ: (اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن). والناس يا بني تعني الجميع.

وضعتها في مظلوف، وطلبت منه أن يقرأها في وقت فراغه أكثر

من مرّة، ولا بأس أن يطلع عليها زملاءه. نشرت مقتطفات منها في مجلّة الصقور التي تصدر في كلىة الملك فيصل الجويّة لتعمّ الفائدة.

قال أحد الضباط عندما زارني بعد التقاعد، احتفظت بمجلّة الصقور سنين منذ كنت طالباً بسبب هذا المقال.

زارني ضابط آخر بعد التقاعد وأثنى على مقال كتبتّه في مجلّة الصقور بعنوان (لو عدت طالباً) يقول هذا الضابط: تأثرت بهذا المقال كثيراً وكان كثير مما فيه من سليات تنطبق عليّ عندما كنت طالباً، قرأته أكثر من مرّة وغير مجرى حياتي.

ومما جاء في المقال:

«دخل عليّ زميل قديم، فرّقت بيني وبينه الأيام، لم أره منذ عشرين عاماً، كان يشكو من ضيق في التنفس بسبب التدخين، وكان وزنه زائداً من كثرة الأكل وعدم ممارسة الرياضة، يشكو من آلام في الركبة من زيادة الحمل عليها، ماتت لديه الرغبة في أمور كثيرة بسبب ارتفاع الضغط والسكر، وقفت إلى جانبه فإذا بي كواحد من أبنائه، رغم أنه كان أكبر منّي بعامين فقط.

قال لي: أتذكّر أيام المرحلة الثانوية؟ هناك تعلمت التدخين، كنت أمد يدي بلا مبالاة إلى سجائر زميلي في أوقات المذاكرة، كنت أظنه يساعد على الفهم ويسرع بي إلى مصاف الرجال، صرت أسهر في نهاية الأسبوع حتى الصباح وأعود إلى البيت منهكاً، سافرت خارج المملكة في بعثة امتدت سنوات، كنت أشرب بشراهة حتى أفقد السيطرة، كنت أظن الشراب سرّ سعادتهم

ومُشعل حضارتهم. قدّم لي أصدقاء السوء حشيشاً فجزّيته قالوا لي إنه سرّ الإلهام والتألق، فإذا به يقودني لدهاليز الخوف والوهم، ولم يتقذني منه سوى السجن لعدة أيام.

ظننت الرياضة ترفاً لا يمارسها إلا المرضى والرياضيون المحترفون. أبحث عن أي عذر لعدم ممارستها، هجرت القراءة، كنت أعدها مضيعة للوقت وترفاً لا يمارسه إلا مختص. حتى أبنائي للأسف تأثروا بي كثيراً، جنيت على نفسي وعليهم، كم مرّة تمنيت لو عدت طالباً. كنت أفكر في يومي فقط، هل تصدّق أنه إلى الآن لا أملك منزلاً، لم يكن التوفير والادخار ضمن قاموس كلماتي، كنت أضحك على من يوفر وأعده بخيلاً، وأعد التبذير كرمًا. أخطاء كثيرة أدفع فاتورتها من صحتي ومالي، وتدفعها زوجتي وأبنائي. حيّدت العقل وركبت الهوى».

المريخ والزهرة

أخذت موضوع الخلافات الأسرية حيزاً في تفكيري، وخاصة ما يقع على المرأة من ظلم، فكّرت كيف أسهم في منعه على مستوى الأسرة، ثم المجتمع. جرت العادة أن أساعد كلّ شاب من الأسرة، مقدم على الزواج، لكنّ أهم من المساعدة المادية، المساعدة في تخطي مشاكل الزواج، صرت أرفق مع ما أقدم من مساعدة خطاباً، بدأ أول الأمر بوضع كلمات تهنئة ثم أصبح تذكيراً بأهم ما يتوجب على الزوج. أقول في بعض فقراته:

«أهنئك على أعظم خطوة تتخذها في هذه الحياة، وأعظم استثمار للحاضر والمستقبل، سترتبط بمن ستكون أقرب الناس إليك، وأنت أقرب الناس إليها، ستكون مستودع أسرارك وأنت مستودع أسرارها، تذكّر أنها ستكون نصفك الثاني وحجر الأساس لبناء أسرة سعيدة. تركت بيتاً دافئاً، بحثاً عن بيت أدفأ، وحصناً رحيماً وحانياً، لخصن أحن وأرحم.

عليك ببلمس الحبّ والاحترام، فبهما تذيب كثيراً من الاختلافات، ولا تسمع لمن ينصحك بغير ذلك، بعض الجهلة يرى العلاقة من جانب واحد، يأمر فيطاع، ويطلب فيلبي طلبه حالاً، يرى مذلتها رجولة، وخضوعها انتصاراً، العلاقة الدائمة هي التي تبنى على ربح الطرفين، وليس على ربح طرف وخسارة آخر.

المرأة طاقات هائلة من الحبّ والعطاء، فلا تكن عامل تثبيط أو هدم لتلك الطاقات، كلاكما بحاجة للحب والبذل في الحاضر وفي قادم الأيام، بمثل ما أنت مقدم عليه اليوم، تعمر الأرض وتضع لبنة في بناء الوطن العظيم.

كن قدوة لها في الحبّ وتقدير الفوارق وقبولها. أرفق لك كتاباً يوضح هذه الفوارق حتى لا تسيء تفسيرها والتعامل معها (الرجال من المريخ، والنساء من الزهرة). هذا الاختلاف هو سرّ وجود الرجل والمرأة. إياك وسوء معاملتها، لأنك دون أن تدري تسيء لنفسك وأطفالك.

شجّعها على السير في حقول العلم والعمل، وأعطها الثقة بنفسها، واطلب منها أن ترفع رأسها عالياً نحو السماء، ألا ترى أننا لا نطلب من النخلة أن تنحني لنجني الثمر؟ ولو حاولنا حنيها لكسرناها وصارت من غير فائدة. إياك والبخل فهو عدوّ الرجال، وإياك والشكّ فهو نار يصطلي بلهيبها الطرفان. حاول أن تكثر من المناسبات السعيدة فهي تعني لها الكثير ولن تنساها أبداً. خذها دائماً باللين واللطف وسترد لك ذلك أضعافاً مضاعفة. إياك والمماطلة بحقّ من حقوقها وتذكّر أن أهم شرط في الزواج: «إمسك بالمعروف أو تسريح بإحسان». أتمنى لك ولها التوفيق ولا بأس أن تطلعها على هذا الكتاب».

شهامة قائد

لسائقي العسكري تجارب مع عدد من القادة السابقين، لم يكن سائقاً فقط بل مستشاراً أميناً، يدلي بالكثير من الآراء، متعلماً من التجارب التي مرّت عليه مع القادة السابقين. كان يعدد مزايا كلّ قائد، وقد تعلّق كثيراً بقائد ظلّ معه ست سنوات. لهذا القائد مواقف تدلّ على الشجاعة وحبّ الخير. يقول السائق: طلب منّي ذلك القائد أن نذهب للسكن بسرعة، هناك مشكلة لا بد من حلّها:

تمّت محاصرة إحدى الشقق في سكن القاعدة من قبل الشرطة والشؤون الدينية في القاعدة. كان صاحب الشقة مسافراً، ولا يسكنها سوى ولده البالغ عشرين عاماً، أحضر هذا الشاب وزميل له، بنتين من الجامعة، وأغلقا الباب خلفهما. حضر القائد هشام غاضباً متذمراً من تصرفات الشرطة التي لم تبلغه إلا متأخراً، وجد المكان مزدحماً بالناس. طلب إبعاد الجميع عن المكان عدا قلّة يحتاجهم. كسروا الباب ودخلوا، وجدوا فتاتين وشابين في حالة انهيار تام. أنزل غضبه بهذين الشابين ضرباً وركلاً، خاصة ابن صاحب السكن، نزل إلى سيارته، ومن هاتفها، خاطب مسؤولاً كبيراً، وأخبره بما حصل، خاصة أن جهات أخرى خارج القاعدة لديها علم ويحاول رجالها التدخل، لكنه وبكلّ حزم طرد مندوبهم ومنعهم من دخول القاعدة. قال القائد لهذا المسؤول: لا يهمني

الشباب فالمجتمع ينسى خطأهم بسرعة، لكن ما هو مصير هاتين البنيتين؟ وما هو مصير والديهما، وما لهما من إخوة وأخوات وأرحام وأصهار وبقية الأقارب؟ قد نجبر هاتين البنيتين على الاستمرار في طريق الخطأ إذا انكشف أمرهما ونُبذتا من المجتمع الذي لا يرحم زلة المرأة. أيده المسؤول وطلب منه التصرف بما يراه وقال له: على بركة الله يا هشام.

طلب القائد من رجل مسنّ من منسوبي الشؤون الدينية بالقاعدة، أن يحضر زوجته ويأخذ البنيتين إلى الجامعة وينتظروا حتى خروج الطالبات، ركبت الطالبتان وسيلة النقل كغيرهما وعادتا إلى بيتيهما دون معرفة أحد. كان التأثر والندم بادياً على البنيتين، وكان درساً قاسياً لهما.

لو تصرّف كلّ مسؤول كما تصرّف هذا القائد الشجاع، وتحمل المسؤولية وأسكت الباحثين عن عورات الناس لحلت كثير من القضايا التي يقع بها الشباب عن جهل وصحبة سيئة. أليس الستر من أهم مقاصد الشريعة السمحة؟ والآيات والأحاديث في هذا المجال كثيرة.

لم لا يكون هدفنا الإصلاح بدلاً من الفضائح والتشهير؟ يقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «لو لم أجد إلا ردائي لسترت به المذنب».

الحلم واللين والأناة مطلوبة للتعامل مع نزوات الشباب، ويبقى أثرها الإيجابي أبلغ وأكثر تأثيراً من العنف ومنطق القوة. تقول أسطورة: اختلفت الشمس والرياح أيهما الأقوى، قالت الرياح: إنها الأقوى وأشارت إلى رجل يسير في الغابة، سأجعله يخلع معطفه

أسرع مما تستطيعين، توارت الشمس خلف السحاب، وهبت الريح بقوة، وكلما زادت قوتها زاد الرجل تمسكاً بمعطفه، هدأت الريح واستسلمت. ظهرت الشمس من خلف السحاب وأرسلت أشعتها الحانية بكلّ حب إليه، وسرت في جسمه دفناً ترجمته إلى عرق على جبينه، خلع معطفه وراح يستقبل الأشعة بكل شوق. التفتت الشمس إلى الريح وقالت: اللطف والحب والحنان أقوى من الشدة والكره والبغضاء.

سرّ تفوق اليابان

قرأت قصاصة في مجلة متخصصة، عن الجودة الشاملة، وكيف أسهمت في زيادة أرباح شركة أجنبية ثلاثة أضعاف ما كانت عليه قبل سنوات. لأول مرة أسمع بالجودة الشاملة، أعرف الجودة لكن لا أعرف الجودة الشاملة.

أخذت أقرأ عنها: تدعو الجودة الشاملة: إلى خلو المنتج من الأخطاء، ورضا العميل، والتطوير المستمر. وجدتها سلّة مليئة بأحسن ما في حديقة الإدارة من أفكار. قام بجمعها وتنسيقها علماء نذروا أنفسهم للمعرفة، خطوات في الإدارة يحتاجها الجميع. بدأت الجودة الشاملة في أمريكا ولم تنجح، كانت الشركات الأمريكية تعتقد بأن المكاسب في ضخامة العدد لا جودة البضاعة. لكن اليابان التي خرجت للتو من الحرب والدمار بعد الحرب العالمية الثانية، كانت متعطشة لحرب جديدة، حرب العقول والسواعد، وانتزاع حصة من الاقتصاد العالمي، استضافت أساتذة الجودة من الغرب، وخاصة السيدين (ديمنج وجوران Deming and Juran). وجد اليابانيون أن الجودة أوفر كثيراً من غيابها. الخطأ إذا لم يكتشف مبكراً يكلف الكثير، خلو المنتج من العيوب يعني رضا العميل وكسب عملاء جدد، وتوفير الوقت وتقليل التالف بسبب الخطأ.

لم تنتبه أمريكا للجودة الشاملة إلا متأخرة، وبعد أن بدأت

صناعة السيارات والالكترونيات اليابانية تسحب البساط من تحت أقدام منافسيها وتغزوهم في ديارهم .

حاولت تطبيق الجودة الشاملة في القاعدة، ذهبت إلى معهد الإدارة واتفقت مع أستاذ الجودة الشاملة والمسؤول عن تطبيقها في المعهد لعقد دورة تكون مدتها أسبوعين لجميع رؤساء الأقسام في القاعدة، واتفقت مع معهد محلي لعقد الدورة فيه، حتى يكون الجميع بعيدين عن جو العمل، استفاد الجميع من الدورة وتحمسوا لتطبيقها، استمتعنا بجو النقاش، وكفاءة الأستاذ. جرّبنا العصف الذهني الذي يحرر العقل من قيوده للبحث عن أسباب مشكلة، أو فوائد شيء معين. أعطانا الأستاذ مثالاً حياً من واقع عملنا، سألنا في البداية: كم تعتقدون عدد أسباب تأخر إقلاع الطائرات؟ أجاب معظمنا: لا تتعدى عشرة أسباب. بدأ يكتب على السبورة الأسباب، يملي عليه الطلبة. لكل طالب فرصة الإجابة. كتب على السبورة أكثر من ستين سبباً ولو استمر لاستمرت العقول بالتلاقح. وليس المسؤول مجبراً على حلّ جميع تلك الأسباب، بل وحسب قانون (بريتو) المسمّى (20 / 80) يعني أن حلّ 20 في المئة من أهم الأسباب يحلّ 80 في المئة من المشاكل. وهذا القانون ينطبق على أمور كثيرة في الحياة.

استفاد الحاضرون من الدورة، وبدأ بعضهم يطبقها على نطاق ضيق في عمله وفي حياته الخاصة. لكن المشروع كغيره من المشاريع الكثيرة توقّف مع نقل القائد، وتولي قائد آخر له ثقافة واهتمامات مختلفة.

الجودة الشاملة تفشل إذا لم تتبنّاها القيادة العليا، لكنها طريق الأمة للمنافسة العالمية، في عالم تفتحت أبوابه المغلقة أمام الآخرين.

دروس من الميدان

أرسل قائد القوات لي كتاباً، وطلب مني إرساله إلى مسؤول مهم خارج المملكة: غداً سيذهب فلان أرسلوه معه. هذا هاتفه وعليك المتابعة.

طلبت من الضابط المناوب الحضور، وسلّمته المظروف واسم الشخص الذي يُعطى له وعنوانه. أكّدت الأمر للمناوب، كما أكّده لي قائد القوات.

في الصباح اتصلت بالمناوب لأتأكد من أنه أرسل الرسالة لأبلغ القائد، وجدت الكتاب لا يزال معه، وأثناء إقلاع الطائرة لوجهتها، كان المناوب يغط في نوم عميق. هناك خطأ ما ولا بد من معرفته لشرحه للقائد الذي كان حريصاً على إرساله. أحضرت المناوب الذي اعتذر بأنه اتصل ببرج المراقبة، وسألهم عن موعد إقلاع الرحلة لتلك الوجهة؟ فأفادوا أنه لا يوجد رحلات مجدولة لتلك الدولة. اكتفى بهذه المعلومة وجرّ لحافه وأكمل ما تبقى من الأحلام. لكن الطائرة لن تذهب مباشرة إلى تلك الدولة، ستتوقف للتزود بالوقود والمبيت ليلة في بلد بين البلدين، لذلك أخبرك برج المراقبة بنصف المعلومة فقط. هل اتصلت بذلك الشخص الذي سيحمل الرسالة كما أخبرتك؟ أجب: لا.

دخلت على رؤساء الأقسام في الاجتماع الأسبوعي، وكتبت

على اللوح: (سبات) هل يخبرني أحد منكم ماذا تعني؟ ثم أخبرتهم بقصة ذلك المناوب الذي أخرجني أمام قائد القوات. قلت لهم: إحفظوا (سبات) وعلموها لمن تحت قيادتكم:

- السين تعني: سجّل ولا تعتمد على الذاكرة فقط، وليكن التسجيل أثناء تلقي المحادثة.

- الباء تعني: بلّغ وباشر في عمل المطلوب ولا تؤجله لكي لا تنسى.

- الألف تعني: أكّد وإذا احتجت أعد قراءة الرسالة واطلب ممن بلّغته بإعادة ما قلت له. ألا تتذكرون كيف كان كبار السن يوصون أبناءهم ويعيدون لهم ما قالوا ثم يطلبون من الأبناء إعادة ما قالوه لهم. التجارب علمتهم مشاكل الاتصال وسوء الفهم.

- التاء تعني: تأكد من تنفيذ المطلوب، وتابع للتأكد من إنجازه كما هو مخطط له.

صارت (سبات) لا تعني النوم العميق كالذي كان يغط به مناوبنا في ذلك اليوم. بل كلمة تعني الحذر من مشاكل الاتصالات، يرددها رؤساء الأقسام كلما كانت الاتصالات سبباً في عدم إكمال مهمة. ومهما قيل عن أهمية الاتصالات فلن تصل الرسالة بسهولة لقليلي الخبرة إلا بتجارب وتمارين عملية.

كنت رئيساً لواحد من مشاريع القوات الجوية، مما أعطاني مرونة في ترميم بعض المباني، وبناء بعض الأسوار، وبناء سرب وجناح جديدين، حتى المدارس الابتدائية التابعة لوزارة التربية والتعليم داخل القاعدة، زرتها فوجدتها تحتاج لمباني، إذ إنهم

يدرّسون في فصول جاهزة، لكثرة الطلبة، فتم بناء ثمانية فصول إضافية لكل مدرسة وغرفة إضافية جهّزت كمعمل للعلوم.

ظلّ مدير مدرسة البنين ومديرة مدرسة البنات يتصلان بي ويشكرانني على هذه التوسعة حتى غادرت القاعدة.

لم تكن كلّ هذه الإصلاحات من صميم عمل المشروع، لكن طالما أنه ينقذ لمصلحة العاملين بالمشروع وهناك شفافية ووضوح في حال وجود مساءلة، فلا خوف من اتخاذ القرار.

ميزة القائد الناجح اتخاذ القرارات الصعبة وتحمل نتائجها، وإلّا صار مديراً يسير ما كان موجوداً ومكتوباً، ويحرص على توقيع الحضور والانصراف فقط. ترتعد فرائصه خوف أن يزاح عن المنصب معتقداً أن منصبه هو نهاية المطاف أو أنه محجوز له بقية حياته. ملايين النجوم في السماء تظهر وتختفي لا يعرف منها إلّا القليل، المشع بنوره فقط يلاحظ ويستدلّ به الآخرون. ربما تعدى تأثير قائد لم يبق في منصبه سوى عامين قائداً آخر بقي في منصبه عشرات السنين.

ميزة الدول المتقدمة نظامها الدقيق في اختيار القادة ومتابعتهم وإعطاؤهم التدريب والصلاحيات والإمكانات والفرص المناسبة.

* * *

زارني ضابط من الشؤون الدينية يطلب مني دعماً لتأسيس مركز لدعوة الجاليات. هذه المرة سيكون داخل سكن قوات التحالف أو ما تبقى منها في المملكة.

طلبت منه وقتاً للتفكير، ثم دعوت قائد المجموعة من قوات التحالف إلى مكنتي. وعرضت عليه إنشاء مركز ثقافي يعرف

القادمين الجدد منهم بالمملكة وبإنجازاتها، وبالدين الإسلامي وسماحته والإجابة عن أسئلة الحضور.

دعوت ضابط الشؤون الدينية إلى مكتبي ثانية وقلت له: نريده مركزاً ثقافياً ولا مانع لديهم من ذلك. موافقتهم ضرورية في مثل هذه الظروف الأمنية ثم ما فائدة المركز بلا حضور؟

تضافرت جهود الطرفين، وأنشئ مركز ثقافي مثالي. نصبت خيمة بدوية كبيرة داخل السكن، وزرعت المنطقة بالخنيل وأنشئت قناة مائية، وجلبت كميات من الرمال، فصار يحاكي الصحراء، تقام فيه الندوات ويدعى له أساتذة الجامعات الذين يتقنون اللغة الإنجليزية والمعروفون بسعة اطلاعهم ومرونتهم. نحضر جملاً مرة كل أسبوع يحرصون على ركوبه والتقاط الصور التذكارية معه.

يستمعون للمحاضرة ويتناولون العشاء. الحضور يشمل الرجال والنساء. تم الاتصال بالشركات الكبيرة كأرامكو وسابك للحصول على معلومات عنها وعن المملكة.

أعد برنامج للنساء يحضرن لبيت قائد القاعدة مرة في الشهر. تستقبلهن زوجتي ومعها عدد من النساء السعوديات المتقنات للغة الانجليزية، ومع الأطباق اللذيذة، يجيبون عن الكثير من الأسئلة وخاصة ما يتعلّق بالمرأة. توقف برنامج المرأة في ما بعد. أما المركز فلا يزال صامداً رغم أحداث 11 سبتمبر وما تلاه من تفجيرات غيرت وجه العالم، ظلّ يؤدي دوره لأنه بني بالتنسيق بين الطرفين واختير له من يتقن التعامل مع الثقافات المختلفة.

* * *

بعد وصولي القاعدة بوقت قليل، بحثت عن مساعد لي، من

الأفضل أن أختار من يناسب هذا المنصب بدلاً من تركه للقيادة فقط، لدي معرفة بالضباط الموجودين في القاعدة.

الرجل الثاني بعدي منقول من القيادة وسيحال إلى التقاعد قريباً، جربته في أكثر من موقف فوجدته عند حسن ظني، قوي وأمين، صفتان من أهم صفات القائد، ألم يقل تعالى في كتابه: ﴿إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ [القصص/ 26]. لديه وجهة نظر مختلفة ويعطي رأيه بكلّ شجاعة، أليس هذا هو المطلوب في المساعد؟ من كان يريد مساعداً يهزّ رأسه بالإيجاب دائماً، فما عليه سوى وضع جهاز تسجيل مكانه، وسيضمن إعادة كلّ ما قاله. كان هذا المساعد حاضر النكته كثير الابتسام لكنه يتحوّل إلى وجه صارم ورأي واضح عندما يتطلّب الأمر ذلك، ليست لديه خلفية عملياتية في بعض جوانب العمل، لكن ما ينقصه موجود لديّ، سيكمل أهدنا الآخر.

هذا الضابط متدين ويصوم الاثنين والخميس، لكن ليس كصيام عامل المزرعة، لا يؤثر صيامه على أداء عمله، يأتي أول الناس ويذهب بعد القائد وإلى قريب المغرب أحياناً. يقول: لو تأثر العمل بصيامي لأفطرت، فصيامي سنّة والعمل واجب.

ذهبت لقائد القوات وفاتحته بالأمر، وطلبت منه مساعدتي في تعيين هذا الضابط مساعداً لي.

– لكنه على وشك التقاعد، ولدينا الكثير من الضباط وخاصة من الذين طاروا على مثل هذه الطائرات الموجودة في القاعدة.

– هذا الشخص عملة صعبة، فيه أعظم صفات المساعد، الأمانة والرأي السديد والإخلاص والشجاعة لقول الحق.

- أعرف ذلك، هارون بار بوالديه، ما تعمله من أجله قد يكون نتيجة دعواتهم له .

- على بركة الله، وسنسعى لسحب طلب تقاعده وتثبيته مساعد قائد قاعدة .

استمر هذا الضابط مساعداً حتى نقلت من القاعدة، أكلفه بالمهمات الصعبة فينجزها، أوليه اللجان الحساسة فيقوم بواجبه خير قيام . تساءلت وقد رأيت ليس مساعداً فقط بل قائد قاعدة ناجحاً في ما بعد، كم ضابطاً يستحق القيادة ولم تعط له، وكم مدرساً أو موظفاً يستحق الإدارة ولم ينلها، وكم من موظف قطاع خاص أحق من غيره، وأكثر كفاءة ظلّ في مكانه مغموراً كما تغمر أعواد الطيب النفيسة بين ملايين أعواد الخشب . غياب التقييم الفعال وبرامج إعداد القادة، وعدم التغيير المستمر، يحول دون الاستفادة من الكفاءات الممتازة .

بعض القادة والمديرين يتلذذون بالنوم العميق، بل الموت السريري لإداراتهم، ويعدّون طول بقائهم في مناصبهم علامة نجاح ودهاء .

إجازة مدفوعة الثمن

اتصل بي مدير إدارة شؤون الضباط ليخبرني مرّة ثانية، أنني مرشح لدورة قصيرة في الولايات المتحدة، وفي منطقة جميلة على الشاطئ الغربي. في (مونترى) كاليفورنيا، ما يحز في نفسي أن زوجتي وأطفالي لن يكونوا معي. والدتي تسكن معهم في البيت ولن أتركها تذهب لغيري. ولدى زوجتي طفلتها الجوهرة التي لم تبلغ الثلاثة أشهر بعد، كان هذا في عام 1997.

الدورة مخصصة لكبار المسؤولين في بلدانهم، عسكريين ومدنيين، أتوا من أكثر من ثمانٍ وأربعين دولة، من كلّ بلد مرشح واحد. الدورة عن إدارة المصادر البشرية والمالية، يحاضر فيها نخبة من الأساتذة من حملة الشهادات العليا.

يُختار قائد الدورة من الطلبة بالترشيح ثم التصويت، رُشح ضابط متميز من استراليا، عليه أن يكون مرحباً ونشطاً، يتخذ القرارات نيابة عن زملائه، هو الذي يلقي الكلمة نيابة عن زملائه في حفل التخرّج.

كان من ضمن الطلبة ضابط من (الأردن) لم يلبث أن صار ملكاً بعد عودته بأشهر، كان مثلاً للضابط المحترف، مثالي في حضوره ومشاركته وانضباطه وقيافته المتميزة، ترافقه زوجة في غاية الجمال والذوق الرفيع، تأتي أحياناً لتأخذه من المدرسة.

خصصوا لكل طالب متطوعاً من نفس المدينة، يهتم به ويدعوه

للمناسبات في بيته، ويطلعه على معالم المدينة. كان هذا الشخص مهماً، خاصة لمن لا يملك سيارة ويريد معرفة الكثير مثلي. كان المسؤول عني رجلاً كبير السن شارك في الحرب العالمية الثانية، لديه مساحات كبيرة من مزارع العنب الذي يزرع خصيصاً لصناعة النبيذ، أعجبت بالطريقة العلمية للزراعة، والتعاون مع مراكز الأبحاث في الجامعة.

أقامت المسؤولة عن أحد الزملاء حفلاً في منزلها الواقع في منطقة جبلية جميلة تطلّ على المحيط، ودعت عدداً من الطلبة كنت واحداً منهم، تتحدث هذه المرأة أكثر من ثماني لغات منها العربية، تجيد العزف على البيانو، وتغني بأكثر من لغة، تنتقل من طاولة إلى أخرى وتُشعر كل واحد بأنه مهم جداً، بدأت الحفل بفرقة اسكتلندية وأنهتها بنفس الفرقة.

تقول: نحن محظوظون في هذه المنطقة الجميلة والهادئة، مشكلتنا الوحيدة مع الغزلان التي تأكل كل ما نزرعه من ورد أمام الباب وفي الحديقة الخارجية، ولا يسمح لأحد باصطيادها.

مسكينة، ما هذه المصيبة؟ قلتها في قرارة نفسي: غزلان تأكل الورد، في العالم الآخر أطفال تأكل الجلود لأنها لا تجد ما تأكله، وتشرب مياهاً غير صالحة للشرب، في العالم الآخر تشعل الحروب خوفاً على تجارة السلاح من الكساد.

في العالم الآخر أبادوا كل ما يدب من حيوان وطيور، وكل شجر أخضر، ولم يبق في صحاريهم سوى العقارب والخنافس، جعلوا من إبادتها رياضة، ومن مصادرة حقها في الحياة متعة.

ذات مساء جلست وحيداً أتناول عشائي في مطعم يطلّ على مياه المحيط، يمتلئ بالزبائن من كلّ لون وجنس، ويقدم الوجبات البحرية، أحرص على الوصول إليه قبل الغروب، أستمتع بمراى الشمس تقترب من مياه المحيط قبل أن تختفي، كم مرّة تمّنت لو كنت رساماً، خاصّة عندما يتجمل الأفق بنتف من السحاب قبل المغيب. أكثر الموجودين عائلات صغيرة وأحبة، أغبطهم لجلوسي وحيداً، وحيبتي على بعد آلاف الأميال.

دخل المطعم رجل في حدود السبعين، لكنه قوي البنية ويدفع عربة فيها سيدة مريضة، وضعت جهاز تنفس على فمها، ومالت رقبتها ليسار قليلاً وانحنى ظهرها، تتحدث بصعوبة، قدّرت أن سنّها بين الثمانين والتسعين.

جلسا إلى الطاولة المجاورة لي، أعجبت بهذا الوفي يهتم بهذه المرأة، لا بدّ أنها أمه أو زوجته، دفعني فضولي لمعرفة من تكون؟ عليّ أن أجد موضوعاً أبداً به الحديث، سألت الرجل: هل أنتم من هذه المنطقة؟

- نعم وقد مضى لنا معاً هنا إحدى وخمسون سنة، هذه زوجتي مصابة بضيق التنفس ولديها أمراض أخرى.

- لا بد أنك تشعر بالسعادة لخدمتها؟

- بكلّ تأكيد، إنها امرأة عظيمة، تزوجتها قبل أكثر من خمسين عاماً، كنت ضابطاً في الحرب العالمية الثانية، وبعد الحرب، وكنت في اليابان، لحقت بي، أبحرت مدة شهر كامل، وعلى يدها طفل وفي بطنها طفل آخر. وأضاف: إنها امرأة عظيمة.

طار بي خيالي مرّة أخرى إلى حيث تستبدل الزوجات كما

تستبدل الملابس والسيارات القديمة . كيف بكلمة واحدة يطلب منها مغادرة البيت ، لأنها مريضة أو لأنه يرغب بزوجة أصغر منها . ثلاثون عاماً من العيش المشترك لم تشفع ، في كلّ عام تتحامل على نفسها ، وتحمل ثم تضع طفلاً يشبه تماماً ، حتى جاوز عددهم في بعض الأحيان عشرة . يبعث لها بورقة صغيرة ، ويطلب منها أن تذهب إلى أهلها ، مع أنه لم يعد لها أهل سوى زوجها وأطفالها ، لا يكلف نفسه حتى تأمين سكن وحياة كريمة لها رغم مقدرته ، بعضهم يتحايل عليها ويتزوج بمالها ، بعض النساء يُطردن من مساكن ساهمن مادياً في بنائها .

الله درّك يا كلّ شهم ، (رجلاً كان أو امرأة) وفيت ، وأديت الأمانة حتى تعود كل نفس لبارئها .

تذكرت ذلك الصديق الذي قال لي يوماً :

- أبشرك : لقد تزوجت بثانية ، صغيرة .

- لكنني لست بمن يبشّر بمثل هذا .

- أنا والحمد لله بخير ، والدين أحلّ لي هذا ، لقد أخذت لها بيتاً مستقلاً ، وأرضيت زوجتي الأولى .

- هي في الخامسة والعشرين وأنت جاوزت الستين ، هل تعتقد أنك ستسعددها كما يسعددها شاب في الثلاثين؟ وهل تعتقد بأنك ستعدل مع الأولى؟ والعدل هو الشرط الأساس للتعهد .

مررت عليه بعد عام فبشّرني بمولودة من زوجته الصغيرة ، باركت له وقلت : أرجو الله أن يحفظك لتحضر زواجها إن شاء الله ، وتسعد بك إلى جانبها .

مررت عليه بعد عام آخر ، فبشّرني أن الصغيرة صار لها أخ .

بعد عام مررت عليه وقد تبدلت هيئته وصار يكثر من التأوهات قال لي: لقد طلقته، رمت عليّ بطفليها وغادرت. لم أسأله عن السبب لكنني أعلم أن مثل هذا الزواج يحمل بذور الفشل منذ الليلة الأولى.

شخص آخر طلق زوجته الثانية الصغيرة البارعة الجمال، بعد أن رزقت بمولودها الأول لأنها لم تعد تختلف عن زوجته الأولى، بحسب مفهومه لدواعي الحب والزواج.

كم من التجاوزات ترتكب باسمك أيها الدين العظيم؟ أتيت رحمة وعدلاً، وجعلت الزواج محبة وسكناً، أتيت لتسعد الجميع ذكوراً وإناثاً.

غادرت المطعم بعد أن ودّعت الزوج وزوجته المريضة وتمنيت لهما حياة هائلة.

بعد الدورة مباشرة عليّ أن أسافر لأن لديّ مهمة في (بوسطن)، المدينة الجميلة التي تضم ثمانين جامعة ومعهداً عالياً. تفخر بجامعاتها العريقة أكثر من أي شيء آخر كجامعتي (هارفارد وإم آي تي) اللتين لديهما من العقول والأبحاث وبراءات الاختراع القدر الكبير. القاعدة الجوّية مقرّ للقيادة والسيطرة والاتصالات، استقبلنا قائد القاعدة وهو برتبة فريق، رحّب بنا وشرح لنا مهمات القاعدة، وذكر أن عدد العاملين تحت قيادته عشرة آلاف، منهم ستة آلاف مدني، قسم كبير منهم يعمل في الأبحاث، إضافة إلى مشاريع كثيرة مع القطاع الخاص والجامعات، لديه مرونة كبيرة بالتصرّف في ميزانية ضخمة تتجاوز عدّة بلايين من الدولارات، كان فخوراً بنفسه وبما يعمل، أعطى الثقة وكان أهلاً لها.

جلست مع زملائي في مطعم إيطالي وسط المدينة، وقريباً من الجامعة أراقب الطلبة والطالبات يمشون على رصيف الشارع، وحقايبهم على ظهورهم. كم تمنيت في شبابي أن أكون واحداً منهم. التقيت بعدد من طلبة بلادي وتحدثت إليهم، وحذرتهم من الداء الخبيث، داء المخدرات.

في طريق العودة إلى المملكة، قررت أن أزور أحد أصدقائي في أوروبا وكان وصولي عن طريق باريس، لكن باريس لم تكن مستعدة لاستقبال الضيوف في ذلك اليوم، للحرية ضريبة وللمطالبة بالحقوق ضريبة أيضاً. كان هناك إضراب شلّ معظم نشاطات المطار ومنها منع المواصلات من الوصول إلى المسافرين. أريد أن أنتقل إلى مطار داخلي لألحق بطائرتي بعد ثلاث ساعات. الوسيلة الوحيدة للانتقال من المطار حافلة تأخذ المسافرين من المطار إلى خارجه كلّ خمس دقائق، حال وصول الحافلة يندفع إليها الناس ويملاؤها في ثوانٍ وأنا أحاول الصعود إليها ومعني حقيبتان كبيرتان، نظرت إلى الساعة ووجدت أن لا جدوى من محاولة اللحاق برحلة حان وقت مغادرتها، عليّ البقاء في باريس وتدبر الأمر والعودة إلى المملكة بعد ثلاثة أيام.

الزحام لركوب الحافلة يزداد سوءاً. نظر إليّ أحد الرجال الواقفين وقال لي: تحمل حقيبة وأحمل الثانية ونصعد معاً، شكرته وأعطيته الحقيبة وركبنا في أول حافلة، نزلنا معاً وذلك المحسن يصّر على حمل الحقيبة حتى محطة القطار، دلّني على الاتجاه المناسب ودفعت قيمة تذكرة ركوب القطار ورفض أن أرفع قيمة تذكرته، لم يتركني هذا المحسن إلاّ بعد أن نزلت من القطار

وأخذت سيارة أجرة إلى الفندق، أخبرني أنه من سويسرا ويعمل في باريس، شكرته واختفى في زحام المدينة الصاخب، تمنيت لو أخذت عنوانه لأتخذه صديقاً. كان درساً من غريب دفعه حب الخير لمساعدتي، ظللت أتذكره بقامته المعتدلة ونظارته الطيبة ولون بشرته الأبيض وملابسه الأنيقة وهدوئه وقلة كلامه. لا تزال الدنيا بخير ولا يزال الناس على استعداد لبذل الخير حتى لغريب لا يعرفونه.

محطة جديدة

عدت إلى أهلي وعملي، ليخبرني رئيسي أنني منقول إلى منصب آخر، منصب في القيادة تقاعد شاغله قبل أيام.

- لكن لم يمض على منصبي هذا سوى عامين ونصف، ولدي الكثير لإنجازه.

- كلّ يتوق إلى هذا المنصب الجديد عليك قبوله.

كان المنصب هو رئيس هيئة الاستخبارات، عمل حساس ومهم، لكن القاعدة هي مجالي وميداني المفضل. ثم إنه عليّ أن أخلي ذلك السكن المريح والقريب من العمل لمن سيأتي بعدي.

لن أعود لذلك السكن البعيد في جنوب الرياض، عليّ أن أبحث عن بيت لشرائه، لديّ استثمار في الأسهم العالمية التي تحلّق عالياً بقفزات مجنونة. بحثنا أنا وزوجتي عن سكن مناسب مدّة خمسة أشهر، هذا كبير، وذاك صغير، وهذا لا يوجد فيه غرفة في الدور الأرضي تصلح للوالدة، وذاك ممتاز لكن سعره مرتفع.

وجدنا المنزل المناسب بكل ما نريده من مواصفات، كما أن الوقت مناسب لبيع الأسهم، مؤشر (النازدك) يحوم حول خمسة آلاف نقطة، بعث كلّ شيء واشترت المنزل، وبعد عام كان المؤشر يهوي إلى ما دون الألفي نقطة.

لا أنا ولا زوجتي بهذا القدر من الوعي الاستثماري، لكنه الحظ

والعناية الإلهية. ولو تأخر نقلي من عملي عاماً آخر لما وجدت في محفظة الأسهم ما يكفي لدفع إيجار عام واحد.

من جرّب الميدان، لا يطبق العمل في القيادة، حيث الاجتماعات الكثيرة والأوراق والروتين الممل.

الألوية لاختيار الضباط وتدريبهم داخل المملكة وخارجها، عليّ القيام بجولات لمعرفة ماذا تريد الوحدات المقاتلة، التي لولاها لما كان لما عداها معنى، ألم يقل (المعرفة قوّة)؟ لا تنجز الأعمال بالمكاتب، لا بد من الوقوف على أدائها والاستماع لمطالب قادتها ونقلها لصاحب القرار.

لقد أثبتت الاستخبارات أهميتها في حرب الخليج ليس في جمع وتحليل وحفظ المعلومات فقط، بل في إيصالها للمستفيد في المكان والوقت المناسبين أيضاً، صارت المعلومة تصل الطيار وهو في طائرته والقبطان في سفينته والجندي في دبابته.

مهمة أخرى للاستخبارات، وهي القضاء على آفة المخدرات بين منسوبي القوات الجوية. أكثر ضحاياها من صغار السن، ومن عبثت المخدرات برأسه فلا يفيد معه النصح، لا بد من كشف ومتابعة وقرارات صارمة، لكن الوقاية أهم من العلاج، علينا ألا ننتظر حتى نرى علامات المرض ثم نبدأ العلاج، أفضل مكان لبدء الحملة هي المدارس، ذهبت لأكثر من مدرسة وتحدثت عن هذه الآفة. حتى مدارس وزارة التربية والتعليم ذهبت إلى البعض منها. دورات التجنيد مهمة، وخاصة في الأيام الأولى، بداية التعرف على أصدقاء جدد. والتدخين بوابة، لذا كان التحذير منه نصيب في كلّ محاضرة.

مآسي المخدرات تسمعها من شكاوى زوجات المتعاطين وسوء

سلوكهم، اتصلت امرأة لتشكو حالها مع زوجها المدمن وكيف أنه تركهم في إجازة الصيف، ولا يعلمون عنه شيئاً، أقفل الجوال والضمير معاً، تقول هذه المسكينة: كيف أجيب والدته الكبيرة التي تسألني عنه صباح مساء؟ أخشى أن يجلب لي ولأولاده مرضاً لا شفاء منه. امرأة أخرى تشكو عقوق ولدها وزوجته، وتقول إنه طردها من البيت.

ليست كلّ الشكاوى صحيحة، لكنها تدلّ على وجود مشكلة. القوات المسلّحة ليست سوى شريحة يسيرة من المجتمع، لكنها شريحة منضبطة، المشكلة الكبرى مشكلة الشباب على مستوى الوطن الكبير، العالم العربي. المخدرات تكثر مع وجود المال والفراغ وغياب التربية. يعتقد كثير من الآباء بأن مهمته تنتهي بتلقيح البويضة وتأمين الغذاء والكساء بعد الولادة. نتحدث كثيراً عن برّ الوالدين، لكن لا نتحدث ما فيه الكفاية عن تربية الأبناء مع أنها الأهم والأصعب.

يتحدث خطيب الجمعة عن عبادات معروفة، وأمور مكررة وقضايا لا تهتم الناس كالسياسة، ولا يتحدث عن هموم الناس من تربية وسلوك حضاري مطلوب، وأمانة وصدق وخدمة أفضل للناس، وحماية لحقوقهم وحقوق الأجيال القادمة، ومحاربة لآفات المجتمع. لم لا يكون خطيب الجمعة معاشياً لهموم الناس ومسهماً في حلّها؟ مطلقاً ما في داخل الإنسان من حب وأمل وطاقت هائلة للعمل والإبداع والإنتاج؟ منتزعاً ما في داخلها من بذور الشرّ والحقد والكراهية للآخرين؟ يجتهد الكثير من الدعاة عن حسن نية، في البحث في التراث عن المزيد من الأدلة للتحريم والتجريم، وخاصة في مجال الفنّ والمرأة، ناسين انه كلما أقفل باب فتحت أبواب أكثر سوءاً وأقلّ مراقبة.

في أحضان الطبيعة

العمل في القيادة يختلف تماماً عن العمل في الميدان، بدلاً من التجول في ميادين الإنتاج والاستمتاع بمرأى الجنود والفنيين والطيارين يؤدون مهمة القوات الجوية، لا ترى هنا سوى أكاداس من المعاملات وساعات من الاجتماعات، مملة لكنها ضرورية لتسيير العمل.

عدم الارتباط بالعمل في إجازة نهاية الأسبوع، أعطاني مجالاً أكثر للقراءة وزيارة المزرعة، التي أصبحت أكثر جمالاً مع زيادة الاهتمام، وزراعة المزيد من أشجار النخيل. بعد عجز والدتي عن الذهاب معي صارت تكتفي بحثي على الاهتمام بالعامل والغنم. صرت أذهب وحيداً خاصة بعد أن جرّبت فوائد الوحدة وقرأت سير المبدعين الذين عشقوا الطبيعة من أمثال الأديب ميخائيل نعيمة الذي قرأت له كثيراً ومنها كتابه (سبعون) الذي كتبه بمناسبة بلوغه عامه السبعين. تحدث من خلاله كثيراً عن الطبيعة وعشقه لها وخاصة بلدته (بسكتتا) في أحضان (جبل صنين).

كثرة القراءة زادتني عشقاً للطبيعة واحتراماً لها، صرت أطرب لمرأى الطيور بدلاً من اصطياها والمحافظة على الأشجار بدلاً من قطعها. صرت أرى الجمال في كل ما حولي، صار الجبل وما فيه من طيور الحجل والأرانب والشعالب مكاني المفضل. أفضي إليه

بهمومي وآمالي وآلامي . كم من الناس يعيشون قريباً من هذه النعم ولا يرونها! بل أكثرهم يزم شفثيه ويستغرب من تجشمي عناء صعود جبل لا يضم في نظره سوى الحجارة والشمس الحارقة . لن يصدقوا كم من الفوائد جنيتها من رياضة صعود الجبال التي علّمتني الصبر والراحة النفسية والشعور بالأمان .

صعدت يوماً إلى الجبل فعرفت أن لياقتي ليست على ما يرام ، قالت لي دقات قلبي المتسارعة ولهائي غير المعتاد ، زاد الوقت اللازم للصعود وتعددت مرات التوقف للراحة ، صارت الأحجار عائقاً يجبرني على تغيير مساري ، بعد أن كنت أففز فوقها دون عناء ، أهملت الرياضة فذكرني الجبل ، قال لي : لياقتك ليست على ما يرام .

من السهولة أن يختبر الإنسان لياقته البدنية بأكثر من طريقة . لكن ماذا عن اللياقة الذهنية؟ ماذا عن هذا المتصرف بكل شؤون الحياة؟ هذا القابع في الرأس . تركناه فركن إلى الدعة ، برمجنه فأسأنا البرمجة ، أعطيناه الأجوبة وأعفيناه من طرح الأسئلة . عندما يفكر الآخرون نيابة عنا ويقرأون نيابة عنا يرتاح العقل لهذه الطريقة وينام قرير العين ، ولا يلام إذا أمعن في سباته . كما عزف الناس عن صعود الجبال واكتفوا بالسفح ، عزفوا عن أعمال الفكر وزيادة لياقته وتحسين عمله . لضعف اللياقة البدنية دلائل صحيحة وبدنية واضحة ، لكن ليس للإعاقة الفكرية دلائل ظاهرة ، لكنها واضحة في شح نتاج كل أمة ، في انكفائها على نفسها واقتناعها بما لديها ، تجرّ ما أنتج الأولون وتستخدم ما صنع الآخرون ، لا يلام إن نام في ظلام دامس . وقد أغلقت أمامه كل الأبواب وألغيت كل الشبايك .

في أعلى الجبل ومن غاري المطلّ على المزرعة، أسندت رأسي إلى الصخرة أمتع ناظري بجمال المنطقة مرّة بعد مرّة، منظر لا أملّ من مشاهدته. أفرح بزيادة المساحات المزروعة نخلاً وتقلّص مساحات مزارع القمح البائسة، معدات تركت للعراء والشمس اللاهبة.

نظرت داخل مزرعتي فرأيت العامل النيبالي خارجاً من غرفته، متجهاً إلى داخل حظيرة الغنم، من بعيد أسمع صوت الناي وقد اتخذه العامل أنيساً ومسلماً، صوت يتسلل عبر الصخور والتلال ليصلني في غاري حاملاً لي الكثير من النشوة والتساؤلات، من أتى بهذا المسكين من أهله وبلاده الجميلة إلى هذه البقعة من العالم، من جبال الهملايا الشاهقة وهضبة (إفرست) الأعلى في العالم، إلى مزرعة في حوض جبال طويق البسيطة؟ آلاف الكيلومترات تفصله عمّن يحب، ترك زوجة وثلاثة أطفال. تغرب ليؤمن لهم حياة أفضل. يطلب راتبه كل ثلاثة أشهر ويرسله دفعة واحدة، لا يبقى منه شيئاً، يعيش على ما تجود به المزرعة، وما يؤمنه له من كسوة وغذاء، يزوره بعض أبناء بلدته في نهاية الأسبوع، ليقتلوا الغربة ويستعيدوا بعض ذكريات الوطن، يشاهدون أفلاماً يجلبها بعضهم، ويطبّخون غذاءهم الخاص بهم.

تساءلت عن أسباب مجيئه شعراً فقلت:

ماذا أتى بك من نيبال مغترباً وعندك الخير موفور لمن تعباً
فقال العامل:

لم يبق في أرضنا حبُّ نعانقه الجهل والفقر في أرجائها انتصبا
تقترب الأغنام من الجبل، وتتسلقه بكلّ خفة، تعرف طريقها جيداً، ثغاء الأمهات لا ينقطع، تنادي صغارها التي تتقافز في

مجموعات لاهية لاعبة. إذا تأخر الصغير، ظلت أمه تلتفت وتناديه بشغاء لا ينقطع حتى يلبي النداء، لا تلام فالصغار هي أكثر من تهاجمه الكلاب الضالة والثعالب.

يقترب صوت الناي أكثر، ها هو على صخرة في منتصف الجبل يرسل ألحانه شجية، نفس الألحان يرسلها كل يوم، اليوم يجتهد أكثر، ربما لعلمه بوجود من تشجيه مثل هذه اللغة العالمية.

أخذت ورقة وقلما، هناك مشروع قصيدة:

يا شيخ الفنّ وأستاذه

علمني الفنّ

علمني كيف صنعت الناي؟

من قصب داسته الأقدام

نحصده، تأكله الأغنام

أنفاس الغربة ترسلها

وأنا مل فنّ تغزلها

ويردد لحنك عشاق

الحمض وأزهار العرفج

والطير للحنك يشناق

يستمتع بالصوت الآتي

من لحن يختصر الغربة

هل ترسل ألحان الشكوى

للريح، وللطبقات العليا؟

هل تبقى بعدك آثار؟
 هل تحفظ لحنك أزهار؟
 هل تنفخ في جمر الذكرى؟
 أم تطفئ نيران اللوعة؟
 من نايك أغزل أبياتي
 لتسجل أجمل أوقاتي
 علمني كيف صنعت الناي
 وحملت تراتيل الغربة
 أعرف أنك يوماً راحل
 لبلادك حيث الأنهار
 وجبال ترسو فوق جبال
 حيث الزوجة وبقايا أطلال
 والجوع تطاول كالبنيان
 مولود جاء ولم تره،
 ورأيت بعينك صورته
 لكن قبل رحيلك
 علمني كيف أصوغ الألحان؟
 لغة وحدث الإنسان
 لغة لا بد لسامعها
 كي يفهمها
 قاموس الحب بدون بيان.

لملمت أوراقى واحتسيت ما بقى من الشاي وعدت أنظر لهذه اللوحة الفنّية من جديد.

فى طريق العودة مررت على العامل، سلّمت عليه وشكرته، لم يبلغ الخامسة والعشرين بعد، بصحّة جيّدة، وأسنان ناصعة البياض وفى غاية التناسق، يتسم بين كلّ كلمة وأخرى، وكأنه يتعمّد كشف أسنانه الجميلة.

قلت لعمي الطاعن فى السن:

– هل يمكن أن نلجأ للغربة مثلهم؟ أجاب:

– كنا أسوأ منهم بكثير، كنا نتغرّب لسنوات، قضيت شهوراً على ظهر سفينة، معلقاً بين الماء والسماء، صنعت سريري من حبال ربطتها بين عمودين فى السفينة، ولا أنام إلاّ آخر الليل، عملت فى (قندهار) وفى (بومبي) ووصلت إلى حدود (النيبال)، ما لم نشكر الله على هذه النعمة ونحافظ عليها ونخطط لأجيالنا القادمة، سنعود أسوأ مما كنا، مصيبتكم أنكم تتكاثرون بلا تربية تقدّس العلم والعمل، كثرة أعداد بلا جودة إعداد، غشاء كغشاء السيل، تزدادون عدداً وثرواتكم فى تناقص، غير مفكرين فى أحفادكم وأحفادهم بعد مئة عام.

عبادات

أكره الحفلات العامة، التي تقام لمناسبات مختلفة، لما فيها من تمييز ومجاملات، لكن المنصب يحتم عليّ تلبية الكثير من الدعوات.

رغم تقلّدي أكثر من منصب، وإلحاح كثير من منسوبي تلك الوحدات على دعوتي والترحيب بي، رفضت تلك الدعوات الخاصة، لتكاليّفها الباهظة، ولما قد يكون بعدها من تبعات، وعدتهم بحضور المناسبات العامة كالزواج والمناسبات التي تقام على أي حال ويحضرها الجميع.

دعاني صديق لمناسبة ترقيته، استقبلني والده المسنّ بكل الحب والتقدير، أعجبت بابتسامته العريضة الصافية التي تقولها تعابير وجهه الذي استحال لوحة فنيّة نادرة الوجود، تداخلت الابتسامة مع تجاعيد وجهه، فشعّ منها نور يطفح بالمحبة وكنز من التواضع الصادق، كان دفئا يشعّ مصدره قبس الحب الصادق، لم يقصره عليّ وحدي، بل شمل الجميع، يلهج بالشكر والتقدير لمن حضر، طار بي خيالي وتذكّرت تلك المرأة التي دعتنا لبيتها في (مونترى) (كاليفورنيا) وكيف أسعدت الجميع.

يقول صديقي الذي دعاني: هكذا والدي، لا يتصنع ولا يجامل، لديه فيض من الحب الذي صار جسراً يربط بينه وبين

الناس، فأسعده وأسعد غيره، متفائل ويريد أن يرى الناس متفائلين، تذكرت - وابنه يحدثني عنه - كلمات رائعة لكاتب إنجليزي تقول: «الثورة الحقيقية هي ثورة المتفائل الذي يحيا ويموت ضمن محاولته اليائسة والانتحارية لإقناع الآخرين بطبيعتهم».

يقول ابنه: جاوز والدي الثمانين ولا يزال بصحة جيدة ولا يشكو من المرض، لم يندم يوماً على ما فاته، رغم أنه فوّت الكثير من الفرص في مختلف مراحل حياته، يردد دائماً: الأسى لا يعيد ما فات ولا يعجل بما هو آت.

لم يجلس على الكرسي في تلك الليلة ولو للحظة واحدة، بعد أن أقسم أن أجلس مكانه.

سبحان الله كيف تتحول الابتسامة الصادقة إلى جواز سفر يلج قلوب الآخرين بكلّ هدوء؟ ليس المهم مصدر الابتسامة، سواء أكان طفلاً صغيراً، أو فاتنة بكامل زينتها، أو شيخاً مشت على خدّه عربة الزمن، المهم صدقها وصفاءها، تظل الابتسامة الصادقة، مصدر جذب للآخرين، كنبع صاف بين الصخور.

ظلّ هذا الشيخ يردد (يا هلا) بتناغم عجيب بين تعابير وجهه وإيماءة رأسه وحركات يديه، يكاد الدمع يخرج من عينيه من شدة الفرح وحرارة الترحيب، حتى لحيته الطويلة البيضاء كانت تردد معه: يا هلا وتشع نوراً غطى المكان.

شكراً أيها الشيخ، فقد ذكرت جميع الحاضرين بأهمية الابتسام، درس عمليّ دون تكلف أو نفاق.

كان ذلك الشيخ في عبادة استمرّت لساعات، وزّع خلالها الكثير

من الصدقات، أليس تبسمك في وجه أخيك صدقة؟ كيف يتعلم أبناؤنا قيمة الابتسام إذا لم يروها في البيت والشارع والمدرسة؟ تلك أماكن غاب المرح عنها، وسكنها السأم والقسوة والجفاء.

ليتك أيها الشيخ الجليل تلقي محاضرات، في الجامعات ومعاهد المعلمين، ودوائر الحكومة، والأسواق، لا تقول في محاضرتك شيئاً سوى الوقوف أمام مشاهديك ليتذكروا سحر الابتسام.

متى يأتي يوم لا نقصر فيه العبادة على عبادات بعينها، بل نزرع ثقافة تجعل من العمل عبادة، والحب عبادة، والتعامل الراقي عبادة، ونشر الفضيلة بين الناس عبادة.

عبادة أخرى عشتها قبل عام:

ذهبت لزيارة مريض أقعده الكبر والمرض، سبق أن أصيب بشلل نصفي قبل خمسين عاماً نتيجة سقوطه من نخلة. كان ممدداً في ظل شجرة في حديقة البيت، يحيط به ابنه وأحفاده، يتعاونون على حمله من مكان لآخر، يستقبلون الضيوف الذين يأتون لزيارته. كان قبل مرضه الأخير يتحرك كثيراً، مستعيناً بعكازات صحبته منذ سقوطه قبل نصف قرن. اليوم رأيت بحالة محزنة، يتدلى من جانبه الأيمن أنبوب في نهايته كيس للسوائل. قدماء متقرّحتان ووزنه زائد مما يزيد صعوبة نقله من مكان لآخر، ماتت زوجته قبل سنتين ومات ولده البكر قبل عام، رغم ذلك رحّب بي وشكر الله على نعمه، وأثنى على عناية ابنه به.

قال هذا المريض: لا شيء كالصحة، لا يعرفها ويقدر قيمتها إلا من فقدتها، هي أساس كلّ متعة، بدونها لا قيمة لما عداها، بدونها

تصبح عالة على من تحبّ، ها نحن ندفع نتيجة إهمالنا في المأكل والمشرب وأسلوب الحياة.

مساكين شباب وشابات هذا العصر ليتهم يسمعون ما يقوله هذا المريض من نصائح وحكم أفرزها المرض وأكدها المعاناة، لعلهم يدوسون بأقدامهم على الكسل ومعه ما زاد من أرتال الشحوم وما تحويه جيوبهم وعقولهم من سموم.

قدّموا لي القهوة فقدمتها له أولاً، لكنه هزّ رأسه بعدم الرغبة. قلت له:

– كنت أعرفك شارب قهوة إلى حدّ إدمانها، فماذا حدث؟

– كنت أشربها خمس مرّات في اليوم، كانت بعد كلّ صلاة، في الصباح لا تكفي دلّة واحدة، تجهزها زوجتي رحمها الله، تعرف مواعيد إحضارها وتحسن إعدادها، نشربها مع التمر وذكريات الماضي بحلوه ومرّه. بعد موتها تغيّر كلّ شيء، عرفت أن القهوة لن تأتي في الوقت المناسب ولا المقادير المناسبة، صرت أنتظرها، وكانت تنتظرنني، وخشيت أن تكون سبباً في غضبي كلّما تأخروا في إحضارها، تركتها بعد وفاة زوجتي بأيام، احتج رأسي وألح في طلبها، استنجد بالصداع علّني أرق لحاله، لكنني أقنعتة بأن القهوة ذهبت مع رفيقة دربي ولا تصلح بدونها، قلت لرأسي: أنا والقهوة وزوجتي كالأثافي، لا بد من ثلاث، وإلا سقط ما عليها.

اليوم كما ترى، ذهبت كلّ المتع وأنتظر الرحيل عسى الله أن يسهله وأن يقبل أعمالنا.

ودعته وودعت ابنه وشدت على يده وقلت له: عملك يدل على شهامة ومعدن أصيل وستجده أمامك إن شاء الله، هذا هو الدّين، المعاملة الحسنة لكلّ من حولنا من كبير وصغير، رجلاً كان أو امرأة، هذا هو المجتمع الذي يجب أن يكون وأن نفخر به أمام الآخرين، عملاً لا قولاً فقط.

ليت كلّ صاحب منصب، وكلّ صاحب أرصدة تنوء بها خزائن المصارف، أن يرى مثل هذه النماذج، ويتاح له زيارتها، وبعد خروجه مباشرة يسأل: ماذا عملت لذلك اليوم الذي قد تكون فيه مثلهم؟ ماذا عملت لتسهّم في إيواء من ليس لهم من يهتم بهم؟ هل أسهمت ببعض ما وهبك الله من خيرات هذا الوطن في التخفيف عنهم وعلاجهم؟ بماذا أسهمت من مالك لتجده أمامك؟ هل بنيت مستشفى يحمل ذكرك واسمك وتكسب منه الأجر إلى يوم القيامة؟ هل سمعت بما يبذل الميسورون أمثالك من غير المسلمين؟ كيف يسهمون في بناء الجامعات ودور الرعاية وكيف يدعمون مراكز الأبحاث؟ قد تتأخر في اتخاذ القرار إلى حدّ أنك لا تستطيع اتخاذه، لأن القرار والمال الذي تعبت في جمعه وكنت له حارساً أميناً صار بيد غيرك لا تستطيع التصرف فيه. كثير من المستشفيات والجامعات في الغرب قامت واستمرت في أداء رسالتها بسبب كرم وسخاء الموسرين وبعد نظرهم.

في بعض دول العالم الثالث، لو يتاح للمسؤول أو للتاجر أن يستولي على المنشأة ويبيعها لما مانع في ذلك.

يقول أحد المسؤولين السابقين في وزارة التعليم العالي: هاتفي أحد أصحاب (البلايين) وليس الملايين، يطلب مني شفاعاة،

لإرسال حفيده للدراسة في الخارج، اعتذرت منه وأردفت وكلّي أسى: الواجب من أمثالك أن يبعث عشرات الطلبة للدراسة في الداخل والخارج على حسابه الخاص كلّ عام، أجاب هذا المسكين: لكن الحكومة أقوى مني!

هناك خلل ما، وإلا كيف يكون الآخرون أكرم منا في دعم الجامعات والهيئات غير الربحية مع أن أكثرهم لا يرجون الآخرة بالقدر الذي نرجوه؟ قد يكون ذلك راجعاً إلى حرصهم على الفعل أكثر من القول، وقد يرجع إلى الوعي الاجتماعي والسلوك الحضاري، قد تكون الضرائب وسيلة لإجبارهم على البذل. الضرائب تمنع تكدّس الأموال بأيدي قليلة، كلما زاد مال الغني، زاد عدد الفقراء، الضرائب على مكاسب الأغنياء رافد كبير للرخاء الاجتماعي ومحاربة الفقر والجهل والمرض.

موقف آخر مرّ عليّ وأقنعتني أن ليس كلّ طالب إحسان يستحقه.

دخل عليّ عسكري برتبة عريف بجسمه الناحل وقامته القصيرة وتقاطيع وجهه التي تحكي المعاناة والألم.

شرح لي معاناته مع الفقر وكثرة الأطفال، لديه أربعة عشر ولداً وبناتاً أكبرهم لم يتجاوز السادسة عشرة. للتو جاء من أقصى الجنوب، ذكر أنه سجن في قضية جنائية خرج منها ببراءة، أحضر معه من الأوراق ما يؤكد قوله، ذكر أنه لن يجد بيتاً يسكنه وعائلته إن لم يدفع الإيجار لمالكه، ساعدته بما أستطيع، وأوصيت الجهات المسؤولة بالقاعدة لمساعدته.

اشتكى من عدم قدرته على شراء سيارة، رفعت طلبه للجهات المختصة ومُنِحَ سيارة عائلية باعها بسبعين ألف ريال، تحسنت

حالته كثيراً ولكنه ظلّ يزورني، وفي كلّ مرة لديه ما يثبت حاجته للمال.

مرّ عليّ في أحد الأيام ومعه وثيقة يرغب أن يطلعني عليها وبعدها يطلب المساعدة، كانت وثيقة زواج ابنه البالغ خمسة عشر عاماً على ابنة عمه البالغة أربعة عشر عاماً. ظهر الغضب عليّ وأمطرته بالأسئلة: كيف تزوّجه وهو لم يكمل دراسته بعد؟ وأين سيسكن؟ وكيف يستطيع أن يربي أطفالاً وهو بحاجة إلى من يربيه؟ لم لا تتركه ينهي دراسته ويحصل على وظيفة مناسبة؟ بعدها يكون الزواج والسكن المناسب، لماذا تريده نسخة منك، شقيقاً في حياته مثلك، كما كنت نسخة لوالدك؟

تبسم كمن لا يعنيه هذا الكلام وأجاب:

– لقد تزوجت في مثل سنّه، الطفل يولد ورزقه معه.

– لكنك تعاني من الجهل والفاقة، ولا تستطيع العناية بمن عندك من زوجة وأطفال، كلّ طفل جديد يزيدك فاقة وفقراً.

لم ينل هذه المرّة مالاً، لكنه نال نصيحة لا يؤمن بها وتمنى لو لم يسمعها.

بعد عام مرّ عليّ في عملي الجديد مهنتاً وشاكياً قلّة الحال وحاجته إلى مال يدفع به إيجار بيته، أقسم بالله أنه صادق وأن أبناء سينامون في الشارع إذا لم يدفع الإيجار، أعطيته ما طلب كدين يسدده كلّ شهر من راتبه وأخذت عليه الموائيق، بعد ثلاثة أيام حضر إلى المكتب ومعه دعوة لزواجه في أحد قصور الأفراح.

طار صوابي وعلمت أنني كنت أتعامل مع جاهل لا يعرف

مصلحة نفسه ولا مصلحة أهله، وأن ما دفعته له من مال قد دُفع لقصر الأفراح لإقامة الزواج.

ما ذنب تلك المسكينة التي أنجبت له أربعة عشر طفلاً وعانت الأمرين من الحمل والولادة والتربية، كان عذره للزواج بأخرى أنها مريضة، بالطبع ستمرض وقد تموت مبكراً إذا لم تجد العناية الصحية والوقت الكافي بين كل ولادة طفل وأخرى حتى تستعيد الأم قوتها وصحتها، فصحة الطفل من صحة أمه. لا بد من وعي وجهد يقوم به علماء دين مجتهدون، فينشرون هذا الوعي من خلال المنابر والمدارس والإعلام والمؤسسات الخيرية.

هذا المسكين وغيره من محدودي الدخل وقلة الوعي يرون التكاثر غاية، ولديهم ثقافة التواكل، يدفعون للمجتمع بأفواه جائعة تبقى جاهلة، تجني على نفسها وعلى الأمة، وهذا هو جهد البلاء الذي حذر منه رسول الله ﷺ. لا بد من انتشار هؤلاء المساكين من مستنقع الجهل والفقير بتعليمهم ورفع مستوى معيشتهم، ليكونوا ضمن الطبقة المتوسطة المنتجة، المربية لأبنائها بشكل سليم ومتوازن.

العمل الخيري بحاجة إلى دراسة وجهد مؤسس على حقائق، وتؤكد من أن المال لن يصرف في غير ما صرف له. المساعدة بالمال قد تعود على الكسل وقد تصبح عادة يستحسنها ويستسهلها الفقير، وقد يصرفها في ما يضره ويضر بالآخرين، قد يشتري بها المخدرات، وقد تكون سبباً في بعده عن أطفاله وتخليه عنهم وتركهم للضياع.

محاضرة عن الإرهاب

اتصل بي المسؤول عن المحاضرات في كلية القيادة والأركان السعودية ودعاني لإلقاء محاضرة عن الإرهاب، حديث الساعة وشاغل الناس، رحبت، بالدعوة وشكرتهم على اختياري لأحاضر في كلية كنت قبل أعوام طالباً فيها. شرطي الوحيد أن أعطى وقتاً للإعداد، لا أريد أن أحاضر دون إعداد، يتماشى وأهمية الحضور والمكان.

بدأت بجمع عناصر المحاضرة والمراجع، واستخلاص المعلومات مدة ثلاثة أشهر، لا يوجد اتفاق على تعريف الإرهاب، له أكثر من مئة وعشرين تعريفاً، كل يعرفه بحسب رؤيته ومصالحته. ركزت في محاضرتي على أسبابه وطرق مكافحته: هناك أسباب داخلية وخارجية.

من أهم أسبابه الداخلية إهمال الوالدين لتربية أبنائهم، وانتشار الغلو وغياب التسامح، وما يتعلمه الصغار في بعض المدارس والمناشط، خاصة من معلمهم المؤدلجين. وتلك الفتاوى والوعود بالجنة والحدود بعد أداء المهمة مباشرة. هناك عوامل داخلية مساعدة كالفسل في الدراسة والبطالة، مما يقود للإحباط والبحث عن البدائل.

الفقر والجهل والفساد والبطالة واختفاء الطبقة المتوسطة مع زيادة الطبقة الفقيرة تعدّ بيئة مناسبة لتكاثره .

هناك عوامل خارجية بدأت بالاستعمار وما خلفه من إرث ثقيل ومظالم تتجرّع نتائجها الشعوب، وما منيت به من هزائم .

ما خلفته الانقلابات من مآسٍ، ومصادرة للحريات وفشل على جميع المستويات، مما أتاح للأحزاب الدينية المتشددة أن تبرز وتقدم البدائل، ومنها تشجيع الشباب على الموت، إذ يقال لهم: هذا هو الجهاد. لم يقولوا لهم: إن كثيراً مما يجري في هذا العالم، هو صراع بين الأقوياء حتى وإن كانت ميادينه بلاد المسلمين .

ركّزت في محاضرتي على الحلول، التي تحتاج إلى سنوات من التخطيط وجهد متواصل للتنفيذ .

من أهم الحلول:

- إعادة النظر بمهمة ورسالة التعليم وتنقية المناهج مما يساء فهمه ويستثمر من قبل بعض المتحمسين دون تقدير للتأجج .

- النهوض بكادر التعليم واختيار المعلم كما يختار الطالب لكلية طبية أو عسكرية .

- النهوض بالمستوى الاقتصادي ومحاربة الفساد بأنواعه، وإيجاد وظائف للشباب، وشنّ حرب لا هوادة فيها على الفقر أساس كثير من المصائب. قال رسول الله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من جهد البلاء» فقل له: ما جهد البلاء يا رسول الله؟ فقال: «قلّة المال وكثرة العيال». ويقول أبو ذر رضي الله عنه: «إذا ذهب الفقر إلى بلد قال له الكفر خذني معك» .

- زيادة أعداد الطبقة المتوسطة التي هي صمام الأمان لكل مجتمع، فهي المنتجة والمربية لأبنائها بشكل صحيح.

لنجرّد الإرهاب من أسلحته، علينا أن نقضي على أسبابه. وبذا نجرّده من حججه التي يقنع بها ضحاياه. ضربت لهم مثلاً حركة (التاميل) في (سري لانكا) التي زرتها واطلعت على أهم أسباب قيام تلك الحركة، وهو شعور (التاميل) بالظلم والإقصاء من قبل الغالبية وهم (السنهاليون) بعد أن انسحب الاستعمار الذي كان سبب وجود المشكلة، وتركهم يتصارعون.

أجبت عن الأسئلة وتجاوب الطلبة بشكل ممتاز، وعند توزيع الاستبانة على الطلبة عن مدى رضاهم عن المحاضر، حزت نسبة عالية وطلبوا دعوتي لإلقاء محاضرة في العام القادم.

القضاء على الإرهاب مهمة الجميع، وأهمهم الأب والأم والمعلم والإعلامي وإمام المسجد. الطفل إن أحسنت تربيته وتعليمه صار أهم مشاريع البناء، وأهم أسلحة المستقبل، وأعظم استثمار تقوم به الأمة. وإن أهملته وأسأت معاملته تحول إلى معول هدم وتخريب. لن يقضى على الإرهاب إلا بجهود مضمّنية وخطط وأهداف بعيدة المدى.

لم يكن جميع الطلبة راضين عما جاء في المحاضرة، لكن هذا شيء طبيعي في موضوع كالإرهاب. ليس الهدف أن يرضى أو يوافق الجميع على كلّ ما جاء فيها، لكنني أؤمن بأن كثيراً من نقائصنا يمكن معالجتها بالتعليم الجيّد، بدءاً بحسن اختيار المعلم وحسن إعداده ورفع مستواه العلمي والمادي، ليصبح واحداً من أفضل طبقات المجتمع، ثم المنهج المعد بكلّ احتراف، هذا

المنهج كم مرّة دعوت لعدم تركه للمختصّ فقط؟ بل لا بد من مشاركة عالم النفس وعالم الاجتماع وربما تخصصات أخرى بحسب المنهج المعدّ.

عنصر آخر مهم هو حسن اختيار المسؤول، كل مسؤول عن مصالح الناس. فيبعد كلّ مهمل أو عابث بالمال والوقت اللذين هما ملك الآخرين وليس ملكه.

* * *

بقيت في الاستخبارات عامين ونصفاً بين عامي (1999 - 2002). وسرعان ما علمت عن قرب نقلي لكلية الملك فيصل الجوية.

عودة للبداية

انتقلت إلى كليّة الملك فيصل الجويّة. غادرتها ملازماً في عام 1972، وعدت إليها برتبة لواء في عام 2002 ثلاثون عاماً تشكّل أكثر من نصف عمري.

أبلغني قائد القوات الفريق عبد العزيز هنيدي عن اختياري قائداً للكليّة لعدّة اعتبارات، منها حبي للعلم، وحبّي للقراءة والرياضة والطيران، والحاجة للتطوير.

شكرته على هذه الثقة ووعدهته ببذل الجهد.

لا مانع لديّ أن أعود إلى الميدان، وأفضّل أن يكون العمل في مدينة الرياض لأكون قريباً من والدتي التي تزداد حالتها سوءاً وتعاني من تقدّم السنّ والمرض المزمن. هي لا تؤمن بالشلل الرعاش وتعزو مرضها لأسباب أخرى. تقول: إن ما أصابها مسّ من الجنّ أو شيطان لا يخاف الله، لكنها تستدرك وتقول: الجنّ لا يحبون قراءة القرآن، وأنا لا أملُّ من سماعه، لا بد أنه شيطان. تخاطبه أحياناً وتقول: إنه ينقل لها بعض الأخبار. عندما جاء رمضان، استغربت كيف لم (يربط) مع الشياطين؟ أعملت فكرها ووجدت الإجابة تقول: إنه متقاعد، والشيطان المتقاعد لا عمل له، لذا لا يربط في رمضان. خيال رحب، وقد تكون دعاية منها، للتخلّص من الاعتراف بالمرض.

داومت على أخذ العلاج في مواعيده، وكانت تطلب المزيد من جرعات الدواء.

قبل المرض لم تعترف بوجود الخادمت، وتعدّه ترفاً ومرضاً أصاب البيوت. عندما كانت بكامل صحتها في بيتها أحضرت لها خادمة وزوجها. الخادمة لمساعدتها على أعباء البيت والزوج ليعمل في المزرعة. فأرسلت الخادمة مع زوجها للمزرعة، وقالت لها: زوجك أحق بالخدمة.

بعد مرضها تقبّلت الخادمة على مضض، وعادة تبحث عن عذر للتخلص منها، رغم حاجتها الشديدة لها.

أحضرت لها خادمة نحيفة داكنة البشرة فرفضتها، وقالت: هذه مريضة وبحاجة لمن يخدمها، فاقترح حفيدها عليّ أن أحضر لها ممرضة شقراء من أوروبا الشرقية، فقلت له: أخشى أن يكثر المرضى في غرفة الوالدة.

في الأشهر الأولى في الكلية، بدأت بجولات على الأقسام وأخذت إيجازاً عن كل قسم، لقد تغير كل شيء، كبرت الكلية وزادت الأعداد وكثرت المباني.

ما مهمة الكلية؟ وهل أخذت حقها من الاهتمام؟ أهم ما في الكلية عنصر واحد، هو الطالب، ومنه تنبثق مهمة الكلية وواجباتها، أهو مركز اهتمام الجميع أم لا؟ لا شك أن هذا عائد للقائد واهتماماته.

على مدى ثلاثين سنة مضت، تعاقب على قيادتها عدد من القادة، لكل قائد نقاط قوة يركز عليها، وأكثرهم يركزون على الانضباط الذي هو أهم ما يميز العسكري وخاصة الطيار.

لدى رؤساء الأقسام حاسة شمّ قوية لما يريد القائد، وما يحب وما يكره. في أول اجتماع لي معهم. شكرتهم على التعاون معي، وشكرت القائد السابق الذي لم يبخل عليّ بالمعلومات والنصائح، قلت لهم: سنعمل فريقاً واحداً، وسنقلل الأخطاء، ونرضي المستفيد من نتاجنا الذي هو القوات الجوية، وعلى الخصوص الوحدات المقاتلة، وسنبداً من اليوم بالتطوير والتغيير، سيكون الطالب مركز اهتمامنا في كل مكان يوجد فيه، سنبدأ بسكنه وإعاشته، ثم تعليمه وتدريبه.

سيكون للانضباط أهمية قصوى، لكن ليس بالجزءات فقط بل بالقدوة واختيار القادة والحبّ والاحترام، أريد من الطالب أن يرفع رأسه ويتحدّث بكلّ ثقة، أماننا طريق طويل، لكنّ، طالما هناك هدف وخطة وإصرار فسنصل إن شاء الله.

لم تكن المهمة يسيرة، ولا يمكن تغيير ما تعود عليه الضابط والطالب بين يوم وليلة، علينا أن نحدد الأولويات والعوائق، بعدها نشكّل فرق العمل. تطوّر الكثير من الضباط وأعضاء هيئة التدريس وخاصة القدامى منهم، لتقديم النصح. بعضهم أثناء الزيارة للسلام، وبعضهم كتبها على شكل مقترحات.

معظمهم فرح بالتطوير وتحمّس له، ميزة البيئة العسكرية سهولة التغيير بسبب المرونة في نقل الضباط، وكثرة الصلاحيات المعطاة للقائد.

هناك ثلاث فرق سبق أن طلبت لتقييم الكلية من دول متقدمة، تحمّست لها بعكس بعضهم الذين رأوا فيها تقليلاً من قيمتهم، قلت لهم: لا تقيّم إلاّ المؤسسات الناجحة لأنها تبحث عن الأفضل، في

الدول المتقدمة هناك مؤسسات خاصة للتقييم والتصنيف والمساعدة على رفع المستوى، ولها زيارات كل عامين أو ثلاثة، من يظن أنه في غنى عن بيوت الخبرة ومراكز التميز، فسيبقى مكانه وينتهي إلى الإفلاس.

كانت الكلية بحاجة إلى التقييم حيث إنها المرة الأولى التي تستضاف فيها هذه الفرق. كانت العادة أن يذهب عدد من الضباط لكليات مماثلة، وهي مفيدة لكنها فائدة محدودة، لا تلبث أن تنسى وتحفظ نتائجها في الأدراج.

استُعين بأعضاء هيئة التدريس في تصميم الاستبيانات، لمعرفة نقاط القوة والضعف، بادئين بالطلبة وما يؤثر على روحهم المعنوية ويحدّ من تحصيلهم، كانت الاستبيانات تبحث عن أسباب الرسوب أو العزوف عن تخصص معين، وهناك استبيانات عن مدى تفشي ظاهرة معيّنّة، كالتدخين مثلاً، وما أسباب وجودها، وكيف نعالجها، كانت مفيدة جداً، ومن أجلها يتخذ المسؤول قراره على أسس علمية. أسوأ القرارات ما يتخذ على أساس معرفة سابقة أو تقدير شخصي أو استشارة من شخص معين، وخاصة إذا كان القائد من النوع الذي لا يقبل الرأي المخالف بسهولة، وقد يرى فيه خروجاً على الطاعة.

لا بد من التركيز في صرف المال على مصلحة الطالب قبل غيره، هناك حاجة لتحسين أثاث غرف الطلبة، سألت أحد الضباط: هل ترضى أن تسكن في غرفة مثل هذه؟ أجبني بالنفي. استبدلنا بكلّ فرش الأرضيات بلاطاً من النوع القابل للغسل، ودهن باللون المناسب. واستبدلت الكراسي والطاولات القديمة، وغير أثاث الاستراحات

وجُهزت بوسائل الترفيه وبعض الكتب، وأرسلت الجرائد كاملة لكلّ سرب يومياً، واشترك بثلاثين عدداً من مجلة المعرفة التي تصدر شهرياً من وزارة التربية والتعليم، لتوزع في الاستراحات وفي جناح التعليم والطيران. شيء بسيط لكن له معانٍ كبيرة.

في الدول المتقدمة للرياضة شأن كبير، فما بال الملاعب لدينا قليلة؟ أهمل القادة الرياضة فصارت شيئاً ثانوياً، أكدت على كلّ ضابط لديه زيادة في الوزن أن يبدأ بإنقاصه، أو يستعد لمغادرة الكلية إلى مكان لا يوجد فيه طلبة، الطلبة بحاجة إلى قدوة ولن يصدقوا مثاليات لا تطبق، ضُوعف عدد الملاعب وأعيد ترميم المسبح وحوّل أحد المستودعات إلى صالة رياضية للأثقال واللياقة البدنية، صارت هناك ثلاث حصص في الأسبوع للرياضة صباحاً، يشارك فيها القائد ورؤساء الأقسام ووحدات الشرطة والاستخبارات، وهي ملزمة لكل ضابط أو فرد لديه زيادة في الوزن، أو لم يجتز اختبار اللياقة البدنية. صارت الحصّة الرياضية فرصة لتفقد المنشآت الرياضية والزراعية والمياه، ومضاجع الطلبة أحياناً. كما صارت فرصة يلتقي فيها منسوبو الوحدة بقائدهم.

يتفنن ضباط الصف القدامى في تذكّر الأهازيج وترديدها، حفظوها من دورات سابقة مع القوات البرية، وخاصة في دورات الصاعقة والمظلات. عندما تبدأ الأهازيج والقائد في المقدمة، يتراكم الجميع إلى الطابور وينتظمون فيه، مرددين الأهازيج مع زملائهم بحماسة. أبلغوا أن هناك تكريماً للمتميزين من المشاركين، بعض الأفراد لا يعلم أنه مصاب بارتفاع الضغط أو بالسكري إلا بعد الكشف الطبي قبل ممارسة الرياضة. يقول

أحدهم: كان لدي صداع واختفى، كنت أتناول حبوباً مسكّنة وبعد شهر من ممارسة الرياضة تركتها.

هذه شريحة بسيطة فكيف من تضيق بهم الشوارع والبيوت؟ أين دور التعليم والأندية في تأصيل الرياضة حتى تصبح عادة؟ من يرشد النساء عن مصائب السمّنة وعلاقتها بضغط الدم والسكر وأمراض القلب وهشاشة العظام؟ أليست مأساة أن نمنع الرياضة في مدارس البنات؟ هذه أخطاء باهظة التكاليف سيدفع أبنائنا وأحفادنا فاتورة جهلنا غالباً، سيدفعونها من صحتهم وأموالهم.

زارني أحد المستفيدين من الرياضة والمداومين على حضورها في بيتي بعد تقاعدي وسألني: هل فكّرت في كلّ تلك الفوائد عندما قررت رياضة الصباح؟

يقول ذلك الشخص: كنت مريضاً فشفيت، وكنت لا أنام جيداً فصرت أنام كطفل تعب من اللعب. وكادت زوجتي أن تياس من فارسها، وإذا الدماء تجري في عروقي من جديد. كنا نراك في المقدمة فتسري بيننا الحماسة وتجري في دمائنا قشعريرة لذيدة، كلما رأيناك تجري حاملاً سنينك التي جاوزت الخامسة والخمسين ورتبتك الكبيرة، نخجل ونتحامل على أنفسنا حتى عرفنا الفائدة وصارت جزءاً من حياتنا. أكثر ما يثير حماسنا عندما نراك في المقدمة تجري موجهاً وجهك نحونا وخطواتك إلى الوراء، تؤشر بيديك لرفع الصوت في الأهازيج، تلك الأهازيج رغم بساطة كلماتها وسذاجتها أحياناً لها مفعول السحر على الرجال، نعجب عندما نراك في الميدان تتحدث لفرد لحقت به أو لحق بك.

طلبت من قائد جناح الطلبة تنظيم سباق ضاحية، وأخبرتهم أنني

سأشارك مع الطلبة، المسافة خمسة كيلومترات، لكنّ المدة محددة. طلبت من جميع ضباط جناح الطلبة المشاركة. كيف يعرف النتائج من لم يشارك؟ انطلقت الصافرة وجرى الجميع، كنت في المؤخرة، بعد مدة بسيطة صار بعضهم يمشي وتركت بعض الطلبة ورائي، اللياقة ليست على ما يرام. قلت للطلبة: كيف يسبقكم من سنينه أكثر من سنين كلّ واحد منكم ثلاثة أضعاف؟

لا بد من جزاء جماعي، لن يخرج الطلبة في نهاية الأسبوع. وسيعاد السباق بعد شهر، كان الجزاء ضرورياً لإيصال رسالة مهمة للطلبة.

وجدت القوانين لتحترم. اتصل قائد القوات ليقول لي: إن أحد الآباء جاء من جنوب المملكة ليرى ابنه، لكن لن يراه خارج الكلية لأنه موقوف مع بقية الطلبة، لذا أرجوك أن ترتب الأمر ليراه في الكلية مدة ساعة.

شكرت قائد القوات على تواضعه واحترامه للأنظمة، ورتبت للأب موعداً ليرى ابنه. قوة القوانين في احترامها وتطبيقها على الجميع، وإلا صارت مطاطة، عرجاء يتندر بها في المجالس.

بعد شهر نظم سباق جديد للطلبة وشاركتهم مرة أخرى، انطلق الطلبة كالغزلان بخفة ونشاط، بعد دقائق التفت خلفي فوجدت نفسي وحيداً، وصلت متأخراً قليلاً لكنني مسرور جداً وكافأت الطلبة بإعفائهم من كلّ جزاء ذلك الأسبوع، وخرج الجميع في إجازة نهاية الأسبوع. الشاب يكتسب اللياقة سريعاً أما الكبير فبحاجة إلى جهد مضاعف.

كان الطلبة من مناطق ومدن وأسر مختلفة، لكن النظام يسري

على الجميع دون استثناء، الجميع ينامون ويصحون ويأكلون في وقت واحد، لا يمكن التمييز بينهم على أي أساس، سوى الأقدمية ودرجات التحصيل العلمي والانضباط. النظام كما قال ذلك القائد كالبالون، لو خرق انتهى إلى قطع تداس بالأقدام. من قال إن القانون لا يطبق لأن هناك استثناءات؟ نحن الذين خلقنا تلك الاستثناءات حتى صارت حقاً مكتسباً، أبناء الأسر الغنية والمتعلمة هم أفضل الطلبة، أبناء الأسرة المالكة من أكثر الطلبة انضباطاً ما بقي النظام سارياً على الجميع.

الزيارة الأولى

جاءت دعوة لزيارة كلية (كرانول) الجوية في بريطانيا، جلست مع الضابط البريطاني المنسق للزيارة، استعرضت معه برنامج زيارة الكلية، قلت للضابط: أريد أن أرى الطلبة في الميدان وفي الفصول، في الرياضة وفي التمارين، لا أريد أن نبقى في العاصمة وفنادقها، أريد أن أعيش مع الطلبة وأرى كيف يتدربون وكيف تعاملونهم.

أخذت معي قادة أجنحة الطلبة والطيران والتعليم. اجتمعت بهم وطلبت من كلّ منهم أن يستعدّ للمشاركة في النشاطات، على كلّ واحد أن يأخذ ما يحتاجه من ملابس رياضية ولباس ميدان.

بدأنا أول يوم من الزيارة بمركز القبول، على كلّ متقدم للقوات الجوية أن يمضي أربعة أيام في اختبارات مختلفة، تبدأ بالكشف الطبي ثم المقابلة ثم تمارين لمعرفة المزيد عن المتقدم، هل يصلح ضابطاً أم لا؟ هل هو قائد أم لا؟ تمارين عملية لمعرفة الصفات القيادية لكل متقدّم. يتقدم لهم في كلّ مرّة عشرات الطلبة، لا يأخذون منهم سوى عدد قليل لا يتجاوز ثلاثة أو أقلّ.

يقولون: من أهم عوامل نجاح القوات نظام القبول، من يلتحق بالقوات الجوية سوف نستثمر فيه الشيء الكثير من المال والوقت، علينا أن نحسن الاختيار ولا عذر لنا 80 في المئة، من طلبة الكلية

من الجامعيين، من قال إن الجامعيين لا يصلحون للعسكرية؟ معظم ضباط جيوش العالم المتقدم من الجامعيين، المهم دقة الاختيار وحسن التدريب لاحقاً. الشركات الناجحة لديها نظام فعال للاختيار، هناك مقاييس اختبار قبول لكل نشاط وتخصص، وحده القطاع العام في الدول النامية لا يقيم وزناً لحسن الاختيار. حزنت حين تذكّرت كيف نختار المدرّسين، أهم عناصر نجاح الأمة.

في اليوم الثاني أخذنا إجازاً عن الدراسة بالكلية، تخضع الدورات لتقييم مستمر في المدة والمحتوى. يقضي الطلبة 70 في المئة من أوقاتهم خارج الفصل، في الرياضة والتدريبات العسكرية والتمارين القيادية بأنواعها، في الفصل يأخذون محاضرات عن القوات الجوية بشكل خاص والقوات المسلحة بشكل عام، ويطبّقون ما تعلموه في الميدان، لا يوجد تكرار لما تعلموه في مراحل التعليم السابقة. يذهبون في رحلتين بعيدتين خارج بريطانيا، مدة الأولى أسبوع والثانية أسبوعان، يذهبون لأبعد مكان في العالم، أستراليا وأمريكا الجنوبية والشمالية. يخطط الطلبة لكل شيء، ويوزعون المهمات بينهم، وهذا جزء من التدريب، يُعطون مبالغ محددة، عليهم أن يتدبروا أمورهم حتى عودتهم. المغامرة جزء من الرحلة، لكنها مغامرات مدروسة.

اليوم الثالث حضرنا تمريناً حياً في أحد الميادين القريبة من الكلية التابعة لوزارة الدفاع، وهو عبارة عن غابة كبيرة بتضاريس مختلفة، يعيش الطلبة فيها يومين، وينامون تحت الأشجار، صانعين لهم أسرة مما تجود به الطبيعة وعدة الميدان، وبصحة

الثلوج والمطر. شباب مرفه، أولاد وبنات، بأعمار مختلفة، لكنهم أثناء التدريب يتحولون إلى عنصر آخر من البشر.

شاركت ورفاقي إحدى المجموعات في تمرينها من البداية للنهاية، بدءاً بالإيجاز ثم التنفيذ الذي استمر قرابة الساعة، ركضنا معهم بين الأشجار والمستنقعات، نراقب ولا نشارك، حضرنا إيجاز ما بعد المهمة، أعجبت بجدية التنفيذ والتعاون ودقة الملاحظات في إيجاز ما بعد المهمة. لا مجال للمجاملة والنفاق، ذكروا كلّ الأخطاء بصدق وبصراحة لم تغضب أحداً رغم وجودنا بينهم. النقد الصادق مطلوب في كلّ مراحل الحياة.

رسب القائد في مهمته، وكانت طالبة وبكت، ناولها أحدهم مندبلاً تمسح به دموعها الغالية، لا بأس من البكاء طالما أنك تتعلمين شيئاً، دموعك هذه قد توقّر الدم في العمليات. لا نجاح إلاّ بتمارين جادة على كلّ المستويات. تناولنا الغداء مع الطلبة وعدنا إلى السكن، فيما بقي الطلبة لمزيد من التمارين.

في اليوم الرابع حضرنا تمريناً لمجموعة أخرى. كان يمثل قوة لحفظ السلام في منطقة خطيرة، عليهم توزيع المهمات وحفظ الأمن وتقدير الموقف، وبين الحين والآخر يتعرضون للهجوم.

أمسكت بيد قائد جناح الطلبة وقلت له: انظر كيف يتحدث الطالب مع الضابط واقفاً أمامه بكل ثقة وكأنه زميله. رافعاً رأسه يناقش بكل احترام وأدب. هكذا يجب أن تكون العلاقة بين الطالب والضابط وبين الطالب والمعلم.

أكثر ما أعجبنى حماسة المدرسين والمدرّبين، شباب برتب صغيرة، كلهم حماسة وثقة. يكتبون كلّ شيء عن الطلبة ويعرفون

صفات كلّ طالب ويتابعونهم، أشار أحد المدربين إلى أحد الطلبة وقال لي: هذا سيصبح يوماً ما قائداً كبيراً. أنظر إلى مشيته وقيافته واستمع إلى منطقته، مثل هذا نتابعه في كلّ مراحل حياته العسكرية حتى التقاعد، نعطيهِ الدورات والمهام المناسبة ويتقلّد المناصب القيادية لاحقاً، ويسبق بقية زملائه الأقلّ منه قدرة. أليس هذا كل ما تقوم به كلّ شركة ناجحة لمعرفة المتميزين ورعايتهم؟

كان أسبوعاً ناجحاً ومفيداً على أكثر من مستوى.

سألت قائد كليّة (كرانول) الجوية خلال الغداء: كيف تختارون الضباط؟ وكيف تدرّبونهم؟ فقال: نختار أفضل الضباط من تخصصات مختلفة، يخدمون ثلاث سنوات فقط، يعودون بعدها إلى الميدان، نعطيهم عند وصولهم إلى الكليّة دورة مكثفة عن القيادة والتدريب مدتها خمسة أسابيع، ينفذون خلالها التمارين، ويتعلمون ممن سبقهم، كيفية متابعة الطلبة، وكيفية تقييمهم، وكيفية كتابة التقارير.

طلبت منه بعض المقاعد لإرسال بعض ضباطنا لاحقاً وتم ذلك، والتحق أربعة ضباط من الكليّة بتلك الدورة. حاولت إيجاد دورة مماثلة داخل المملكة بمساعدة البريطانيين لتبدأ بشكل صحيح، لكنهم اعتذروا لنقص العدد من المدربين، ظلّت تلك الدورة حلماً يراودني، لكنني كلما طرقت باباً وجدته مغلقاً.

قال لي قائد جناح الطلبة: ما رأيته لا يمثل سوى شيء بسيط مما في أكاديمية القوات الجوية الأمريكية. يقول: لقد زرتها ووجدت أفضل تدريب يجمع بين العلم والعسكريّة. كليّتهم تعد واحدة من أقوى عشر جامعات في أمريكا، ومنها يتخرج أفضل قادة القوات

الجوية، وقادة كثير من الشركات في ما بعد، يهتمون بالرياضة إلى حد أن لديهم أكثر من ثمانين نادياً رياضياً، حتى القفز المظلي والطائرات الشراعية والغوص وتسلق الجبال، يزرعون روح التحدي والمغامرة بين ضباطهم منذ البداية، وتحتل كليتهم مساحة من أفضل المناطق في ولاية (كولورادو) ما ينطبق على الكليات العسكرية لديهم في حسن الاختيار وجودة التدريب ينطبق على المؤسسات الأخرى من جامعات وشركات عملاقة وقطاع عام وخاص.

التقدم لا يكتسب بالشهادات العالية حتى وإن كان الغرب أو الشرق مصدرها. لكنها ثقافة تستعصي على النقل والمحاكاة بمحاولات فردية، لذا تتدنى إنتاجية وأداء كثير من الشركات والمستشفيات والمصارف حال انسحاب الإدارة الأجنبية، سواء أكانت غربية أو شرقية. من أهم صفاتهم حسن الإعداد في المنزل والمدرسة والجامعة، ثم حب للعمل وعشق للتميز، التمييز له ولأمته. لا تتخذ قراراتهم لاعتبارات قبلية أو مذهبية أو مناطقية. أقلّ فساداً من كثير من أبناء العالم النامي. ليسوا ملائكة، بل من أكثر الناس حباً للمال ودهاء في طرق كسبه، وفساداً لو وجدوا الفرصة، لكنها المراقبة والمتابعة والجزاءات الصارمة، وقبلها وضع الرجل المناسب في المكان المناسب.

كتب أحد الضباط الصغار من القوات الجوية الأمريكية تقريراً ينتقد فيه رئيسه الذي برتبة لواء، عن سوء استخدامه للسلطات. تم التحري والتأكد مما أدلى به الضابط، وتمت محاكمة اللواء وإحالته للتقاعد مع حذف رتبتين من رتبه العسكرية التي تعب في تحصيلها، تقاعد برتبة عقيد ليكون عبرة لغيره.

بعض رؤساء الشركات يقضي بقية حياته خلف القضبان لسوء إدارته وفساده. لا يوجد مجتمع مثالي، لمجرد حسن النية أو التدوين، بل سلطات يراقب بعضها بعضاً وصحافة فتحت أنوف منسوبيها بحثاً عن روائح تشتمّ منها روائح الفساد وسوء استخدام السلطة، وقضاء مستقل نزيه لا يخاف لومة لائم.

الإنسان ليس معصوماً عن الخطأ لو وجد الفرصة وغابت الرقابة وأمن العقاب.

قامت إحدى الجامعات المشهورة في أمريكا بتجربة عملية عن سلوك الإنسان، اختاروا عدداً من الطلبة ذكوراً وإناثاً، قسموهم مجموعتين، نصفهم يمثلون سجناء، والنصف الآخر مسؤولون عن السجن والسجناء وتركوهم يتصرفون دون رقابة، أوقفت التجربة بعد أسبوع، لكثرة التجاوزات من المجموعة الثانية، القائمة على السجن، وصلت التجاوزات إلى حدّ الاعتداء البدني والجنسي على المساجين، خلاصتها أن الإنسان، كما هو بحاجة إلى دعم وتشجيع، بحاجة إلى مراقبة وردع عن الظلم، نتائج هذه التجربة سبق أن قررها أبو الطيّب المتنبّي في بيته المشهور:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

التغيير والتطوير

عدنا من مهمتنا واستمر التغيير والتطوير بوتيرة أسرع، مثل هذه المهمات تعطي دفعاً وتأكيذاً لما يراد فعله وأملاً في التغيير نحو الأحسن .

قلت لمنسوبي الكلية: علينا أن نبدأ بالأبسط لنلمس النتائج بسرعة، ويشق بنا الآخرون. لنبدأ بجناح الطلبة. نُقل عدد كبير من الضباط واستبدل بهم غيرهم من صغار الرتب وأكدت منع كل ما يسيء للطلاب أو يقلل من قيمته، خاصة الألفاظ النابية التي يتلفظ بها قدامى الطلبة، والجزاءات البدنية المهينة .

لقد كان هناك دعم واضح من القيادة على كل المستويات، المهم أن تعمل وتنتج ولا تخالف الأنظمة .

أكثر التغييرات صعوبة هي تطوير وتغيير المناهج . استعین بمعهد الملك عبدالله التابع لجامعة الملك سعود. طلبوا مبالغ لا تتوافر في صندوق الكلية فتم تديرها من القيادة لكن ذلك أخذ وقتاً . مدة العقد ستان تقاعدت قبل إكمالها .

ليتم التطوير لا بد من معرفة نقاط الضعف والقوة، لن يقتصر التطوير على المناهج، بل يشمل جناح الطيران، وبيئة الطلبة، والعسكرية، والرياضة . لا بد أن يبني كل ما يعمله الطلبة على أسس تربوية صحيحة . أرسلت فرق التطوير إلى القواعد لمعرفة مدى رضا القادة عن المنتج، وأخذ رأي الضباط الذين تخرجوا

حديثاً من الكلية، أرسل عضو هيئة تدريس إلى (أكاديمية القوات الجوية في أمريكا) و(كلية إمري ردل) المتخصصة بالعلوم الجوية والطيران، وأحضر معه عدداً من الكتب والمراجع.

أصعب تطوير هو ما يتعلّق بالثقافة والتعليم، وخاصّة الثقافة الإسلامية، بعض أعضاء هيئة التدريس يرونها إعادة لما أخذ في مراحل التعليم العام، وأنا أراها في تعزيز مهمّة الكلية، والمساهمة في بناء الفرد عقلياً وبدنياً، وتأسيس القيم ومكارم الأخلاق. أسوأ أنواع المعارضة أتت ممن لم يعيشوا الكلية وليس لهم اهتمامات أكاديمية، ولا يؤمنون بأن الحرب صارت تدار بالحاسبات والعقول المرنة والمعادلات الرياضية. إذا كانت هذه الصعوبة لكلية واحدة، فكيف الحال في كلّ مراحل التعليم العام والتعليم العالي؟ كان الله في عون كلّ مخلص يرغب في التطوير والتغيير.

لا توجد زيارات خارجية للطلبة، تقرر أن تكون مرّتين في السنة، وأربع زيارات داخلية للقواعد الجوية كلّ عام.

أهم مراحل الطالب فترة (الاستجداد) وهي الخمسة والأربعون يوماً الأولى، التي لا يخرج فيها الطالب من الكلية. يتعلّم الطالب إضافة للأمور العسكرية والرياضة، مهارات أخرى كمهارات الاتصال والتعاون والتفكير المنطقي. يخرج الطالب من الكلية بعد هذه الفترة وقد ودع الحياة المدنية وبدأ حياة مختلفة تماماً، قوامها الانضباط واحترام الوقت واللياقة البدنية العالية.

لا بد من تعويد الطالب على عادات وتخليصه من عادات، أحسن عادة يمكن تعلمها القراءة، وُضعت جوائز ودورات في القراءة السريعة للطلبة والضباط، وخصص أسبوع لمعرض الكتاب

واختيار ودعوة المحاضرين بكل عناية. دعي فضيلة مفتي المملكة، ليعطي محاضرة قيمة عن العبادة ومخافة الله، ويجيب على أسئلة الطلبة. أحدهم سأل عن عدم نجاحه بالطيران بسبب العين، قال فضيلته: عدم نجاحك عائد لك ولاجتهداك، كثير من الإخفاقات تعزى للعين مع أن أكثرها من إهمال الشخص وعدم اجتهاده.

ودُعي معالي الشيخ صالح آل الشيخ وزير الشؤون الإسلامية الذي قدّم محاضرة تنم عن غزارة العلم وبعد النظر، وكلّها تفاعل وتحبيب في الدين ودعوة للّين والمحبة. كما دُعي الأستاذ إبراهيم البليهي المعروف بعلمه وفكره، قال للطلبة: لا يوجد هواية أمتع من هواية القراءة، ما أحوج الطلبة لمثل هؤلاء!

ولأهمية القراءة وتنفيذاً للطموحات أسست مكتبة صغيرة في كلّ غرفة استراحة. وكان هناك مجلّة باسم (القرناس) يصدرها الطلبة وتوقفت، أعيد إصدارها، وصرت أكتب بها في كلّ عدد.

أسوأ العادات التدخين وأكثر الطلبة المدخنين تعلّموه من المرحلة المتوسطة والثانوية، ولمحاربة هذه العادة نسّق مع عيادة مكافحة التدخين ووضعت جوائز لتركه، وعقوبات صارمة لمن يدخن داخل الكلية. قلّت النسبة لكن الآفة بقيت، غير أن الهمة في محاربتها لم تفتقر فقد دُعي محاضر من مستشفى الملك فيصل التخصصي، وهو طبيب متخصص بالأورام السرطانية ولديه من الصور والمآسي ما يكفي لمن أراد أن يعتبر، جُدولت محاضرات الطبيب قبل الانصراف للإجازة الصيفية في ثلاث سنوات على التوالي، لم تقتصر محاضراته على التدخين، بل تعدتها إلى المسكرات والمخدرات والأمراض الجنسية، ذكر قصصاً واقعية عايشها.

ثقافة الوحدة

لينجح أي تغيير لا بد من تغيير ثقافة المؤسسة. أن تلبس المرء ثوباً جديداً وملابسه الداخلية متسخة غير مجدٍ. أو أن ترمم بيتاً استخدم في بنائه مواد غير مناسبة لن يفيد. أصعب ما يواجه كل طامح للتغيير تلك الموروثات التي ما أنزل الله بها من سلطان. لا بد من تفكيك وهدم تلك الجدران التي بنيت وأصبحت غرماً تحاصر العقول، وأسواراً تمنع عنها الضوء والهواء النقي. من الصعوبة أن تهدم سوراً بيدك العاريتين وحيداً، تلك الأسوار لها حماتها. ما تعاني منه الكلية يعاني منه الوطن العربي الكبير. هذه ليست سوى خلية في جسم كبير، أصيب بأمراض مستعصية. قلت في قرارة نفسي: لو هدمت سوراً لسقط عليّ وكنتم أنفاسي، لكن سأفتح نافذة يدخل منها الهواء النقي، وتنفذ إليها أشعة الشمس، لعلها توقظ من في الغرفة أولاً، بعدها سيتولون فتح الأبواب وهدم الجدران بأنفسهم، لتنتقل العدوى منهم إلى أسرهم الصغيرة ثم الكبيرة. إذا أصلحت مؤسسة تبعتك مؤسسات، وإذا أصلحت بيتاً تبعتك بيوت، لا يوجد مجدد لم تحرق النار أصابعه، لكن أصابعه المحروقة صارت وساماً يعتز به وإلهاماً لكل مظلوم ومحروم، ولو خير كل مجدد بين الطريق الصعب الذي سلكه، وطريق الخمول والذعة لاختر الأول دائماً.

هناك مفاهيم خاطئة تتحكم في المجتمع وتشل قدراته على الانطلاق، تعوقه عن الركض واللحاق بالآخرين، بل تقعه من شدة التعب وزيادة الحمولة، تلك الأحمال من الصعوبة تخليص المجتمع منها ما ظلّ يتشبث بها ويظنها أفضل ما يمكن حمله عتاداً للمستقبل.

كتبت عن التراث الذي أسهمت جوانبه المظلمة في تخلفنا^(*)، في مجلّة الطلبة (القرناس) التي يحبها الطلبة ويقرأونها، كتبت مقالات على شكل قصّة مشوقة يتابعها الطلبة في كلّ عدد، والقصّة تحكي عن سفينة مبحرة وبداخلها عدد من الركاب مختلفي المشارب والثقافات. وقسمتهم أربع مجموعات: المجموعة الأولى غارقة في غيّها تمارس شتى أصناف اللهو وتثير المشاكل أمام الآخرين، وكم مرّة وجدوهم في الممرات وأمام الغرف، بأصواتهم العالية وأحياناً يعثر على أحدهم نائماً في الممر وكأنه فاقداً للوعي. يدخلون بشراهة ويتخاطبون بأصوات عالية ويلاحقون النساء ويجاهرون بما يعملون، يقضون ليلهم بالرقص والشرب والمجون ونهارهم بالنوم وقتل الوقت، عالة على أنفسهم وعلى الآخرين.

المجموعة الثانية شباب لهم هيئة مختلفة عن المجموعة الأولى، يكثر من قراءة الكتب التي تبقّهم على قناعاتهم التي تدفع بهم إلى خارج الزمان، وتجعلهم غير متأثرين بما حولهم، غير مقتنعين بما يجري في السفينة، ويحاولون السيطرة عليها وأخذ زمام المبادرة. وقبض على بعضهم وهو يحاول اقتحام غرفة

(*) هناك من يراه منزهاً عن النقد والتحصيص والمساءلة وهذا من أهم أسباب تأخرنا.

القيادة. يحتجون على الرسو في بعض الموانئ، ويعترضون على التعامل مع الآخرين، ويعترضون على معظم ما يعرض في السفينة من أنشطة ترفيهية.

وفي السفينة شاب اصطحب معه جدّه، يأخذه أينما ذهب ولا يتركه أبداً، لو غاب الشاب لصاح الشيخ يناديه ويجلسه بجانبه. يملئ عليه كلّ تصرفاته والشاب لا يستطيع أن يخالف أمره، يحاول الشاب أن يجرب شيئاً جديداً كصيد السمك أو السباحة، فلا يوافق، خشية الغرق، يقرأ كتاباً جديداً فيأخذه من يده خشية أن يؤثر في سلوكه ومعتقد، هذا الشاب لا يسمع له صوت ولا رأي، يخاف من البحر والليل، ويحن لبيته ولقرينته دائماً.

هناك شاب آخر كلّه حيوية ونشاط، تبدو عليه علامات الصحة والاستقرار المادي والعاطفي، يمارس الرياضة والقراءة ويشارك في مناسبات السفينة المختلفة، يصلي مع المجموعة الثانية لكنه لا يشاركهم في جلساتهم، يكلفه قائد السفينة ببعض المهمات مقابل أجر مادي، يساعد الشاب الذي يرافق جدّه على حمل الجدّ عند الانتقال من طابق لآخر، يجلس قبل الغروب مستمتعاً بمراى الشمس وهي تلامس مياه المحيط، ثم ينهض لصلاة المغرب، يناجي القمر في الليالي المقمرة ويستمتع بمراى النجوم وهدوء البحر، لديه خيال رحب وعواطف جياشة يترجمها نثراً وشعراً، يستيقظ مبكراً ويجلس في نفس المكان مستقبلاً الشروق ويده قهوة الصباح، مستمتعاً بمراى أشعة الشمس تنهض من البحر متناقلة، وتنشر أشعتها فوق المياه. يرمي بعض فتات الخبز لطيور النورس التي تأنس به، له أمنيات كثيرة، منها أن يصعد أعلى قمة، وأن

يصل أبعد نقطة في القطب، وأن يكون له شركته الخاصة وأن يكتب كتاباً وأن يشارك في عمل خيري. لديه سلام داخلي، كثرة مطالعته حصنته ضد الخرافات والدجل، يؤمن بثقافة السلام لا ثقافة العنف، لديه قدرة على الحوار مع كل الأطياف الموجودة في السفينة، وله قدرة عجيبة على قبول الاختلاف.

وهكذا تبحر السفينة بسكانها المختلفين المتنافرين.

وفي العدد الثاني من النشرة ترسو السفينة في أحد الموانئ للتزود بالوقود والمؤن. في المدينة تتصرف كل مجموعة بحسب قناعاتها وثقافتها، فهؤلاء يذهبون إلى الحانات وأماكن الدعارة، والمجموعة الثانية نائمة لا تدري ماذا تعمل وتحيط نفسها بسور يفصل بينها وبين الآخرين، وأما الثالث فيبقى في السفينة يخشى مغادرتها ولا يسمح له جده بذلك، وأما الرابع فيستمتع بما في المدينة من متع وحداثق ومسارح ومتاحف ودور للسينما، معه خارطة لأماكن السياحة، يسجل كل ما يراه بالصورة وفي دفتر ملاحظاته، وفي المساء بعد العودة للسفينة يبدو الفرق واضحاً على وجوههم.

وتستمر السفينة في الإبحار إلى أن تتوقف، لتقاعد قبطانها وانتظار قبطان آخر.

لتغيير ثقافة الوحدة صرت قريباً من منسوبي الكلية، أكثر من اللقاءات التي تجمعني بهم، ألتقي بالمستجدين مرتين خلال خمسة وأربعين يوماً، أحدثهم عن القوات الجوية وميزاتها وعن الانضباط وأهميته لحياة العسكري، بل هو ما يميز العسكري في أي مكان،

المقاتل يقوم بمهمات لا يقوم بها غيره. أحذرهم من العادات السيئة كالتدخين وسوء الأخلاق، وأحذرهم من العنصرية البغيضة، بصرف النظر عن دوافعها، أقول لهم: الأوطان لا تبني على حبّ القبيلة أو المنطقة أو المذهب بل على الوطن بكلّ أطيافه، وأحذرهم من الغلوّ وما يجلب لصاحبه من انغلاق ووأد للفكر، أحبب لهم الاعتدال والتسامح والتعاون لإنجاز المهمات، أحبب لهم القراءة وأقول لهم: من أراد التفوق والنجاح، فعليه بالقراءة. أحبب إليهم الرياضة وأضرب لهم مثلاً بنفسي، وكيف أدين للرياضة، والاعتدال في المأكل والمشرب، والنوم مبكراً بكل ما أملك من حيوية وصحة. أقول لهم: ليست الرياضة ترفاً بل ضرورة.

أقول لهم: الحياة الناجحة السعيدة بحاجة لتخطيط وانضباط، نحن لا نعيش في هذه الحياة سوى مرة واحدة، فلماذا نضيّعها بالتجارب الفاشلة.

أجتمع مرتين مع الطلبة الذين هم على وشك التخرّج ويقودون زملاءهم الطلبة، واحدة عند استلام القيادة، وأخرى قبل التخرّج مباشرة. أحثهم على التعاون والرفق بزملائهم واحترامهم، والخوف من الله عند مجازاتهم، أحثهم على العدل بين زملائهم من غير تحيز أو ظلم أورد لهم قصة طالما رددتها عن الحكيم (كونفوشيوس) تقول: إنه مرّ على قرية ورأى امرأة تبكي زوجها الذي أكله النمر، وقبل فترة أكل النمر ولدها أيضاً. فتعجّب الحكيم منها وقال: لماذا لا تغادرين هذه الأرض التي يفترس فيها النمر البشر؟ أجابت: لأن فيها حكومة عادلة. التفت الحكيم إلى تلاميذه

وقال: إن الحكومة الظالمة أشد خطراً على البشرية من النمر المفترسة. الظلم ظلمات فابتعدوا عنه.

ولا أملٌ من تذكيرهم بمساوئ التدخين والحث على الرياضة أذكّرهم أن الأول يسرق من رصيدك الصحي، والآخر يضيف إليه. تكتب شيكاً وأنت في الخمسين من عمرك، تطلب صرف مزيد من الصحة فيردّ الشيك لعدم وجود رصيد، فرّطت في رصيد الصحة فغادرت إلى غير رجعة. أما الرياضي فلديه من الرصيد ما ينق منه على نفسه وعلى أهله، تستقبل زوجة المدخن روائحه الكريهة وسعاله، وزوجة الرياضي حيويته وحسن فعاله. وفي آخر لقاء مع الخريجين أحثهم على الانضباط الذاتي، حيث لا رقيب سوى الله ثم أنفسهم، وعلى الاستقامة، وعدم الإسراف، وأهمية التوفير وحسن اختيار الزوجة، ورسم أهداف بعيدة.

لي لقاءات مع عموم طلبة الكلية شهرياً، أتحدث عن أي جديد في التطوير، وأذكّهم بما يجب عليهم وأعدد ما أنجزوه من تحصيل، لشحذ الهمم. وينتهي اللقاء بعشاء على المسبح أو في النادي، وكان هذا متبعاً من قبل القائد الذي سبقني.

حاول أحدهم ثنيي عن لقاء الطلبة كثيراً، بحجة أن القائد يفقد هيئته بكثرة اللقاءات. قلت له: لن أؤدي رسالتي من داخل مكتبي أو من خلال التعاميم فقط، ولن أفقد هيئتي، بل سأزداد تأثيراً وحباً طالما أن الهدف سام ونبيل.

الأهداف وأهميتها

أؤمن أن وضع الأهداف من أهم المحفزات للإنجاز في هذه الحياة، وقد استعنت بها في معظم مراحل حياتي، أطلب من أبنائي وبناتي أن يرسموا لأنفسهم أهدافاً قصيرة وأهدافاً بعيدة، ولا بأس من مراجعتها وتغييرها بين الحين والآخر، لكنها تكون دافعاً للعمل والإنجاز.

أشبه الهدف بقبس يهتدي إليه السائر في الليل، يراه من بعيد فيسير نحوه، يعمل هذا القبس هادياً ومحفزاً، وقد ثبتت من الدراسات الكثيرة أن من يرسم الأهداف يصبح أكثر فاعلية ونجاحاً، وأقلّ تعرضاً لمخاطر الفشل.

طلبت من طلبة الكلية وضع أهداف، شرحت لهم شروطها التي من أهمها أن تكون معقولة وقابلة للتطبيق والقياس وفي وقت محدد، وتحتاج لجهد لتحقيقها، طلبت من المستجدين أن يكتبوا أهدافاً يرغبون في تحقيقها خلال الخمسة والأربعين يوماً، فترة الاستجداد، وطلبت من طلبة النهائي الذين سيقودون زملاءهم، أن يضعوا أهدافاً يرغبون في تحقيقها، تعلن للجميع. كان من أهم الأهداف، القضاء على السلبيات وتحقيق إنجازات بالرياضة والتعليم. كان التدخين حاضراً عند وضع الأهداف، أكثرهم لم يسمع برسم الأهداف وبعضهم يضع أهدافاً لا يمكن قياسها، كان هدفي إعطاءهم درساً في القيادة والإدارة بالأهداف.

الذكاء العاطفي

تذكّرت مناسبة خرج فيها طلبة الكلية إلى مزرعة قريبة من الرياض حين كنت طالباً، ولا أزال أحتفظ ببعض الصور لي ولزملائي باللونين الأبيض والأسود، رغم بساطة تلك الرحلة، ظللت أذكرها كلما قلبت شريط الذكريات عن الكلية بحلّوها ومرّها، لم يكن في تلك الرحلة نشاطات سوى الجلوس ولعب الورق والسير بين النخيل، لكن ظلّت لفظة جميلة قدّرتها من القيادة، لذا حرصت منذ العام الأول لتسلمي القيادة على تنظيم رحلة برّية ليوم كامل يتخلله الكثير من النشاط واللعب، وأدخلنا عليه آخر مرّة فن العرضة من نجد والخطوة من الجنوب.

قبل كلّ تخرّج يقام نشاط ثقافي، حرصت على استمراره وتطويره. يقدّم فيه ما يثير حماسة الطلبة ويشدهم لوطنهم كالأوبريت. في الكلية شاعر موهوب مخلص لعمله مبدع، وحال بدء (الأوبريت) تدب الحماسة وتتحد مع دماء الشباب في منظر أخاذ.

ألقي في الحفل كلمة أعدها بكلّ عناية، أظنّ أعدها وأكتبها أسبوعاً كاملاً لأوصل رسائل للطلبة ورسائل للحضور وخاصة قائد القوات الذي يحرص على الحضور.

في المسرح يشارك الطلبة في تقديم فقرات فكاهية هادفة، يضحك لها الطلبة كثيراً، وتبقى واحدة من الذكريات الجميلة لأيام

الكلية. المسرح من أرقى الفنون التي تحتاج إلى جهد وإلى أكثر من عنصر لإنجاحها، وهو يعالج مواضيع كثيرة بطريقة مشوقة ومقبولة. عندما غاب المسرح من مدارسنا، هجرتنا الابتسامة والنقد البناء. المسرح المدرسي يقرب الطالب لأستاذه، وولي الأمر إلى مدرسة ابنه. هناك من لا يرى المسرح إلا نصحاً وزهداً في الدنيا، وثقافة ترى الموت أهم من الحياة، وما عدى ذلك ضياع وقت.

لي لقاءات مع أعضاء هيئة التدريس، وأكثرهم من المدنيين، من حملة الدكتوراه والماجستير. أعدّ في بداية اللقاء إيجازاً أشرح فيه سياسة الكلية وما تشهده من تطوير وتغيير، ليكونوا على علم بما يجري ولأكسب دعمهم، أملاً في إيصالها للطلبة. أساتذة الجامعات هم من أفضل شرائح المجتمع وألمع عقوله، اختيروا من بين آلاف الطلبة الذين تخرجوا من الجامعات بتقديرات عالية. ومن المؤسف أنه لا يستفاد من المتميزين منهم لشغل المناصب المهمة في الدولة بالقدر الكافي، والاستفادة من خبراتهم لدفع البلد لنادي الدول المتقدمة. لكن هناك للأسف من الأساتذة من ظن أن العلم قد انتهى بحصوله على الشهادة والوظيفة، فلا يجهد نفسه في بحث ولا يحاول أن يقتحم عالم الكتب، قراءة وتأليفاً.

في أحد اللقاءات، شرحت لهم سياسة الكلية الجديدة: إحلال سياسة الحبّ واللّين والتقدير، إلى جانب سياسة الجزاءات والشدة إذا لزم الأمر، أطلعتهم على إيجاز أعدته للضباط والطلبة. وعنوانه (الذكاء العاطفي، الجناح المعطل)

شرحت لهم ماذا أعني بالذكاء العاطفي وقلت: إنها مجموعة العواطف والأحاسيس والحدس والشعور لدى الإنسان تجاه نفسه

وتجاه الآخرين وتأثيرها عليه وعلى من يعمل معه، وتوظيفها بالقدر المناسب.

قلت لهم: وهبنا الله العقل والقلب، ومثلما لا يطير الطائر إلا بجناحين فلن يخلق القائد أو الإداري الناجح عالياً في سماء القيادة والإدارة الواسع إلا بجناحين: جناح الرحمة والحب وجناح الذكاء والخبرة.

لقد أهملنا في حياتنا ومدارسنا أحد الأجنحة، فصرنا لا نحلق بعيداً، بجناح واحد يظل الطائر يقفز في مكانه كما نعمل الآن، وبقائمة واحدة لا يذهب بعيداً ويسبقه الآخرون. قلت لهم: أفضل القادة وأنجحهم، على مستوى العالم، من يمتاز بالذكاء العاطفي، بصرف النظر عن مهمات مؤسسته ونشاطاتها.

قال أحد الأساتذة القدامى: الطالب لا تنفع معه إلا الشدة، الطالب إذا لم تضغط عليه فهو مثل (النابض) يقفز عالياً إلى السقف، لدينا خبرة طويلة مع الطلبة ونعرفهم جيداً ولا يمكن ضبطهم إلا بالشدة.

قلت له: أقبل هذه الملاحظة من عسكري أتى لتوه من الميدان، لكن لا أقبلها من مربٍّ أمضى في الكلية عشرات السنين، ثم أردفت هل جرّبت الحب والعطف والاحترام معهم؟

- جرّبناها ولم تنجح.

- كم كانت مدّة التجربة؟

- استمرّت أكثر من ستة أشهر وكانت فاشلة.

- وهل تعتقد بأن ستة أشهر كافية؟ مشكلتنا أننا نستعجل النتائج،

للقضاء على عادة وإحلال عادة أخرى مكانها، نحتاج لسنوات من الصبر والرعاية. يأتي مسؤول جديد وبجرة قلم، ومن دون دراسة علمية يقضي على مشروع ناجح لأن نتائجه لم تتضح بعد، ويبدأ مشروع آخر يضع عليه بصماته، وكأن المال والجهد السابق لا يعني شيئاً وقد يكون مآله مثل سابقه. يقول مثل هندي قديم: «يجب على الناس أن يصبروا على الأقل ثلاث سنوات ولو كانوا في ظلّ الشجر، أو فوق الصخور».

العادات السيئة كالأظافر المصابة، لا تزول إلاّ بدفعها من أظافر سليمة. علينا أن نقرأ سيرة المصطفى ﷺ، لنعرف كم ظلّ يدعو، وكيف كانت الدعوة رحمة، وكيف عاتب القرآن الكريم الرسول عندما عبس في وجه أعمى. للطالب أحاسيس ومشاعر. شيء واحد أريد كلّ واحد منكم أن يتذكره. كيف بودك أن يُعامل الطالب لو كان ابنك؟ أو كنت أنت الطالب؟ تذكر من ينتظر هذا الطالب من أم وأب وإخوة.

من تذكرون من مدرسيكم السابقين بالخير إن كان حياً، وترحمون عليه إن كان ميتاً؟ هل تذكرون ذلك المتأبط للغضب والتذمر دائماً؟ أم تذكرون ذلك الرحيم، المبتسم الذي أثر فيكم بعطفه وكريم أخلاقه؟

لماذا نضع قلوبنا جانباً ونعمل العقل فقط؟ ألا ترون أن القلب بما يحمله من حب وعواطف وحماسة وأشواق هو ما ينقصنا، ليس في الكلية فقط بل في البيت والشارع ومع أنفسنا؟ لماذا لا نخلق بيئة تسودها المحبة والثقة، دون إحساس بأن هناك من يجري خلفك ليسقطك أرضاً أو ليطعنك بسكين؟ كيف نحيل أمكنة العمل

إلى ميادين تعاون ومحبة وتسامح بدلاً من أماكن للمشاحنات والشكاوى والدسائس؟

نحتاج صبراً ومتابعة وأدوات قياس لمعرفة مدى التقدم. لا تقدم إلا بقياس ومقارنة، وليس هناك من هو أفضل من الأكاديميين لإجرائها، علينا أن نترك ثقافة المشافهة جانباً ونبدأ بالتأسيس لمرحلة مختلفة.

تركتم اجتماع قادم مقرر كلّ شهرين أحرص على حضوره والتحضير له بكلّ عناية.

التفكير المرن وأهمية الحوار

اجتمعت ثانية مع المدرّسين (مدنيين وضباطاً) لأتحدّث عن أهمية تزويد الطلبة بأساليب التفكير المرن وأدب الحوار. قلت لهم: التفكير المرن من أهم شروط التفكير العلمي الذي كان من أهم أسباب الإنجازات البشرية، والمكتشفات الكثيرة. علينا أن نعلّمه للطلبة لأنه سلوك مكتسب، كان من الواجب أن يتعلّموه في مراحل تعليمية سابقة. ويعني التفكير المرن أن ما يزخر به العلم من حقائق وقواعد ليست مطلقة، وأن البحث مستمرّ عن كلّ جديد، أعظم هديّة تقدم لطالب اليوم تعليمه مرونة التفكير التي تساعد على استنباط الحلول و تحميه من بعض الأفكار وبعض الممارسات الخاطئة في الحياة. المرونة تعني نبذ الغلو والتطرف ومعرفة خطرهما على الأمة، بل على العالم أجمع، علينا أن نقبل الآخر ونتعايش معه، وأن ننبذ العنف والتسلط والتهديد.

الفكر المرن يعني الاجتهاد الذي هو واحد من مصادر التشريع، وهو ضرورة لكل عصر، فالحياة بنيت على الحركة والتغيير المستمر وليس الجمود، والاجتهاد واحدٌ من أسرار بقاء الدين صالحاً لكل زمان.

وعن الحوار قلت لهم:

الحوار يفتح بيننا وبين الآخرين نوافذ وأبواباً، الحوار يقول لنا: إن الطريق يتسع لأكثر من مركبة، يعني أننا نزرع مصدات من الحب

والتعاون ضد عواصف الكره والغلو، أن نحاوّر لا يعني تغيير ما نؤمن به، لكن يعني سماع وجهة نظر الآخرين، الحوار يعني بناء جسور بيننا وبين الآخرين ومحاولة إزالة سوء الفهم، الحوار يعني أن المجتمع يتمتع بالصحة الفكرية ولديه مناعة ضد كثير من الأمراض، أسوأ أعداء الحوار الإكراه الفكري ونعت المخالف بأنه صاحب نيات سيئة، الرأي المخالف كجداول تصريف المياه والقنوات التي تمنع السدود من الانهيار.

لولا اختلاف الآراء لأصبح الناس نسخاً مكررة يتزاحمون على نفس الطريق ونفس الهدف والاتجاه، لولا اختلاف الآراء لأصبح الناس صوراً مكررة، ولتوقفت العقول عن الإنتاج.

لله حكمة لا نحيط بها من هذا الاختلاف في الدين واللغة والشكل والطبائع والأذواق. ولو شاء الله لجعل بكلمة واحدة كلّ من في الأرض على دين ولسان واحد. سيبقى الاختلاف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، يقول تعالى ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين﴾ [هود/118].

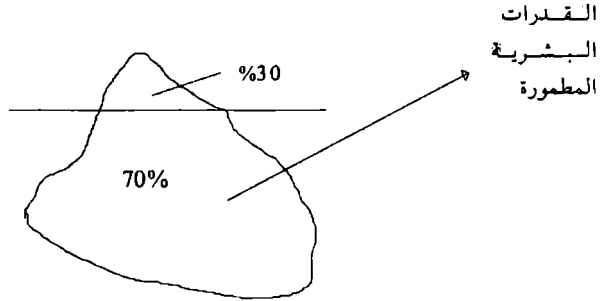
من أجمل ما قيل في مبدأ الحوار ما قاله الشافعي رضي الله عنه: «رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب» وما قاله ابن تيمية رحمه الله: «العلماء يخطئ بعضهم بعضاً، والمبتدعة يكفر بعضهم بعضاً». وفي السياق نفسه يقول المفكر الفرنسي فولتير: «قد أكون ضد رأيك حتى الموت، ولكنني أدافع عن حقك في أن تقول حتى الموت».

ويقول فيكتور هوغو: «إنني أختلف معك وعنك، ولكنني مستعد لأن أضحى بكلّ ما أستطيع لكي تعبر عن رأيك وتدافع عن موقفك بكلّ حرّية».

الثروة المهملة

اجتمعت بعموم الكلية، طلبةً وضباطاً ومدرسين، ذات مساء جميل، وبدأت إيجازي برسم لجبل جليد (الشكل رقم) هذا الجبل لا يظهر منه سوى 30 في المئة فقط. والباقي تغطيه مياه المحيط.

القدرات البشرية المستخدمة



الشكل رقم (1) القدرات البشرية

المصدر: Alan hooper and John potter

– بماذا يذكركم هذا الجبل؟

وبدون أن أنتظر الجواب، بدأت محاضرتي القصيرة:

هذا الجبل يمثل ما لدينا من قدرات تماماً، نحيا ونموت وجلّ قدراتنا ومواهبنا مطمورة يغطيها الكسل والجمود والبرمجة الخاطئة. كم من ملايين النوابغ من مخترعين وفنانين وأدباء جاؤوا

إلى هذه الحياة وغادروا من دون أن يتاح لمواهبهم أن تبرز!

هذا الجبل يوضح أن من في هذه القاعة من كفاءات، لا تعمل إلا بثلك إمكاناتها. آخذين في عين الاعتبار أن هذا الرسم أخذ من مصدر غربي، لديهم إنتاجية أعلى من إنتاجية العالم الثالث بكثير، مما يعني أنه من الأفضل أن نرسم جبلاً في الصحراء لا يبدو منه سوى 10 في المئة.

لدينا إمكانات بدنية وعقلية وعاطفية وروحانية يمكن تطويرها، ولنتيح لتلك الإمكانيات أن تنمو وتتطور علينا أن نضع الرجل المناسب على رأس كل مؤسسة نرغب في تطويرها وخاصة المؤسسات التربوية والعلمية، وعلينا أن نواصل التغيير ولا نخاف منه، والتطوير يكون بالاستفادة ممن سبقونا، وأن تكون المؤسسات مكاناً يسوده الحبّ وحسن المعاملة، وكلّ مسؤول هو قدوة ورحمة لمن هم تحت إدارته.

قال أحد الطلبة: لكن من سبقونا قسوا علينا لمصلحتنا، وعلينا أن نقسو على من بعدنا لمصلحتهم وإلا صارت الطاعة التي هي أساس العسكرية، محلّ نقاش، أجبته:

ليس كلّ ما طبّقه من قبلنا هو الصحيح، وإلا لما تقدّمت أمم، وتأخرت أخرى، أعظم معارضة قابلها ﷺ، كانت من أولئك المتشبهين بماضيهم. ليقولوا له ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على أثرهم مقتدون﴾. كلّ طاعة مصدرها الخوف تنتهي بزواله، نريد طاعة مصدرها الاعتزاز بما نعمل وتؤكدنا القيم والإيمان لتستمر الطاعة حتى مع عدم وجود رقيب.

الدول المتقدمة من أكثر الدول قسوة على من يخالف النظام، لا يمكن أن يتساهلوا مع الكذب والغش والسرقات، لكنهم من أكثر الناس تشجيعاً وتقديراً للمنتج والمبدع.

السلام والرحمة هما شعارنا وما نقابل بهما الناس، نقولهما صباحاً ومساءً، ألا يستحق زميلك وصديقك وأهل بيتك ذلك؟

لتوضيح إبراز القدرات الكامنة ضربت لهم مثلاً كان يردده الرئيس الأمريكي (ابراهام لنكولن): عن ضفدع علق في وحل في طريق العربات، حاولت بقيّة الضفادع مساعدته وتشجيعه على الخروج من الوحل، لكنه حاول كثيراً ولم يستطع، يئست من خروجه وتركته ليوافه مصيره وحيداً. بعد يومين رأت ذلك الضفدع مستمتعاً بأشعة الشمس الذهبية على بساط من العشب. سألته كيف استطعت الخروج من الوحل؟ أجاب: حاولت ولم أستطع، لكن جاءت عربة مسرعة كادت تدهسني، فقفزت خارج الوحل مستخدماً كل قواي من دون شعور. استخدم ذلك الضفدع قدراته الكامنة عندما رأى الموت أمامه. لن نخرج من وحل التخلف إلا باستخدام كامل إمكاناتنا وقدراتنا الكامنة.

في اجتماع آخر مع رؤساء الأقسام شرحت لهم أهمية التغيير، وخاصة لمن أمضى فترة طويلة في نفس المكان وجفت عنده جداول العطاء، وتسلسل السأم والملل إلى حياته. أوردت لهم دراسة عن ضفدع آخر لم يحالفه الحظ هذه المرة لينجو، ذلك أن الخطر جاءه على مهل. وتقول الدراسة: إنه لو وضع ضفدع في إناء به ماء حرارته مناسبة، ثم رفعت حرارة الماء تدريجياً وبيطء حتى الغليان،

لبقى ذلك المسكين في مكانه مستمتعاً بالحرارة حتى يغلي الماء ومعها يغلي دمه ويموت. التفت لأحد الحضور وكان من المعمرين في الكلية وصاحب نكتة، وسألته: كم مضى لك في الكلية؟

أجاب: أكثر مما بقي ذلك الضفدع المسكين في الماء.

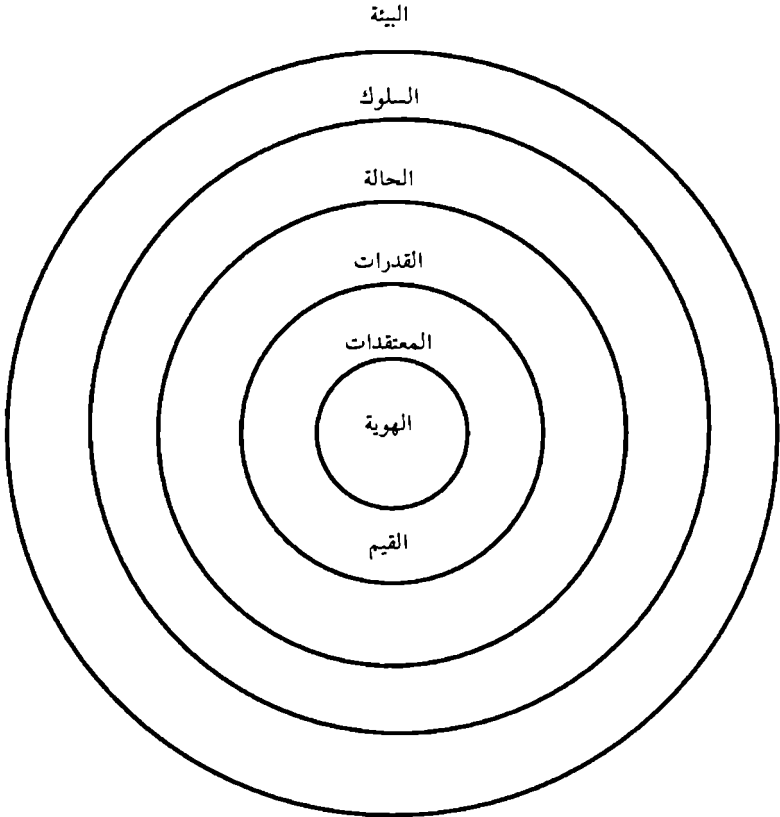
كم من دوائر ومؤسسات معطلة لأن فيها نماذج تعشق البيات، ويغظ كل من تحت إدارتها في نوم عميق. ليس السؤال كيف يرغب أمثال هؤلاء المديرين في البقاء؟ فهذه طبيعة الإنسان، لكن العجب كيف يتركون ينامون، وينام من تحت إدارتهم وتتعطل مصالح الناس؟

لينجح التغيير، لا بد من الغوص في عمق المشكلة، ومعرفة العوائق وأسبابها، والدوافع والحوافز وكيفية مضاعفتها. وجدت في كتاب باللغة الانجليزية عنوانه القيادة الذكية للكاتبين آلان هوبر وجون بوتر (Alan Hooper & John Potter) ما يجيب عن كثير من تساؤلاتي، وما يساعدي على إقناع الآخرين بطريقة علمية.

يتحدث الكاتبان عما يؤثر في سلوك الإنسان وتصرفاته وما يؤثر في معنوياته ومن ثم في بيئة عمله. ويوردان لذلك رسماً على شكل خمس دوائر (الشكل رقم 2). جهزت إيجازاً عن الموضوع وتحدثت إلى الضباط أولاً ثم المدرسين ثم الطلبة. وبدأته بالحديث عن الدوائر:

في الدائرة الأولى شعور الإنسان تجاه نفسه وما ينتمي إليه وما

يعمل. أو ما يطلق عليه الهوية، وهذه الدائرة تذكّر برجلين يعملان في قطع الحجر. سئل الأول: ماذا تعمل؟ أجاب: ماذا ترى؟ أقطع



الشكل رقم (2)

The business of leadership

Alan hooper and John potter

حجراً. وسئل الثاني: ماذا تعمل؟ أجاب: أبني مساجد ومدارس

ومستشفيات. أيهما تظنون سينتج أكثر؟ ويستمتع أكثر؟ هذه الدائرة هي الأكثر تأثيراً لذا يسعى المخططون إلى اعتبار كلّ عمل يقومون به شريفاً ومحلاًّ فخر. فالبدوي الذي كان يغير على قبيلة أخرى يسميه غزواً وما يحصل عليه يسميه كسباً، مع أنه سرقة واضحة وضوح شمس نهار صحارينا. والسارق من المال العام يسميه استثمار فرص وشطارة، مع أنه يأخذ اللقمة من أفواه المحتاجين والمرضى في البيوت وفي المستشفيات.

هذا الشعور بالهوية والانتماء، يعززه ما يعتقد في قرارة نفسه وما يؤمن به وما لديه من قيم، وهذا ما تمثله الدائرة الثانية. لنحدث التغيير المطلوب علينا أن نهتم بهاتين الدائرتين لا بد أن نجعل ممّا نعمل أفضل وأنبل عمل، وعلينا أن نضع قيمةً نعلّقها في كلّ مكان يوجد به الطلبة ومنسوبو الكلية. كتبت أربع قيم ورتبتها كما يلي: الاستقامة، والاحترام، والتضحية، والتميز في كلّ ما نعمل.

ليست الوحدات الناجحة فقط هي من يضع قيمةً لمنسوبيها، بل لكل أمة ناجحة قيم تعلمها لأبنائها في البيوت والمدارس والمساجد ووسائل الإعلام.

الدائرة الثالثة تمثّل القدرات التي يمتلكها الإنسان من قدرات عقليةً وبدنيةً وروحيةً وعاطفيةً ووسائل قوة أخرى.

شعور الإنسان تجاه نفسه في الدائرة الأولى، وقيمه ومعتقداته في الدائرة الثانية، وقدراته في الدائرة الثالثة بحاجة لحالة نفسية وجسمية مناسبة، للاستفادة منها لأقصى حدّ وهي الدائرة الرابعة، فمن يعمل في حالة من الخوف أو الشك لن يبذل كمن يعمل في جو من المحبة والتشجيع والثقة.

الدائرة الخامسة هي السلوك وهي التي يركّز عليها لأنها الأوضح والأسهل تقييماً. قد يؤثر التدريب أو الجزاءات على سلوك الشخص، لكن ما لم يؤمن بما يعمل ويقتنع به داخلياً وبحسب الدائرتين الأولى والثانية فإنه سيعود لسلوكه السابق حينما تسمح ظروفه أو تضعف المراقبة. علينا أن نبدأ بالدائرة الأولى والثانية قبل الدائرة الخامسة.

وأخيراً تأثير البيئة المحيطة بالعمل على الإنتاجية. ففي الضوضاء نتحدّث بصوت عالٍ وتقل الإنتاجية، وبوجود الخضرة والماء تزداد الإنتاجية وهكذا.

أهم عوامل التحفيز تأتي من مدى إيمان الشخص بما يعمل، فالمعلم الذي جاء إلى التعليم وهدفه إيجاد وظيفة فقط، لن يبدع كمعلم جاء إلى التعليم مؤمناً برسالته السامية، وهو يشعر بأنه يسهم في بناء الوطن وإعداد جيوش من الأطباء والمهندسين والعلماء.

ما كنت أقصده: أن التغيير يبدأ من الثقة بالنفس والفخر بما يعمل الفرد وأن الكلّ أهم من الجزء وأن الوطن أهم من القبيلة، وحماية الوطن بالنسبة للعسكري، أهم من النفس والمال والولد.

على القائد الذي يريد التغيير الناجح والتحفيز الذي يستمرّ، أن يهتم بالدوائر جميعاً، وهذه كما قال الكاتبان مهمة جسيمة.

تذكّرت أصعب مراحل تدريبي في الكلية عندما كنت طالباً، كانت بداية الطيران التي كادت تطيح بأمالي كطيار. لذا أحرص على الحضور لجناح الطيران مع كلّ مجموعة مبتدئة، أذهب بعد صلاة الفجر مباشرة مرتدياً لباس الطيران، وبصحبة كوب القهوة،

أذهب إلى هناك، متذكراً أيام الشباب الجميلة في الأسراب .
 الوقت شيء مقدّس لكلّ طيار في العالم، يعدّ بالثواني، يقفل
 الباب تماماً في الوقت المحدد فلا يدخل غرفة الإيجاز أي متأخر
 مهما كان، لذا أحرص على الحضور قبل الوقت بخمس دقائق على
 الأقل .

تذكّرت مع هذا النظام الصارم، يوم كنت محاضراً في إحدى
 المدارس الثانوية، كان الباب مفتوحاً ومنسوبو المدرسة وبعض
 أولياء الأمور يأتون متأخرين، وبعضهم يرفع صوته بالسلام،
 أحدهم لم يكتف بذلك، بل جاء إليّ وسلّم وسألني عن والدتي . إذا
 لم يتعلم أبنائنا النظام واحترام الوقت في المدارس فأين سيتعلمون
 ذلك؟

بعض الاجتماعات خارج القوات الجوية تبدأ بعد موعدها
 بنصف ساعة . ولّما وجدت اجتماعاً ينتهي في الوقت المحدد .
 في نهاية الإيجاز أتحدّث مع طلبة الطيران مشيراً للباسي أولاً
 رمز الطيران، ثم أشير لهم وأهنئهم بالوصول لهذا المستوى،
 وأحثهم على بذل الجهد للنجاح في تخصص من أجمل وأمتع
 وأصعب التخصصات أقول لهم: النجاح بيد كلّ واحد منكم وليس
 بيد المدرب أو غيره . أورد جملاً قصيرة حفظها الجميع وصاروا
 يرددونها أمام الآخرين وخاصة المدربين أمام طلبتهم . من هذه
 الكلمات : (if it is going to be, its up to me) ومعناها : إن
 تحقيق النتائج يعود إليّ وإلى اجتهادي .

والعبارة الثانية (if there is a well, there is away) وتعني : إذا
 وجدت الإرادة لإنجاز شيء ما، وجدت الوسيلة لتحقيقه . أحرص

على أن أقول لهم هذه الكلمات وأؤكد عليها، لأن كثيراً من الطلبة يعتقد بأن النجاح بالطيران مرهون بالحظ وجودة المدرب، وبعضهم يعزو الفشل لعوامل خارجة عن قدراته كالعين مثلاً.

أورد لهم بعض قصص الناجحين مثل العالم أديسون الذي قال عندما سئل عن سبب نجاحه: كانت 99 في المئة جهداً ومثابرة و1 في المئة ذكاء.

ولأن الطيران قدرات أيضاً مثله مثل أي فن أو صناعة أخرى، فهناك البطيء في ردّ فعله، وغير المركّز، ومن يمرض في الجو فيقذف ما في جوفه، والخائف من الطيران، وأسباب أخرى تختلف من شخص لآخر، لذا أتحدث لمن قد لا ينجح فأقول له: عدم النجاح في مجال ليس نهاية المطاف، عليك أن تبذل الجهد، وستبدع في مكان آخر بمشيئة الله.

بعد الإيجاز أظير كواحد منهم، وألتقي بهم ثانية بين الرحلات في مكان آخر، وأسألهم عن الكلية وكيف يعاملهم زملاؤهم القدامى، وكيف الإعاشة والسكن، أحصل على معلومات قيّمة، وأعود ثانية إلى الرياض.

البيئة

في طريق عودتي في أحد الأيام إلى الرياض قادماً من الشمال بطائرة التدريب الصغيرة، رأيت عاصمة بلادي الحبيبة وعليها آثار التعب والإرهاق، يحوم التلوث على أطرافها، كضباب في غير وقته ولا مكانه، كانت سحباً آتية من الجنوب قذفتها المصانع والسيارات دون حساب لنتائجها الخطيرة على صحة الناس، تحملها الرياح إلى بقية أنحاء العاصمة.

المشكلة أن ما أراه من الجو وفي هذا الوقت من النهار، لا يُرى من الأرض.

فكّرت ملياً بعد نزولي ثم قلت: ليس لمعالجة مرض العاصمة سوى أميرها، فهو الذي وضعها في مصاف عواصم العالم، ليس لها سوى سلمان، أخذت ورقة وقلماً وكتبت له ما رأيت. وتسلمه سموه وأحاله للجهات المختصة.

ومع الخطاب جملة اقتراحات منها:

- الشجرة هي الوحيدة الواقفة تحارب التلوث وكلما كثرت الأشجار قلّ التلوث وتحسّنت الحياة بشكل عام. الرياض ينقصها حدائق كبيرة كحدائق لندن أو باريس على سبيل المثال.

- تزرع الأشجار في الشوارع لكنها للأسف تُقَصّ لصنع أشكال جمالية مع أن جمال الشجرة وفائدتها في كبر حجمها، الشجرة

الكبيرة يستظل تحتها المشي والعامل وتنام على أغصانها الطيور .
 - هناك مصانع كانت خارج المدينة والآن صارت بين الأحياء،
 فلو نقلت وحوّلت أراضيها إلى حدائق كبيرة يرتادها الأحبة ويلعب
 فيها الأطفال مع العصافير، ويأكل الحمام والبط فئات الخبز من
 أياديهم الصغيرة، لصارت معالم تذكّر الأجيال القادمة بعظمة من
 أوجدوها .

- تتجه دول أوروبا الغربية لجعل النقل العام شبه مجاني أو
 مجانياً تماماً، لفوائده الجمة في تخفيف الازدحام وتقليل التلوّث،
 وهو منظومة متكاملة لا يمكن حلّها إلاّ بإيجاد نظام يصل كلّ
 أطراف العاصمة ويكمل بعضه بعضاً .

- العاصمة محظوظة بوجود أودية في الشمال والغرب والجنوب
 يمكن نزع ملكياتها وحمايتها من الرعي، وجعلها متنزهات تماثل
 أفضل متنزهات العالم، وتصبح رثة كبيرة للعاصمة .
 - التركيز على أشجار البيئة التي لا تحتاج للماء بعد نموها
 لتوفير المياه .

- إيجاد بحيرة بين الرياض والمنطقة الشرقية، يأتيها الماء
 بالأنابيب من الخليج . ويعود للخليج ثانية ليتجدد دائماً .

مع بعض الاقتراحات الأخرى التي أخذت طريقها للدراسة .
 ميزة هذا الأمير أنه يقرأ شخصياً ما يأتيه ويحيله للجهة المناسبة
 ويتابع ويشكر من يتقدّم باقتراحات بناة .

* * *

في كلّ قواعد العالم تحتاج الطائرات إلى مواقف واسعة، تسمى
 (خط الطيران) وللقوات الجوية في معظم الدول نشاط خاص

لتنظيفها من الأجسام الغريبة، التي لا تلتقطها مكائن التنظيف. وقد حرصت على المشاركة في ذلك النشاط مرّة كلّ شهر، أصطحب معي المشاركين في الرياضة في الصباح الباكر ويصطفت الجميع، طلبة ومدّرّسين وأفراد صيانة، وينطلقون ومعهم الأكياس يضعون فيها ما يلتقطونه من أحجار ومخلّفات قد تضرّ بمحرّكات الطائرات.

مثل هذا النشاط يعدّ فرصة مناسبة للحديث عن نظافة البيئة وأهميتها، ودور كلّ واحد في هذا المجال. ضربت لهم مثلاً: ما يحصل من تلوث وعبث في الأماكن العامة. يجب أن يكون ربّ الأسرة أسوة لأسرته في جمع النفايات حتى وإن لم تكن من مخلّفاتهم. وكذلك المعلّم لتلامذته؟

تحدّث مرّة رئيس رقباء قضى إجازته في عمّان، وتعبّج من نظافتها، وأورد قصّة حصلت له هناك. يقول: تركنا بعض المخلّفات بعد غداء لذيذ، وإذا براع مع غنمه ينادينا ويطلب منا حمل ما تركناه لأقرب حاوية قمامة، أو حفر ما لا يقلّ عن نصف متر ودفنها. وعندما رأى أن كلامه لم يؤخذ مأخذ الجدّ، أشار لهاتفه المحمول وأخبرنا أننا سنوقف عند أول نقطة تفتيش إن تركنا مخلّفاتنا تشوّه البيئة وتجاور الشجر. نزلنا وحملنا ما تركناه وتعلّمنا درساً من هذا الراعي الغيور على وطنه وبيئته. فما الذي دعا هذا الراعي لهذا التصرف الحضاري؟

مشاركة المسؤول بمثل هذه النشاطات لها دلالات مهمة، منها الثقة بالنفس، وتقديم مثالٍ يحتذى. في البداية تكون صعبة، لكن بعد نهاية النشاط، يتمنى تكرارها لما يشعر به من غبطة، ولن تنقص من قدره شيئاً: (قمت وأنا عمر وجلست وأنا عمر).

حرصت أن يكون في الكلية أسبوع للتبرع بالدم، ويكون قبل الحج لحث الطلبة ومنسوبي الكلية على التبرع بالدم في هذا الوقت الذي تشتد فيه الحاجة للدم، الكثير منهم لا يعرف قيمة هذا العمل وفائدته للمتبرع وللمجتمع.

لكن كل عمل جديد لا بد من حملة تسبقه، وإلا مرّ دون نجاح. طلبت من الشؤون الدينية أن يسيروا له بعد الصلاة في مساجد الكلية، ويوضحوا فائدته وأجره، وأن يكون التبرع في مكان بارز يراه الجميع، طلبت من طبيب الطيران أن يقدم للطلبة محاضرات عن ضوابطه وفوائده.

زيارة ثانية إلى بريطانيا

جاءتني دعوة ثانية من القوات الجوية البريطانية لزيارة بعض المنشآت التي لها علاقة بالكلية، جلست مع المنسق للرحلة من الجانب البريطاني أناقش معه برنامج الزيارة، لا بد أن يكون مفيداً ومختلفاً. يهتم الإنجليز بروح المغامرة التي تسري في دمائهم. أسست القوات الجوية البريطانية مركزاً خاصاً لهذا الغرض، بنوه على المحيط الأطلسي في مقاطعة ويلز الجنوبية الساحرة، يجمع بين البحر والغابات والجبال، اخترت من يذهب معي، وكالعادة، أكدت عليهم أخذ ملابس الرياضة وملابس الميدان.

نزلنا في فندق صغير جميل، لا يتجاوز عدد غرفه ما يحتاجه أعضاء الوفد ومرافقوهم، وصلناه بعد الظهر، الجو يغري بالخروج، ومن غرفتي المطلّة على الجبال التي تكسوها الخضرة، أسمع هدير الماء من شلال شقّ طريقه بين الجبال. أخذت رفاقي وخارطة بسيطة، سعدنا للشلال مهتدين بطريق مواز للنهر، كان هناك أكثر من شلال ومناظر ساحرة، هضاب تقود لهضاب وكلما ظننا أننا في القمة رأينا خلفها قمماً، الأغنام البيض في كل مكان، ترعى وليس عندها راع غير الخضرة والماء، قضينا ساعتين في الصعود وساعة في النزول، لكنها ساعات مع الجمال والطبيعة والصفاء.

نمنا نوماً هنيئاً كما ينام الأطفال، في الصباح كان المسؤول

يرحب بنا ويأخذنا للغابة حيث شاركنا في عدد من المغامرات،
كلّهما تبدو خطيرة لكن إجراءات السلامة صارمة ولا مجال للخطأ.

كانت المشاركة اختيارية بصفتنا ضيوفاً، لكننا أصررنا على إنهاء
كلّ تمرين، بعض التمارين تتطلب الصعود لمسافة أكثر من عشرة
أمتار ثم السير بين عمودين على خشبة بينهما، رغم معرفة كل واحد
من المشاركين بوسائل السلامة المتخذة، إلا أن الرُكْب ترتجف
عندما تترك وحيدة على ذلك الارتفاع، لكنها تفرح كثيراً وتحتفل
مع بقية أعضاء الجسم بعد انتهاء المهمة بسلام.

بعد العودة للسكن لم نستطع تكرار رحلة الشلال والجبل، لكثرة
الأمطار. تناولنا العشاء في نفس الفندق مع ضابط برتبة عقيد من
القوات الجوية البريطانية، جاء للمركز ومعه رؤساء الأقسام ليقضوا
فيه ثلاثة أيام. يقول العقيد: كنا بحاجة لهذه الرحلة لتجديد النشاط
وإحياء روح المغامرة من جديد. يقول: صعدنا بدراجاتنا الهوائية
إلى قمم عالية ومننا هناك، ناقشنا أموراً كثيرة ذلك المساء، أكثرها
عن العمل وسبل تطويره.

في اليوم الثاني أكملنا جولتنا في ذلك المركز المتميز، قال لي
أحد المدربين: أنت أول ضابط بهذه السن وهذه الرتبة يشارك في
هذه التمارين. لا بد أن الرياضة لم تخذلك ووفت بوعدنا
وساعدتك كثيراً على هذا الأداء.

وأضاف: روح المغامرة يجب أن تكون جزءاً من حياة
العسكري، وخاصة الضباط، والحقيقة أنها ضرورية لكل إنسان،
الشجاعة مطلب لتحقيق الإنجازات. وأخبرنا هذا الضابط: تُشجّعنا
وزارة الدفاع على قضاء الإجازة في مكان يشعل جذوة التحدي

ويذكي روح المغامرة، نتعلم فيه بعض المهارات، وهي تدفع لنا بعض تكاليف الإجازة. أحياناً نقضيها في البحار وبين ثلوج القطبين، وأحياناً نصعد ونتسلق الجبال، وأحياناً على السواحل نتعلم الغوص، وأحياناً في الصحاري على ظهور الجمال، لنا الحق في تكرار ذلك كل عامين.

مساكين أولئك الشباب الذين لا يعرفون من الإجازة سوى التسكع في ردهات الفنادق بصحبة الجوال، والجلوس لساعات في المقاهي أو الحانات، المدارس موجودة والدورات متوافرة ومؤسسات السياحة لديها البرامج النافعة، لكن البرمجة محصورة في اهتمامات معينة، نتركهم للفراغ والخواء، نلومهم ونحن المقصرون. تربيتنا غائبة تهتم بالكّم على حساب الكيف، ومدارسنا تتمسك بمناهج أسوأ مما كانت قبل خمسين عاماً، وفصول يتكدس فيها الطلبة كما تتكدس الأغنام في الشاحنة، ومدرسون يعتقدون بأن الطلبة عالة عليهم، وليسوا هم سبب وجودهم.

علينا أن نغير نظرتنا تجاه الحياة وفهمنا لها، فالتواكل مصيبة تغلغت في ثقافتنا، وروج لها من لا يفهم الدين على حقيقته، وكأن الرزق يأتي من التوكل فقط دون العمل، وأن الحصول عليه يأتي من الدعاء فقط، الدعاء بوصلة تشير لما هو مطلوب لكن العمل هو المركبة للوصول إلى الهدف.

لو توكلنا لرزقنا الله كما يرزق الطير، لكن هل سألنا أنفسنا كيف تحصل الطيور على أرزاقها؟ هي لا تحصل على قوتها من البقاء في أعشاشها، بل تغادرها كل صباح وتتعرض للمخاطر من قبل الطيور الكاسرة والصيادين، وتبذل الجهد وتعاني من التعب.

يروّج بعضهم للزهد بين الشباب وكأنه احتقار الدنيا وما بها، وهذا مغاير لطبيعة الإنسان وحبه للثروة والجاه، كان الأولى أن نعلم أبناءنا كيف يكون الزهد في المال الحرام وفي المحرمات والقناعات التي هي ضد الجشع الذي يحاول أخذ ما لدى الآخرين. هناك من يرى أن الأخذ بالأسباب غير مجدٍ، كم تحدّثت مع كسالى ومدخنين ومتهورين، لأخذ الحبيطة والحذر، فيأتيني جواب واحد: ليس لك إلا ما كتب الله لك. لكن أليس معظم ما نعيشه من صحّة ومرض، من غنى وفقر، من سعادة وشقاء، هو من صنع أنفسنا؟

تقول حكاية شعبية تتناقلها الشعوب بأساليب مختلفة: كان هناك راهب دائم التوكل على الله، وفي أحد الأيام داهمته السيول وهو في وادٍ، فليجأ إلى شجرة، مرّ عليه صاحب حصان وطلب منه الركوب والنجاة، فرفض وقال: لقد توكلت على الله وسينقذني. زادت الأمطار وارتفع منسوب المياه فصعد الشجرة، مرّ عليه سائق سيارة وطلب منه الصعود لها والنجاة فرفض. ارتفع منسوب الماء فتعلّق في أعلى الشجرة، مرّت عليه طائرة عمودية، طلب منه قائدها أن يصعد فأبى، أخيراً جرفته المياه ومات. قال الراهب لربه: توكلت عليك فلم تنقذني وأنت وعدتني بحمايتي إن توكلت. أجابه ربه: حاولت إنقاذك فرفضت، أرسلت لك دابة فرفضت وأرسلت لك سيارة فرفضت، وأرسلت لك طائرة عمودية فرفضت.

نحن بحاجة لثقافة مغايرة لما نحن فيه، ثقافة أساسها الفهم الصحيح للدين والاستنارة بالعقل، ولن يفلح في إقناع الناس سوى علماء دين متمكنين ومطلعين على الثقافات الأخرى، ولديهم القدرة على الاجتهاد واحترام العقل.

عن اختلاف ثقافة الشعوب يقول أديب خفيف الظل : إذا كان النمر موضوع اهتمامنا، فإن الألماني يقرأ عنه في مراجع علوم الحيوان، ليقدم عنه دراسة فلسفية. والفرنسي يتفرّج عليه في حديقة الحيوان، والإنجليزي يذهب إلى الغابة ليصيده، أما الأمريكي فيتاجر بما صاد الإنجليزي. وأزيد: أما العربي فيشتري ما يبيع الأمريكي، وقد ينظم في النمر قصيدة.

يقول جبران خليل جبران في إحدى رسائله إلى ماري هاسكل، التي دعمته وشجعتة، عن ثقافة الشعوب: «إن الطموح الجوهري للشرقي العظيم أن يكون نبياً، وطموح الروسي أن يكون قديساً، والألماني أن يكون فاتحاً، والفرنسي أن يكون فنانياً عظيماً، والإنجليزي أن يكون شاعراً كبيراً.

أثارت في هذه الزيارة تأملات وأشجاناً كثيرة وآمالاً يشوبها الإحباط، ونيراناً من العزيمة والطموح يحاصرهما الرماد ونقص الهواء النقي.

تذكّرت قصيدة أبي القاسم الشابي (إرادة الحياة) التي منها:

أبارك في الناس أهل الطموح ومن يستلذ ركوب الخطر
هو الكون حي يحب الحياة ويحتقر الميت مهما كبر
فلا الأفق يحضن ميت الطيور ولا النحل يلثم ميت الزهر
في طريق عودتنا من تلك الجنان في ولاية ويلز، مررنا على مركز تجنيد أفراد القوات الجوية. نفس الفكرة الموجودة في الكلية الجوية (كرانول). معظم وقتهم خارج الفصل، لديهم تمارين كثيرة، تعلمهم أهمية التعاون والاتصالات والقيادة والبحث عن حلول غير عادية. يعامل الجنود وصف الضباط كما يعامل الضباط بتقدير

واحترام . لدى أكثرهم شهادات جامعيّة أو في الطريق للحصول عليها . يقول مدير المعهد : هؤلاء هم العمود الفقري لما نعمل ، لولاهم لما طارت الطائرات ولما أبحرت السفن وتحركت الدبابات . هم المسؤولون عن الأمن والإمداد والتسليح ، وغيرها من الأعمال المساندة ، نحن مدينون لهم بالكثير من النجاح .

ليته يتاح لكل مسؤول أن يرى ويقارن ، بشرط أن يكون الرجل المناسب ، لعلّ عجلة التطوير تجتهد وتحزم أمرها وتسير بهذه الشعوب إلى عالم التقدم والرخاء .

لدى الغربيين ضرائب عالية ، تزداد مع زيادة الدخل ، ومقابل ما يؤخذ منهم ، تقدّم لهم خدمات متميّزة وخاصّة في التعليم والصحة المتاحة للجميع . يقول أحد المرافقين لنا من سفارة المملكة : منذ اليوم الأول لحمل زوجتي ربّوا كل الزيارات والعناية من دون مقابل ، وبعد الولادة ظلّوا يزورون الطفل وأمه يومياً ويقدمون لهما الحليب والعلاج والنصائح ، حتى تأكّدوا من أن كلّ شيء يسير على ما يرام . وما يقومون به لا يقارن بما تقوم به حكومات الدول الإسكندنافية ، التي تطبّق المساواة بشكل غريب . سألته :

– هل تأثروا بأحداث 11 سبتمبر؟

– بالطبع تأثروا وخاصة في المطارات وزاد التركيز على بعض الجاليات ، ومراقبة نشاطات المساجد والمدارس والجامعات . لكن النظام واضح لا يمكن تجاوزه . حرّية الأديان مكفولة بحكم القانون ، ولو تقدم مئة وستة وعشرون مسلماً أو غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى اليوم بطلب بيت عبادة ، فإن الحكومة ملزمة بتأمينه ودفع تكاليف الخدمات ورواتب القائمين عليه .

كلّ عمل طائش يصدر عن عقول برمجها الفكر المغلق، والسياسة البغيضة، والأدلجة المتمترسة خلف دين هو منها براء، ينتج أعمالاً لا تمت لمصلحة الأمة أو الدين بصلة.

كيف سيكون وضع المسلمين لو جند هؤلاء الشباب لمقارعة شباب العالم المتقدم في ميادين العلم ومكتشفاته، والرياضة، والفنون. لكن دقة السفينة كانت بقيادة مجتهدين، بنوا اجتهادهم على أسوأ ما في العصور الماضية، وطوعوا بعض النصوص لتخدم مشاريعهم، فتحوّلت خططهم إلى تهوّر عصف بهم وبالعالم.

لا يمكن أن تفسّر النصوص بعيداً عن سياقاتها التي نزلت بسببها، وبعيداً عن العقل في ترجيح صحّة تفسيراتها. لو حلّ الحب محلّ الكره، والتسامح بدل الغلو، واستشير العقل في تفاسير النقل، لحلّت كثير من تفاسير الآيات والأحاديث محلّ أخرى.

سيكون ذلك ولكن بعد أن يستنفد قاداتهم كلّ ذخائرهم، ويعرفون أنهم يسبحون ضدّ التيار، ويحاربون طواحين الهواء، وأنهم سيئون لدينهم أكثر مما يحسنون، سيكون عندما يكون همّ كلّ حاكم عربي ومسلم رقي وسعادة شعبه ومحاربة الجريمة والفساد، سيكون عندما تصبح المدارس واحات يتعلّم بها أبناؤنا وبناتنا كيف يحيلون الألم إلى أمل، والكره إلى حب، وكيف يطرحون الأسئلة دون خوف ويرفعون أصواتهم بالأجوبة دون وجل، سيكون عندما تركض الصغيرة إلى الحديقة وتقطف منها وردة تهديها لوالديها.

سيكون عندما نعلّم أبناءنا كيف يكون السلوك الحضاري في كلّ مكان ولكلّ مخلوقات الله.

أماننا طريق طويل وشاق، لو كان قصيراً وسهلاً لعرفه الجميع واتخذوه مسلكاً وطريقاً. لن ينجلي ليل الجهل بالأمانى، ولن تشرق الشمس لمجرد أننا نطلب منها ذلك.

كثيرون يعتقدون بأنه لولا فلان لما كان الإرهاب، ولم يعلموا أنه محصلة قرون من الجهل والظلام وتغييب العقل، وما جرّه استعمار الإنسان وقهره لأخيه الإنسان، قرون الانحطاط مسؤولة، والاستعمار مسؤول لظلمه وقهره للشعوب، ما بني على إرث من مئات السنين بحاجة لجهد متواصل طويل لعلاج تناقضاته، حتى لا تكون الولادة قيصرية تهدد حياة الأم والجنين.

عدت إلى مقرّ عملي وقد ازددت تصميماً على مواصلة التغيير، قلت لعموم الضباط: أولوياتنا أن نقضي على السلبيات ونعزز الإيجابيات، التفرقة على أي أساس غير مقبولة طالما أننا تحت مظلة كبيرة هي الوطن. والألفاظ النابية يجب أن يحاسب قائلها بصرف النظر عن رتبته سواء أكان طالباً أم ضابطاً، والجزاء البدنية يجب أن تكون من الماضي، هناك جزاءات بديلة مفيدة فكروا فيها، قلت لهم: جربوا ولا تستعجلوا النتائج.

علينا أن نعلّم الطلبة فن القيادة بشتى الطرق الايجابية، بالرياضة وبالعسكرية وبالتمارين الجماعية، وإنشاء الأندية التي يقوم عليها الطلبة.

بعد عدة أشهر أنشئ أول ناديين هما: نادي الغوص، ونادي أصدقاء البيئة.

قبل المغيب

عشت معظم نهارك سعيداً، أمضيت صباحه الجميل طالباً، وضحاها طياراً، تفرد أجنحتك للهواء لاهياً مستمتعاً، وهاجرته ورواحه قائداً ومسؤولاً. والآن وقد صار الوقت عصراً، ألا تحب أن تستمتع بالأصيل الجميل قبل المغيب؟ بالأمس كنت تعمل ما يريد الآخرون، وتكتب في مطبوعاتهم على استحياء، وتمشي في مسارات يرسمها الآخرون. ألا ترى أنه حان وقت الترجل، وترك الفرصة لغيرك؟

لن يكون لك خيارٌ، فلو كان الخيار لك، لأمضيت ما بقي من هذا المساء سائراً في نفس الطريق.

عدت من رحلة خارجية بصحبة العائلة، ليستقبلني كالعادة، سائقي الأمين. لم يكن ضاحكاً كعادته في كل لقاء، لم أر أسنانه البيض ترحب بي كما كانت تفعل عند كل استقبال، حتى سنّ الذهب الجميل لم يكن يلمع كما كان مع كل ابتسامة، سألته عن الأمور رد باقتضاب:

- لا جديد.

- هل كل شيء على ما يرام؟

- الحمد لله.

- كيف والدك المريض؟

– بخير والحمد لله .

– كيف الكلية هذه الأيام؟

– مليئة بالشائعات، الكلّ يتحدث عن تقاعدات كثيرة، لم أعرها أي اهتمام، لولا ورود اسمك ضمن هذه الشائعات .

– لكنني سعيد أن يتخذوا هذا القرار، ويعفوني من عناء اتخاذه في يوم من الأيام .

– لكنني لا أريدك أن تذهب الآن، لا تزال في قمة عطائك وكلّ شيء في الكلية يسير على ما يرام .

– هذا هو أنسب وقت للترجل والخروج من الميدان .

في الحياة ميادين كثيرة، ومجالات واسعة للعمل ومساعدة الآخرين . وفيها متع وهوايات عديدة لم يسمح الوقت بممارستها، ولديّ كنز من التجارب لعلّي أدونها، وقلم كاد يجف من الصمت، وبيت دافئ يضم والدّة مريضة، وزوجة تنتظر ترجلي، لتترجل من عملها وتفرّغ لتعمل ما تحب . أشكرك على هذا الخبر، وإن كنت أتمنى سماعه أولاً من قائد القوات أو نائبه .

الجميل فيه أنه سيكون بعد خمسة أشهر، مما يتيح لي بعض الوقت لأكمل ما أستطيع أن أكمل، وأبدأ ما آمل بأن يكمله من يأتي بعدي، وعلى الأقلّ أنه يما بقي من إجازتي دون إرباك .

مضى من إجازتي أسبوعان وبقي أسبوعان، الجو شتاء، وصديقي السفير علي الحمدان يستحثني على المجيء عنده في كازاخستان، لم يسبق لي أن سافرت إلى دول الاتحاد السوفياتي السابق . هذه فرصة لن أفوتها .

نمت تلك الليلة في دبي وأنا في طريقي إلى هناك. لأول مرة أحس بأني حرٌّ في أسفاري وتقلاتي.

أقلعت إلى كازاخستان، بجانب مهندس أمريكي عاد لتوّه من العراق سيلتحق بزوجه التي تعرّف إليها عبر إعلان في الانترنت، اختارها من كازاخستان.

من بعيد تلوح العاصمة (ألما - آتا Alma - ata) تحيطها الجبال التي تغطيها الثلوج، تأكدت أنني أخذت ما يكفي من الملابس لأتقي الشتاء، تنزل الثلوج هنا كما ينتشر الغبار هناك، مع الثلوج تتوافر المياه والخضرة ومع الغبار يتوافر الربو والزكام.

ترك (الاتحاد السوفياتي) بنية تحتية قوية، ولولا الفساد وسباق التسلّح وغياب الحريات، لبقى نداءً للقطب الثاني (الولايات المتحدة الأمريكية) إلى أن يشاء الله. الفساد من أهم عوامل هدم الأمم، ألم يقل ذلك ابن خلدون قبل ألف عام: (الفساد مؤذن بخراب البلدان).

سألني مضيبي:

- ماذا تريد أن تمارس من الهوايات؟

- كلّ شيء إلاّ صيد الطيور والغزلان.

ذهبنا إلى الجبال حيث الأنهار تزاحمها الثلوج، والأشجار تتوشح بالبياض، توجد كثير من أماكن التزلج على الجليد، لكنني أجد الركض في الصحراء، والمشي والنوم فوق الرمال.

رتب لي صديقي السفير رحلة إلى منتجع في أعالي الجبال، تابع لرئاسة الجمهورية، المكان مغطى بالثلوج والنهر يجد صعوبة في تلمس طريقه بين الثلوج.

خلعنا ملابسنا ودخلنا غرفة (السونا) ومعنا بعض القائمين على المنتجع، بقينا فيها مدة عشر دقائق، ثم خرجنا شبه عراة إلى النهر واستحممنا به مدة ثلاث دقائق، نمنا على الثلج ووضعناه على ظهورنا، صببنا ماء النهر على رؤوسنا، ثم عدنا لنفس الغرفة. كررنا ذلك سبع مرات، بين الحرارة الشديدة والتجمد، ظننت أننا سنمرض أو على الأقل نصاب بالزكام. لم يحصل لنا شيء من ذلك، بل نشاط وحيوية.

ميزة هذا السفير علاقاته المتعددة وصدقاته مع كلِّ مسؤول، ومع زملائه السفراء، وهذا ما سهّل المهمة وأثرى الزيارة بأنشطة ومعلومات كثيرة، من أراد أن ينجح في عمله، فعليه إقامة علاقات مع أصحاب القرار والزملاء، (معرفة الرجال تجارة) مثل يوزن بالذهب.

نساء كازاخستان جميلات يجمعن بين جمال الشرق والغرب، يتمتعن ببشرة صافية، وقوام ممشوق لم تبين عليه الشحوم بنيانها. قلت لصديقي السفير: أريد أن أرى ولو واحدة لديها زيادة في الوزن. أخذني للسوق الشعبي وأوقفني على دكان جزارة للحم الخيول، وأشار إلى امرأة ضخمة أقوى من الرجال تعمل في الجزارة، شكرته وقلت: أفضل أن أرى الغزلان.

* * *

عدت إلى الكلية، ولأول مرة أحسّ بأني ضيف سيرحل عن قريب. نظرت إلى الصور المعلقة في المدخل، صور القادة السابقين. كأنني أراها تحدّق بي لأول مرّة، وأسمعها تناديني لأصطفّ بجانبها، وتحت الصورة يكتب: البداية والنهاية. بين عامي 2002 - 2006). هكذا الحياة.

طلبت من مدير مكتبي أشياء كثيرة للعمل، وطلبت لنفسي شيئين: دورة في الحاسب الآلي لأتمكن من الطباعة لنفسي، لن يكون هناك مدير مكتب يتولى الطباعة، ونموذج عضو فعال في جمعية إنسان للأيتام.

كلّ شيء يجب أن يستمرّ كما كان بل بوتيرة أسرع، رياضة الصباح والطيّران واللقاءات ولجان التطوير.

طالما نحن في موسم الربيع فلا بد من يوم الطالب مع المرح والذكريات، يوم كامل في متنزه كبير، يدعى له عموم الطلبة والضباط والمدرسين وبعض الأفراد، شاركهم قائد القوات في بعض الفقرات، أما أنا فأشارك منذ الصباح.

لديّ رصيد كثير من الإجازات، اقترح عليّ بعضهم أن آخذها قبل التقاعد، خاصة أنني عرفت مواعده قبل خمسة أشهر، رفضت هذه الفكرة، قلت: لن أعملها لشيئين: حبي للكلية، وتقديري لمن أعطاني فرصة إشعاري بالتقاعد قبل خمسة أشهر.

بدأت التحضيرات للتكريم. سيكون في حفل النشاط الثقافي، وبحضور عموم الطلبة والضباط والمدرسين وعلى شرف قائد القوات. لن أستطيع دعوة كلّ زملائي وأصدقائي، لكن لا بأس من دعوة نماذج تمثل البقية. اجتهد المكلفون وقاموا بدعوة بعض الأسماء تمنيت لو دعوا كلّ أصدقائي وزملائي.

كان حفلاً مؤثراً ومعداً بكلّ احتراف، تأثر الجميع للوداع، وخاصة عندما بدأ شاعر الكلية المبدع فهد السهلي يلقي قصيدة الوداع، فضحت آلة التصوير من حاول أن يخفي دموعه ويمسحها بين الحين والآخر بطرف شماغه.

عرضوا فيلماً عن حياتي وكان وراءه الضابط المبدع صالح بن طالب، المسؤول عن الحفل. الذي رافقني في أكثر من محطة من محطات عملي، رغم إصراري أن تكون الهدايا جماعية لا شخصية فقد تعدى عددها الثلاثين، أحبها إلى قلبي ما قدّمه الطلبة القريبون إلى قلبي دائماً. طلبوا مني الحديث، أخرجت ورقة صغيرة فيها أهم الملاحظات وتحديث حوالي عشر دقائق قلت من ضمنها:

لم أتصوّر هذا الوداع أو أحلم به، لكنني أتمنى مثله لكلّ مخلص لهذا الوطن.

كم مرّة سرت القشعريرة إلى كلّ زوايا جسمي وأنا أستمع إلى كلماتكم، فشكراً لكم على هذا التكريم، ما عملته ليس سوى قطرة من بحر حب غمرنا به هذا الوطن العظيم. ما أحوج هذا الوطن إلى كلّ جهود المخلصين من أبنائه، للنهوض به وللحاق بركب الناجحين! يقول الرئيس الأمريكي (جون كنيدي): (لا تسأل ماذا سيقدم لك الوطن، اسأل ماذا يمكن أن تقدم للوطن) توجّهت إلى الطلبة وقلت:

أحببتكم فأحببتموني وأخلصت لكم فلم تخيبوا ظني، حققتهم الكثير لكنّ طريق النجاح ليس له حدود، وعزم الشباب لا يعرف المستحيل، تذكّروا ما كررته عليكم ولن أملّ من تكراره صباح مساء، لنلحق بالركب علينا أن نملك أدواته: عقول متفتحة، ونهم للمعرفة، وبناء للعقول والعواطف والأجسام. لن أقول لكم ما لم أطبّقه شخصياً واستفدت منه. أحببت القراءة فكانت غذاء، ومارست الرياضة فكانت رجاء، وتجنّبت المحرمات فكانت خير دواء، رسمت الأهداف فشجّعتني على مزيد من العطاء.

وأقدم شكري لهذا الوطن الذي أظّلنا وكفانا الحاجة للآخرين، وصرنا نفخر به أمام الأمم، وللقوات الجوية كل شكر وتقدير، فيها تعلّمت ومنحتني أعظم ما كنت أحلم به في حياتي: شرف قيادة الرجال وتمعن قيادة المقاتلات.

كلّما حققت شيئاً تذكّرت مقولة العالم إسحاق نيوتن: (إذا كنت أرى بعيداً، فذلك لأنني أقف على أكتاف العظماء). لذا أشكر كلّ من أسهم بدعمي وتعليمي منذ كنت طالباً.

من ضمن ما قلت: أترك القوات الجوية بعد خمسة وثلاثين عاماً وحالتي الصحيّة ممتازة وبحسب آخر كشف طبي يخولني قيادة المقاتلات. قال لي صديق مخلص خلال الغداء:

بودي لو لم تقل ما قلت عن صحّتك. أخشى عليك من العين.

- لكنني لم أخف العين في حياتي ولم أصب بها. دائماً يتلى بها من يخاف منها لأنه يعزو كلّ ما يصيبه للعين، هناك من يعلّق كلّ أمراضه وإخفاقاته على العين والسحر، وتشغل حيّزاً كبيراً من أحاديثه ويورث هذا الخوف لأبنائه، منذ شربت غسيل تلك الطاقية، صار لدي مناعة ضد العين والسحر، الجهل بحقائق الأمور يعزوها للغيبات دائماً، هناك من يجعل من مصائب الناس تجارة. ومن تجهيلهم شطارة.

ألقيت قصيدة من نظمي، نشرت في ما بعد في مجلة الصقور.

* * *

كان لديّ إجازة شهر مجدولة منذ أول العام، وقررت قضاءها وأسرتي عند ولدي نايف الذي يحضّر لشهادة الدكتوراه في المدينة

الجميلة (ساوثهامبتون) في جنوب بريطانيا، سجّلت البنات والولد في دورة باللغة الانجليزية.

أي جمال في هذه المدينة؟! سرّ هذا الجمال في حدائقها التي تغطّي مساحات كبيرة من وسط المدينة. تعجّ المدينة بالمعاهد والكليات، إضافة إلى جامعتها المشهورة المسماة باسمها. تحت ظلال الأشجار يتجمّع الطلبة والطالبات بعضهم مع مدرّسيهم، وبعضهم الآخر يستريحون من عناء الدراسة، كثير من المواطنين يمارسون المشي والجري في مكان خصص للمشاة والدراجات الهوائية.

على مقربة من المدينة تنام (الغابة الجديدة New forest) تغطّي مساحة 360 كم²، وتمتد من وسط انجلترا لجنوبها، قضينا فيها يوماً من أجمل الأيام، أشجار تقف منذ مئات السنين شاهدة على عظمة وبعد نظر من حموها من العبث والزحف العمراني.

استغربت كيف لا يفكر كلّ أمير، وكلّ محافظ، وكلّ رئيس مركز، في إيجاد متنزهات عاقمة، بتحويل بعض المناطق المجاورة لهذه المدن إلى رثة تكون متنفساً للساكنين. المطلوب أن تزرع بها بعض الأشجار الصحراوية التي لا تحتاج إلى الكثير من الماء، وأن يمنع الرعي، الذي يخفي معالمها، والجشع الذي يحولها إلى ممتلكات خاصة.

من أراد أن يعرف كيف تنمو الأشجار إذا حُميت من الرعي والاحتطاب، فما عليه سوى زيارة وادي الغاط الذي تحوّل خلال خمس سنوات إلى غابات من الطلح والسدر والسلم، كلّها كانت بجهود محلية من محافظها ومديرية الزراعة والبلدية وبعض عاشقي

البيئة هناك . رؤية ذلك الوادي تملأك بالأمل الذي يحلّق بك فوق جباله ، ويؤكد لك أن لدينا بلداً جميلاً ، وأن كلّ ما نحتاجه هو وضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، وبعدها سيفخر الأبناء والأحفاد بما صنع وزرع آباؤهم .

كان منظرأ يدعو للفرح العارم الذي أعياه التعبير فاستعان بالدموع ، عندما رأيت طلبة مدارس الغاط منتشرين على سفوح الجبال ، في يوم خصص لنظافة البيئة ، يجمعون مخلفات غيرهم بأيديهم الصغيرة . كان درساً لن يستوعبه الصغير داخل الفصل ولو ظلّ يتعلمه ويردده سنين وسنين . نحتاج لمزيد من الدروس العمليّة لنقول لهم : إنه لن يقف إلى جانبهم ضد التلوّث سوى الشجر ، ولن يسعدهم في صحاريهم وأوديتها مثل خضرتها ، ومرأى طيورها آمنة مطمئنة .

عدت من إجازتي وقد بقي يومان قبل التقاعد . بدأت يومي كالمعتاد بالرياضة والجولة على مرافق الكلية وتجميع ما بقي لي من أوراق وتوديع من لم أودع ، زيارة القيادة والوزارة وتوديع المسؤولين ، ودّعت سمو مساعد وزير الدفاع وسلّمته جملة من الاقتراحات ، خاصة ما له علاقة بالقبول في الكليات العسكريّة ، ورأيي في موقع الكلية مستقبلاً ، وقبول الجامعيين وتأهيلهم .

آخر عمل قمت به ، أحب وأقرب شيء إلى نفسي ، لقاء الطلبة وتوديعهم . اتّصلت بقائد جناح الطلبة وحددت الساعة السابعة مساءً من آخر يوم ، ليكون اللقاء بالطلبة آخر عمل لي بالكلية .

قلت لهم : لن أعيد ما قلت لكم على مدى سنوات ، فقد استوعبتموه ، لكن لي رجاء واحد : أن تنقلوه لمن بعدكم ، وأن

تجعلوه جزءاً من ثقافتكم، وممارساتكم اليومية، ما قلته لكم سابقاً من تأصيل قيم كالاحترام والاستقامة ليست للكلية فقط بل لأسرکم الصغيرة والمجتمع. لن يتخلى المجتمع عن عادات سيئة، إلا إذا رأى أحسن منها، عليكم نشر هذه القيم والعادات بدلاً من عادات تشدنا للوراء، وجودكم في الكلية يعني أنكم قدوة لغيركم من الأصدقاء والأقارب.

إمساك أحدكم بسيجارة في يده، هو أعظم دعاية لتلك الشركات (بائعات السموم)، لو دفعت تلك الشركات ملايين الدولارات للدعاية لمنتجاتها بين الشباب، لما حققوا نفس النجاح. عودتكم لتلك الصفات الذميمة، من عنصريّة وألفاظ نابية ومبالغة في الجزاءات، تعني ذهاب كل ما زرعناه وسقيناها معاً خلال السنوات الماضية. بصرف النظر عمّن يأتي بعدي، أنتم المؤمنون على زملائكم.

كلّ واحد منكم سيصبح قائداً ورب أسرة إن شاء الله، ما عملناه معاً يصلح لجميع مشاريعكم المستقبلية، وضع الرؤية والرسالة ورسم الأهداف، تصلح على كل المستويات، تذكروا أن أقوى وأمضى سلاح لهذا العصر وكلّ عصر هو العلم. وأترككم مع قول الأستاذ عبد العزيز الأهواني: «طريق العلم شاق حتى في الدراسات الأدبية والجمالية، وأنه ليجتاج إلى أدوات كثيرة لا بد من إتقانها والصبر عليها. وقديماً قالوا: لا يعطيك العلم بعضه إلا إذا أعطيته كلّك. ويضيف: إن العلم يعطي البهجة والمتعة، لكن ذلك لا يتحقق إلا لمن شغلته مشكلات المادة العلمية، واستغرقت وسيطرت على حواسه، وليس في العلم جاف ورطب ولا حلو

ومرّ، وإنما هو الإخلاص الذي يجعل الجاف ندياً والمرّ حلواً».

سوف أترجل عن حصاني هذه الليلة وأتركه في عهدتكم، وفي عهدة القيادة. سأكون قريباً منكم إن شاء الله، أطلّ عليكم بين الحين والآخر من خلال مطبوعات القوات الجوية، وقد يتاح لكم معرفتي أكثر من خلال كتاب، طالما كان حلماً، ولعلّ التقاعد يعجّل في ولادته.

ترجّلت من المنصّة وحييتهم وأنا أغادر القاعة، واستمرّ التصفيق حتى خروجي، ركبت السيارة وعند البوابة ودعت الحارس الذي طالما استقبلني، شدّ على يدي، قال لي الحارس: (الله يحفظك ويستر عليك). وصلت البيت، علّقت ملابس العسكرية برتبتها وجناحها ونياشينها، ومعها ودّعت فترة من أجمل فترات حياتي.

استمرّت الزيارات من قبل منسوبي الكلية إلى بيتي. من أعزها زيارة ذلك الجندي الذي يقسم بالله أنه يدعو لي بكلّ صلاة، وأنه دعا لي أمام الكعبة ثلاث مرات، وفي آخر زيارة له بشرني أنه حصل على شهادة المرحلة الثانوية، وعزا نجاحه لما لقيه من تشجيع، أهديت له جهاز حاسب محمولاً كهديّة نجاح، وطلبت منه أن يتعلّم لغة الحاسب، لغة العصر ومفتاح الدخول إلى أسراره.

استمتعت بزيارة أعضاء هيئة التدريس وإصرارهم على تكريمي بحفل خاص في منزل أحدهم، قدّموا خلالها هديّة رمزيّة عليها تواقيعهم. وكتبوا عليها: «إذا كان الناس شهود الله في أرضه كما قال قدوتنا وحبينا ﷺ، فإننا نشهد والله سبحانه خير الشاهدين أنك لم تأل جهداً، ولم تدخر وسعاً، ولم تضنّ براحة أو وقت في سبيل تطوير وتحديث كليّة الملك فيصل الجوية منذ توليك قيادتها، حيث

كانت هاجسك الدائم وشغلك الشاغل، حتى أصبحت فخراً واعتزازاً للوطن بأسره، فجزاك الله خير الجزاء على أياديك البيض على الكلية، والذكر الحسن الذي خلفته، والمعاملة الإنسانية الراقية التي يذكرها ويشكرها لك كافة منسوبي الكلية.

وَفِيَتْ وَأَدَبَتْ الأمانة فانتظر جزاءك من رب عليك رقيب
وضعوها في لوحة جميلة وسلّموها لي ووضعوا صورتين، يوم كنت طالباً في الكلية، ويوم صرت قائداً لها. كانت من أجمل الهدايا، لأنها من شريحة غالية وممن يعقد عليهم العزم للنهوض بالأمة وتحريك المياه الراكدة حتى صارت آسنة. لا يجدد شباب الأمة سوى حراك جامعاتها العلمي والثقافي، ونتاج عقول أساتذتها.

تكريم خاص

اتصل بي معالي الأمير سعد الناصر السديري، ليبلغني أنني سأكرم في الحفل الكبير الذي يقام سنوياً في الغاط بعد عيد الفطر مباشرة. هذا الحفل تقام أثناءه بعض الفعاليات التي تدخل البهجة إلى قلوب المواطنين، وتبقي التراث الشعبي حياً ويستعينون في تلك الأمسية بفرق من بعض مناطق المملكة.

طلبوا مني السيرة الذاتية، وطلبت منهم خمس دقائق بعد التكريم للحديث، وكان من ضمن ما قلت:

هذا التكريم من رجال كرام، في بلدي وبين أهلي، ما هو سوى نفحة من الشهامة ولفتة كريمة من راعي هذا المهرجان معالي الأمير سعد الناصر السديري وإخوانه وأبنائه.

أن يكرم الإنسان في مقرّ عمله فشيء متعارف عليه، لكن أن يكرم في مسقط رأسه فهذا منتهى الوفاء.

جميل أن يكون التكريم في بلدة شهد ترابها أولى خطواتي، وروى ماؤها عطشي، وحنّت عليّ جبالها وأوديتها. علّمتني رمضاؤها الصبر، وظلّها السكينة، سامرتني نجومها في ليالي الصيف، وأسعدتني سحبها وأمطارها في الشتاء.

محظوظون يا ساكني هذه البلدة التي تنام هانئة، تمسّط شعرها الجبال وتمسّد أقدامها الرمال، وتشدّ وسطها غابات النخيل.

سافرت كثيراً، فما وقفت على قمة جبل إلا تذكّرت جبالها، ولا جلست في ظلّ شجرة إلا تذكّرت أشجارها، ولا فتشت جيوبي إلا وجدت بها شيئاً من ترابها.

شيء واحد أرجوه من محافظها ومهندسها الأستاذ عبدالله الناصر السديري: أن يزيد الخضرة في أوديتها ورياضها، حتى يعود لها الأمل وطيور الحجل، وتعود الأرناب والغزلان، ومعها يعود الأحبة، يستمتعون بجمال الطبيعة ويكرمها وحنوها.

بعد أسبوع جاءني اتصال: سمو الأمير سلمان يريد مقابلتك. شكراً على هذه اللفتة من سمو الأمير.

رتّب اللقاء وتمّ في جوّ ودّي، خصص له وقت كاف تخلله الكثير من المعلومات التي تدل على إحاطة الأمير بالكثير من المعلومات عن الأسر في المنطقة، كما قدّمت لسموه بعض المقترحات عن وسط الرياض وكيف يمكن إعادة تأهيلها.

يوم مختلف

أول ليلة بعد التقاعد، نمت ونام معي شعور غريب، لأول مرة أحيل هاتفي المحمول إلى جهاز صامت، وأطلب منه عدم إزعاجي. كم مرة أيقظوني أثناء الليل وفي ساعات متأخرة وخاصة حينما كنت قائداً للقاعدة، كان كلّ اتصال يأتي في وقت متأخر يعني مفاجأة غير سارة، أما الأخبار السارة فتأتي في وقتها المناسب.

حاولت أن أجاري من في البيت وأسهر معهم، لكنني لم أستطع ولم أرغب، تذكرت ما ينتظرنني في الصباح من روحانية ومتع وهدوء.

لم يأت السائق ليأخذني للعمل، ودعته بالأمس ومعه أعدت سيارة العمل لتسلم للقائد الجديد، كان من عادتي أن أذهب مبكراً للعمل لسببين: الأول أن أهرب من زحام الشوارع وانتظار إشارات المرور، الثاني أن معظم نشاطات الكلية التي أشارك فيها، تكون في الصباح الباكر.

بعد التقاعد فقدت أموراً كثيرة، لكنها لا تساوي شيئاً أمام امتلاك الحرية. فقدت ذلك العدد من المكلفين بخدمتي بدءاً بعامل القهوة الذي مضى على وجوده في الكلية ثلاثون عاماً، وعاصر كلّ قاداتها السابقين، ثم موظفي الإدارة المكلفين بالأعمال الإدارية، وتلبية ما أحججه من داخل الكلية أو من خارجها.

أثناء الخدمة العسكرية لم أكلف نفسي عناء تعلّم الطباعة، بل أكتفي بكتابة ما أريد بقلم رصاص ثم أسلمه لمدير المكتب الذي يطلعي على المسودة الأولى، وعادة تكون مليئة بالأخطاء. الاتقان من المرّة الأولى فنّ لا نتقنه، لا قيمة للوقت ولا المواد الكثيرة التي ت تلف، وخاصة في القطاع العام.

بعد التقاعد صار الحاسب المحمول معي في كلّ مكان، صار وقت الكتابة يمتد من الصباح حتى الظهر، لكن جسمي لم يعتد على هذا النمط من الحياة. أول شكوى كانت من الألم في يدي اليمنى، كان في البداية ألماً بسيطاً يزورني أياماً ثم يزول، لكنه تحول مع الوقت إلى أوجاع مبرحة لا تدعني أرتاح وخاصة وقت النوم. كثرت الآراء حول السبب، وتطوع الكثيرون لوصف العلاج، لكنني تعلّمت الدرس هذه المرّة، ذهبت إلى المستشفى مبتدئاً بالطبيب العام، شرحت له كلّ شيء بدءاً بما طرأ على حياتي من تغييرات، أخبرته عن برنامجي اليومي، أحالني الطبيب إلى متخصص في آلام العمود الفقري ومنه إلى متخصص في العلاج الطبيعي، كانت المشكلة تتلخص في الوضع الخاطيء للجلوس لساعات دون القيام والتحرك كلّ ساعة على الأقل. قال لي الطبيب الاختصاصي: مشكلتك في فقرات الرقبة، والعلاج يتلخص في ثلاثة أمور: الجلوس والوقوف والمشي بشكل صحيح، وممارسة الرياضة وخاصة السباحة، والعلاج الطبيعي لإصلاح الخلل. تم كل شيء على ما يرام وانتهت المعاناة.

ليس الجسم فقط هو الذي يحتاج إلى العناية والإصلاح، بعد التقاعد عدت إلى سيارتي المرسيديس التي مضى على شرائها خمسة

عشر عاماً. في الطريق من المزرعة إلى الرياض توقفت بحركة ذكية منها لتقول لي: ما هكذا تصان السيارات. حملتها فوق ناقلة سيارات وركبت مع السائق الذي اعتذر عن عدم وجود تكييف رغم حرارة شهر أغسطس وفي منتصف النهار.

أخذتها إلى ورشة إصلاح في حيّ (أم الحمام) اقترحها صاحب الناقلة، كان صاحبها من اليمن وتعهد بإصلاحها وبأقلّ التكاليف.

قلت لابن عمي عبد اللطيف حاضر النكتة وسريع البديهة:

– أرى الأخوة اليمنيين قد عادوا إلى العمل في المملكة.

– لقد عادوا منذ مدة طويلة، لكنك أنت الذي عدت للتو إلى

حياة الناس بما فيها من جهد وتعب ومعاناة.

أكثر من رحّب بوجودي في المنزل حفيدتي التي صارت تجد من يتحدث لغتها ويلبي طلباتها ويرقّ عنها، تناديني باسمي الأول وبلغة محببة إليّ وتناديني يا (عبالله). قبل أشهر كان الجميع من عسكريين ومدنيين يحرصون على مناداتي بالقائد أو اللواء.

كانت الصغيرة تصر على أن آخذها لأعلمها السباحة، في السابق كنت أحرص على أن يتعلّم جميع الطلبة السباحة قبل التخرج من الكلية لأهميتها لهم مستقبلاً، أما اليوم فمهمتي تعليم طفلة لم تتجاوز الثلاث سنوات.

أمضيت في الجو آلاف الساعات أكثرها طياراً وقليل منها راكباً، وأمضيت آلاف الساعات في ميادين التدريب وغرف الاجتماعات، تعلّمت خلالها الشيء الكثير وخاصة مما أصبت من نجاحات وما واجهته من إخفاقات، فهل وَفّيت للوطن فأعدت له بعض ما عليّ من دين ووفاء؟ أم لا يزال أمامي مجال لمزيد من العطاء؟

أول دين عليّ وعلى أمثالي الذين عاصروا تحولات كثيرة ومتسارعة لهذا المجتمع، وخاضوا تجارب غنيّة، هو تدوين هذه التجارب حتى تكون شاهداً على عصر مضى وتجارب كلّفت الكثير. وها أنذا على وشك أن أنهي الكتاب.

حاولت جاهداً أن أفتح نوافذ للحياة، حاولت أن أقول في هذا الكتاب: إن الوقاية أسهل كثيراً من العلاج، دوّنت سرّاً بقائي شاباً لا أشكو من أمراض العصر وضغوطه، أتمتع بالحيوية والنشاط مع كلّ هذه السنوات.

تذكّرت جيداً حديثاً دوّنته السيدة (هلاري كلينتون) في كتابها (تاريخ عشته) بين شيخ جاوز الخامسة والتسعين لا يشكو من زحف السنين، وابتها التي لم تبلغ العشرين عاماً، قال لها الشيخ: أتدرين سرّ الصحة والحيوية والنشاط؟ إنها الرياضة ثم الرياضة ثم الرياضة. أما عن الأكل فقال ذلك المسنّ: آكل في اليوم ست مرات لكن في كلّ مرة آكل في حجم البيضة فقط، تذكري حجم البيضة فقط، وأكثر من الفواكه والخضروات.

فتحت القراءة لي نوافذ كثيرة، أطللت من خلالها على العالم وعلى مختلف الآراء والأفكار. علمت يقيناً أن العالم سيظل في صراع بعدة أوجه وأشكال. سيكون هناك صراع مبعثه العقائد والأديان، وأهم أسبابه التعصب ومحاولة التفرد والإقصاء. نسي الناس أنه لو شاء الله لجعل كلّ من على هذا الكوكب على دين واحد، ومذهب واحد، ولغة واحدة تُقرأ من خلالها كل الأدلة والنصوص، لكنها الحكمة التي لا نحيط بكنهها، والحياة التي لا نعرف كلّ أسرارها.

علمت يقيناً أن العالم سيظل في صراع على مصادر القوة وشرابيين الاقتصاد، حتى الأبناء يتصارعون على ثروات تركها الآباء، وكلما زادت الثروة زاد التباعد واحتدم الصراع.

عشت واحدة من أسوأ فترات الإرهاب، وأعلم يقيناً أن الإرهاب ليس سوى رأس الجليد الطافي، أما بقية الجبل المظهور فمكوناته الفقر والجهل والمرض والفساد والانفجار السكاني والغلاء. سيظل العالم العربي والإسلامي يتخبط في مستنقع العالم الثالث مهما تكدست عنده الثروات، ولن يقفز به إلى مصاف العالم الأول سوى تعليم يفتح العقول وعلم يفجر الطاقات، وحرية يستنشقهها الناس كالهواء، ورقابة صارمة تكشف الفساد من أي مصدر كان، وقضاء نزيه يعطي كل ذي حق حقه دون تأخير، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب مع ما يحتاجه من صلاحيات.

أؤمن بأن الاقتصاد القوي أهم من السلاح، بل هو أمضى وأضمن سلاح وأهم ممول لكلّ شرابيين الحياة، لكن الاقتصاد القوي بحاجة إلى كلّ ما سبق ذكره مع التركيز على جودة الإنتاج.

ليس كلّ ما لدى الآخرين يصلح لنا، لكن الحكمة ضالّة المؤمن، فلا بأس من دراسة أسباب النجاح والأخذ بها قبل فوات الأوان. لن يصل المسافر إلى هدفه إلا بثلاث: معرفة الطريق، واتجاه صحيح، ووسيلة نقل مناسبة. لن نصل إلى المكان المناسب ونحن ممسكون بخارطة لم تُحدّث منذ زمان، وبوصلة لا تؤشر للاتجاه الصحيح، ومركبة ينقصها الكثير من المستلزمات.

مضى أكثر من عامين على تركي القوات المسلحة، لكن الوقت

لم يزدني إلا حبا وتعلقاً بهذه المؤسسة العظيمة. حبا منبعه حب الوطن وأهله، بعيداً عن التحزب والعنصرية على أي أساس. والوطن الذي يحس فيه الجميع بأنهم أسرة واحدة، لا تفرقة بينهم إلا بقدر ما يبذل كل مواطن من جهد وعطاء.

كُتبت هذه الخواطر وكأنني أمتح من بئر مليئة بالذكريات، لكنني وبعد أن أخرجتها وسطرتها على الصفحات، أحسست وكأنها قطرات قليلة ضاعت في نهر عظيم نبتت على ضفافه الحياة.

كم تمنيت لو أهدمت في أذن كل أم وأب صباح مساء، لأذكرهم بعظم المسؤولية تجاه أبنائهم وحسن الجزاء إن هم أحسنوا الأداء. بودي أن أثبت لهم كيف يصنع الحب والرعاية المعجزات، وكيف أن تنمية العادات الجميلة كالقراءة والرياضة تحول دون الكثير من الإخفاقات والعثرات في قادم الأيام.

كم غبظت كل معلم مخلص، محب لعمله، وكم تمنيت لو اخترت مجال التعليم، فهو الأحب إلى قلبي، والأقرب إلى ميولي منذ أن كنت على مقاعد الدراسة، لكن الطموح طار بي إلى الفضاء. ألم أكن واحداً من المتنافسين على مقعد وحيد للصعود إلى الفضاء؟

أؤمن أن التعليم أعظم رسالة، لكن معظم من اشتغلوا فيه عندنا اتجهوا إليه، لأنهم لم يجدوا غيره. سرّ قوة الأمم في مدارسها وجامعاتها، وما تحويه من عقول، وما تقوم به من بحوث وأنشطة ثقافية وعلمية تحرك المياه الراكدة، وتضخ كل جديد في مختلف روافد الحياة.

صرت أحرص بعد تقاعدي على التمتع بما في الكون من

جمال، أحرص على الاحتفال بكلّ صباح، آخذ قهوتي وأشربها مع العصافير واليمام، أنتظر إطلالة الشمس بكل شوق، أقاسم الأرناب تفاحة الصباح، أملاً رثي من الهواء قبل أن تلوثه العربات، أمارس الرياضة أكثر من ساعة كلّ يوم، أستمتع بمشاهدة الغروب، خاصة وأنا أقف على مرتفع داخل المزرعة، أحرص على الذهاب إلى المزرعة في الليالي المقمرة، أحرص على اصطحاب من يشاركني رياضة المشي وصعود الجبال والتمتع بجمال الكون وروعته.

سنحت لي بعض الفرص التجارية لكنني اعتذرت بكلّ أدب، ليس لأنني لا أحب العمل والمال، لكنني لم أجد فيها ما يلبي طموحي ويساعد الناس، أريد عملاً محبباً إلى نفسي وأستمتع به، ومن خلاله أستطيع أن أساعد الآخرين، لكن لم أجده حتى الآن. أو من بأن العمل سرّ من أسرار الصحة والتمتع بالحياة، ألم تقل إيلانور روزفلت ذات مرّة: «إذا شعرت بالكآبة، أسارع إلى العمل»؟

آمنت أنه سيكون هناك صحوة، لكن ليست كسابقاتها، ستكون صحوة شعارها الاعتدال والتجديد والاجتهاد ونبذ التفرقة، صحوة لها ثقافة مغايرة لما نعيشه، صحوة ضد الفساد بأنواعه، والكسل والتواكل، وضد الخرافات التي يروج لها المتاجرون بسعادة الناس وصحتهم، صحوة تعيد إلى المرأة مكانتها، وإلى الفن الراقي قيمته ودوره البناء.

سيكون هناك تغيير نحو الأفضل في أمور، ونحو الأسوأ في أمور أخرى، سيأتي التغيير من الداخل والخارج، لكنه من الخارج أشدّ وأقوى، هذه القرية الكونية ستتداخل فيها المصالح والثقافات

شئنا أم أبينا، وكالأواني المستطرقة سيكون التأثير أقوى وأسرع من القوي إلى الضعيف.

سيظل التعليم الجيد أهم أسلحتنا للتغيير نحو الأحسن، لا عذر لنا في عدم اختيار أفضل الكفاءات للتعليم مع وفرة الخريجين من الجامعيين، ليُبنى الاختيار على أسس علمية في مدى ملاءمة المتقدم لرسالة التعليم، ولا عذر لنا في ترك مناهجنا دون تطوير وتغيير مستمر، ترك تأليفها للمختص في المادة فقط ينتج عملاً ناقصاً.

قد يأتي التغيير خلال سنوات وقد يحتاج إلى عقود لكنه آتٍ.

عشت أحداثاً كثيرة مهمة، عرفت من خلالها أن أسوأ القرارات وأكثرها تدميراً ما يقوم به الأقوياء، وكلما زادت القوة من غير ضوابط زاد الدمار. الزجّ بأمة كاملة في مغامرات غير مدروسة نتيجة قرار يتخذه شخص أو أشخاص يعد واحداً من أسوأ ما تعاني منه البشرية منذ وجودها، وأسوأ منها تطيل المثقفين واستبسالهم لتحسين صورة الظالم، وتضليل الرأي العام.

لن يكتب للأحزاب السياسية النجاح ما دامت تقوم على أسس دينية وقومية لأن ذلك يعني إقصاء الآخرين.

أن نحمل الآخرين مسؤولية إخفاقنا المتكرر لن يجدي مهما اجتهدنا في إبراز الحجج، ولو ظلت ألمانيا واليابان تلو مان أمريكا وحلفاءها على ما أصابهما من دمار في الحرب العالمية الثانية لما وصلا إلى ما هما فيه الآن من تقدم ورخاء. علينا أن نتعلم النقد الذاتي ونمارسه لما فيه مصلحة الأمة وأن نفرّق بينه وبين جلد الذات، لكنّ النقد الذاتي بحاجة إلى شروط من أهمها البدء بما في

داخل الإنسان، وإخلاص النية، وإشاعة جو الحرية وعدم الخوف من النتائج، ونبذ الأدلجة مهما كان مصدرها، قليل من المؤدلجين لديهم الشجاعة للتحويل إلى رأي أفضل إن رأوا فيه مخالفة لما يؤمنون به، بل ليس لدى أكثرهم مانع من ليّ عنق الحقيقة لإثبات أنهم على الطريق الصحيح.

أمور كثيرة ومواقف مختلفة مررت بها، لكنني أؤثر أن أدون أكثرها فائدة لغيري لعلمي أسهم في بناء أمة على أسس علمية، يتمتع أبناؤها بالقوة بكلّ ما تعنيه هذه الكلمة.

إذا فرّطنا في وسائل امتلاك القوة فسنسأل عنها يوماً ما كما ذكر تعالى في سورة التكاثر: ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلَنَ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ ما أكثر النعم التي نفرط فيها ولا نوليها اهتماماً! فالصحة نعمة، والمال نعمة، والقدرات الكامنة في عقولنا نعمة، والمواهب التي أودعها الله فينا نعمة، والإيمان نعمة، والأمن نعمة. فهل نستثمر هذه النعم ونقفز إلى مصاف الدول المتقدمة؟ أو نظلّ في آخر قائمة الدول؟ نصدّر إلى العالم قوارب مليئة بأنفس لم تجد الحياة اللائقة في بلادها. هل نظهر الدين على حقيقته: رسالة حب وتسامح ورحمة وعدل للجميع؟ أو نستمرّ في توظيفه للوصول إلى مناصب وغايات تشوّه الدين، وسيفاً مسلطاً على المخالفين؟

أهم أسباب القلاقل منذ بدأ الإنسان يعيش في جماعات ثم دول، هو الظلم الذي يقع على الإنسان من أخيه الإنسان، والتسلّط، وعدم العدل في توزيع الفرص والثروات، مما يؤدي إلى وجود طبقتين متباعدتين متضادتين، واحدة متخمة مبدّرة قليلة العدد، وأخرى معدمة كثيرة العدد.

من الأولى يأتي الفساد والإسراف والتبذير ومن الثانية يأتي الفقر والجهل والمرض والمخدرات والانفجار السكاني وما يتبع ذلك من مصائب وقلقل وأزمات .

معظم مصائب الدول والمؤسسات من سوء قاداتها وفسادهم وغياب ضمائرهم وعلى الأخص في العالم الثالث . هناك ندرة في القادة المتميزين في العالم أجمع لن يعالجها سوى تعليم متميز، واختيار أفضل لقادة المستقبل، ومرونة في التغيير، والمحاسبة لكل مقصر .

الأفكار العظيمة لها قدرة عجيبة على توجيه العالم، لكنها في حاجة إلى قادة عظام يؤمنون بها وينفخون فيها الروح ويتبنونها، لم يكن الرئيس أبراهام لينكولن والمهاتما غاندي والملك عبد العزيز والرئيس نلسون مانديلا إلا نماذج من هؤلاء القادة المتميزين في عصرنا الحديث . قائد مخلص يرقى بأمرته إلى مصاف الدول المتقدمة فيذكره التاريخ في صفحاته الخالدة، وقائد آخر لا ضمير عنده يهوي بها إلى مستنقع الفوضى والجهل والفقر فيضرب به المثل في سوء المنقلب .

تقاعدت قبل عامين من القوات المسلحة ثم تقاعدت مرة أخرى قبل شهرين فحزنت كثيراً، تقاعدت من خدمة والدتي التي انتقلت إلى رحمة الله . لأول مرة أحس أنني وحيد في هذه الحياة . كبرت كثيراً خلال أيام . غابت الأم التي كانت الأب والأخ أيضاً . في أيامها الأخيرة كانت تمسك بيدي بقوة وتقبلها أكثر من مرة ثم تضعها على خدّها فأحس بالدفء يسري في كل أنحاء جسمي .

ماتت في البيت قرية العين وأنا وأختي بجانبها، وغادرتها الحياة بكل هدوء. عملت وأعطت وتركت أثراً طيباً يذكره كل من يعرفها. لم تجزع من المرض ولم تكن عالية على أحد رغم اشتداد المرض وقسوته كانت نوراً يشع في أرجاء البيت وانظفاً فجأة. ظل كل من في البيت يذكرها بخير ويترحم عليها، وأكثر من بكائها، أحفادها الصغار وخاصة ابنتي نورة التي تحمل اسمها والكثير من صفاتها، وبكتها كثيراً خادمتها المخلصة التي كانت والدتي تعاملها بكل لطف ومحبة وكأنها واحدة من بناتها.

بعض الأسماء الواردة في هذا الكتاب من نسج الخيال وإن
تطابقت مع أسماء موجودة في الواقع.



عشت سعيداً

بأسلوب أدبي ممتع يكتب اللواء الطيار عبد الله السعدون رحلته من القرية، حيث لم يعرف سوى الدراجة، إلى قيادة طائرة مقاتلة. وهذه الرحلة تجتاز حقبة زمنية شهدت فيها المملكة العربية السعودية تغيرات كبيرة، كما تقدم وضعاً لحياة القرية التي عاش فيها طفلاً ويافعاً.

وهي رسالة تطرح أمراض المجتمع ومعوّقات التقدم، وتشرح أسباب السعادة والصحة في عالم مليء بالجهل والأوهام والأمراض، عالم مزقته الحروب وهذه الفقر.

لقد أراد الكاتب أن يقدم تجربة إنسانية تشجع على مواجهة مصاعب الحياة وتمنح الأمل، ولعلها تسهم في نجاح إنسان أو مساعدة مريض، أو رسم بسمته على شفتي يائس.

الناشر

اللواء عبد الله السعدون

- يحمل شهادة بكالوريوس علوم جوية مع مرتبة الشرف الأولى، 1972. وعلى ماجستير علوم عسكرية، عام 1987.

المناصب التي شغلها:

- مدرّس طيار، قائد سرب.
- مدير إدارة الحرب الإلكترونية.
- رئيس هيئة / قائد قاعدة.
- قائد كلية الملك فيصل الجوية.
- تقاعد عام 2006



ISBN 978-9953-68-347-6



المركز الثقافي العربي



الدار البيضاء: ص.ب. 4006 (سيدنا)

بيروت: ص.ب. 113/5158

www.ccaedition.com

markaz@wanadoo.net.ma

9 789953 683478